

مجلة التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

مجلد ١٢

تاريخ التعليم في الإسلام

تأليف

دكتور محمد عبد الحميد عيسى

مدرس التاريخ الإسلامي
كلية التربية - جامعة عين شمس

إشراف: دكتور لويس هوارث قرناشي

تقديم: دكتور عبد الفتاح عبود

الطبعة الأولى

١٩٨٢

مكتبة

أ.د. محمد عبد الحميد عيسى

الناشر

دار الفكر العربي

رسالة قدمت الى كلية الآداب في جامعة الأوتونوما بمدريد ،
للحصول على درجة دكتوراه الدولة في الآداب ، تحت اشراف الأستاذ
الدكتور لويس سواريث فرنانديث ، رئيس قسم التاريخ الوسيط
بالجامعة .

وقد نوقشت الرسالة في ١٧ مارس ١٩٨٠ ، ومنحت الرسالة درجة
الامتياز ، مع مرتبة الشرف الأولى .

وكانت لجنة الحكم على الرسالة تتكون من الأساتذة الدكاترة :

بدرو مارتينيث مونتانيث — لويس سواريث فرنانديث — السيد
عبد العزيز سالم — خوسيه باثكث — فينيت ألفاريث بالينثويلو .

وقد ترجمت الرسالة الى اللغة العربية ، لطبعها ، وأدخلت عليها
بعض التعديلات الطفيفة ، بناء على توجيهات الأساتذة المناقشين ،
وخاصة اقتراحات الدكتور السيد عبد العزيز سالم — كما أعيد ترتيب
الفصول ، مع المحافظة على مادتها العلمية — كما حذفت بعض الملاحق ،
التي يمكن حذفها ، تخفيفا من حجم الرسالة .

كان عنوان الرسالة التي نوقشت ، هو « تاريخ التعليم
في أسبانيا الاسلامية » ، ثم رأينا تحويله عند نشرها الى
« تاريخ التعليم في الأندلس » ، لاعتبارات كثيرة .

محمد عبد الحميد عيسى
رئيس قسم التاريخ
بمركز أبحاث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترقيها ، ففسقوا فيها »

فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً »

• (الاسراء — ١٧ : ١٦) •

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق •

اقرأ وربك الاكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان

ما لم يعلم » •

• (سورة العلق — ٩٦ : ١ — ٦) •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم : الدكتور عيد الفنى عبود

أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية المساعد

بكلية التربية جامعة عين شمس

لقد جرتنا نعيش في (عصر العلم) ، أردنا ذلك أم لم نردده ، وأحيينا ذلك أم كرهناه ، فالعلم ومنجزاته ، صار له يصمته الواضحة المتميزة ، التي (تفرض) نفسها على كل شيء في حياتنا ، وفيما نستخدمه من أدوات ووسائل ، في حياتنا اليومية .

ووصف عصرنا بأنه (عصر العلم) ، لم يأت من فراغ ، وإنما هو وصف (فرض) نفسه علينا ، يحكم الواقع الذي نحياه أمما وشعوبا ، كما نحياه أفرادا وجماعات ، فقد دخل العلم في (كل شيء) يحيط بنا ، وكان لدخوله هذا أثره ، سلبي وإيجابي ، ولكنه في الحالين قد دخل ، وصار (جزءا) من حياتنا ، لا يمكن أن ينفصل عنها ، حتى ولو أردنا أن نفصله ، وجاهدنا في سبيل هذا الفصل ، لأسباب كثيرة ، ليس هنا مجال ذكرها .

ومع تقدم العلم وازدهاره ، خاصة في النصف الثاني من هذا القرن العشرين ، كان لا بد من (تفتيت) العلم ، يعد أن كان هذا العلم في القرون السابقة ، يمتاز بأنه (كل واحد) ، لا يمكن أن (يتفتت) ، على نحو ما نراه اليوم .

ولا نتعرض هنا لقضية (تفتت) العلم هذه ، ومدى مالحق بالعلم

وبالحياة ، من جراء هذا التفتت ، من ويلات وكوارث ، فقد كان هذا التفتت ، شيئا انساق اليه العلم ، أو انجرف اليه ، على الرغم منه لأنه ضد طبيعته ، ولكنه كان ضرورة من ضرورات . . التقدم العلمى ، الذى كان يعنى (مزيدا من التخصص) ، ومزيدا من (التعمق) ، فى كل مجال من مجالات البحث والمعرفة .

ومع التفتت ، والتعمق ، انقسم (العلم) الواحد ، فصار علوما ، وانقسمت المعرفة ، فصارت معارف ، .

ومع التفتت ، والتعمق ، انقسم (العلم) الواحد ، فصار علوما ، وللمعرفة - أو للعلوم والمعارف ، اذا نحن أردنا الدقة فى التعبير .

ومع ظهور التصنيف ، ظهر (التفاضل) بين العلوم المختلفة ، فصارت هناك علوم نبيلة ، وعلوم أقل نبلا . . أو قل : صارت هناك علوم أساسية Fundamental ، وعلوم هامشية Marginal - أو قل ما شئت أن تقول ، فانها المأساة ، التى راحت تلقى بظلمها الثقيل على العلم والمعرفة ، بعد أن شيعت (وحدة المعرفة) ، الى مثواها الأخير ، وهددت - يتشييعها - الحضارة الانسانية المعاصرة ، أن تلحقها بها .

ومتطقى أن تكون أشرف هذه العلوم على الاطلاق ، فى الحضارة المعاصرة ، هى العلوم الطبيعية أو التجريبية ، وأن نجد الكثيرين يعتبرون العلوم الطبيعية أو التجريبية ، هى وحدها (العلوم الأساسية) ، وماعداها علوما هامشية . وهو أمر متطقى ، لأن الحضارة الحديثة ، حضارة تكنولوجية ، قائمة على المخترعات المادية ، وهذه المخترعات المادية ، هى الثمرة المباشرة للعلوم الطبيعية ، والتقدم فيها .

وبالرغم من أن مقتل الحضارة المعاصرة ، كامن فى نموها المادى هذا ، لأنه نمو تحقق على حساب نمو آخر ، فى مجالات الحياة الانسانية

الأخرى ، ومن ثم صار نموا مشوها ، شوه الحضارة المعاصرة ، وشوه الحياة الانسانية كلها ، فصارت — به — على شفا هاوية ... بالرغم من ذلك ، فان هذا التقدم — أو النمو — المادى ، كان هو المبرر الوحيد ، لما توفر لهذه الحضارة من امكانيات مالية ضخمة ، قفزت بالعلم والبحث العلمى ، قفزات متتالية ، كانت هى التى جعلت عصرنا هذا بحق ، هو (عصر العلم) .

ذلك أن الرأسمالية الصناعية ، وجدت فى العلم ملاذا لها ، ودرعا واقيا ، تضمن — به — نموها وازدهارها ، ومن ثم أنفقت على البحث العلمى بسخاء ، لأن مردود هذا الانفاق ، كان مضمونا .

ولولا (نفعية) العلم ، كما تبدت لهذه الرأسمالية الصناعية ، ما كانت هذه القفزة العلمية الهائلة ، وما كنا لنعيش اليوم ، فى (عصر العلم) .

واذا كان الاهتمام قد اتجه بالدرجة الأولى الى (العلوم الطبيعية) ، التى تترجم الى تكنولوجيا ، وبالتالي تحول الصناعات الصغرى الى صناعات كبرى ، كما تخول أصحاب الآلاف الى أصحاب الملايين ... فان العلوم غير الطبيعية — مهما كانت أسماؤها أو صفاتها — قد أتاحت لها فرص التقدم هى الأخرى ، بما توفر للعلوم الطبيعية ، من أدوات ومعدات ، أو فرض عليها هذا التقدم ، رغبة فيه ، أو مكرهة عليه ، فقد استفادت هذه العلوم ، بالحاسبات والعقول الالكترونية ، وبمنجزات علوم انفضاء ، وبالتقدم فى مجالات الكيمياء والتاريخ الطبيعى ، وبغيرها وغيرها ، وظهرت هذه الاستفادة واضحة ، فى علوم التاريخ واللغة والأدب وفى علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد والسياسة .. وحتى فى علوم .. الدين .

والذى يقرأ الكتابات الدينية الأخيرة ، فى المسيحية والاسلام على سبيل المثال ، يكاد أن يشفق مع (السلفيين) فى الدينين ، من امكانية (انجراف) الدين ، ليقع تحت سيطرة العلم فى النهاية ، بحيث يصير الدين فرعاً من العلم ، بينما ظل الدين طوال حياته ، أصلاً كاملاً •• العلم مجرد فرع من فروعه •



قسمت العلوم اذن ، على الرغم منها ، الى علوم نبيلة ، أو شريفة ، وعلوم غير نبيلة ، أو غير شريفة • والعلوم النبيلة ، هى العلوم ذات العائد المادى ، وكلما زاد العائد المادى ، زاد النبل والشرف ، وبقدر قلة العائد المادى ، تكون قلة النبل أو الشرف ، وإذا زال العائد المادى المباشر ، زال النبل والشرف تماماً •

وبهذا المقياس ، صارت الكيمياء والطبيعة والرياضيات ، هى أشرف العلوم على الاطلاق ، وصارت علوم اللغة والأدب والتاريخ وأشباهها ، علوماً لاصلة لها بالشرف ، ونالت علوم أخرى بعض الشرف ، كعلوم الاقتصاد والتخطيط والاجتماع ، بقدر ما تساهم فى تحقيق هذا العائد المادى ، وأن لم تصل فى شرفها هذا ، الى ما وصلت اليه أشرف العلوم — الكيمياء والطبيعة والرياضيات •

ومن الغريب ، أن الدين كان قبل العصور الحديثة ، يعد أشرف العلوم بلا منازع ، ولكنه انضم اليوم ، مع سطوة العلوم الطبيعية وجبروتها ، الى جملة العلوم غير الشريفة — هذا اذا أردنا أن نحافظ لهذا الدين على بغض هيئته ، فلم ننجرف مع المنجرفين فى تيار العلوم الطبيعية ، من علماء هذه العلوم ، ومن غيرهم من العلماء ، المنبهرين بهم وبعلمهم ، فنصفه — معهم — بأحط الصفات ، ونتجرأ على الله سبحانه ، لأنه (يستعصى) على التجريب ، حتى تراه ، ونقر بالتالى بوجوده •

وهذا الذى يقول به علماء العلوم الطبيعية فى الغرب الرأسمالى اليوم ، تصريحاً حيناً ، وتلميحاً حيناً آخر ، لا يرضى هؤلاء العلماء فى الشرق الشيعوى اليوم ، الا أن يقولوا به صراحة • وهو أمر منطقى ، لأن الحضارة الشيوعية ، ليست — كما يتوهم الكثيرون — مضادة للحضارة الغربية الرأسمالية ، بل هى ابنتها ، ومن ثم فإذا جاز (للأم) أن تكون مؤدبة مهذبة ، حكيمة فى اختيار اللفظ ، وكثرة استخدام المجاز والتلميح بدلا من التصريح ، فان البنت عادة ، بحكم نعومة الأظافر ، وفورة الشباب والحيوية ، لا تجد لديها استعدادا الا لأن تسمى الأشياء بأسمائها ، دون ما تضييع للوقت فى استخدام المجاز ، وفى التلميح بدلا من التصريح •

والدين عند الشيعويين ، هو (أفينون الشعوب) ، ومن ثم فهو ليس مجرد علم غير شريف ، كعلوم اللغة والأدب والتاريخ وأشباهها ، وانما هو من العلوم المذمومة ، تماما. كما كانت الفلسفة عند الامام الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ — ١١١١ م) ، لظروف المجتمع الاسلامى (الخاصة) ، فى عصر الغزالى (القرن الخامس الهجرى = الثانى عشر الميلادى) — تلك الظروف ، التى دفعت بالفلسفة الى قمة عالية ، زادت من (حجمها) الذى يجب أن تكون عليه ، ومن ثم (هددت) (بعدم التوازن) ، فى البنية العلمية ، كما يريد بها الاسلام •

ويزيد من مغالة الشيعويين ، فى اللط من شأن الدين ، أن (الشيوعية) ذاتها ، قد صارت ديناً ، له كتبه ، وله شرائحه ومفسروه ، وله كهنته ، الساهرون عليه ، وله نظمه وقوانينه ، وله طرقه فى الثواب والعقاب ، وله — بالتالى — جنته وناره • أى أن الشيوعية قد صارت عند الشيعويين ديناً ، له كل مقومات الدين ، ومن ثم كان لابد من ازاحة

كل صور (الشرك) ، التى يراها هذا الدين ، حتى تخلو له الساحة ،
فيصول فيها ويجول .

وفى ضوء (الدين الجديد) (الشيعوية) ، صيغت خطوط الحياة ،
فى المجتمعات التى أخذت بها ، أو فرضت عليها بعبارة أصح ، واستعد
العلم ذاته ، ليقوم بدوره فى تشكيل الحياة ، وفق هذه الخطوط ، وصار
هناك (علماء شيوعيون) فى كل المجالات ، يتميزون عن غيرهم من العلماء
فى البلاد الأخرى ، غير الشيعوية .

وسمعنا بعد ذلك — عن كيميائ شيوعية ، وطبيعة شيوعية ، ورياضة
شيوعية وغيرها ، فى مقابل الكيميائ الرأسمالية ، والرياضة الرأسمالية ،
وغیرها .

أى أن الشيوعية — ابنة الرأسمالية — لم تهاجم الدين ورجاله ،
بشكل مطلق ، وإنما هى هاجمت كل دين مناهض لدينها ، وكان
نصيب ديانات السماء — وعلى رأسها الاسلام — من هذا الهجوم ،
هو .. نصيب الأسد .

وما حدث على الساحة الشيوعية ، حدث شئ مثله ، قبله ، على
الساحة الرأسمالية .

ذلك أن المسيحية هوجمت ، عندما كانت تقف فى وجه العلم ،
وبالتالى فى طريق التقدم المادى .

وعندما استطاعت المسيحية أن (تطور) نفسها فى الغرب ، على
نحو ما سنرى فيما بعد ، عند حديثنا عن الإصلاح الدينى ، ودواعيه ،
بحيث صارت فى خدمة (الحياة) فى الغرب ، حافظت على قيمتها كعلم ،
وحافظ رجالها على قيمتهم كعلماء .

ألم تكن (جيوش) المبشرين ، تسبق الجيوش النظامية ، الى أفريقيا وآسيا ، لنمهد (التربة) للجيوش الغازية ، التي جاءت لتؤمن موارد المواد الأولية ، اللازمة لخدمة الصناعة الغربية ، ولتؤمن الأسواق لهذه الصناعة أيضا ؟

* * *

وكما قسمت العلوم الى علوم شريفة ، وعلوم أقل شرفا ، وعلوم لا تنتسب الى الشرف اطلاقا ، بل تنتمي الى نقيضه — قسم العلماء مثل هذا التقسيم ، فصار العلماء المتخصصون في العلوم الطبيعية ، علماء من (طينة) خاصة ، غير الطينة التي تشكل منها غيرهم من العلماء .

لقد صار هؤلاء العلماء ، طبقة (كهنوتية) جديدة ، لها كلمتها التي لا ترد ، في ميادين الصناعة والزراعة والانتاج والخدمات — أى في مجالات تخصصها ، وفي المجالات التي تتصل بمجالات التخصص تلك ، من قريب ، أو من بعيد .

وبمقدور هؤلاء العلماء ، أن (يستعينوا) بغيرهم ، في مجالات التخصص الأخرى ، على طريق (فريق البحث) الذي بدأ يفرض نفسه على مجالات العمل العلمي في البلاد المتقدمة ، ولكن الكلمة تظل كلمة هؤلاء العلماء المتخصصين في مجالات العلوم الطبيعية ، ويظل الرأي رأيهم ، ويظل رأي غيرهم ، مجرد رأي (استشاري) ، قد تكون له قيمة ، وقد لا تكون .

ولابد أن يكون هناك احساس (بالدونية) ، ينمو مع الزمن ، في قلوب هؤلاء العلماء ، المتخصصين في غير العلوم الطبيعية ، في البلاد المتقدمة ، نحو العلوم الطبيعية وعلمائها ومناهجها ، وهو غير الاحساس

بالدونية ، الذى ينمو مع الزمن ، فى قلوب العلماء على وجه العموم ، فى البلاد المتخلفة ، ومنها بلادنا للأسف الشديد ، لأن كل الأبواب توضع فى وجوههم لأسباب كثيرة ، فى الوقت الذى تفتح فيه على مصاريعها ، أفئات معينة ، (مؤهلاتها) ، أنها لا تنتمى الى العلم بجميع فروعهِ وتخصصاته ، اما لعجز فى تكوينها ، حال بينها وبين التزود به ، واما لمزيد من الكمال فى هذا التكوين ، دفعها الى أن توفر ما لديها من عقل ، وقدرة على التفكير ، لاستغلالها فيما (يفيد) ، من تجارة رائجة ، أو نفاق ورياء للهيئة الحاكمة ، أو هز البطون ، تهتر معه الجيوب المكتظة ، وما أكثر الجيوب المكتظة فى هذه المجتمعات ... فتسيل برذا وسلاما ، على من يملكن هذه البطون ، القادرة على الاهتزاز — وبقدر قدرتها على الاهتزاز تزداد سيولة هذه الجيوب .

والاحساس بالدونية ، الذى ينمو مع الزمن ، فى قلوب العلماء ، المتخصصين فى غير العلوم الطبيعية ، يشترك فى زرعه ، كل علماء البلاد المتقدمة ، فالعلماء المتخصصون فى العلوم الطبيعية ، (بيدعون) بزرعه ، ليرضوا غرورهم الشخصى ، وليلملثوا — مع هذا الغرور — جيوبهم ، من أموال الشركات الصناعية الضخمة ، التى آمنت بهم وبقدراتهم ، واختارتهم عن رضا وطواعية — كهنة لها ، مسموعة كلمتهم : بل مقدسة هذه الكلمة .. ثم يأتى العلماء المتخصصون فى غير العلوم الطبيعية ، فيقبلون الزرعة ويباركونها ، حتى تنمو فى قلوبهم وتترعرع ، ثم تؤتى ثمارها .

وهل هناك من ثمرة ، يمكن أن يجنيها العلماء ، المتخصصون فى العلوم الطبيعية ، أشهى من تلك الثمرة ، التى نراهم فيها يعتبرون العلم ، هو العلم الطبيعى وحده ، والمنهج العلمى ، هو المنهج المستخدم ، فى العلوم الطبيعية وحدها ؟ .

ولقد كانت دهشتى شديدة ، عندما علمت وجهة النظر الغربية تلك ، في أثناء دراستى للدكتوراه ، حيث كان موضوع الدراسة ، هو (دراسة مقارنة ، لنظام البحث العلمى ، في جمهورية مصر العربية ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى) (١) ، وحيث اضطرت الى الوثوق على (معنى العلم) ، و (معنى البحث العلمى) ، و (مناهج البحث العلمى) ، وغيرها من القضايا ، التى تتصل من قريب أو من بعيد ، بعنوان الدراسة •

ثم زادت دهشتى ، عندما وقع بين يدى (دليل البحوث العلمية) ، فى أكثر من هيئة علمية ، فى مصر والخارج ، فاذا بالدليل لا يضم أكثر من البحوث التى تمت ، فى مجال العلوم الطبيعية — التجريبية المنهج •

وأشهد ، لقد وقعت عينى على وجهات نظر مضادة ، ترى (الصلة العضوية) ، بين العلوم الطبيعية والعلوم غير الطبيعية ، وترى استحالة الفصل بين النوعين من العلوم • وكان يقول ببعض وجهات النظر تلك ، علماء متخصصون فى العلوم الطبيعية ذاتها ، وكان يقول بأكثرها علماء متخصصون ، فى العلوم غير الطبيعية •

ومن ثم كانت وجهات النظر تلك ، مما يضر بالقضية — قضية البحث العلمى ، أكثر مما ينفعها •

ذلك أن الانسان كان لا يملك الا أن يحس ، بأن من قالوا بوجهة النظر تلك ، كانوا يقولون بها من باب (الاشفاق) على زملائهم من

(١) نوقشت الرسالة فى مايو سنة ١٩٧٢ ، فى كلية التربية بجامعة عين شمس ، حيث سجلت الدراسة •

العلماء المتخصصين في غير العلوم الطبيعية ، أكثر مما يقولون بها من باب (احقاق الحق) وحده ، اذا كان هؤلاء القائلون ، من المتخصصين في العلوم الطبيعية ، أو من باب (أن يكون لهؤلاء العلماء مكان تحت الشمس) ، اذا كان هؤلاء القائلون ، من المتخصصين في العلوم غير الطبيعية .

وقليلة تلك المحاولات الجادة في هذا المجال ، التي قام بواحدة منها ، على سبيل المثال ، لا الحصر ، الدكتور عبد الرحمن بدوى ، في كتابه (مناهج البحث العلمى) ، وقسمها الى ثلاثة مناهج رئيسية ، هي : المنهج التجريبي ، أو منهج الاستقراء (منهج العلوم الطبيعية) ، والمنهج الاستدلالي ، أو الرياضى (منهج العلوم الرياضىة والأخلاقيّة ، والفلسفة والمنطق) ، والمنهج الاستردادى ، أو التاريخى (منهج التاريخ) ، ثم أضاف اليها منهجا مساعدا ، لكل منهج من المناهج الثلاثة السابقة ، هو (المنهج الجدلى) — منهج التمازج بين العلماء ، المتخصصين في سائر العلوم ، الذى لا يستخدم وحده ، وإنما يستخدم (مع) منهج آخر ، من المناهج الثلاثة الرئيسية .

ولكننا لا يمكن أن ننسى هنا ، أن الدكتور عبد الرحمن بدوى ذاته ، من العلماء المتخصصين في مجال الفلسفة ، ومن ثم فإن محاولته يمكن أن تحسب عليه ، لا له . . ويمكن أن تفسر على أنها محاولة يريد بها أن يجد لنفسه مكانا تحت الشمس أيضا ، أكثر مما يريد أن يحقق حقا .

أما معظم المحاولات ، التى تمت في هذا المجال ، فقد كانت محاولات (استخدام) المنهج التجريبي ، في العلوم التى لا تحتل هذا المنهج ، ولا يناسبها استخدامه .

ومن ثم تركّز جهد العلماء المتخصصين في غير العلوم الطبيعية، في افتراض الفروض، والتأكد من صحتها، من خلال التجريب عليها، بهدف الوصول الى (قوانين عامة)، تحكم الحياة في مجال التخصص، الذي يسعى العالم الى (النهوض به)، من خلال (اصطناع) خطوات (المنهج التجريبي)، الذي يستخدم في العلوم الطبيعية — ظانين بذلك أنهم بدون اصطناع هذه الخطوات، لا يمكن أن تكون علومهم علوما، ولا أن يكونوا هم علماء، وناسين أنهم — بذلك — يضرّون أنفسهم، بشهادتهم على أنفسهم (بالدونية)، التي يحسون بها، كما يضرّون، بمجالات تخصصهم، التي (تستعصى) — بطبيعتها — على هذا المنهج التجريبي، وخطواته •

واذا كان هذا (الاضرار) قد غدا واضحا في (علم النفس)، أكثر العلوم الانسانية اصطناعا للمنهج التجريبي وخطواته، حتى تقسم الى مدارس عدة، لا يربط بينها الا رابطة واحدة، هي اللعن المتبادل، بين كل مدرسة منها، وغيرها من المدارس، وحتى يبدأ المخلصون من علمائه، يشكون في علم النفس ومعطياته، ويفكرون في (منهج) جديد، يصطنعونه، يحفظ على هذا العلم رونقه، وعلى المتخصصين فيه كرامتهم •• فان (جرثومة) علم النفس، قد انتقلت الى غيره من العلوم الانسانية، ولو بصورة أخف، فرأينا علم الاجتماع يسلك نفس السبيل، كما رأينا التربية — وبينها وبين علم النفس صلة رحم لا تنكّر — تسلك نفس السبيل أيضا، وان كان بغض المتخصصين فيها، قد بدأ يستفيد (بتجربة) علم النفس، وما أصابه بسببها، فراح ينادى بالبحث عن سبل أخرى، تجعل من التربية (علما)، غير سبيل التجربة هذا •

واذا كان صوت هؤلاء المتخصصين في التربية، الداعين الى

العودة ، هو الصوت الضعيف الخافت ، الضائع في بحر لجى ، من الأصوات الداعية الى السير في الطريق الى نهايته .. فان كل الدلائل تؤكد على أن المستقبل لها ، لا لأولئك المحسين بالدونية ، الذين يريدون أن يصلوا من أقرب طريق الى شرف العلم ، ناسين أن طريق العلم كله ، طريق شائك ، كله صعب ومخاطر .

وطريق العلوم الطبيعية ذاته ، ومن سقط عليه من شهداء ، قبل الثورة الصناعية ، خير دليل على هذه الصعاب والمخاطر .. والأشواك ، التي تعد شرطا أساسيا للنجاح ، في مجالات العلم على وجه الخصوص .



والعلوم الطبيعية ، كالعلوم غير الطبيعية ، علوم اسلامية الأصل ، انتقلت من الشرق الى الغرب ، عبر الأندلس — موضوع كتابنا هذا — ولولا المسلمون ، ما كانت حضارة الغرب المعاصرة ، باعتراف المنصفين من أبناء الغرب أنفسهم .

وإذا كانت الحضارة الاسلامية ، قد قامت في جزء كبير منها ، على ما ورثه المسلمون في البلاد التي فتحوها ، من حضارات قديمة — فارسية وفرعونية وفينيقية وآشورية وبابلية وهندية وصينية ... واغريقية ، ورومانية — فانه لولا الاسلام ، وإيجابية حضارية فيه لا تنكر ، لماست هذه الحضارات ، ولتحولت معطياتها الى متحف التاريخ .

ولكن الاسلام ، كان هو النظام الوحيد ، الذى وهبها الحياة ، فاستمرت ، ثم اكتسبت (روحا) جديدة ، استطاعت بها أن تنمو وتزدهر . ويكفى أن الحضارتين اليونانية والرومانية ، قد ماتتا تماما في بلادهما ، في ظل المسيحية ، حيث اعتبرت علومهما علوما وثنية ، وأن الغربيين بعد

الإصلاح الدينى ، لم يستطيعوا فهم علوم الأجداد ، الا من خلال عرض المسلمين لها ، وشرحهم اياها •

والعلماء الغربيون المنصفون ، يعترفون (بالأصل) الاسلامى ، لحضارتهم المعاصرة ، ولو أن هؤلاء العلماء الغربيين المنصفين ، قليلون • أما العلماء الغربيون غير المنصفين ، فانهم لا يرون للمسلمين فضلا عليهم ، بحجة أن الحضارة الاسلامية ، لا تغدو أن تكون حضارة (تلفيقية) ، ومن ثم فان ما أخذه الغرب عن المسلمين ، لا يعدو أن يكون العلوم الاغريقية والرومانية ، ومن ثم أيضا ، فهي بضاعتهم ردت اليهم ، ناسين في ذلك تلك الحقيقة التاريخية ، التى أشرت اليها من قبل ، والتى يقول بها المنصفون منهم •

وقد فتح المسلمون الأندلس كما هو معروف ، فى منتصف الدولة الأموية (٤١ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٤٩ م) ، وعلى وجه التحديد ، سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) • وما هى الا قرون معدودة ، حتى كانت الأندلس قد صارت (المنارة) العلمية الوحيدة فى الغرب ، وكانت قيمتها الحقيقية تكمن فى أنها كانت بمثابة (المعبر) الحضارى الأساسى ، للحضارة الاسلامية ، من الشرق ، الى الغرب •

وقد قامت الأندلس ، (كمعبر) حضارى ، بدورها هذا ، على خير وجه ، حتى قبل أن تكتمل (ملامح) العلم الاسلامى ، و (ملامح) الحضارة الاسلامية ، بحيث صار مؤكدا للغرب — كنياسة ودولة — أن الأندلس الاسلامية ، هى أكبر خطر يهدد الغرب المسيحى ، ومن ثم قامت استراتيجية الغرب فى العصور الوسطى ، على أساس القضاء على الاسلام فى الأندلس ، لأن غزوه لها ، يعنى غزوه للمسيحية ، فى عقر دارها ، أو فيما تبقى لها من دار ، بعد أن أزاحها من موطنها الأول ، فى فلسطين ومصر •

ولما نجحت الاستراتيجية الغربية/المسيحية الحاكمة ، في
الأندلس ، أرادت أن تتم مسيرتها ، بغزو الاسلام في الشرق ، فكانت
سلسلة الحروب الصليبية ، التي أخفقت في الشرق عسكريا وان نجحت
في الأندلس • • •

وبدا دور الأندلس ، كمعبر حضارى ، أول ما بدا ، في ذلك (التمرد)
ضد الكنيسة ، وما تفرضه على عقول الغربيين من حجر ، مع القرن الثانى
عشر الميلادى تقريبا — ذلك (التمرد) ، الذى تصدى له القديس توماس
الأكوينى St. Thomas Aquinas (١٢٢٧ — ١٢٧٤ م) ، عندما استنفل
أمره — تصدى له من خلال ما عرف فيما بعد ، بالحركة المدرسية ، التى
سعت الى منطقة الدين المسيحى — أى إخضاعه لأحكام العقل والمنطق ،
وقد كان قبل توماس الأكوينى ، يستعصى على العقل ، كما يستعصى على
المنطق ، مما جعل عدد من وصفتهم الكنيسة بالالحاد والهرطقة ، يتزايد
عاما بعد عام ، وكان كل جرمهم ، أنهم كانوا يفكرون •

وكان توماس الأكوينى يخشى على المسيحية ، اذا هى ظلت
على خصومتها للعقل بالفعل ، أن يجد العقل الأوربى راحته وطمأنينته ،
في • • • الاسلام ، الذى يحمى العقل بالفعل ، فى قطعة من أوربا ، هى • • •
الأندلس •

وكان لروجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤ — ١٢٩٤ م) ، معاصر
توماس الأكوينى ، رأى آخر فى القضية — قضية الهروب من المسيحية الى
الاحاد والهرطقة ، وهو نزعة الكنيسة الميتافيزيقية ، أو الغيبية • ومن
ثم كان هجومه على الحركة المدرسية ، وكان اتهامه للمدرسين ، بأنهم
يحولون بين الناس ، وبين الحقيقة ، كما كانت الكنيسة تفعل ، مما أدى
الى التمرد عليها •

أما الحقيقة عنده ، فهى الحقيقة كما نقلها من علماء العلوم الطبيعية

المسلمين ، وعلى رأسهم عالم الطبيعة المشهور ، الحسن بن الهيثم (٩٦٥ — ١٠٣٩م) ، الذي أعجب به روجريكون كثيرا ، وأعجب بمنهجه العلمى الذى اتبعه . وهذه الحقيقة ، هى الحقيقة كما تكمن فى العالم المادى ، كما يراه الانسان ويعيشه ، والمنهج الموصل اليها ، هو المنهج التجريبي ، الذى يعتبر روجر بيكون ، ناقله الأساسى ، من العالم الاسلامى ، الى الغرب .

ولقد كانت ميتا فيزيقية توماس الأكويني ، وفيزيقيه معاصره روجر بيكون ، هما الأساس الذى قامت عليه حركة التطور فى الغرب بعدهما . فعلى أساس ميتافيزيقيه الحياة ، مع عقلانيته ، قامت أفكار الإصلاح الدينى ، كما بلورها مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦ م) ، بعد قرنين ونصف قرن ، من توماس الأكويني (١٥١٥ م) ، وبها هدم الفكرة المسيحية ، كما ظلت الكاثوليكية تعتقدها حتى اليوم ، ومن ثم اعتبر هو واتباعه من البروتستانت كفاراً ، شأنهم شأن غيرهم من الكفار والملحدين .

وعلى أساس فيزيقيه الحياة ، تفجرت الثورة الصناعية ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، فى البلاد البروتستانتية وحدها ، دون البلاد الكاثوليكية . وهى لم تتفجر هناك ، الا بعد قرنين من الزمان تقريبا ، من العمل الشاق والمضنى قبل أن يجنى الغربيون ثماره ، فى هذه . . الثورة الصناعية .

ومع تفجر الثورة الصناعية ثبت الاحساس فى بلاد الغرب ، بإمكانية (الانجراف) فى طريق الفيزيكا ، انجرافا يهدد الحضارة ، ومستقبل البشر . وليست (صرخة) جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨ م) ، بالعودة الى الطبيعة ، كما تمثلت فى قصته (اميل) Emile ، الا لونا من ألوان هذا (التخوف) ، ولكن أحداً من الأوربيين لم يسمع (الصرخة) ،

ولكنهم اليوم ولاشك ، يرون (الاحتجاجات) على هذا المنحى الفيزيقي العنيف ، متمثلة في (هروب) جان بول سارتر الوجودي ، ذهنيا من المجتمع — أو في الهروب الفعلي للخفافس ، الى الطبيعة — أو هروب الأب جونز وزفاته من الحياة كلها ، أو هروب مجتمعات الغرب كلها من الواقع ، الى ضباب المخدرات ، أو الجنس .. أو الجريمة — وناهيك عن الانتحار ، الذي صار (سمة العصر) ، في هذه المجتمعات الغربية ... المتقدمة .



ولكن العلوم الطبيعية برغم ذلك ، تحتل المرتبة السامية ، في قائمة العلوم ، في الحضارة الغربية المعاصرة ، ولها من عائدها المادي ، ما يبرر لها مرتبتها السامية التي تحتلها .

ويحتل المنهج التجريبي ، الذي تعتمد عليه هذه العلوم ، في اثبات وجودها ، منزلة خاصة هو الآخر ، في هذه الحضارة ، وهو يستمد منزلته تلك ، من العلوم التي تعتمد عليه في بحثها العلمي ، وما عادت به هذه العلوم على الغربيين ، من مكاسب مادية يجني ثمارها هناك الجميع .

ولكن ذلك كله لا يبرر للمتخصصين في العلوم غير الطبيعية ، أن يحسوا (بالدونية) ، على هذا النحو المشين ، ولا أن يتتبعوا خطى العلماء التجريبيين ، ولا أن يصطنعوا مناهجهم ، لأن ذلك لا يعني إلا شيئا واحدا ، وهو أن (الهوة) بين العلوم الطبيعية ، والعلوم غير الطبيعية ، ستزداد اتساعا ، بدلا من أن تضيق ، مما يعد أكبر تهديد للحضارة ذاتها ، وللعلوم الطبيعية والتقدم فيها ، لأن استمرار التقدم في العلوم الطبيعية ، رهق باستمرار التقدم الحضاري ، الذي لا يمكن

أن يكون ، إلا بالتوازن الواجب ، بين النواحي الفيزيائية والنواحي الميتافيزيقية ، في هذه الحضارة .

وهذه (الهوة) لا يمكن أن (تضيق) فيكون في ضيقها فرج على الحضارة المعاصرة ، إلا إذا ارتقت العلوم غير الطبيعية ، ووصلت — في مناهجها — الى درجة كبيرة من الدقة والاتقان ، التي تميزت بها مناهج العلوم الطبيعية ، وبذلك — وحده — يزول (الاختلال) في التوازن ، بين العلوم الطبيعية ، والعلوم غير الطبيعية ، ويكون في زوال هذا الاختلال .
•• الفرج •

ولا يمكن أن ترتقى العلوم غير الطبيعية ، ما لم تكن لها مناهجها في البحث ، للقادرة على الوفاء بمتطلباتها ، والمتمشية بالضرورة ، مع طبيعة كل علم منها . . . لا تلك المناهج (المسوخة) ، التي لا تتصل بها ، وإنما كل همها — أو هم مصطنعها — أن يجعلوها صورة (مشوهة) .
لناهج العلوم الطبيعية •

ولا يمكن أن تنكر أن العلوم الطبيعية ، هي بالفعل علوم أساسية Fundamental ، إذا كان وصفها بأنها أساسية ، يعنى أنها علوم ، يعتمد عليها غيرها ، ولا تعتمد هي على غيرها . . لا على أنها هي وحدها العلوم ، أو العلوم الشريفة والفاضلة ، المتميزة على غيرها من العلوم (١) •

ورغم ذلك ، فقد ظهر من بين هذه العلوم الطبيعية ، علوم غير أساسية ، بمعنى أنها علوم لا تتمتع (بالاستقلالية) ، التي تتمتع بها

(١) أرجع الى ما قلناه عن تقسيم العلوم ، في مطلع هذا التقديم ص ٦ من الكتاب .

العلوم الأساسية ... وأوضح النماذج عليها في هذا المجال : الكيمياء الحيوية ، انتهى (تعتمد) على التاريخ الطبيعى وعلى الكيمياء ، معا — أو الكيمياء الذرية ، التى تعتمد على الكيمياء ، وعلى الطبيعة ، وغيرهما •

وأكثر من ذلك ، أننا يمكن أن نعتبر كل علم من هذه العلوم الأساسية ، أساسيا من وجهة نظر ، وغير أساسى من وجهة نظر أخرى • قال كيمياء أساسية ، بالنسبة لمن يبحث في الكيمياء ، ولكنها لا تعد أساسية ، بالنسبة لمن يبحث في الطبيعة ، أو في التاريخ الطبيعى ، في مجال بحث يتصل بالكيمياء ... وهكذا •

وما يقال عن الكيمياء ، يمكن أن يقال عن الطبيعة ، وعن التاريخ الطبيعى ، بطرق أخرى كثيرة •

ومن هذه الزاوية ، يمكن أن نرى أن كل العلوم ، فيها جانب أساسى ، وفيها جانب غير أساسى — وأن (التداخل) بين العلوم ، قد عاد من جديد ، يفرض نفسه على العلوم ، بعد شوط طويل قطعه العلم ، على طريق الاستقلالية ، وانتفتت (١) ... حتى وصل الى طريق مسدود ، لم يكن قادرا على أن يخرج منه ، الا بالعودة الى هذا (التداخل) — أو (التكامل) — بعبارة أصح — بين مختلف فروع العلم •

ورغم ذلك ، تظل هناك علوم ، (تغلب) عليها صفة (الأساسية) تلك ، وعلوم أخرى ، تغلب عليها صفة (الفرعية) ، أو (التبعية) •

فإذا كانت الكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى ، يمكن أن تكون (علوما أساسية) في بعض المجالات ، و (فرعية) ، أو (تابعة) في مجالات أخرى ، فإن الصفة (الغالبة) على هذه العلوم ، هى صفة

(١) ارجع الى هذه القضية في مطلع هذا التقديم ، ص ٥ ، ٦ من الكتاب •

(الأساسية) ، بينما نجد علوما أخرى ، تغلب عليها صفة (التبعية)
أو (الفرعية) ، بالنسبة لها ، كالصيدلة ، والطب في كثير من جوانبه ،
وغيرهما •

وإذا عدنا من هذه المجالات ، إلى مجالنا نحن — مجال التربية —
لوجدناه أكثر المجالات (فرعية) أو (تبعية) ، أو أن شئت فقل
(ذيلية) ، بالرغم من أن مثل هذا الكلام ، يغضب كثيرا ، أولئك الذين
(يدافعون) عن التربية (كعلم) ، ويريدون أن يقحموها في
(جملة العلوم) ، حتى يكتسبوا لها احتراماً ، ويكتسبوا لأنفسهم —
من خلالها — مكاناً تحت الشمس (١) •

ذلك أن علماء التربية ، لم يستطيعوا يوماً — ولن يستطيعوا —
أن يتحدثوا عن (التربية) في فراغ ، وإنما هم يتحدثون عنها ،
وأعينهم على بعدين اثنين ، لا بعد واحد : —

— أما أول البعدين ، فهو الطفل المتعلم ذاته •

— وأما ثانيهما ، فهو المجتمع ، الذي يعد الطفل ، ليعيش فيه •

ولا يستطيع علماء التربية ، أن يتحدثوا عن (الطفل المتعلم) —
موضوع التربية الأساسي — الا وفق معطيات الطب والتاريخ
الطبيعي ، ووفق معطيات علم النفس ، الذي يعتبر في حد ذاته —
علماً وسيطاً ، بين الطب والتاريخ الطبيعي من جهة ، والتربية من
جهة أخرى •

وبدون الاعتماد على معطيات هذه العلوم ، تكون النظرة غير

الصحيحة الى الطفل — موضوع التربية ، ويكون الاخفاق والفشل
مقدما •

كما لا يستطيع علماء التربية ، أن يتحدثوا عن فلسفة التربية
وأهدافها ، ووسائلها لتحقيق هذه الأهداف ، ومناهج التعليم التي
تدرس ، وطرق هذه التدريس ، الا وفق صورة (اجتماعية) معينة ،
ينصدها علماء التاريخ والسياسة والاقتصاد والدين ، ووفق
معطيات علم الاجتماع ، الذي يعتبر في هذا المجال أيضا — علما
وسيطا بين التاريخ والسياسة والاقتصاد والدين من جهة ، والتربية
من جهة أخرى •

بل ان التربية تعتمد على بعد ثالث ، غير مرئى ، في تحديد
ما تعلمه للأطفال ، وكيف تعلمهم اياه — وهو معطيات
العلم الطبيعي ، في مجالات الكيمياء والطب والهندسة والتاريخ الطبيعي
وغيرها — وكذلك معطيات علوم اللغة والأدب والجغرافيا وغيرها •

واذا كانت التربية كعلم ، لا يمكن أن تقوم ، الا على (أكتاف)
كل هذه العلوم — فهل يمكن أن ندعى بأن التربية علم مستقل ، قائم
بذاته ، شأنه في ذلك شأن العلوم الطبيعية المختلفة ، ونكون محقين
فيما ندعيه ؟

وهل يخدم مثل هذا الادعاء قضية التربية ، أم تراه يلحق بها
أضرارا فادحة ؟

* * *

علي أن الحديث عن التربية ، بهذا الشكل العام ، ليس دقيقا ، لأن
التربية لم تعذ اليوم ، كما كانت قبل القرن العشرين ، (علما واحدا) ،
وانما أصابها ما أصاب غيرها من العلوم ، من التفتت والانشطار ،

بغض النظر عن آثار التفتت والانشطار تلك ، سلبا أو ايجابا — فصارت
هناك فلسفة تربية ، وتاريخ تربية ، وتربية مقارنة ، ومناهج ، وطرق
تدريس وإدارة تعليمية ، وإدارة مدرسية ، واقتصاديات تعليم ، وتخطيط
تعليمي ، وتعليم كبار — والبقية تأتي •

وإذا كان التجريب يبدو مستحيلا ، في مجالات كالفلسفة التربية ،
والتربية المقارنة ، وتاريخ التربية ، فإنه يبدو مطلوبا — بل ضروريا — في
مجالات ، كالمناهج وطرق التدريس ، ويبدو ممكنا في مجالات ، كالإدارة
المدرسية ، ومشكوكا في جدواه ، في مجالات كالإدارة التعليمية
واقتصاديات التعليم ، والتخطيط التعليمي ، بل لعله يكون مدمرا في
المجالات الأخرى •

ورغم ذلك فالتربية كلها ، علم تجريبي ، بمعنى آخر من معاني
التجريب ، هو التجريب في الماضي •

وفي تصوري ، أن القيمة الحقيقية للتاريخ ، بالنسبة للعلوم
الإنسانية ، والتربية واحدة من هذه العلوم ، وكذا علم النفس ، مضافا
اليهما الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها ، هي أنه يقوم بنفس الدور ،
الذي يقوم به التجريب ، في العلوم الطبيعية •

وإذا كان التجريب على مستوى العلوم الطبيعية ، تجريبا على
(الحاضر) ، فإن التجريب على مستوى العلوم الإنسانية ، يبدو
تجريبا على (الماضي) — ماضى الانسان ، وتعامله مع الناس
والأشياء ، ونتيجة هذا التعامل ، في كل حالة من الحالات •

والمنهج التجريبي ، إذا طبق على العلوم المختلفة ، بمفهوميه
هذين ، فإنه يكتسب سعة ورحابة ، تمكنه من أن يسعها جميعا ، أما

لو طبق عليها ، بمعنى التجريب على الحاضر وحده ، فانه يكون — كما نراه اليوم — غير قادر على أن يقوم بدوره .. في العلوم الانسانية .

ذلك أن الانسان — موضوع العلوم الانسانية — فردا وجماعة — يستعصى على التجريب ، ولكن (تجارب) (ماضيه) ، يمكن أن تقوم بنفس الدور ، الذى تقوم به تجارب (الحاضر) ، على الحيوان والنبات والمادة .

وإذا كان الهدف النهائى من التجريب فى العلوم الطبيعية ، هو الخروج (بقوانين) عامة ، تحكم ظواهر الحياة ، فقد كان ذلك هو ما فعله ابن خلدون ، من خلال دراسته للتاريخ ، وتتبعه لقيام الحضارات وسقوطها ، حتى خرج بتلك القوانين التاريخية ، الشبيهة بالقوانين ، التى تفخر بها العلوم الطبيعية ، وتحسدها عليها — من أجلها — العلوم الانسانية .

وهذا الذى فعله العلامة العربى المسلم ، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٣ — ٨٠٨ هـ = ١٣٣١ — ١٤٠٥ م) ، منذ قرابة ستة قرون ، لا يزال يفعله الكثيرون ، خرجوا بهذه (القوانين العامة) ، التى (تحكم) المجتمعات ، ولعل من أشهرهم : ول ديورانت ، فى سفره الضخم (قصة الحضارة) (١) والهيئة الدولية التى شكلتها منظمة اليونسكو ، لكتابة (تاريخ البشرية) (٢) .

والدراسة التاريخية ليست بذات قيمة فى حد ذاتها ، وانما قيمتها تكمن فى هذه (القوانين) التى حكمت تطور المجتمعات فى الماضى ،

(١) ترجمتها فى أكثر من عشرين جزءا ، الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، منذ سنة ١٩٤٩ ، وترجم عددا محدودا من اجزائها الدكتور زكى نجيب محمود ، وترجم معظمها الأستاذ محمد بدران .

(٢) نشر فى ست مجلدات ضخمة ، وترجمته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر ، فى مطلع السبعينات ، وقام بالترجمة والمراجعة الأستاذ عثمان نويه ، والدكتور راشد البراوى ، والأستاذ محمد على أبو درة .

بما يمكن أن يفيد في حياة الإنسان المعاصرة • فالتاريخ ليس صفحة (مطوية) من حياة البشر ، وإنما هو عمل أصيل في (ضمير) البشرية ، يحركها ، ويؤرقها ، ويحدد لها معالم حياتها (الراهنه) ، وحجم (طموحها) المستقبل ، وكيفية تحقيق هذا الطموح ، ومن هنا قيمته •

وقد كان العلامة العربي ، عبد الرحمن خلدون ، ذا وعى كامل بهذه الحقيقة ، حين ضمن (مقدمته) المشهورة ، التي وضع فيها جذور (علم) التاريخ هذا — جذورا أخرى (لعلم) الاجتماع ، ولم يأت ابن خلدون بفكره الرائع والرائد هذا ، في الماضي ، من فراغ ، وإنما هو أتى به من المعين الاسلامي الذي لا ينضب — معين القرآن الكريم ، فالقاريء لسوره وآياته ، لا يسعه الا أن يدرك هذا (الربط) العميق والواعي والمنهجي ، بين حركات المجتمعات السابقة ، وبين ما آل اليه حال كل منها (ولا يظلم ربك أحدا) — كما لا يسعه الا أن يدرك نفس (الربط) العميق والواعي والمنهجي بين موقف الناس — كل الناس — من دعوة الايمان ، وما ينتظرهم من مستقبل مزدوج ، أحد شقيه قريب ، سيلقونه في الحياة الدنيا ، والشق الثاني بعيد ، ينتظرهم يوم القيامة (يوم الفرع الأكبر) •

أى أن ابن خلدون ، استطاع ان (يستلهم) جوانب محدودة جدا من (المعين) القرآني ، الذي لا ينفد (١) •

وكانما كان القرآن الكريم ، هو الذي حدد لنا — في هذا (المنزلق) العلمي ، الذي (تردت اليه) العلوم الاجتماعية — أو الانسانية : كيف ترقى هذه العلوم •• الى المرتبة التي تكون فيها — بحق — علوما ذات قيمة ونفع ، تساهم مع العلوم الطبيعية ، في رفع شأن الحياة والأحياء •

(١) أرى أنه لابد هنا من الرجوع الى الدراسة الرائعة ، التي قام بها الدكتور عماد الدين خليل ، عن « التفسير الاسلامي للتاريخ » ، التي نشرها في مجلة (المسلم المعاصر) ، على حلقات • ثم جمعها في كتاب • نشرته تحت العنوان السابق ، دار العلم للملايين في بيروت ، في يناير ١٩٧٥ •

ولا ننسى هنا ، ما ذكرناه من قبل ، من أن المنهج التجريبي — منهج العلوم الطبيعية — لم ي اخترع في الغرب ، وإنما نقله روجر بيكون ، من الشرق — على وجه التحديد ، من الحسن بن الهيثم (١) . ولم يأت الحسن ابن الهيثم هو الآخر بهذا المنهج التجريبي — أو منهج الاستقراء كما سماه ، من فراغ ، وإنما هو أتى به من القرآن الكريم أيضا ، الذي يدعو المؤمن به دوماً ، الى التفكير في خلق السماء والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ونعم الله المحيطة بالإنسان من كل جانب ، كما يدعو الى (الأخذ بالأسباب) ، والسير في طريق العلم والمعرفة ، واكتناه أسرار المخلوقات . . . وصولاً الى (القوانين) الطبيعية ، التي تحكم هذا العالم ، حتى يستفيد بها المسلم ، في حياته المعاصرة ، وفي نشره كلمة الحق ، التي كلف بأن ينشرها .

والذي يقرأ (احياء علوم الدين) ، للإمام أبي حامد الغزالي ، الذي رأيناه من قبل يهاجم الفلسفة (٢) ، لأسباب أدت اليها ظروف الحياة في المجتمع الاسلامي — لا يستطيع أن يدعي أنه (أقل) من فيلسوف ، ولكنه كان فيلسوفاً كاملاً ، بالمعنى الاسلامي ، لا بالمعنى الذي كان يهاجمه — أي فيلسوفاً بهذا المعنى الشامل . ولاننسى هنا أن (العلوم الفلسفية) في عصره ، كانت علوم الحكمة ، وكانت العلوم الطبيعية ، فرعا من هذه العلوم . . . الحكمية .

ولو عاش الغزالي في عصرنا هذا ، لهاجم الفلسفة من جديد ، مع من هاجموها من مفكري العصر ، ولدعا معهم الى (وحدة المعرفة) ، المؤدية بالتالي الى (وحدة الوجود) ، ووحدة الخالق سبحانه .

وإذا كانت التربية علما تجريبيا ، بالمعنى الجديد للتجريب ، الذي

(١) ارجع الى ص ١٨ ، ١٩ من هذا التقديم .

(٢) ارجع الى ص ٩ من هذا التقديم .

يشمل الماضى والحاضر ، بغير أساليب التجريب المعروفة ، التى تصلح للمادة ، ولكنها لا تصلح للإنسان ، فان معنى ذلك ، أنها لابد أن تكون علما (هامشيا) بطبيعتها ، أى معتمدة على (معطيات) غيرها من العلوم ، دون أن يقلل ذلك من قيمتها وشأنها ، وانما الذى يقلل من شأنها ، وشأن المشتغلين بها ، أن تدعى — ويدعوا — غير ذلك •

ومن العلوم الأساسية ، التى (تعتمد عليها) التربية ، علم التاريخ ، وعلى (أكتاف) هذا العلم الشامخ ، ينهض علم كامل من أهم علوم التربية ، هو •• تاريخ التربية •

والمنهج المستخدم فى البحث فى التاريخ ، هو المنهج المستخدم فى البحث فى تاريخ التربية ، وهو (المنهج الاستردادى) ، الذى يعتمد على استرداد الماضى ، من خلال ما تركه من آثار ، أيا كانت هذه الآثار ، طالما كانت تدل على الحياة ، أو صور منها •• فى هذا الماضى •

ومن ثم كانت (صحة) هذه الآثار ، هو (التحدى) الكبير ، فى البحث التاريخى • وبالرغم من أن التاريخ ، يعتبر علما أساسيا ، بالنسبة لتاريخ التربية ، فان الباحث فى التاريخ ، يجد نفسه — هنا — مضطرا الى اعتباره علما هامشيا ، لأنه يتخذ من دراسة (الآثار) ، (علما أساسيا) ، يعتمد على جانب كبير منه ، فيما يتوصل اليه ، من (حقائق) تاريخية •

وهكذا يعتمد (تاريخ التربية) على التاريخ العام ، ويعتمد (التاريخ العام) ، على الآثار ، ثم تعود (الآثار) لتعتمد على اللغات القديمة ، وعلى التاريخ العام وتاريخ التربية — أيضا ، مضافا الى ذلك علوم أخرى كثيرة ، كالهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى ، والفلك ، وغيرها ، حسب نوع (الآثار) ، المراد فحصها •

وبالرغم من أن تاريخ التربية ، ابن التاريخ العام ، فإن لكل منهما
(منحنى) خاصا ، تميز به عن الآخر ، مما يجعل كلا منهما ،
مستقلا عن الآخر تماما •

فبينما يهتم (التاريخ العام) ، (بالشخصية القومية) في عمومها ،
يهتم (تاريخ التربية) ، بالنظام التعليمي وحده •

و (الشخصية القومية) لأية أمة ، ذات مظاهر متعددة — سياسية
واقتصادية ودينية وتربوية ، قد تتسع الدراسة ، لتشملها جميعا ،
وقد تضيق الدراسة ، فتقتصر على جانب واحد منها ، دون بقية
الجوانب •

ومن ثم يهتم الباحث في التاريخ العام ، بالقوى والعوامل الثقافية،
أو مجموعة (الضغوط) الواقعة على الأمة ، من داخلها ومن خارجها
على السواء ، لأنها هي التي حددت (معالم) شخصيتها ، في الفترة
موضوع الدراسة ، ثم يهتم — بعد ذلك — أو قبله — بابرار معالم هذه
الشخصية — أو بابرار (معلم) واحد من (معالمها) ، إذا كان البحث
— أو الدراسة — يدور حول معلم واحد ، كالدين أو السياسة
أو الاقتصاد ، أو الاجتماع ، أو نظام الأسرة ، أو نظام • • التعليم •

أما الباحث في تاريخ التربية ، فإنه يهتم بدراسة كل ما يتصل
(بنظام التربية) ، في هذه الفترة التاريخية التي يقوم بدراستها • وواضح
أن (نظام التربية) ، في هذه الفترة لا يمكن أن يتضح ، إلا في ضوء
(الشخصية القومية) ، في الفترة التاريخية ، التي تتم دراسة (نظام
التربية) فيها •

وهنا الاختلاف بين (جوهرى) الدراسة ، في التاريخ العام ،
وتاريخ التربية ، حتى ولو كان الموضوع واحدا في الدراستين ، كما نرى

في رسالتنا هذه (تاريخ التعليم في أسبانيا الاسلامية) (١) ، وكما نرى في السفر الضخم الذي كتبه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، عن (تاريخ التعليم في مصر ، من نهاية حكم محمد علي ، الى أوائل حكم توفيق « ١٨٤٨ - ١٨٨٢ ») (٢) — فالشخصية القومية ، هي المدخل لدراسة تاريخ التعليم هنا ، في مثل هذه الدراسات التاريخية ، بينما يعتبر (نظام التعليم) هو مدخل الدراسة ، في تاريخ التربية .

ومادام المدخل هنا ، مغaira للمدخل هناك ، فان (كل شيء) هنا ، لابد أن يكون مغaira لكل شيء هناك ، بالرغم من امكانية الالتقاء ، عند (نقاط محددة) ، بين الدراستين .

وباختلاف المدخل ، يختلف منهج البحث وأدواته .

ففي التاريخ العام ، يكون الرجوع الى (المصادر الأصلية) ضرورة حتمية ، لأن استرداد الماضي ، لا يكون الا من خلالها . والمصادر الأصلية هنا ، مصادر أصلية بالنسبة للفترة كلها ، ولكل معالم الحياة فيها . . بما في ذلك (الوثائق) المتصلة بالتعليم . وفي تاريخ التربية ، لا يكون الرجوع الى مثل هذه المراجع ، ضرورة حتمية ، وان كان الرجوع الى الوثائق التعليمية الأصلية ، أفضل بطبيعة الحال ، من الرجوع الى سواها .

ومن ثم فالباحث في (التاريخ العام) ، (يحاسب) على وثائقه ، ومدى صحتها ، وقدرته على تحليلها ، وصولا الى تحديد (الشخصية القومية) ، التي ظهر النظام التعليمي في ضوءها ، بينما الباحث في (تاريخ

(١) لا ننسى هنا ، أن هذا هو عنوان الرسالة الأصلية ، أي قبل أن نغيره نحن الى (تاريخ التعليم في الأندلس) .
(٢) نشرته في ثلاثة أجزاء ، وزارة المعارف العمومية في مصر ، سنة ١٩٤٥ ، وان كان الجزء الثالث منه قد اختص بأهم الوثائق واللوائح التعليمية ، ووثائق البحث .

التربية) ، يحاسب على مدى وقوفه على معالم النظام التعليمي ،
في الفترة التي يتحدث عنها ، ثم تحليل القوى الثقافية التي أثرت فيه ،
في هذه الفترة التاريخية .

ولعل هذا الاختلاف المنهجي الواضح ، والاختلاف في النظر الى
الأشياء ، حتى ولو كانت واحدة ، هي التي جعلت من الدكتور أحمد
عزت عبد الكريم ، أستاذا في التاريخ الحديث ، بالرغم من أن رسالته
للدكتوراه ، كانت عن (تاريخ التعليم في مصر) ، كما جعلت من الدكتور
محمد عيسى أستاذا للتاريخ الأندلسي ، بالرغم من أن رسالته للدكتوراه ،
كانت عن (تاريخ التعليم في أسبانيا الإسلامية) ، ولعله هو الذي خال
دون نجاح محاولة بعض من قاموا بمثل هذه الدراسات ، في أن ينتقلوا بها ،
من قسم (التاريخ) ، حيث (سَجَلُوا) للحصول على الدكتوراه ، الى
قسم (تاريخ التربية) ، حيث كان (موضوع) رسالة الدكتوراه ،
وذلك لأن الفرق — من الناحية المنهجية ، ومن ناحية الاعداد العقلية
بالتالي ، بين من أعد ليكون متخصصا في (التاريخ) ، حتى ولو كان
موضوعه في تاريخ التربية — لأن تاريخ التربية هنا ، يكون كالتاريخ
السياسي ، أو الديني أو الاقتصادي ، أو الحضاري — وبين من أعد
ليكون متخصصا في (التربية) ، حتى ولو كان في تاريخها ، لأن
تاريخ التربية ، كفلسفتها ، وكالتخطيط لها ، وكادارتها وتمويلها ...

ان التاريخ عند المتخصص في التربية ، يكون (تاريخا) وظيفيا ،
شأنه في ذلك شأن التربية ، عند المتخصص في التاريخ .



ولقد كانت هذه النقطة المنهجية بالذات ، هي سر تعارفنا .

ففي صيف سنة ١٩٧٨ ، أقيم معرض للكتاب بالملكة المغربية ،

وشاركت فيه دار الفكر العربى ، حيث يتم نشر كتيبى ، ويتم نشر
(مكتبة التربية الاسلامية) ، التى يعد هذا الكتاب ، كتابها الرابع .

وكان الدكتور محمد عيسى ، يدرس للدكتوراه فى مدريد (اسبانيا)
فعبّر مضيق جبل طارق ، الى المغرب ، حيث المعرض ، ليحصل منه على
ما يريد الحصول عليه من كتب ظهرت حديثا ، تتصل بموضوعه
(موضوع هذا الكتاب الرابع) ، شأن الباحثين العلميين ، فى كل فرع
من فروع التخصص .

وفى الجناح المخصص لدار الفكر العربى ، وجد كتيبى ، فأخذ
منها - كما قال - كتاب (فى التربية الاسلامية) ، ووجد الكتاب الأول
من كتب (مكتبة التربية الاسلامية) ، وهو كتاب (التربية الاسلامية ،
فى القرن الرابع الهجرى) - موضوع ماجستير الدكتور حسن عبد العال .

وعندما عاد الى مدريد ، وقرأ كتاب حسن عبد العال ، وجد
تقديميا لى يتصدر الكتاب ، ووجدنى فى هذا التقديم ، أثنى على حسن ،
صاحب الدراسة ، وعلى الموضوع ، وعلى منهج البحث و .. الخ .

ويبدو أنه وجد أننى (بالغت) كثيرا فى مدح العمل الذى قدمت
له ، فكتب لى رسالة مطولة ، تتعدى الصفحات الخمس ، من الحجم
الكبير ، تبين وجهة نظره ، وتدلنى على مراجع ومخطوطات كثيرة ،
حددها فى رسالته ، ، كان بمقدور حسن أن يطلع عليها .. الخ ، ثم
يعترف - ولو من باب المجاملة كما أعتقد - بجمال العمل المقدم فعلا ،
وروعته .

وكان الدكتور محمد عيسى ، قد ذهب الى اسبانيا ، مبعوثا من
قسم التاريخ بكليتى - كلية التربية جامعة عين شمس ، ولكننى لم
(م ٣ - تاريخ التعليم)

أكن أعرفه ، وما أحسبه كان يعرفنى ، قبل أن يقرأ لى ، ثم يسمع عنى بعد ذلك ، من الزميل الصديق ، الدكتور رأفت الشيخ ، أستاذ التاريخ الحديث المساعد بالكلية ، وقد مر عليه ، وهو فى طريقة الى لندن ، فى الصيف التالى ، بحكم أنه معيد عنده بالقسم ، أو بحكم صداقة تربطهما — لا أدرى ، ولم أسأل .

وكان الخجل واضحاً فيما عرضه ، فى رسالته المطولة ، كما أحسست فى كل سطر من سطورها .

وعرضت الخطاب ، على الدكتور حسن عبد العال ، ففوجئت بأن الرسالة التى كتبها الدكتور محمد عيسى لى ، قد كتب مثلها للدكتور حسن عبد العال ، مما يدل على أخلاقيات الرجل ، قبل أن أعرفه ، أو أقابله .

وفكرت فى أمر الرسالة ، وفى أمر محتوياتها ، وكان تعليقي عليها ، أنه جهد يشكر عليه صاحبه ، الذى اقتطع من وقته الغالى ، فى (أرض الغربة) ، ليقراء ، ويفكر ، ويناقش ، ويعرض النصح ، بأدب كامل . يضاف الى ذلك ، أنه عبر عن وجهة نظره هذه .. بأمانة — والأمانة عملة نادرة ، فى أوساطنا العلمية اليوم .

وكان هذا التعليق ، هو ما قلته لحسن عبد العال ، بعد أن شاهدت ضيقه بالمحتويات .

وفى الوقت الذى كان الدكتور محمد عيسى ، معذورا فى عدم (هضمه) لجهد الدكتور حسن الرائع فى المااستير ، كان الدكتور حسن أيضا معذورا فى عدم (هضمه) لعدم هضم الدكتور محمد عيسى لجهد .

وقد كان الدكتور محمد عيسى معذورا ، لأنه (متخصص) فى

التاريخ ، وليس متخصصا في التربية ، ومن ثم كانت (رؤيته) لعمل حسن عبد العال ، غير ما يجب أن تكون . ولذلك فأننى ما أن رددت عليه ، شاكرًا له ما بذله من جهد في كتابة ما كتب ، ومبينًا له وجهة نظرنا نحن التربويين ، المغايرة لوجهة نظر المتخصصين في التاريخ ، رد على ، موضحا اقتناعه بما قلته .

واستمرت الكتابة بيننا ، حتى عاد في صيف ١٩٨٠ ، فكان بيننا — أول لقاء ، وكان مزيد من القرب ، ومزيد من الإعجاب والاحترام ، ومزيد من التفاؤل من جانبى ، بدم جديد (نظيف) ، يضم الى هيئة التدريس ، بكلية التربية جامعة عين شمس .

وكذلك كان الدكتور حسن عبد العال معذورا ، فقد كان يومها حديث العهد بالماجستير ، وعلى أبواب التسجيل للدكتوراه . وهى مرحلة (نقاهة) بالنسبة لمن يعد للبحث العلمى ، لأن الماجستير — ومعها فورة من الشباب — تجعل الباحث يحس بأنه (فريد عصره) فى مجال تخصصه (١) .

يضاف الى ذلك ، أن ما قابله حسن ، من الثناء على جهده ، من كل من قرأه ، ومن لجنة المناقشة ، ثم نشر هذا الجهد ، وطبعه فى كتاب ، وما تلقاه على هذا الجهد — من خلال الكتاب — من رسائل مديح .. كل ذلك جعله لا (يهضم) نقدا ، كنفقد الدكتور محمد عيسى .

(١) فى تقديمى للكتاب الثالث من كتب السلسلة ، أفضت فى الحديث عن هذا المرض العضال ، الذى يصيب كثيرا من الباحثين العلميين ، حتى ممن أتوا رسالتهم للدكتوراه ، وحصلوا على الدرجة العلمية ، ويعتبرون طريقهم الى البحث والمعرفة ، قد وصل الى (كماله) ، وبالتالي لا يريدون أن يقرعوا أو يسمعوا أو يفكروا ... ارجع — للتفصيل — الى

— على سالم النباهين : نظام التربية الاسلامية ، فى عصر دولة المماليك فى مصر — الكتاب الثالث من سلسلة (مكتبة التربية الاسلامية) — الطبعة الاولى — دار الفكر العربى — ١٩٨١ ، ص ٦ — ١٧ (من التقديم ، للدكتور عبد الغنى عبود) .

ولكنى ما أن ناقشته ، حتى اقتنع ، ولو في ظاهر الأمر .. وكانت هذه الرسالة ، هى التى جعلت حسن يتجاوز فترة (النقاهة) ، ويمر منها الى (الدكتوراه) ، بسلام واقتدار .

* * *

واذا كانت الرسالة التى بين أيدينا (تاريخ التعليم فى أسبانيا الاسلامية) (١) ، رسالة فى التاريخ ، وليست رسالة فى التربية — فلم كان نشرها ضمن سلسلة (مكتبة التربية الاسلامية) ؟

والجواب على السؤال سهل ، لو تذكرنا ما قلناه منذ قليل ، عن (العلاقة العضوية) ، بين تاريخ التربية ، والتاريخ العام (٢) ، فبدون (التاريخ العام) ، لا يمكن أن يكون هناك (تاريخ تربية) صحيح بالرغم من أن دور التاريخ العام ، فى بحث من بحوث تاريخ التربية ، دور وظيفى — بمعنى أنه لا يتعدى توضيح التربية ونظامها ، فى الفترة للتاريخية التى تدرس .

وبالرغم من أن دراسة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، عن (تاريخ التعليم فى مصر ، من نهاية حكم محمد على ، الى أوائل حكم توفيق) ، بحث فى التاريخ العام ، الا أنه لا يمكن أن يستغنى عنه ، أو يتجاهل قيمته ، أى باحث فى (تاريخ التربية) ، فى مصر الحديثة .

ومن ثم فهذا الكتاب الرابع من كتب السلسلة (سلسلة مكتبة التربية الاسلامية) ، كتاب له (طعمه الخاص) ، و (دوره المحدود) ، وهو أن يكون من نوع (الكتب الأمهات) ، التى لا يكون هناك غنى عنها ، لباحث فى (تاريخ التربية الاسلامية فى الأندلس) .

(١) أو : تاريخ التعليم فى الأندلس — كما هى مطبوعة الآن .

(٢) ارجع الى ص ٢٩ ، ٣٠ من هذا التقديم .

يضاف الى ذلك ، أن التربية الاسلامية في المشرق العربى ، قد قتلت بحثا ، كما يقولون ، بينما (التجربة الأندلسية) في هذا المجال ، لا تزال فقيرة فقيرة ، مع أن هذه التجربة ، أخطر من (التجربة) الشرقية بكثير .

وهى أخطر من التجربة الشرقية ، لأسباب :

— منها أن دورة تاريخية متكاملة ، قد مرت بالأندلس ، بفتح الأندلس ، ثم سقوطها ، ومن ثم فالدرس المستخلص من التجربة ، يمكن أن يكون أغنى وأثمن ٥

وهو درس يمكن أن يفيد البلاد الاسلامية المعاصرة ، اذا هى خرجت بدرس (أسباب السقوط) ، حتى تتجنبها كل منها . وهذه هى فلسفة التاريخ ، وعطاؤه كعلم ، كما توصل اليه ابن خلدون ، فى مقدمته ، على نحو ما سبق .

— ولأن (التجربة الأندلسية) مفيدة على هذا النحو ، كان ربما — ذلك (التعقيم العلمى) ، المفروض على هذه التجربة ، ان صح هذا التعبير ، فهى لاتحظى عندنا ، بما يجب أن يبذل فى سبيلها من جهد ، فى تعليمها لأبنائنا ، وتوجيه باحثينا لدراستها — فالغرب ، الذى يخطط لنا حياتنا ، يهمله تماما ، أن يقضى على الاسلام ، فى كل بلاده ، بثتى السبل والوسائل ، ومن ثم فان هذه التجربة ، لا يمكن أن تكون دراستها ، والخروج بعبورها وعظاتها ، واردة فى فكره وعلى نهج الغرب نسير ، وعلى نبض قلبه ، ننشد نحن الألمان .

— واذا كان هذا هو ما يريده أعداؤنا وأعداء الاسلام ، فإننا يجب أن نريد ، عكس ما يريد ، اذا نحن أردنا أن يكون لنا تحت الشمس — من جديد مكان ، واذا كانت نفوسنا قد عافت التبعية للغرب ، والامعية

الهزيمة ، التي فرضها علينا ، يوم استعمر بلادنا ، ثم فرضناها نحن على أنفسنا اختياريا ، يوم صار (الجرى وراءه) ، بعد ما نلناه من استقلال - هدف الأهداف ، في حياتنا الثقافية .

— وربما كان جزء أساسي من هذا (التعنيم) ، يعود الى أن التجربة الأندلسية بالذات ، هي التجربة التي أثبتت (عالمية) الاسلام ، ومن ثم فلا يمكن أن يدعى أحد - بنجاحه فيها - أن الاسلام ، مجرد دين من ديانات الشرق ، لا يصلح الا للشرق ، شأنه في ذلك شأن البوذية والكونفوشيوسية والتاوية والشنوية والزرادشتية وغيرها .

ذلك أن الأندلس بلاد أوربية ، وإن كانت تقع في جنوبي أوربا ، على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط ، على نفس خط العرض الذي تقع عليه تقريبا ، بلاد اليونان ، وبلاد الرومان (ايطاليا) ، التي يحب الغربيون أن ينتسبوا اليها ، دون غيرها ، ويحبون أن ينسبوا حضارتهم الى حضارتها ، ليقطعوا كل علاقة بين هذه الحضارة الغربية المعاصرة وبين أصلها الأساسي : الاسلام وحضارته .

ومن ثم كان اصرار الغربيين أولا ، على (قطع دابر) الاسلام من أوربا ، وكانت ضربة الأندلس ، ثم كانت المؤامرات على الخلافة العثمانية ، بسبب ما اكتسبته من (عمق) في داخل أوربا ، كان بديلا للأندلس وزيادة ... قبل أن يفكروا في مطاردة الاسلام في خارج أوربا ، من خلال سلسلة الحروب الصليبية ، بصورتها الجديدة ، التي تخفى الصليب تحت الثياب ، بعد أن كان هذا الصليب هو الظاهر على السطح ... من هذه الثياب .

* * *

وإذا كان الاسلام يضيق عليه ، في (موطنه) الأصلي ، الذي

نشأ فيه وترعرع ، قبل أن يشب وينتقل الى العالم الخارجى ، وخاصة أوروبا ، فيكتسب صفة العالمية — بفعل حكامه ، المحسوبين عليه وعلى بلادهم ، ورضاهم بأن يكونوا مجرد (دُمى) ، فى أيدي الدول الكبرى ، التى تتغلغل فى أعماق المجتمعات الاسلامية ، وتستطيع — من تغلغلها هذا — أن تهز الكراسى والعروش ، التى فرضتهم عليها ، رغم أنف شعوبهم .. فان هذا التضيق — عندما زاد عن حده — قد انقلب الى (تمرد) على الأوضاع ، فى داخل البلاد الاسلامية ، على (السلطات) (العملية) ، يتخذ مظاهر متعددة ، تتراوح بين الاعتدال ، الذى نراه فى الاقبال الهادى من الكثيرين عليه من جديد .. وبين التطرف ، الذى نراه فى (اندفاعات) بعض الشباب عليه ، بصورة قد تبدو عنيفة ، ولكنه الشباب : أوضح سماته الاندفاع .

ان العنف ، هو الذى يولد الانفجار ، وكلما زاد هذا العنف زادت حدة .. الانفجار .

ولم يكن غريبا ، أن يكون أقوى انفجار معاصر ، قد تم فى ايران ، حيث كان يحكم سليل أسرة بهلوى ، الذى تميز بقسوة وخسة ، ورثهما عن الآباء والأجداد ، ويحسده عليهما ، أقسى الحكام ، وأكثرهم خسة .

وفى الوقت ذاته ، بدأ هذا (المد) الاسلامى يزداد ، فى معقل الصليبية ... فى أوروبا وأمريكا .

وكانما تعيد قصة سقوط الأندلس ، نفسها من جديد ، فقد كان الاسلام يطارد فى غربى القارة الأوربية — فى الأندلس ، ليدخلها من شرقها ، على طريق العثمانيين ، وليكون الاسلام هو المنتصر فى النهاية ، إذا قارنا بين الرقعة التى خسرها فى الغرب ، والرقعة التى كسبها فى الشرق عن طريق العثمانيين .

ومن أجل ذلك ربما — كان حقد الصليبية الغربية ، على العثمانيين ،
وعلى الخلافة العثمانية ، على نحو ما سبق .

ومن هنا كانت (أهمية) هذه الرسالة ، و (ضرورة) أن ترى
النور ، في (مكتبة التربية الإسلامية) ، أو في غيرها ، فالمهم أن
ترى النور . . في هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي . . . خاصة .
وتشريف (لمكتبة التربية الإسلامية) ، أن تكون هذه الرسالة ،
كتابها الرابع ، رغم أن (موضوعها) مغاير تماما ، لموضوعات كتب
هذه المكتبة . ذلك أن (موضوعها) ، من الموضوعات التي (تفرض)
نفسها اليوم ، والمركة ضد الاسلام تبلغ مداها ، في أفغانستان ، وفي
سوريا ، وفي عدن ، وفي اثيوبيا ، وفي تركيا . . . وفي بلاد أخرى كثيرة ،
لبست المركة فيها معلنة ، على النحو الذي نراه في هذه البلاد . .
وان كانت هذه المارك ، على وشك أن تحسم ، على النحو الذي
حسمت به في ايران .

وكل ذلك يجعل دراسة الأندلس وتجربتها . . ضرورة ملحة .

يضاف الى ذلك ، أنه اذا كانت الصليبية العالمية ، قد أرادت لنا
أن ننسى الأندلس ، ونسقطها من حساباتنا وتفكيرنا ، فان اليقظة
الاسلامية المعاصرة ، تقول بضرورة اعادتها الى (السطح) من تفكيرنا ،
من جديد . . .

والدراسة من هذه الزوايا تقدم لنا مادة خصبة ، لا تتوفر في
غيرها ، فهي تغطي فترة زمانية ، تقترب من ثمانية قرون ، حيث تبدأ
بفتح الأندلس ، سنة ٨٩١ هـ (٧١٠ م) وتنتهي بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ
(١٤٩٢ م) (١) — وتغطي مساحة مكانية ، تتسع مع اتساع الفتح ،

(١) سقطت العاصمة قرطبة بالفعل سنة ١٢٣٦ م — أي قبل سقوط
غرناطة — والأندلس كلها — بحوالى قرنين ونصف قرن من الزمان .

حين يصل الى أبواب باريس سنة ١١٣٥ هـ (٧٣٣م) ، وتنكمش مع انكماشه ، وتقهره الى الجنوب •

ومن ثم فهي تقدم (مادة أولية) ، لا غنى عنها ، لمن يريد أن يفتح صفحة الأندلس ، في أية زاوية من زواياها •• وهي صفحة لابد أن تفتح ، لما سبق من اعتبارات •

* * *

وليس من (حقى) أن أقدم تقييما أو تقويما Evaluation للرسالة ، لأنى لست من المتخصصين فى التاريخ ، رغم أنى من (المهتمين) به ، بحكم (تخصصى) فى التربية ، والبعد التاريخى ، بعد أساسى من أبعادها ، على نحو ما سبق (١) - وان كان (المنهج) المستخدم فى دراسة تاريخ التربية ، يختلف فى كثير من تفصيلاته ، عن (المنهج) المستخدم فى دراسة التاريخ العام - على نحو ما سبق أيضا (٢) •

وإذا كان التاريخ العام ، يقدم للمشغل بتاريخ التربيه ، (المادة الأولية) ، التى يقوم عمله عليها ، فان (الواجب) هنا يفرض على ، أن أقول رأى ، فى هذا العمل المقدم ، معترفا بأن هذا رأى ، ليس (تقويما) للعمل المقدم ، لأنه لا يرقى الى درجة التقويم •

وقد استلقت نظرى فى الرسالة ، أمران ، كانت - بهما - فى نظرى - جديدة بأن تنشر ضمن سلسلة (مكتبة التربية الاسلامية) - حتى تعم فائدتها :

(١) ارجع الى ص ٢٩ - ٣٢ من هذا التقديم •

(٢) ارجع الى ص ٣٠ ، ٣١ من هذا التقديم •

وَأَوَّلُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ : هو أن المادة العلمية التي تحويها الرسالة مادة وفيرة ، من حيث الكم والكيف — فمن حيث الكم ، تغطي الرسالة مساحة زمنية ومكانية كبيرة ، أشرت إليها من قبل • وهى تغطي هذه المساحة الزمنية والمكانية الكبيرة ، بكفاية واقتدار — ومن أجل ذلك كان هذا الحجم الكبير للرسالة ، بالرغم من أن الدكتور محمد عيسى تتبع طريقة فى كتابة المراجع ، لا أميل إليها شخصيا ، ولكنى أراها هنا (ضرورية) ، من حيث توفيرها لإصفحات طويلة ، بدونها كان حجم الرسالة سيتضخم بشكل مخيف • وهذه الطريقة ، هى كتابة المراجع ، مختصرة دوماً — مع أن المفروض ، ألا يكتب المرجع مختصرا ، إلا إذا كان قد سبق ذكره ، وحينئذ يقال بجانب المؤلف — أو المؤلف والعنوان — عبارة (مرجع سابق) ، إذا كان المرجع باللغة العربية — أو (Op. Cit.) ، إذا كان بلغة أجنبية •

ومن أجل هذا الحجم الكبير ، لتغطي الرسالة المساحة الزمنية والمكانية الكبيرة ، التى التزمت بها ، كان اضطرارى الى اختصار هذا التقديم لها ، مع معاناة كبيرة تجشمتها ، فى تحقيق هذا الاختصار (١) •

أما الأمر الثانى : الذى لفت نظرى ، فهو أن الدكتور محمد عيسى قد رجع فى الدراسة ، الى (المصادر الأولية) ، من وثائق وكتب ومخطوطات ، وغيرها ، مما يعنى أن (أدوات بحثه) هى أدوات البحث التاريخى ، كما (أعرف) عنها •

* * *

وإذا كنا نرى ضرورة الالتفات الى (التجربة الأندلسية) ، لأسباب رأيناها منذ قليل (٢) ، فلن هذه الرسالة ، بما تغطيه من مساحة

(٣) شغل تقديم الكتاب السابق من كتب هذه السلسلة مثلا خمسين صفحة (ص ٥ — ٥٤) •

(٢) ارجع الى ص ٣٦ — ٣٨ من هذا التقديم •

زمنية ومكانية ، تكون هى الرسالة المطلوبة ، اليوم وغدا •

* * *

ولا أحب — عزيزى القارىء — أن أقتطع من وقتك ، أكثر مما
اقتطعته ، وإنما أدعوك لأن تدخره للرسالة ذاتها ، وما ورد فيها من مادة
علمية خصبة ، عسى الله أن ينفعنا جميعا بها ، حتى تخرج منها — فى
النهاية — بدرس (التجربة الأندلسية) ، على حد تعبيرى منذ قليل •

والله سبحانه هو الموفق الى ما فيه الخير •

دكتور عبد الفنى عبود

القاهرة فى : ربيع أول ١٤٠٢ هـ •

يناير ١٩٨٢ م •

الإهداء

الى اغلى ما فى حياتى

..... وطنى

..... واهلى

..... واساتذتى

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

CHICAGO, ILL.

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

ملاحظة توضيحية

حاولت قدر الامكان استعمال طبعة واحدة من كل مصدر من المصادر العربية الواردة في هذه الرسالة ، ولكنى في بعض الحالات لجأت الى استخدام أكثر من تحقيق لنفس المصدر .

وقد بينت في الهوامش نوع الطبعة المستعملة ، وفي بعض الحالات لم أذكر ذلك — ولكن يمكن الاستدلال على ذلك ، بالملاحظة التالية :

١ — استخدمت تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، لكتاب نفح الطيب بصفة أساسية ، ولذلك لا يشار الى اسمه ، ولكن حين استخدمت طبعات أخرى ، أشرت اليها في الهامش .

٢ — بالنسبة لكتاب تاريخ علماء الأندلس ، وكتاب الصلة ، لابن بشكوال أشرت الى الطبعة في الهوامش .

٣ — بالنسبة لكتاب ابن فرحون وكتاب السيوطى بغية الوعاة ، حين يذكر رقم الجزء ، فمعنى ذلك الطبعات الجديدة ، وحين لا يذكر الرقم ، تكون الطبعة هي الطبعة القديمة .

1. The first part of the paper is devoted to a general discussion of the problem of the existence of solutions of the system of equations

$$\frac{dx}{dt} = A(x)u, \quad \frac{dy}{dt} = B(y)v, \quad (1)$$

where $A(x)$ and $B(y)$ are matrices depending on x and y respectively, and u and v are vectors depending on x and y respectively.

المقدمة

ترددت كثيرا قبل اختياري هذا الموضوع هدفا لرسالتى ولدراساتى العليا ، وذلك بسبب الصعوبات الكامنة في هذا المجال ، كما أننى لم أكن متأكدا من قدرتى على الوفاء بمتطلباته .

لكن من ناحية أخرى ، فإن النظام التعليمى لأمة من الأمم إنما هو الأساس الذى تبنى عليه حضارتها ، ويساعد بفعالية في تطورها وارتقائها وبقائها . والاهتمام بالتعليم والعلوم ، وفتح الباب لاستقبال التيارات الثقافية ، والتأثر بها والتأثير فيها ، دون الذوبان في تيارها ، وعدم ضياع الشخصية الأصلية ، يساعد على الارتفاع بالمستوى الثقافى ، وعلى العكس من ذلك فإن التعصب والانغلاق على أفكار معينة ، وعدم الأخذ والعطاء يؤدي إلى الركود الفكرى ، وعدم الإبداع ، وما إلى ذلك من عوامل ، تؤدي في النهاية إلى الانهيار والفناء .

إن الأهمية العظمى الكامنة في دراسة تاريخ التعليم ، والتي لا تقل عن أهمية دراسة أى جانب من الدراسات الإنسانية ، هي التي ألحت على ودفعتنى إلى دراسته .

أما بالنسبة للسفر في اختيار تاريخ التعليم في الأندلس بالذات ، فذوافعى إليه ترجع إلى عدة أسباب منها :

— توفيقى في الحصول على ترشيح الدولة المصرية لى للدراسة في أسبانيا على منحة من منح التبادل الثقافى المقدمة من الحكومة الأسبانية إلى مصر .

— أن هذا الموضوع لم يتطرق إليه أى باحث على الإطلاق ، إذا

ما استثنينا مجموعة المحاضرات التي ألقاها المستشرق الاسباني الكبير
خوليان ريبيرا في عام ١٨٩٣ بجامعة سرقسطة •

— أن دراساتي خلال المرحلة الجامعية ، في كلية التربية بالقاهرة ،
تؤهلني للتصدي لمثل هذا الموضوع التاريخي ، والتربوي في نفس
الوقت •

وقد واجهت من الصعوبات في هذه الدراسة ، ما لم يخطر لي على
بال أبدا ، رغم علمي مقدما ببعض مشاكلها •

فالدراسات الاجتماعية عموما ، لم تجد الاهتمام الكافي ، الذي هي
جديرة به ، وقليلة جدا الكتب والمصادر ، التي يمكن أن تلقى ضوءا — ولو
بسيطا — على حياة الرجل العادي ، وقليل جدا ، ان لم يكن نادرا ،
أن تجد مصدرا أو مؤرخا ، يصور لك حقيقة العلاقة الشخصية
أو الاقتصادية بين الناس •

وبالنسبة لموضوع تاريخ التعليم ، فان ما خلفه المؤرخون قليل جدا ،
ضاع معظمه ، ولم يصل الينا منه الا شذرات قليلة متفرقة ولا ينطبق
هذا على أسبانيا الإسلامية فحسب ، وانما هو يشمل العالم الإسلامي
بأكمله ، فكما قلت : المؤلفات في هذا المجال قليلة جدا ، ويقلل من أهمية
أكثرها ، أنها نقلت عن بعضها ، أو تناولت نفس الموضوعات ، وغلبت
على هذه الكتب الاهتمامات الخلقية ، وما يجب أن يتحلى به العالم
والتلميذ ، وواجبات كل منهما ، ومسألة شرعية الأجر ، من الناحية
الدينية •

فاذا انتقلنا الى الأندلس ، فالمشكلة أصعب وأعقد ، فعلى الرغم
من انتاجهم الغزير في كافة المجالات ، وعلى الرغم من أن كثيرا من
كتاباتهم كانت بهدف تعليمي ، الا أن مؤلفاتهم في مجال التعليم ، لم تتعد
الكتب التالية :

١ — اللباب في معرشة العلم والآداب ، لابن عبد ربه ، المتوفى ٣٣٨ هـ / ٩٣٩ — ٩٤٠ م (١) .

٢ — آداب المعلمين — خمسة أجزاء لأبى عمر أحمد بن محمد ابن عفيف بن عبد الله ، المتوفى ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م (٢) .

٣ — جامع بيان العلم وفضله — جزءان ، لابن عبد البر الأندلسي ، المتوفى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م (٣) .

٤ — آداب العلم ، لابن عبد البر (٤) . (ومن المحتمل أنه نفس الكتاب السابق) .

ولم يصل إلينا من هذه الكتب الا كتاب جامع بيان العلم وفضله ، ويتناول أهمية دراسة العلوم الدينية ، والأخلاق التي يجب أن يتطلى بها العلماء والدارسون . والى جانب هذا الكتاب ، وصلتنا بعض الاشارات التربوية التي كتبها ابن حزم الأندلسي ، المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، وابن العربي المتوفى ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وابن الخطيب ، المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

أما علماء شمال أفريقية ، أقرب المناطق الجغرافية الى الأندلس فقد كانوا أكثر انتاجا من الأندلسيين في هذا المجال ، فقد خلفوا مجموعة من المؤلفات التربوية الجيدة ، وأهمها كتاب آداب المعلمين لابن سحنون المتوفى ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م — أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين للقاسي

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، عن أسامي الكتب والفنون ١٥٤٢ م .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة — ج ١ ، ص ٣٩ (طبعة القاهرة) .

البغدادي : إيضاح الكتون — ج ١ ، ص ٤ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم — طبع عدة مرات .

حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٢٧٩ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ٤٢ .

المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م — وكتاب الإلمام في معرفة أصول الرواية
وتقعيد السماع للقلبي عياض اليجصبي ، المتوفى ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ،
وخصص ابن خلدون ، المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، فصلا كبيرا في مقدمته
للعلم والتعليم ، وكتاب جامع جوامع الاختصار والتبيين للمغراوي ،
المتوفى ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م .

وفي القرن الحالي بدأ اهتمام واضح بدراسة الحياة التعليمية
والتربوية في الإسلام ، حيث قام عدد محدود من الباحثين العرب
والأجانب بالدراسة في هذا المضمار ، كما تم تحقيق مجموعة من
المخطوطات ، التي عاشت حبيسة المكتبات والصناديق ، خلال مئات
السنين .

قام الدكتور أحمد شلبي بتقديم رسالة دكتوراه في جامعة
كمبريدج ، صدرت في كتاب لأول مرة في عام ١٩٥١ م ، بعنوان (تاريخ
التربية الإسلامية) ، وعلى الرغم من هذا العنوان الواسع ، فإن تصفح
الكتاب ، يبين أن الدكتور شلبي قد قصره تماما على المشرق الإسلامي ،
وبالذات على كل من بغداد والقاهرة ، وأنه لم يشير إلى الأندلس إلا في
فقرات مبعثرة .

وقدم الدكتور أسعد طلس رسالة دكتوراه في السوربون ، ثم
طبعت أيضا بعنوان (تاريخ التعليم في الإسلام) ، تضمنت بعض
الاشارة الى التعليم في الأندلس ، ولكنها ظلت أيضا كسابقتها مركزة
على المشرق الإسلامي فقط .

كذلك فإن الرسالة التي قدمها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ،
قد ركزت على النواحي التربوية التي نادي بها القاسي ، وقارن ذلك
بآراء التربويين المشاركة ، دون أن تتعرض للنواحي التاريخية .

أما بالنسبة للتعليم في إسبانيا الإسلامية ، فلم يتعرض له أحد في

رسالة عملية حتى الآن ، وكل ما هناك في هذا المجال ، كما أشرت سابقا ،
مجموعة المحاضرات التي ألقاها خوليان ريبيرا في عام ١٨٩٣ ، وبعد
ذلك هناك عدة مقالات يوالى إصدارها من حين لآخر ، الأستاذ (جورج
مقدسى) ، ويشار إليها في ثانيا هذه الدراسة ، كما إن الزميل كريم
عجيل حسن (من العراق) قد قدم رسالة ماجستير عن الحياة العلمية
في مدينة بلنسية الإسلامية نشرت عام ١٩٧٥ م في بغداد .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتها في الدراسة :

— عدم وجود مراجع وأبحاث في هذا المجال يمكن الاعتماد
عليها ، وخاصة أنني أردت تناول الموضوع من زواياه التاريخية ، وليس
من الناحية التربوية ، ولقد اضطررت ذلك إلى البحث في مجموعات كاملة
من المؤلفات . أي أنه لم يكن من الممكن لي الرجوع إلى كتاب
معين ، وكان لابد من الرجوع إلى مجموعات من الكتب ، وأهم هذه
المجموعات ، سلسلة كتب التراجم الأندلسية .

ومن حسن الحظ أن الأندلسيين أولوا هذا العلم اهتماما كبيرا ،
وخلفوا لنا سلسلة متواصلة من تراجم علمائهم ، أشرت إليها عند
حديثي عن العلوم الاجتماعية في الفصل الثاني : مجموعة الكتب
التاريخية والجغرافية — كتب الأدب ، بصورة عامة — ما أمكن رؤيته
من الانتاج الأندلسي ، أو ما كتب عن الأندلس في كافة المجالات .

— التناقض الشديد في بعض القضايا ، أو الغموض الشديد في
بعضها الآخر ، مما جعل تكوين رأي حول بعض الأمور مسألة صعبة جدا .
وأشد هذه النواحي غموضا قضية تدخل الدولة في التعليم ، وظهور
المدارس في الأندلس ، والمرتبكات .

— اتساع موضوع الدراسة ، ونشعب الموضوعات المتصلة به ،
فالدراسة هنا تلمس كل نواحي الحياة الأدبية والعلمية التي عاشتها
الأندلس ، كما أنها ترتبط بكل ما كتب عن هذه الفترة التاريخية ، في كافة

مجالات الأدب واللغة والنحو والفن والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والرحلات والاجتماع والطب والهندسة والزراعة والفلك والرياضيات والعلوم الدينية يكاملها . وإذا أردت الإشارة الى كافة الكتب أو المقالات الصادرة عن أحد هذه المواد ، أو على الأقل أهمها ، فإن دراستي هذه ستتحول الى سفر ضخم جدا من الأسماء والمؤلفات ، ولذلك كنت أجد لزاما على الاختصار ما أمكن. والإشارة الى كتاب واحد فقط في بعض الأحيان .

وهدفى من هذه الدراسة ، أن أقدم صورة عن التعليم في إسبانيا الإسلامية ، أى كيف كان يتم تشكيل الفرد وثقافته ، ابتداء من سنن حياته الأولى ، حتى يصل الى أقصى ما يطمح اليه من تعلم - مبيئا التواحي التالية :

- متى يبدأ هذا التعليم ومتى ينتهى ؟
- الأملكن التى يملرس فيها خلال كل مرحلة من مراحل الحياة .
- تعليم الخاصة ، مثل أبناء الأمراء والوزراء والقادة ، وتعليم النساء .
- المعلمون : مستواهم الثقافى والاقتصادى والاجتماعى ... الخ
- الدولة ودورها فى التعليم .

ووضعت خطتى لتناول هذه الدراسة على أساس أن أبدأ مع بداية الحياة التعليمية للأطفال ، وأن أطور الدراسة مع تطور سن ومراحل تعليم الطفل فأدرس أولا المرحلة التعليمية الأولى ، وأتناولها من كافة جوانبها :

المكان ، السن ، برنامج الدراسة ، الوقت ، المعلم ، أجر المعلم ، تعليم البنات ... الخ .

ثم أنتقل الى دراسة المرحلة التعليمية الثانية ، مبينا خواصها وأهميتها ، ومتناولا اياها من نفس الزوايا التي تناولت بها المرحلة الأولى .

أما في المرحلة التعليمية الثالثة ، فاننى ركزت على المدارس في الأندلس ، وعلى الرحلة بنوعها الداخلى والخارجى .

ولقد كان من حسن حظى العثور على مخطوطة صغيرة بمكتبة الأوسكوريال تتضمن بعض اجازات من معلمين مشرقين لطلبة من الأندلس وشمال أفريقيا ، قمت بقراءتها ونشرها ضمن الفصل الخاص بالاجازة .

وتناولت في فصل خاص ، كيفية تعليم أبناء الخاصة ، وبالذات من كانوا يعدون لمناصب معينة ، مبينا في ذات الوقت الاهتمام الذى بذله الأغنياء في سبيل التعليم .

أما عن دور الدولة في التعليم ، فقد خصصت له فصلين طويلين ، أحدهما استعرضت فيه جهود حكام الأندلس ، في صالح التعليم والفقهاء والعلمين والطلبة ، أما الآخر فقد جعلته لبعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم ، موضحا فيه بعض نقاط تدخل الدولة الفعلى ، سواء في البرنامج التعليمى أو دفع المرتبات أو بناء المؤسسات التعليمية .

ان الأهمية الكبرى لهذه الدراسة تكمن في اطلاعنا على الأسلوب الذى اتبعه الأندلسيون في تربية أبنائهم ، كما أنها تبين لنا مقدار الاهتمام الذى بذلوه دولة وشعبا في هذا المجال الحيوى علاوة على اطلاعنا على صفحة ناصعة من تاريخ أمتنا الاسلامية في العصور الوسطى .

ان أكبر المشاكل التى نعانيها في عالمنا الاسلامى المعاصر ، هى

فقداننا لنظام تربوى سليم نتبعه فى مراحل تعليمنا المختلفة ، وان
مأساتنا الحقيقية تكمن فى أننا حقل تجارب لنظريات تربوية شرقية
وغربية لا تتفق مع تاريخنا وعقائدنا وطبيعة تكويننا وكان من نتيجتها
ما نعانیه اليوم من انفصام فى الشخصية ، وضعف فى المستوى .

ان دراستى لأحد عمد الازدهار والرقى فى فترة من فترات
الاسلام الزاهية ، ليست توقفا عند الماضى ، ولا هى دعوة للعودة
للوراء ، بقدر ما هى محاولة للتعرف على أساس ثابت يمكن أن نركن
اليه فى بناء أمتنا الحديثة .

ولعل هذه الدراسة تفيد فى التعرف على ما يجب الأخذ به ، وما
يجب أن نبتعد عنه ، حتى تتمكن من بناء نظام تربوى سليم ، لتربية
أجيالنا القادمة .

وأعترف أن الموضوع جاد وخطير ويحتاج الى جهود جماعية ،
وأمنى رغم كل ما بذلت أرى فيما قمت به ، أوجه نقص كثيرة ، ونقاطا
تحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث ، ورغم ذلك فاننى أشعر بالرضى ،
لأننى بذلت كل ما أمكننى ، وفتحت الباب أمام غيرى لاستكمال النقص
ولمزيد من التعمق والبحث .

وثمة كلمة أخيرة ، تجب الإشارة إليها فى نهاية هذا التقديم :منذ عدة
أعوام كان التفكير فى مجرد كتابة هذه المقدمة لا يعدو أن يكون حلما من
أحلام اليقظة وكان اليأس مخيما على أفكارى تماما ، وذلك بسبب
مشكلة المعادلات ، التى استغرق حلها ثلاث سنوات كاملة ، ومن هنا أذكر
بكل العرفان جهود الأستاذين الدكتور بدرى مارتينيث مونتابيث عميد
كلية الآداب ، بجامعة الأتونوما حينذاك ، ورئيس هذه الجامعة حاليا
والدكتور لويس سواريث فرنانديث ، أستاذ ورئيس قسم تاريخ

العصور القديمة والوسطى بكلية الآداب ، في تسهيل حل هذه المشكلة الادارية ، ومساعدتى على البدء فى دراساتى العليا بالكلية فى عام ١٩٧٧ •

أما فى المجال العلمى فاننى أركز شكرى على ما قام به الدكتور لويس سواريث المشرف على هذا العمل ، أشكر له موافقته على اختيار الموضوع وتحمسه له ، والساعات الطويلة التى قضاهامعى نقاشا وبحثا ومراجعة وأعترف أنه كان المشجع فى لحظات اليأس ، والحافز فى أوقات الركود وأنه لولا جهوده ومتابعته ، لتأخر هذا العمل ، ربما لعدة سنوات •

ويدين هذا العمل بالفضل الى كثير من العلماء والباحثين من العرب والأسبان ، فلقد ساهم فيه بأبداء الآراء والاقتراحات مجموعة كبيرة من علماء الدراسات العربية الأسبان من العاملين فى الجامعات الأسبانية والمعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدير ، ومن المتخصصين فى الدراسات الأندلسية من كافة البلاد العربية وخاصة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مدير المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، والذى أعطانى من وقته وجهده الكثير فى سبيل اعداد هذا البحث ، ولهؤلاء جميعا أدين بالكثير من التوجيهات والنصائح •

كما أوجه شكرى الخاص الى مكتبتيْن عظيمتيْن فى مدريد ، يرجع اليهما الفضل فى امدادى بكل المراجع التى استخدمتها فى هذا البحث — أقصد مكتبة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، ومكتبة المعهد الأسبانى العربى للثقافة ، فاليهما والى القائمين بالأمر فيهما عرفانى وامتنانى •

والى أصدقائى وزملائى الأسبان ، الذين تقبلونى جاهلا بلغتهم ، وببلدهم ، فعلمونى ، وساعدونى فى اجتياز كل الصعوبات التى واجهتها ، أشكرهم من أعماقى ، وخاصة الذين ساعدونى فى رسالتى هذه ، وحسنوا من مستوى ترجمتها الى الأسبانية •

وأعترف بالفضل الكبير لصديقي الباحث الأسباني لويس مولينا .
والزميلة الدكتورة مانويلا مارين ، الباحثة بالمعهد الأسباني العربي •

والى زوجتى العزيزة ، يرجع فضل كتابة هذه الرسالة على الآلة
الكتابة العربية ، وسهرها الليلية الطويلة ، فى فك رموز خطى الذى لا
يقرأ ، ونقلها نقلا صحيحا ومنظما على الآلة الكتابة ، فلها منى الشكر
والتقدير •

وأشكر بصفة خاصة الآنستين ألمودينا بيرىلا وأمبارو فارغاس اللتين
تولتا كتابة الرسالة باللغة الأسبانية سواء عند عمل المسودات لعرضها
على الأستاذ أو عند كتابتها للمرة الأخيرة •

وأحمد الله سبحانه على هذا التوفيق

محمد عبد الحميد عيسى

مدريد : أول فبراير ١٩٨٠ م •

تمهيد :

المسرح الجغرافى

شبه الجزيرة الأيبيرية :

هى واحدة من ثلاث شبه جزر تضرب فى البحر المتوسط ، بارزة عن جسم القارة الأوروبية ، وأقصد بها كلاً من شبه جزيرة البلاد اليونانية ، والبلاد الايطالية ، والثالثة هى موضوع هذه الدراسة ، وتتشابه هذه مع زميلتيها فى تلك الخاصة ، لكنها تختلف عنهما بخواص ذاتية مستقلة تجعل منها وحدة جغرافية ذاتية ، وتنبع هذه الخواص من موقعها الفريد فى البحر المتوسط ومن هيئتها الخاصة .

وتشكل شبه الجزيرة الأيبيرية وحدة جغرافية متكاملة وواضحة ، حتى أنها لتختلف عن كثير من البيئات المجاورة لها من الشمال أو الجنوب سواء من ناحية التضاريس أو من بعض تفصيلات المناخ السائد فيها .

وتقع هذه المنطقة فى أقصى الطرف الغربى لحوض البحر المتوسط ، وتحيط المياه بحوافها فى ٦ محيطها الكلى ، والباقي فقط هو الذى يربطها بجسم القارة الأوروبية ، حيث تقع سلسلة الجبال الشاهقة الفاصلة بينها وبين فرنسا .

ولا يتخذ سطح شبه الجزيرة لونا متجانسا ، بل على العكس من ذلك فإنه ينقسم الى عدد من الأقاليم الطبيعية المتباينة عن بعضها ، تتخللها مجموعة كبيرة من الجبال والمرتفعات والأودية والمنخفضات ، مما كان له أثره الكبير فى مسار تاريخ هذه المنطقة ، ووضع مسألة الوحدة الذاتية والعضوية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ويعبر عن ذلك أحد

الكتاب الأسبان ، قائلا « اننا في الوقت الذي نلاحظ فيه بسهولة ، الوحدة العضوية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، نلمح أيضا سلاسل الجبال المتعددة ، والضاربة في أنحاء كثيرة منها ، والمخرقة لها من طرف آخر ، مما يدفعنا الى التفكير في مسألة التمزق والتشتت الذي مارسته هذه السلاسل الجبلية داخل شبه الجزيرة على مدى القرون والأجيال » (١) .

وتقع شبه الجزيرة الأيبيرية بين خطى طول ٣٦ و ٤٤ شمالا ، وبين خطى طول ٣ شرق جرينتش ، و ٩ غرب أى أنها تقع في المنطقة المعتدلة الشمالية ويحيط بها المحيط الاطلنطي من الغرب ، ويحدها من الشمال البحر الكانتابري وجبال البرتات ، والبحر المتوسط من الشرق والجنوب الى أن يتصل بالمحيط .

وتمتد شبه الجزيرة من الشمال الى الجنوب ٨٦٨ كم ، ومن الشرق الى الغرب ١٠٩٢ كم ، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٦٦٠ مترا (٢) .

والمساحة الاجمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية ٥٨١٦٦٦ كم^٢ ، تحتل منها البرتغال ، التي تقع في غرب أسبانيا ، ٨٨٧٤٠ كم^٢ فقط ، وتشغل أسبانيا باقى المساحة ، وهناك بعض الجزر الخارجة عن هيكل شبه الجزيرة وهى جزر البليار ، وأرخبيل الكنارى ومساحتها الكلية ١٢٢٨٦ كم^٢ (٣) . وأشير الى هذه الجزر هنا ، لأن المسلمين أقاموا في جزر البليار ، كما عرفوا الكنارى وأسموها (جزر الخالدات) .

ويتباين المناخ في شبه الجزيرة الأيبيرية حسب الموقع الجغرافى لكل اقليم ، وان سادته بصفة عامة السمات السائدة في منطقة البحر المتوسط . وقد يغطى هذا المناخ أيضا المناطق بالقرب من المحيط

(1) Saldevila; F. : Historia de Espafia; 111.1

(2) Garangex, Ernesto : Nueva Geografia Universal; 111. 345.

(3) Sopena : Geografia de Espafia: 1. 24.

Vila· Valentf : La Feninsula Iberica. p. 21.

الأطلنطى ، أما الأقاليم الشمالية فتنتسب الى مناخ وسط أوروبا •
ويعطى ذلك كله أهمية خاصة لشبه الجزيرة ، كما أنه يتسبب فى تنوع
نباتاتها ، وطبائع الانسان فيها ، وبالتالي تنوع الانتاج •

والأندلس ليس تعبير جغرافيا ثابتا ، بل هى كلمة تعنى مناطق أسبانيا
الاسلامية ، سواء اتسعت هذه المناطق لتشمل كل شبه الجزيرة الأيبيرية
تقريبا فى الأعوام الأولى من الفتح ، أو اقتصر على مجرد مدينة غرناطة
فى عام ١٤٩٢ م •

ففى أعوام الفتح الأولى ، كانت كلمة الأندلس تعنى شبه الجزيرة
للأيبيرية تقريبا ماعدا الجزء الشمالى الغربى ، ثم بدأت الممالك الأسبانية
المسيحية فى التشكل وبدأت حرب الاسترداد ، وبالتالي النمو المستمر ،
ذلك النمو الذى كان يعنى فى الوقت نفسه تناقص الأرض الاسلامية ،
أو تناقص المساحة التى تتضمنها كلمة الأندلس • وهكذا عند سقوط
الخلافة القرطبية كان الخط الفاصل بين أسبانيا الاسلامية وأسبانيا
المسيحية يمتد من جنوب برشلونة فى خط متعرج فى اتجاه الغرب حتى
يلتقى مع المحيط الاطلنطى عند أعالى البرتغال الحالية تقريبا •

أما على عهد المرابطين والموحدين فان الأندلس كانت قد تناقصت
كثيرا ، وانحصر الخط الفاصل الى الجنوب كثيرا ، وخاصة فى اقليم
الوسط وأصبح لقاؤه مع المحيط ، يقترب من جنوب البرتغال الحالى •

ثم سقطت الدولة الموحدية ، وزدادت حركة الاسترداد بشدة ،
واقتصر الأندلس على مملكة غرناطة ، التى تآكلت قليلا ، حتى سقطت
المدينة فى نهاية الأمر •

وقد اكتفيت هنا بهذا العرض الجغرافى ، الذى يحدد أن كلمة الأندلس ،
أو تعبير أسبانيا الإسلامية ليس قاصرا على ما يعرف اليوم بـ (أندلثيا)
وإنما هو كان يشمل كل المناطق التى خضعت للمسلمين ، أو بمعنى أدق ،
المناطق التى صلت لسكنى المسلمين مسكنا دائما ، بصرف النظر عن
خطوط الحدود العسكرية . أما الاستعراض التاريخى لهذه الفترة ، فاننى
سأتناوله فى الفصل الخاص بالدولة والتعليم .

المَبَّاءُ الأول

الدولة والتعلیم فی الأندلس

الفصل الأول

منذ الفتح الى نهاية الدولة الأموية

(١) مقدمة :

ان العلاقة بين الدولة والعملية التعليمية ، تنبع من الدين الاسلامى ذاته ، حيث أن ذلك الدين ليس فقط شعائر يؤديها العبد نحو خالقه ، بقدر ما هو نموذج حياة متكامل ، يتناول كل ما يتعلق بالانسان نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو الناس ، ويحدد كافة الحقوق والواجبات ، التى يجب على المؤمن اتباعها .

ومن هنا ، أقصد أنه انطلاقاً من تلك القاعدة ، قاعدة أن يدرك الناس قواعد دينهم ، وبالتالي أسس حياتهم ، ومنطلقهم الى تكوين شخصيتهم داخل المجتمع ، ومن ثم صياغة هذا المجتمع على أسس تتلاءم وقواعد دينهم ، كان لابد من التعليم ، ولابد من التربية المتكاملة للناس وتعريفهم بهذه الأسس والقواعد التى يجب عليهم الانطلاق منها الى كافة باقى مظاهر حياتهم الأخرى . اذا فالعلاقة بين الدين الاسلامى والتعليم هى علاقة عضوية ، علاقة يمكن أن تقودنا الى القول ، بأن الدين فى حد ذاته ليس الا عملية تعليمية ، بدأ بأمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) (١) ، ثم استمر بعد ذلك يتولاه ، عن طريق الوحي ، بتعليمه وتوجيهه ، حتى أكمل تعليمه ، أو ان شئت أكمل له دينه ، حين قال :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً) (٢) ومن هنا يمكن لنا تفهم قول الصوفي المرسى الكبير ، الشيخ محيى الدين بن عربى (توفى ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) حين يقول :

(اعلم أن المعلم على الحقيقة هو الله ... أول أستاذ فى العالم ، العقل الأول ... فعلم آدم الأسماء كلها المتوجهة عن ايجاد العالم العنصرى ، وعندما عجزت الملائكة عن معرفة الأسماء علمها لهم آدم ، فصار أستاذا لهم ، وورث آدم فى العلم الأنبياء فصاروا أساتذة البشرية ، وورث الأنبياء الأولياء ، والله يعلم الأنبياء والأولياء ، بالوحى الالهى ، أو عن طريق الملائكة ، وهؤلاء يعلمون تلاميذهم مباشرة أو عن طريق الأحياء والتأثير النفسى » (٣) .

تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تعاليمه من ربه ، والتكليف بأن يتولى تعليم الناس ذلك ، فقام بذلك ، بادئاً بأصحابه وأقربائه المقربين أمراً اياهم نقل ذلك الى الناس ، وأن يقوم هؤلاء بتعليم غيرهم ، قائلاً صلى الله عليه وسلم :

« ما من شئ أعظم عند الله من رجل تعلم علماً ، فعلمه للناس » (٤) وهو القائل أيضاً : « خير الناس ، وخير من يمشى على حديد الأرض المعلمون » .

ولم يقتنع رسول الله بأمر أصحابه بالقيام بالتعليم ، بل انه اهتم اهتماماً كبيراً بهذا ، وله عليه الصلاة والسلام من الأحاديث والأقوال

(٢) القرآن الكريم : سورة المائدة رقم ٤ الآية ٣ .

(٣) ابن عربى : الشيخ محيى الدين ، الفتوحات المكية ، ج ٣ ،

ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) ابن خزيمة الاشبال : فضيلة من فضيلة ، ص ١١ .

الحاجة على ذلك ، مما ذكر بعضه في فصل آخر ، ولن يرغب الاطلاع على ذلك بتوسع ، فعليه مراجعة بعض الكتب الآتية : «أخلاق العلماء» للأجري (٥٣٦٠ - ٩٧١م) (٥) ، و«فتح المجيد» لعبد الرحمن آل الشيخ (١٢٥٨ -) (٦) ، و « جامع بيان العلم » لابن عبد البر (٥٤٦٣ - ١٠٧٠م) (٧) ، و « تذكرة السامع والمتكلم » لابن جماعة (٥٧٣٣ - ١٣٣٢م) (٨) ، و « الاحياء » للغزالي (٥٥٠٥ - ١١١١م) (٩) .

ولست بمستطيع أن أجمع ، ولو قليلا مما كتب في هذا المجال ، لسعته وكثرته ولكن ذلك هو الذي دفع بالتعليم دفعا لكي ينتشر في كل مكان وصل اليه الاسلام ، وجعل « العلم يثب على قدميه وثبا في كل موضع وطأته قدم الفتح العربى » (١٠) .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو المعلم الأول في الاسلام ، وكان هو أيضا الحاكم الأول ، وحيث أن الرسول هو المثل الأعلى ، كان على من يأتى بعده أن يتولى نفس المهام التى كان عليه توليها . ولذلك فالخليفة هو الحاكم السياسى ، وهو فى ذات الوقت الامام الروحى ، ومسئوليتهم عن تعليم شعوبهم ، نابعة من كون امامهم الأول ، الرسون ، كان هو المعلم الأول . والمسئولية أيضا فى هذا المجال ، هى مسئولية كل

(٥) الأجري : أبو بكر بن الحسين ، أخلاق العلماء — القاهرة ، ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م .

(٦) آل الشيخ : عبد الرحمن بن حسن ، فتح المجيد ، وشرح كتاب التوحيد — الرياض .

(٧) ابن عبد البر : أبو عمر يوسف ، جامع بيان العلم وفضله — القاهرة .

(٨) ابن جماعة : بدر الدين ابراهيم بن جماعة ، تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ، حيدر آباد ، ١٣٥٣ هـ .

(٩) الغزالي : أبو حامد ، احياء علوم الدين ، ج ١ ، بيروت .

(١٠) سليم طه : التعريب وكبار العربيين فى الاسلام ، ص ٣٣٩ ،

من تولى الحكم سواء كان خليفة أو أميرا أو مجرد حاكم في منطقة ما .
تلك هي القاعدة ، ولكن الخلاف هنا في ممارسة هذه المسؤولية ، وان
كانت الممارسة قد تباينت من فترة الى أخرى ، ومن اقليم الى آخر .

واذا ما كانت الأحداث السياسية أو غيرها ، قد حجب مسؤولية
الحاكم عن العملية التعليمية ، أو أن الحكام في فترة من الفترات أهملوا
هذا الواجب الديني ، فإن ذلك لا يعنى انتفاء المسؤولية أو عدم وجودها .

واذا كان الرسول قد مارس التعليم ، بمعنى تعليم الاسلام
للناس ، الا أنه أعطى لهذا المعنى بعدا آخر تتجلى فيه مسؤولية الحاكم
تجاه تعليم شعبه ، أقصد بذلك أن الرسول عليه السلام قد جعل تعليم
عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فداء لأسرى معركة بدر (١١) .

وفي البلاد العهد الحديثة بالاسلام ، تتجلى مسؤولية الحاكم في
هذا المجال فعليه مسؤولية تعليم الناس قواعد الدين الجديد ،
ولا يقتصر الأمر على الحاكم فقط ، وانما يتعداه الى كل مسلم عالم ،
الى كل انسان يمكن له أن يعلم ، فـ « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن
رعيته » (١٢) . ولعل ذلك يعطينا تفسيراً لتلك العملية المعقدة التي تنقلها
الينا كتب التراجم والتي تصور لنا حلقات التعليم ، ومجالس المناظرة ،
وجلسات المعلمين وكأنها خلايا نحل ، لا ينفذ الطلبة من حولها .
وحرص الناس ، من كافة الطبقات على أن يكون معلما أو متعلما وعلى

(١١) الداودي : كتاب الأموال ، المخطوط رقم ١١٦٥ الأوسكوريال ،
الورقة ٣١ .

محمد عبد الحميد ، تدخل الدولة في نظام التعليم بالأندلس (محاضرة
لم تنشر) ، وانظر التعليق على هذه المحاضرة بمجلة « افريكا » بقلم الأستاذ
ماريانو أروبياس ، ص ٩١ ، العدد ٤٣٥ لسنة ١٩٧٨ م .

(١٢) مسلم : صحيح مسلم ، الامارة ٢٣ ، خوستيل ، هداية

أن يقول لغيره ما يعلمه وما سمعه ، وأن يسمع من ذلك أيضا ما يعلمه وما يسمعه ، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم في وصية له لابن عمه على بن أبى طالب ، حيث يقول : « يا على ، كن عالما ، أو متعلما ، أو مستمعا ، ولا تكن الرابع فتهلك » (١٣) .

وقد اصطبغت العملية التعليمية في هذه الفترة المبكرة ، بالطابع الدينى ، أى أنها أهتمت بالعلوم الدينية ، وتعليم الناس الدين الجديد . هذه هى القاعدة العامة — على ما أرى — فى كافة بلاد العالم الإسلامى والتى حكمت أيضا المنهج والمحتوى التعليمى الذى يجب أن يسود هذه الفترة المبكرة جدا ، من تاريخ التعليم فى الإسلام .

ولكن الأمر لم يستمر على ذلك مدة طويلة ، لأن الإسلام ، انتشر بصورة سريعة جدا فى مناطق ذات حضارة قديمة ، فقد تمكن من افتتاح بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا غربا ، وبلاد العراق وفارس ومنطقة وسط آسيا حتى حدود الصين شرقا . نعم انتشر الإسلام بسرعة غريبة ، وفى فترة لا تزيد على قرن واحد من الزمان على مساحة واسعة جدا من الأرض ، معمورة السكان ، قديمة الحضارة ، ولها صلة واسعة بالعلم والتعليم من قبل الإسلام ، بل لها علومها الخاصة بها التى كان لابد وأن تتفاعل مع العلوم الجديدة ، وتتأثر فيها أيضا . لأن العرب قد أقبلوا على ترجمة هذه العلوم الى اللغة العربية ، مما جعل المنهج التعليمى يمتد ليشتمل على علوم عقلية وفكرية وفلسفية مختلفة .

(١٣) من وصايا النبى لابن عمه على بن أبى طالب ، المخطوطة رقم ١٨٧٤ ، مكتبة الأوسكوريال — وجه الورقة رقم ٣ ، وانظر أيضا الترجمة التى نشرها لهذه الوصايا الدكتور براوليو خوستيل بمجلة « مدينة الله » الأوسكوريال ، العدد (١) المجلد ١٩٢ عام ١٩٧٩ ، والبسيوى : مختصر البسيوى ، ص ٧ .

ان ظاهرة السرعة التي تمت بها الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة قد حيرت كثيرا من المعلقين والمؤرخين حيث أجمعوا تقريبا على ارجاعها الى العامل الاقتصادي أو لعامل المفاجأة أو لأية عوامل أخرى^(١٤) . ولكن أحدا — من غير المسلمين — لم يعط أهتماما الى الجانب الروحي في عملية التوسع الاسلامي . لقد سبق لى القول بالتكليف الديني لعملية التبليغ ، وتعليم الآخرين الدين الجديد ، وهو عامل حاسم وهام دون اهمال للعوامل الأخرى السياسية والاقتصادية . ويلخص الدكتور « محمد غلاب » المرحلتين الفكريتين اللتين سبقت الاشارة اليهما بقوله :

« يعرف جميع المثقفين أن الأمة العربية وثبت الى الأمام بعد الاسلام وثبتين هائلتين ، احدهما على أثر اشعاع القرآن في جنباتها ،

(١٤) انظر في ذلك — على سبيل المثال — بعض الاعمال التاريخية
مثل :

— لويس سواريث فرنانديث ، مجمل التاريخ العالمى : ج٣ العصور
الوسطى ، ط ٢ مدريد ١٩٧٢ .

Suarez Fernandez; Manual de Historia Universal
Tomo 111, Edad Meia.

— وانظر ايضا في هذا المجال المؤرخ الاسبانى « رافائيل التاميرا »
في كتابه :

Altamira, Historia de Espafia y de la Civilización
Española, Madrid, 1913.

— أميليو متر : اسبانيا العصور الوسطى .
Mitr; Emilio : La Espafia Medieval.

— خوان بيرنيت : « المسلمون الاسبان » .
Juan Vernet : Los Musulmanes Españoles.

— خاكيس هير : « تاريخ العصور الوسطى » .
Jacques Heer : Historia de La Edad Media.

— انطونيو بيلستروس : هيكل عام لتاريخ اسبانيا .
Ballesteros y Berelta : Sintesis de Historia de Espafia.

النظر في الكون العام ، وفي النفس الانسانية ، وفي الأسباب والمسببات فأنارها بعد ظلمة ، وهداها بعد حيرة نبه القرآن فكان مصباحا أنار لمعتقديه سبيل الحكمة ، فآخذوا ينتجعونها ويتطلعون اليها في شوق وشغف ففازوا منها بحظ وافر . هذه هي الوثبة الأولى . أما الثانية فقد كانت بعد نقل الحكمة والعلوم الأجنبية الى العربية» (١٥) ، ثم بعد ذلك ينتقل الى تفصيل أنواع الدراسات المبنية عن القرآن ، وعن العلوم الأخرى . وليس ذلك مجالنا الآن . فلنعد الى أسبانيا ، لنرى كيف اندابق ذلك عليها في الناحية التعليمية ، وماذا تفردت به داخل هذا الاطار العام .

(ب) التعليم في عصر الولاة (١٣٨/٩٥ هـ — ٧٥٦/٧١٤ م) :

ويبدأ عصر الولاة في أسبانيا الاسلامية ، بعد الفتح الاسلامي ، وعودة القائدين (موسى بن نصير وطارق بن زياد) الى دمشق ، وتعيين الأمير عبد العزيز بن نصير ، واليا على الأندلس في عام ٩٥ هـ — ٧١٤ م ، الى تولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، المعروف بالداخل مقاليد الحكم في قرطبة عام ١٣٨ هـ — ٧٥٦ م .

وتتميز هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام في أسبانيا ، بالصراع الدموي بين القبائل العربية ، وبين العرب والبربر ، علاوة على أنها فترة تثبيتت الاسلام في أسبانيا . وعلى الرغم من ذلك ، اننا يمكن أن نتبين بعض ملامح الحركة التعليمية فيها .

يتفق المؤرخون على أن الجيوش الاسلامية التي توجهت لفتح شمال أفريقيا وبعد ذلك توجهت لفتح الأندلس كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين ، وخاصة التي فتحت شمال أفريقيا . أما تلك الجيوش التي دخلت الأندلس ، فمن المشكوك فيه كثيرا جدا أن يكون

قد رافقها أحد من الصحابة ، أما التابعون ، فلا شك في عبور بعضهم — يحدد لهم لنا المؤرخون بأعداد مختلفة ، ولا يتفقون على رقم معين في هذا المجال ومنهم :

• محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري

• حنث بن عبد الله الصنعاني

• عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي

• زيد بن قاشد السكسكي المصري

• موسى بن نصير ^(١٦)

كما أن هناك عددا آخر من التابعين قد دخلوا الى الأندلس •

ووردت أسماءهم في مدونات أخرى ، حيث يذكر « أن موسى بن نصير قد سار الى الأندلس في عشرة آلاف فارس ، وكان معه من التابعين — رضى الله عنهم — حنث بن عبد الله الصنعاني ، وأبو عبد الرحمن بن عبد الله الجبلي وعبد الرحمن بن شماسة المصري ، وأبو النضر جيان بن أبي جبلة في عشرين رجلا منهم » • ويؤيد ذلك الحميدى بملاحظة يقول فيها ، أن عبد الملك بن حبيب (١٧٩ — ٢٣٨ هـ / ٧٩٦ — ٨٥٣ م) — يؤيد ذلك العدد بقوله « ودخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف — نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم ، أتى موسى بن نصير » ^(١٧) •

(١٦) ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ٥٧ ، ٥٨ •

(١٧) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٧ •

ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج ٦ ، ص ٨١ و ١٩٥ •

ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٤٩ •

المراكشي : عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٨ •

مجهول المؤلف : وصف جغرافية الأندلس . المخطوطة رقم ٣٦ بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطبعة •

الأوسى : حكمت على ، فصول في الأدب الأندلسي ، ص ٤٤ ، ٤٥ •

مؤنس : حسين . فجر الأندلس ، التعليقات ، ص ٩١ •

وملاحظة ابن حبيب « سوى من لا يعرف » ، تبين أن هناك غيرهم آخرين قد دخلوا الى الأندلس . وربما دخل الأندلس بعد الفتح مجموعة أخرى من التابعين •

ولقد كانت المهمة الرئيسية لهؤلاء التابعين هي تعليم الناس الدين الاسلامي واللغة العربية • ومن هنا يمكن القول بأن التعليم قد بدأ في الأندلس مع الفتح مباشرة ، وان اتسم بطابع القلة والبساطة وتركز في تعليم اللغة العربية والدين الاسلامي للسكان الجدد •

... ويصف الدكتور (هيك) هذه الفترة بأنها كانت شديدة التواضع وأن حلقات التعليم فيها « لم تتجاوز حلقات في بعض المساجد ، التي كانت قليلة جدا حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين بطبيعة الحال » (٨١) •

ولقد بينت في رسالتي الصغرى — بنوع من التفصيل — كيف أننا نجد بعض بدايات التعليم الأولى ، وبعض الاشارات الى ظهور المكاتب ، مبينا أن الفترة الزمنية لظهور المكاتب في الأندلس تتجاوز السنوات العشر الأولى من تاريخ الفتح (١٩) •

ولم تقتصر علاقة الدولة بالتعليم في هذه الفترة ، على قيام هذه المجموعة من القادة الدينيين بالتعليم فحسب ، بل اننا نجد بدايات الاهتمام من الأمراء بالتعليم ، متمثلا في الزيارة التي قام بها الصميل ، لمعلم يعلم الأطفال ، ومناقشته اياه في آية قرآنية ، كان المعلم يقرأها للأطفال (٢٠) • وسأشير الى هذه القصة ، ضمن حديثي عن بعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم ، في نهاية هذا الباب •

(١٨) هيك : أحمد عبد المقصود ، الادب الأندلسي ، ص ٦٥ .
(١٩) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس منذ الفتح حتى الخلافة ، ص ٤٥ — ٤٩ .
(٢٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبد الله الطباع ، ص ٦٣ ، طبعة كوديرا ، ص ٤٠ .

ولقد شهدت هذه الفترة ،قدوم دفعات جديدة من العرب ،بعضهم جاء نتيجة صدى فتح الأندلس في العالم الاسلامي ، وبعضهم جاء ضمن القوات التي كان يرسلها حكام دمشق الى اسبانيا ، وبعضهم جاء يدفعه الحماس الديني للقيام بعملية تعليم اللغة ونشر الدين .

ولقد ساعد على ذلك أن بلاد الأندلس قد لقيت قبولا كبيرا من العرب ، حتى أنهم شبهوها ببلادهم الأصلية ، والبلاد المجاورة لهم . ولقد نقل المقرئ وصف البكري (٤٣٢/٤٨٧ هـ - ١٠٤١/١٠٩٤ م) قائلا :

« الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وزكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها » (٢١) .

ولقد شهدت أرض الأندلس في هذه الفترة في المجال التشريعي انتشار مذهب « الأوزاعي » (عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، ولد عام ٨٨ من الهجرة ٧٠٧ ميلادية ، وقضى معظم حياته في سوريا ، وتوفي في عام ١٥٧ هجرية ٧٧٧ ميلادية ودفن في بيروت) ، الذي ساد وانتشر وسيطر على الحياة التعليمية فيها .

ويرجع الدكتور محمود على مكي أسباب احتلال هذا المذهب مكانا مؤثرا في الحياة التعليمية الأسبانية الى « أنه خلال الفترات الأولى من حياة أسبانيا الاسلامية ، فان هذا البلد تابع بأمانة ، التقاليد والعادات الشامية في كل مظاهر الحياة » (٢٢) .

(٢١) المقرئ : أزهار الرياض في اخبار القاضى عياض - ج ١ ، ص ٦٠ ، ويمكن الاطلاع على ترجمة للبكري في كتاب تاريخ الجغرافيين والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، ص ١٠٨ - ١٤٨ . (٢٢) محمود على مكي : التيارات الثقافية الشرقية واثرها في اسبانيا الاسلامية ، ص ١٢٨ .

Makky, Mahmud : Ensayo Sobre Las Aportaciones Orientales En La Espafia Musulmana y su Influencia en la formacion de la cultura.

ويدل على انتشار المذهب الأوزاعي ، بداية بعض الرحلات من الطلبة الأندلسيين الى بلاد الشام ، واستمرار تدفق العلماء من المشرق الى الأندلس ، هذا ولقد أشار الدكتور محمود مكي تفصيليا ضمن رسالته للدكتوراه ، التي قدمها لجامعة مدريد ، والمنشورة بالمعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديرية ، الى التيارات الثقافية المشرقية وتأثيرها في تكوين الثقافة الأندلسية ، ومن المستحسن ايراد بعض الأسماء التي أوردتها كتب التراجم في هذا المجال تاركا لمن يرغب الاستزادة ، قراءة رسالة الدكتور محمود على مكي - يقول الحميدى عن صمصمة بن سلام (توفى ١٩٢ هـ / ٨٠٩ م) « أندلسى فقيه ، من أصحاب الأوزاعي ، وهو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي » (٢٣) .

هذا ولقد عاش هذا المذهب بعد ذلك في الأندلس فترة طويلة رغم سيادة المذهب المالكي على عهد الامارة ، حيث نجد « زهير بن مالك البلوى (٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) من أهل قرطبة كان فقيها على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بنى أمية » (٢٤) .

أما عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق ، فكان يغلب عليه « مذهب الأوزاعي وكان الأغلب عليه الفقه ولم يكن من أهل الحديث » (٢٥) .

كما أنه لا شك أن هذه الفترة قد شهدت جهودا كبيرة في نقل علوم اللغة العربية والدين الاسلامي الى أسبانيا ، مما أمكن له أن يترك آثاره على الفترات الزمنية اللاحقة ، والتي شهدت نهضة ثقافية

(٢٣) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٢٧ .
(٢٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ١٨١ ، والحميدى ، ص ٢٠٥ .
(٢٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٢٢٥ ، والحميدى ، ص ٢٦٣ .

عامة خلال عصر الامارة ، ومما يفسر لنا وجود عدد كبير من الفقهاء العلماء على عصر عبد الرحمن الأول وخلفائه (٣١) .

ويمكن القول باختصار أن التعليم في هذه الفترة ، قد اتجه أول ما اتجه الى تعليم الكبار ، حيث بدأ بهم ، يعلمهم اللغة العربية والدين وبعد ذلك بدأ ظهور المكاتب لتعليم الأطفال .

(ج) عصر الامارة (١٢٨ - ٣١٦ هـ ، ٧٥٦ - ٩٢٩ م) :

اضطربت الأمور في الدولة الأموية وسقطت في عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م ، وقامت مقامها دولة جديدة هي الدولة العباسية . وحيث أن الصراع بين الأسترتين الأموية والهاشمية صراع قديم ، فان تولى احدهما السلطة كان يعنى بالنسبة للأخرى المطاردة والحرمان .

ولقد كان وصول الأمويين الى السلطة ، بعد مقتل على بن أبى طالب يعنى حرمان أسرة بنى هاشم ، وخاصة أبناء على بن أبى طالب ، من حق كانوا يطالبون به باستمرار ، وطاردهم الأمويون بكل العنف والقسوة ، مما تسبب في اتحاد كلمة الأسرة الهاشمية في العمل على القضاء على الأمويين وساعدهم على ذلك جمهور كبير وخاصة موالى الفرس حتى تمكنوا من اسقاط الدولة الأموية ثم انفرد العباسيون بالحكم دون العلويين ، وتولوا مهمة القضاء المبرم على الأسرة الأموية . قام العباسيون بتلك المهمة بكل جد ونشاط ، وحاولوا بكل الوسائل التخلص تماما من الأسرة الأموية ، مما تسبب في هربهم وتشتتهم واختفائهم في كل مكان .

وانصب الاضطهاد أيضا على أنصار الدولة الأموية ، وعلى كل

(٢٦) أنظر بعض التفصيلات عن الحياة الاجتماعية والثقافية في كتاب « الدكتور حسين مؤنس عن فجر الأندلس » .

من كان يعمل في خدمتها ، مما تسبب أيضا في هروب واختفاء عناصر كثيرة من هؤلاء .

ومن الذين تمكنوا من الهرب ، الأمير عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل أو بعبد الرحمن الأول (١١٣/١٧٢ هـ - ٧٣٢/٧٨٨ م) ذلك الأمير الذى تمكن بسياسته وصبره ، وحسن تدبيره أن يصل الى الحكم فى قرطبة وأن يؤسس لبنى أمية دولة فى الأندلس ، تعمل على أن تضم بقايا من نجا من الموت من الأمويين .

وليس هنا مجال الاستطراد فى سرد الأحداث التاريخية التى أدت وتلت سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، ولا كيفية إعادة ارساء قواعد دولة أموية جديدة فى الأندلس ، لأن ذلك الموضوع عالجه كثير من كتب التاريخ وكتب فيه المؤرخون سواء من العرب أو من غير العرب . وما يهمنى فى هذا المجال ابراز نقطة اعتبرها هامة ، وكان لها تأثيرها على المستقبل الثقافى والعقلى فى الأندلس فيما بعد .

يجمع كثير من المؤرخين على أن الدولة الأموية كانت دولة عربية أى أن عمادها كانوا العرب بينما الدولة العباسية كانت دولة اسلامية ، أى أن عمادها كانوا المسلمين . وحيث أن أنصار الدولة الأولى كانوا نتيجة لذلك من العناصر العربية الصرفة ، فان مطاردة العباسيين انصبت على جانب كبير من العرب — صنائع وموالى الأمويين ، مما جعلهم يهربون الى مكان لا تصل اليهم يد العباسيين .

ان نجاح عبد الرحمن الداخل فى الوصول الى الأندلس ، وتأسيس دولة هناك ، فتح الباب على مصراعيه أمام هؤلاء الفارين ، لكى يجدوا عنده الملجأ والأمان . وساعد ذلك على هجرة المزيد من المشرقيين ، بكل ما يحملونه من علوم ومن حياة اجتماعية ومستوى ثقافى،

الى الأندلس مما قُدم زادا جديدا للثقافة وللحياة التعليمية على أرض الأندلس ، ويشاركنى فى ذلك بعض الكتاب حيث يقول أحدهم :

« وليس من شك فى أن شعلة الثقافة الأندلسية قد ذكت عندقدوم كثير من الأمويين وأشياعهم الذين كانوا على قدر كبير من الثقافة • وليس من شك أيضا فى أن وفودهم على الأندلس ، وطأ للثقافة سبيل الانتشار والذيع » (٢٧) ، ويقول آخر : « أن من نتائج سياسة عبد الرحمن الداخل ، أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تنثال على بلاد الأندلس لدعم الدولة الناشئة وتعزيزها ، وكون المروانيون ما يمكن أن نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص » (٢٨) •

لقد شهد حكم عبد الرحمن الداخل الكثير من المشاكل السياسية، وتميز بالحروب الكثيرة من أجل تثبيت سلطان بنى أمية فى الأندلس ، ولكنه لم ينس فى غمار ذلك كله ، أن يرتفع بمستوى شعبه وعاصمته الى درجة كبيرة ، فعمل على تأسيس المساجد والمباني ، وانشاء عدد من الضواحي ، وان كان أهم ما قام به هو انشاء عدد كبير من المساجد وخاصة بدء بناء مسجد قرطبة الجامع ، الذى سيصبح فيما بعد أكبر منار للعلوم فى الغرب الاسلامى على الاطلاق • ومع التسليم بأن كل مسجد كان مركزا ومكانا للتعليم ، ومكانا لتدريس القرآن والسنة النبوية ، يمكننا أن نحكم على الحركة التعليمية على عهد عبد الرحمن الداخل بأنها حركة نشطة وحية • قال بعض من أرخ للأندلس :

« انتهت مساجد قرطبة على أيام عبد الرحمن الداخل الى أربعمائة

(٢٧) الريسونى : الأدب النسوى فى الأندلس ، ص ١٠٦ •
محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس — ماجستير
(لم تنشر) ، ص ٤٩ •

وتسعين مسجدا ، ثم زادت بعد ذلك كثيرا » (٢٩) •

ولقد اهتم عبد الرحمن بالقادمين الى الأندلس ، وجعل ديوانا خاصا لهم حيث يقص علينا صاحب كتاب (أخبار مجموعة) أنه :
« كتب الى عبد الرحمن بن معاوية بعض من وفد عليه من قریش ، يستفسره فيما يجريه عليه » (٣٠) •

اهتم الأمير عبد الرحمن كثيرا بالعلماء وعلماء الدين ، وتقدمت الدراسات على عهده تقدما كبيرا ، وزادت الرحلات الى المشرق من الذين أتموا تعليمهم الأولى في الأندلس وظهرت في مجالس التعليم في القيروان والاسكندرية والفسطاط ، ودمشق وبغداد ، ومكة والمدينة ، أسماء طلبة من الأندلس ، خرجوا أساسا للعلم ولأداء فريضة الحج ، فجذبته المجالس العلمية في المدن التي مروا بها ، فجلسوا يتعلمون ، وكتبون الكتب ، ويحملونها معهم أثناء عودتهم مع ما يمكنهم الحصول عليه من الكتب المكتوبة في البلاد التي مروا بها •

ويمكن القول بأن عدد الطلبة الذين تعلموا على عهد عبد الرحمن الداخل كان كبيرا جدا ، لأن هؤلاء استطاعوا أن يتحكموا في الدولة تماما على عهد الأمير هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) وأن يثوروا في سنة ٢٠٢ هـ / ٨٠٨ م ، ثورة عنيفة على الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) ، فاذا تذكرنا أن حكم هشام قد استمر حوالي ثمانى سنوات ، وأن هذه الثورة وقعت في نهايات حكم الأمير الحكم - بعد حوالي اثنين وعشرين عاما من حكمه - أدركنا أن غالبيتهم قد بدعوا تعليمهم ودراساتهم ، على عهد عبد الرحمن الداخل الذي استمر حكمه لأكثر من ثلاث وثلاثين سنة •

واذا كان عهد عبد الرحمن الداخل على الرغم من اتسامه بالاضطرابات والمشاكل السياسية ، قد وجدت فيه هذه البدايات التعليمية الحسنة ، فانه استطاع أيضا أن يمهد الطريق لفترة سلام وازدهار طيبة على عهد ولده هشام الذى حكم خلال المدة من ١٧٢ الى ١٨٠ هـ (٧٨٨/٧٩٦ م) •

يجمع كثير من المؤرخين على أن الأمير هشام قد نهض بمدينة قرطبة ، فعمل على تجميلها ، وزينها بالحدائق والبساتين والمباني الجميلة ، وزاد فى مبيد أبيه ، وشيد غيره من المساجد فى أنحاء البلاد ، وعنى بنشر اللغة العربية وتدريسها (٣١) •

ويصف سانشيث البرنوس الأمير هشام بأنه : « ورع ، عادل وان كان قليل السلطة ، ليس بالفتى المنتظر لاكمال عمل والده عبد الرحمن الداخل ، الجسور القاسى ، وعلى الرغم من ذلك فان هشام أظهر حزما ونشاطا فى مواجهة المشاكل التى واجهت خلافته لأبيه • وخالف بعض ما فطر عليه فى مواجهة أحداث أدت الى تثبيت دولته ، وحيث أن الشعوب تحتاج الى فترات هدوء وراحة بعد الأحداث الدامية التى تجتاحها زمتنا من التاريخ ، فاننا نجد الأمير هشام ، بعد أن يقضى على تمرد اخوته والثائرين ، وبعد ثباته على العرش ، يعود ليؤكد تقواه وورعه الدينى • لقد اهتم بالجهاد ضد المسيحيين لكى ينشر كلمة الله

(٣١) انظر فى ذلك :

الحيدى : جذوة المقتبس ، ص ١١ •

الحجى : عبد الرحمن ، التاريخ الأندلسى ، ص ٢٨٢ ، وكذلك

ص ٢٨٧ •

عنان : محمد عبد الله ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ج ١ ،

ص ٢٢٩ •

غنىم : عبد الشافى ، محاضرات فى تاريخ المغرب والأندلس •

الواحد . لقد حاول أن يظل قرطبة ، بل أسبانيا كلها دين الله الاسلامي ، ودعا الناس للصلاة في المساجد ، وكان عادلا جدا » (٣٢) • ولقد تعود على أن يرسل في الليالي الباردة أكياسا من الدراهم للذين يمكنهم في المساجد ، يعبدون الله سبحانه وتعالى •

وعهد هشام الرضى ، كما كان يسمى ، يعتبر فترة حاسمة في مجال التعليم في الأندلس ، فلقد كان الأمير نفسه ، مهتما اهتماما مباشرا بالعلماء والفقهاء مانحا اياهم كل ما يستطيع من حماية وتأييد ، وكان له ديوان أرزاق ، لتوزيع عطاياه ، حتى أنه « لم يقتل أحد من جنده في شيء من ثغوره أو جيوشه ، الا وألحق ولده في ديوان أرزاقه » (٣٣) •

ويقول عنه ليفي بروفنسال :

« ان ثقافته وورعه واتساع ثقافته ، قد جعله يميل باستمرار الى التعامل مع فقهاء قرطبة الذين أتيحت لهم ، بمناسبة الحج ، زيارة الأماكن المقدسة الاسلامية •

ولقد شجع كثيرا خلال مدة حكمه ، زيارة مواطنيه ، لهذه الأماكن ، واهتم شخصا بأن يعمل هؤلاء على أن يحضروا الى أسبانيا ، آخر ما وصلت اليه العلوم الاسلامية في المشرق » (٣٤) •

انتشار المذهب المالكي :

ولا ينكر أحد اهتمام هشام بالتعليم والعلماء ، والبحث على ذلك والى عهده ينسب انتشار المذهب المالكي في الأندلس وسيطرته على

(٣٢) سانشيت البرنوس : اسبانيا الاسلامية ، ص ١٤٧ .
Sanchez Albornoz : La Espania Musulmana, 1 ; 147.

(٣٣) مجهول المؤلف : اخبار مجموعة ، ص ١٢٠ .

(٣٤) ليفي بروفنسال : اسبانيا الاسلامية ، ص ٩٧ .

الحياة التشريعية والتعليمية • ولهذه الظاهرة أهمية كبرى ، خاصة على الحياة التعليمية في مراحلها المتوسطة والعليا ، لأنه اذا كان صحيحا أن الوظائف في الدولة قد قصرت على أتباع هذا المذهب ، فان ذلك يدفع بالجميع الى دراسة المالكية ، وبالتالي فان التأليف سوف يقتصر أيضا على هذا المجال ، مما يصبغ الحياة التعليمية كلها بالمذهب السائد في الدولة ، ولنتوقف قليلا أمام انتشار المالكية في الأندلس •

تأسس المذهب المالكي في المدينة المنورة على يد مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م) ، الذي اتخذ من اجماع أهل المدينة ، أساسا لمذهبه ، ووضع كتابه المشهور « الموطأ » ، الذي يعد أساسا تشريعيا مهما في الاسلام عامة ، وفي غرب الاسلام خاصة • ويذكر لنا القاضي عياض ثمانية عشر طالبا أندلسيا ، تتلمذوا على يد مالك وعاصروه (٣٥) •

أما أول من أدخل (الموطأ) الى الأندلس ، فالأمر يتذبذب بين الغازي بن قيس (المتوفى ١٩٩ هـ - ٨١٩ م) (٣٦) ، وزياد بن عبد الرحمن ، المعروف بشبظون (المتوفى ٢٠٤ هـ - ٨١٩ م) (٣٧) ، وأحدث الطبقات لكتاب (ترتيب المدارك) للقاضي عياض ، تذكر ثمانية طلاب تعاصروا في تلقى العلم ، على يد مالك بن أنس (٣٨) •

(٣٥) اليحصبي : القاضي عياض ، ترتيب المدارك - ج ١ ، ص ٨ ، ١٣ •

(٣٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٠٥ •
ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ، والطبعة القديمة ، ص ٢١٩ •

مكي : نفس المصدر ، ص ١٦٣ •
(٣٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ١٨١ •
الحميدى : نفس المصدر ، ص ٢٠٣ •
مكي : التيارات الثقافية الشرقية ، ص ١٦٤ •

(٣٨) اليحصبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨ •
وعن انتشار المذهب المالكي في الأندلس ، انظر دور الفقيه يحيى ابن عمر الأندلسي في المقدمة التي كتبها الدكتور محمود على مكي لكتابه « احكام السوق » ، ص ٧٢ - ٧٧ •

ولكن الشخصية الكبرى ، التي يعزى اليها نشر الموطأ في الأندلس ، هي شخصية الفقيه القرطبي يحيى بن يحيى الليثي (متوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م) ، ثم شخصية عيسى بن دينار قاضي طليطة (متوفى ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) . وتذكر بعض المصادر وفاته في عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م . يقول عنه ابن فرحون ، في الديباج المذهب :

« كانت الفتيا تدور عليه ، لا يتقدمه في وقته أحد في قرطبة ، وكانت له فيها رئاسة بعد انصرافه من المشرق ، وكان ابن القاسم — عبد الرحمن بن القاسم معلماً مصرياً مالكيًا ، توفي ١٩١ هـ / ٨٠٦ م) — يعظمه ويجله ، ويصفه بالفقه والورع ، وكان لا يعد في الأندلس أفقه منه في نظرائه وهو الذي علم لأهل مصرنا المسائل ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى .

وبه وبإحْيَى انتشر علم مالك بالأندلس ورجعت الفتيا إلى رأيهِ » (٣٩) . ويقول عنه الحميدى :

« انه كان قد أجمع في آخر أيامه ، على أن يدع الفتيا بالرأى ، ويحمل الناس على ما رواه من الحديث في كتب ابن وهب (١٩٧ هـ / ٨١٤ م) وغيرها ، ولكن أعجلته المنية عن ذلك » (٤٠) .

يذكر ليفي بروفنسال ، تتلمذ عيسى بن دينار على مالك ، وينفيه

(٣٩) ابن فرحون : الديباج المذهب في تاريخ أعيان المذهب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

حميدى : المصدر المذكور ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ابن فرحون : نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٤٠) الحميدى : نفس المصدر ، ص ٢٨٠ .

مكي : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

مكي (محمود) : مقدمة كتاب أحكام السوق ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

الدكتور مكى قائلا « أنه كان أصغر من يحيى ، ولذلك لم يتعرف على مالك » .
« ومات عيسى سنة ٢١٢ هـ ، ومات الليثى سنة ٢٣٤ » .

ولكن القاضى عياض ، يذكر عيسى بن دينار ، بين الذين لم يروا
مالكا بن أنس (٤١) .

ونتوقف قليلا أمام السؤال الهام الخاص بكيفية انتشار
المذهب المالكى فى الأندلس — فهناك الكثيرون يرون أن الأمير هشام ، ومن
بعده ابنه الحكم ، هما السبب المباشر فى انتشار هذا المذهب فى
الأندلس — يقول ليفى بروفنسال :

« أنه فى الأعوام الأخيرة التى سبقت وفاة مالك بن أنس ، استمع
عدد من طلبة الأندلس مثل زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن مضر وعيسى
ابن دينار ، والفقيه القرطبى الشهير ، ذو الأصل البربرى ، يحيى بن
يحيى الليثى — هؤلاء الطلبة الذين ذكروا لمعلمهم ورع وتقوى أمير
الأندلس ، قاموا بعد عودتهم بنشر مذهب مالك فى قرطبة وفى مدن
الأندلس الكبرى ، وذلك بالموافقة الصريحة لأمرى بنى أمية هشام والحكم
الأول » (٤٢) .

كما أنه يقول :

« انه اذا كان المؤلفون العرب ينسبون ، اما الى هشام ، أو الى ابنه
الحكم ، المبادرة ، لكونهما فضلا نشر المذهب المالكى فى الأندلس ،
وتبنياء مذهبا رسميا ، فالحقيقة فى المسألة أن كلا الأمرين قد ساهم
فى انتشار المذهب المالكى ، وأن الثانى — أى الحكم — هو الذى

(٤١) اليحصبى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٤٢) ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا — الترجمة الأسبانية : ج ١ ،

قرر بعد أعوام قليلة من وفاة والده بأن يكون القضاء والوظائف الكبرى متساوية في قرطبة أو في باقي أنحاء الأندلس ، لمن يقدمون فتواهم على هذا المذهب التشريعي الجديد » (٤٣) .

وتميل دائرة المعارف الإسلامية الى نفس الرأي قائلة بأن هشام « أول من استوعب في أسبانيا تأثير المدرسة التشريعية والفقهية لمعاصره ، عالم المدينة مالك بن أنس ، ممهدا الطريق لفقائها ، ومقدما لهم كافة المساعدات » (٤٤) — متفقة في ذلك مع أورده صراحة القاضي غياض في ترتيب المدارك (٤٥) .

لكن الدكتور محمود على مكي ينفي ذلك بشدة ، مرجعا الأسباب التي أدت الى انتشار المذهب المالكي في الأندلس الى عوامل تطورا طبيعية تستجيب لحاجات المجتمع الأندلسي الذي دخل مرحلة استقرار تختلف عن الفترة التي سبقتها والمليئة بالمشاكل والحروب ، وأن مذهب الأوزاعي كان يتلاءم مع الأجيال الأولى على أرض الأندلس ، ولكن مع نهاية حكم الأمير عبد الرحمن الداخل ، وإسلام عدد كبير من سكان الأرض الأسبانية ، ومع السلام الذي ساد ربوع الأرض ، تجلت الحاجة الى تكوين فقهى وتشريعي ، يتناسب مع شعب مستقر ، وجيد التنظيم — ثم يستطرد الدكتور مكي بعد ذلك ، مجيبا على السؤال الهام :

لماذا اختار الأسبان المسلمون المدرسة المالكية في الوقت الذي كانت فيه مدرسة أبو حنيفة (المتوفى ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) مزدهرة ؟

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٩٦ .

(٤٤) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٨ « النص الانجليزي » .

(٤٥) البحصي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

وألخص اجابة الدكتور مكى فى هذه النقاط :

١ — لأن أغلبية العرب القاطنين فى أسبانيا قدمت من الشام ومن مصر وچالية كبرى من المدينة •

٢ — لحرص الأسبان المسلمين على الحج وحميتهم الدينية للتردد على الأماكن المقدسة •

٣ — انفصال السلطة فى الأندلس عن سلطة بنى العباس فى بغداد وتبنى العباسيين المدرسة الحنفية ، مما دفع الأندلسيين الى تبني المالكية (٤٦) •

ويصر فى النهاية على أنه خلال عهد عبد الرحمن وابنه الأمير هشام لم يمارس المالكيون أية وظيفة من وظائف التشريع الكبرى فى الأندلس ، أما عن الحكم الربضى ، فلم يكون هو الشخص الذى يفرض — بل ولا يفكر فى أن يفرض — المالكية ، كمدرسة رسمية فى الأندلس (٤٧) •

ومن الغريب هذا النفى الذى يقدمه الدكتور مكى ، فهو نفسه فى أكثر من موضع فى رسالته ، يعترف بأن عيسى بن دينار ، كان قاضياً على طليطلة ، وأن الفتيا كانت تدور عليه (٤٨) ، وأن « العازى بن قيس » قد عاد الى أسبانيا ، فى بداية حكم هشام ، وأنه قد عين مشاوراً ، مع القاضى مصعب بن عمران (انظر رسالة الدكتور مكى ، ص ١٦٣ ، ١٦٤) •

(٤٦) مكى : رسالته فى الدكتوراه المذكورة ، ص ١٥٤ — ١٥٨ •
وانظر الفصل الذى عقده الدكتور حسين مؤنس لانتشار المذهب المالكى فى الأندلس فى كتابه « فجر الأندلس » ، ص ٦٥٢ — ٦٥٥ •
(٤٧) مكى : الرسالة المذكورة ، ص ١٥٧ •
(٤٨) أنظر فى ذلك : مقدمة الدكتور محمود على مكى لكتاب احكام

أما عن دور الأمراء في نشر هذا المذهب ، فهو دور لا يشك فيه ،
وان لم يكن بطريقة مباشرة ، فان مجرد موافقتهم وسماعهم للعلماء
بالتدريس ونشر هذا المذهب يعتبر دورا وان كان غير مباشر • والقاضى
عياض ينسب ذلك بصراحة مطلقة الى هشام (٤٩) •

ولقد شهد عهد الأمير هشام تشجيعا حقيقيا على التعليم ، واتخذ
الأمير نفسه لأبنائه ، مؤدبين مشهورين بالعلم والخلق ، بل لقد وصل به
الأمر ، أن سكن بعضهم في داره ، كما حدث مع « مشمر بن نمير » ،
الذى قدم الأندلس في أيام هشام فضمه الى تأديب ولده ، وأنزله في
الدار المعروفة بسلار (٥٠) • كما أن هشام اختار لتأديب ولّى عهده الحكم
عالما كبيرا هو وكيبة بن ربيعة (٥١) •

والى هشام ينسب بناء عدد من المدارس في الأندلس ، وحيث
أن هذا الموضوع يحتاج الى مناقشة أوسع ، والى تفصيل كبير ، نتيجة
لكثرة الخلاف حوله ، فاننى سأعالجه عند حديثى عن بناء المدارس في
الأندلس •

ولعل تربية وتعليم الأمير هشام نفسها يمكن أن تفسر لنا
اهتماماته العلمية ، ورعايته للعلماء والفقهاء على عهده ، حيث تجلت
هذه الاهتمامات منذ صباه الباكر ، مما أعطى ثماره العذبة بعد ذلك —
عند توليه مقاليد الأمور في البلاد •

يحكى المستشرق الأسباني « خوسيه انطونيو كوندى » أنه في
ذلك الوقت عرف الأمير هشام بأريحيته وذكائه ، مما كان مبعث
السرور لوالده ، الذى كان يميل اليه ، لبشاشته ومهارته •

(٤٩) اليحصبي : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ •

(٥٠) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ١٦٦ •

(٥١)

ولقد قام والده بتربيته على يد أفضل المعلمين في ذلك الوقت حتى يؤهله لشئون الحكم ، وما يستلزمه من العدالة والانصاف •

« أمر عبد الرحمن الداخل ، بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمي للقاضي في المسجد الجامع حيث أظهر الأميران نباهة ونجابة في كل مناسبة من المناسبات » (٥٢) •

أما على عهد الأمير الحكم فقد حدث صدام بينه وبين الفقهاء بسبب غيرته الشديدة على السلطة ، وزيادة تدخل الفقهاء — في شئون الحكم ، مما ترتب عليه قيام الفقهاء بالثورة على الحكم ومحاصرته في قصره في عام ٢٠٢ هـ / ٨٠٨ م •

ولقد قضى الحكم بعنف وقسوة على الثورة ، وطرد عددا كبيرا ممن قام بها فسكن بعضهم مدينة فاس ، وارتحل قسم آخر الى الاسكندرية ، ثم منها الى جزيرة كريت حيث أسسوا دولة سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، استمرت ما يزيد على قرن من الزمان (٥٣) • وقد يعطينا ذلك فكرة عن كثرة عدد الفقهاء على أيام الحكم ، اذا ما علمنا أن القسم الذي اتجه الى الاسكندرية كان يقدر بحوالى ١٥ ألف نازح من الأندلس •

وأصدر الحكم ، بعد ذلك ، عفوا عاما عن الشخصيات العلمية وخاصة الفقيهيين ، طالوت ويحيى بن يحيى الليثي (٥٤) ، ثم عمل على

(٥٢) كوندى : خوسيه انطونيو ، تاريخ الحكم العربى في اسبانيا ،

ص ٥٥ •

Conde, Jose Antonio : Ho de La Dominacion de los de los Arabes en Espania p. 55.

(٥٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٠ •

الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٤٢ •

(٥٤) انظر عن يحيى بن يحيى : كتاب تهذيب التهذيب — ج ١١ •

ص ٣٠٠ ، ٣٠١ •

جميع العلم والعلماء حتى أسلم الدولة بعد وفاته الى فترات تعد
من أخصب فترات الدولة الأموية في الأندلس ، ومن أزهى عصورها
التاريخية والسياسية والثقافية ، أقصد بذلك العصر الذي تولى فيه
الأمير عبد الرحمن الأوسط حكم البلاد .

يقول المؤرخون أن عصر عبد الرحمن الأوسط تتحكم فيه أربع
شخصيات قوية تماما وكل واحدة منها تمثل جانبا من جوانب الحياة
الثقافية والاجتماعية في الأندلس ، وهم الفقيه اللامع يحيى بن يحيى
الليثي ، والحكيم عباس بن فرناس والموسيقي المغنى «زرياب» ثم
زوجته الأميرة طروب .

والشخصيات الثلاث الأولى تمثل التوازن بين الاتجاهات الثقافية،
التي أمكن لها أن تسود على عصر عبد الرحمن الأوسط . فالفقيه يحيى
بن يحيى الليثي (المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م) من أصل بربري ، ولكنه كان
حكما ، حتى سمي بعقل الأندلس ، ويحكى لنا الحميدى سبب هذه
التسمية فيقول عنه :

« كان مالك يسميه عاقل الأندلس ، وكان سبب ذلك فيما يروى
أنه كان بمجلس مالك ، مع جماعة من أصحابه ، فقال قائل : قد خطر
للفيل ، فخرجوا ولم يخرج ، فقال له مالك : مالك لم تخرج لتنظر الفيل ،
وهو لا يكون في بلادك ؟ فقال له : لم أرحل لأبصر الفيل ، وانما رحلت
لأشاهدك وأتعلم من علمك وهديك ، فأعجبه ذلك منه وسماه عاقل
الأندلس واليه انتهت الرياسة في الفقه في الأندلس ، وبه انتشر
مذهب مالك هناك وتفق به جماعة لا يحصون ، وروى عنه غير واحد،
منهم أبناء عبيد الله ، واسحق ، وأبو عبد الله محمد بن وضاح ،
وزياد بن محمد بن زياد ، وإبراهيم بن قاسم بن هلال ، ومحمد بن
أحمد العتبي ، وإبراهيم بن محمد بن باز ، ويحيى بن حجاج ،

ومطرق بن عبد إرخمم . . . وغيرهم . وكان مع إمامته ودينه ، مكينا عند الأمراء معظما ، وعقيفا عن الولايات ، متنزها بجلت درجته عن القضاء ، فكان أعلى وزرا من القضاة ، عند ولادة الأمر هنالك لزهده في القضاء وامتناعه عنه » (٥٥) .

ويستطرد الحميدى ناقلا عن الفقيه أبى محمد على بن أحمد قوله :

« مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة (توفي ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) ، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله ، فكان لا يولى قضاء البلاد من أقصى المشرق الى أقصى أعمال أفريقية الا أصحابه والمنتمين الى مذهبه ، ومذهب مالك بن أنس عندنا ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول في القضاة ، فكان لا يلى قاض في أقطارنا ، الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس تنراعى الى الدنيا والرياسة ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ، ولا أجاب اليه ، وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم ، وراعى الى قبول رأيه لديهم » (٥٦) ، وفي ذلك مظهر من مظاهر تدخل الدولة في نشر مذهب تشريعى ، ودور هذا الفقيه .

أما عن العالم عباس بن فرناس (توفي ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م) ، فان

(٥٥) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

اليحصى : ترتيب المدارك ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ — ٣٩٤ .

(٥٦) ترجمات يحيى بن يحيى الليثى كثيرة جدا ، واكتفى بالإشارة الى :

الحميدى : ص ٣٥٩ — ٣٦١ ، والديباج المذهب ، ص ٣٥٠ ،

والنفسح ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، والمقبس لابن حبان تحقيق مكى ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

المقارنة التي أجراها الأستاذ الدكتور عبد الشافي غنيم « أستاذ تاريخ الأندلس بتربية عين شمس » بينه وبين المغنى زرياب تعتبر أساسا متينا للحديث عن ذلك الرجل ، يقول :

« في الواقع ، لا يمكن الحديث عن عصر عبد الرحمن الأوسط ، بعيدا عن حياة زرياب وابن فرناس ، لأن الأول كان يمثل الجانب الذوقى والحسى فى فلسفة حكم عبد الرحمن الأوسط والحضارة الأندلسية بوجه عام ، والثانى كان يؤكد الجانب العلمى التقدمى ، والتطور الفكرى والعلمى فى الحضارة الأندلسية بوجه خاص » (٥٧) .

كان عباس بن فرناس اماما فى علم العروض ، « بل انه أول علماء العروض فى الأندلس على الإطلاق » (٥٨) ، كما أن ابن فرناس قد برع فى علوم الطبيعة والرياضة وشغف بالرياضيات ، حتى وضع فى سقف بيته قبة كهيئة السماء ، مثل فيها الأفلاك والنجوم والسحب ، حتى صارت معرضا يفد الناس اليه من كل مكان ، كما أنه صنع بتكليف من الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم ، كما كلفه الأمير بعمل آلات لمعرفة الأوقات ، فقام بانجاز آلة تعرف بها الأوقات ليلا ونهارا وأسمها المثقالة ، ورفعها الى الأمير مع هذه الأبيات :

ألا اننى للدين خير أداة اذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تبين كواكب ليل خالك الظلمات
بيمن امام المسلمين محمد تجلت لى الأوقات للصلوات

(٥٧) عبد الشافي غنيم : محاضرات فى تاريخ المغرب والأندلس —

عصر الامارة .

(٥٨) عبد الشافي غنيم : نفس المصدر .

وله أيضا مجالات أخرى واسعة ، ليس المجال هنا لذكرها ، ولكنها تدل دلالة واضحة ، على الآفاق الفكرية والحضارية ، التي امتلأ بها عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذي وصل بالأندلس الى درجة جبيرة من الحضارة والرقى (٥٩) .

أما زرياب : أبو الحسن على بن نافع (١٧٣ — ٢٣٨ هـ / ٧٨٩ — ٨٥٢ م) ، المغنى ، الموسيقى ، فقد بدأ حياته في المشرق في كنف العباسيين في عصر الخليفين العباسيين المهدي ، وهارون الرشيد ، وقد تكاملت له كل أسباب النبوغ والتفوق ، فقد كان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، عذب الصوت ، رخييم الأنامل . ولقد هاجر الي الأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان وصوله في عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، وخرج الأمير عبد الرحمن الأوسط لاستقباله بنفسه ، وما أن سمع غناؤه وحديثه ، حتى شغفت به ، فغمره بفضله وانعامه ، وأجرى عليه من الرواتب ، والأرزاق ، الشيء الكثير ، وقدمه على سائر المغنين .

وكان وصول زرياب الى الأندلس ، بداية عهد جديد من التطور الاجتماعى ، وخطوة حقيقية في سبيل التقدم والازدهار ، لا في مجالات الطرب ، والغناء ، والموسيقى فحسب ، بل في مجالات النمو الاجتماعى والحس الذوقى ، والسمو بالآداب ، ومختلف مظاهر السلوك ، حيث جلب زرياب الى الأندلس ، آخر ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية ، من تطور في المشرق ، مغيرا تلك الحياة العسكرية الجافة ، التي صبغت بلاد

(٥٩) انظر ترجمة عباس بن فرناس الواردة في : الحميدى ، ص ٣٠٠ . وابن حيان : المقتبس ، نشر ميلتشور انطونيا ، ص ١٤٤ . ونشر محمود على مكى : التعليقات ، ص ٥١١ ، والمقرئ في نقح الطيب ، ج ١ / ١٣٣ ، ٤ / ١٢٩ . الضبى : البغية ، ص ٤٣١ . ابن عبد ربه : العقد الفريد : طبعة سعيد العريان ٢٥٧/٥ . والثعالبي : يتيمة الدهر — ج ١٦/٢ .

وكتاب « جاينجوس » تاريخ الامة الاسلامية بأسبانيا ، ص ٤٢٦ ، الجزء الاول .

الأندلس فترة طويلة ، حيث ظلت همها حياة البداوة ، والخشونة والجفاف ، الى نهايات القرن الثانى من الهجرة / الثامن الميلادى •

والحق أن زرياب قد قابل الجميل بالجميل ، وأخلص للأندلس أيما اخلاص ، وعمل على النهوض بالمجتمع الأندلسى ، لكي يصل به الى مستوى المجتمع العباسى فى بغداد ، مستفيدا من الحماية والتشجيع ، اللذين وفرهما له أمير الأندلس ، حيث يذكر بعض المؤرخين أنه قد جعل بين داره ودار زرياب ، بابا خاصا ، يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع ، وصوته العذب (٦٠) • ويذكر ابن حيان ، أن الأمير عبد الرحمن ، أنزله فى منية نصر (٦١) ، التى أخذت اسمها ، من اسم الفتى نصر ، كبير غلمان القصر ، وأكثرهم قربا الى الأمير ، والذي هلك فى محاولة سم الأمير عبد الرحمن ، بغرض نقل الحكم من بعده الى أبنه الأمير عبد الله ، ابن زوجته طروب (٦٢) •

وما من أحد كتب فى تاريخ الأندلس ، الا وأشار الى الأهمية الكبرى لزرياب — ذلك الشرقى الذى استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة الى حال الحضارة عن طريق : تحبيب هذه الأمة فى الموسيقى ، وتنظيم أسلوب حياتها اليومى (٦٣) •

-
- (٦٠) عبد الشافى غنيم : تاريخ الاندلس ، عهد الامارة .
(٦١) ابن حيان : المقتبس ، طبعة مكى ، ص ١٣ .
(٦٢) بالنسبة لمنية نصر ، انظر تعليق الدكتور محمود على مكى فى ملاحظاته ، على كتاب المقتبس لابن حيان — التعليق رقم ٥٦ ، ص ٤٣٤ ، وكذلك الروض المعطار ، ص ١٨٧ .
وبالنسبة لقصة الفتى نصر مع الأمير عبد الرحمن ، انظر :
ابن حيان : تحقيق مكى ، ص ٨ — ١٢ ، وانظر ، ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٧١ ، الترجمة الاسبانية .
(٦٣) انظر عن حيلة زرياب وآثاره فى الاندلس :
ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ١٣ ،

ولقد واجه عصر الأمير عبد الرحمن خطرا خارجيا ، تمثل في هجمات النورمان على الأندلس — وقد قاموا بهجومهم الأول على الأندلس في عام ٢٢٩ هـ ، الموافق ٨٤٤ م ، متجهين الى ناحية أشبيلية ، ويذكر لنا العذري :

« أنه في سنة تسع وعشرين ومائتين ، ورد كتاب وهب الله بن حزم ، عامل الأشبونة ، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركبا للمجوس ، ومعها أربعة وخمسون قاربا . فخرجت الكتب الى العمال بالاحتراس ^(٦٤) . ولكن ذلك لم يمنع من أن يصل التطور الثقافي والعلمي ونمو الحركة التعليمية في الأندلس ، حيث كان الأمير عبد الرحمن الأوسط ، على حد التعبير الوارد في دائرة المعارف الاسلامية بأنه كان « راعيا وحاميا لكافة الفنون والعلوم » ^(٦٥) ، كما أن عهده عرف بعهد « السلام الطويل » ^(٦٦) .

= الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٩٥ . ولعل أطول ترجمة لزياب ، ودوزه في الأندلس أوردتها المقرئ في نفح الطيب ، ج ٤ من ص ١١٧ — ١٢٩ — تحقيق محمد عبد الحميد .

ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، الترجمة الاسبانية .

جارشيا غوميث : الشعر العربي الأندلسي ، ص ٣٢ ، ٣٣ .
Garcia Gomez, Poesia Arabego Andaluza, p. 32.

احسان عباس : أخبار الغناء والمغنين في الأندلس ، مجلة الأبحاث ، آذار ١٩٦٣ .

على راضى : الأندلس والناصر ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
يجودت الركابى : الأدب الأندلسي ، ص ١٧ .

وانظر أيضا مقالة المستشرق الأسباني « خوليان روبرا » .
Ribera, J. : La Musica de las Gantigas.

(٦٤) العذري : نصوص عن الأندلس ، ص ٩٨ — ١٠٠ .

ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ .
The Encyclopedia of Islam, Vol. 10, p. 5g.

(٦٥) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٥٣ (النص الانجليزي)

(٦٦) سواريث فرنانديث : لويس ، تاريخ اسبانيا ، ص ٣٤ ، ٣٥ .
Suarez : Historia de Espania.

ولقد عقد ابن حيان فصلا لذكر أولى النباهة في دولة الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، يمكن أن تظهر منه بعض ملامح التطور الثقافي والعلمي ، خلال هذه الحقبة (٦٧) .

ونختتم الحديث عن عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بقول ابن القوطية :

« لقد سار في الناس بخير سيرة ، والتزم اكرام أهل العلم ، وأهل الأدب والشعر في دولته ، واسعافهم في مطالبهم كلها » (٦٨) .

تولى الأمير محمد (٢١٧ — ٢٧٣ هـ / ٨٣٢ — ٨٨٦ م) ، حكم الأندلس ، بعد وفاة والده الأمير عبد الرحمن في عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، حيث كان الأمير قد أوعز بذلك الى وزرائه وأهل خدمته ، ويقول ابن حيان : « كان الأمير عبد الرحمن قد كشف عن مذهب ولده ، ولدا ولدا ، وعجم أخلاقهم اختبارا فوجد محمدا منهم راجحا لهم بجلاله ، فاضلا باعتدال أحواله ، فأظهر تفضيله عليهم ، بعد علم منه بهم » (٦٩) . ويصفه الحميدى ، بأنه كان محبا للعلوم ، مؤثرا لأهل الحديث ، عارفا ، حسن السيرة (٧٠) .

والحقيقة أن عصر الأمير محمد ، قد شهد استمرارا لفترة الازدهار ، التي سادت خلال حكم والده عبد الرحمن ، الا أنه كان أكثر ميلا للحرية ، فلم يمكن الفقهاء من سلطانهم المطلق ، بل انه سمح بالقيام بتدريس علوم جديدة في الأندلس ، مثل علوم الحديث . ولم يقصر الأمر على المدونة ، أو على تعاليم مالك بن أنس ، وموقف الأمير محمد بن بقى بن مخاد ، يكفى للدلالة على هذه الحالة ، وأنقل هنا قصة هذا الفقيه مع فقهاء عصره والأمير محمد .

عاد الفقيه بقى بن مخاد (توفي ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) بعد رحلة طويلة

(٦٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٧٦ — ٨٨ .
(٦٨) ابن القوطية : افتتاح الاندلس — طبعة مدريد ، ص ٥٨ .
(٦٩) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ١٠٤ .
(٧٠) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١١ .

« بما جمع من العلوم الواسعة ، والروايات العالية ، والاختلافات الفقهية ، وغاظ ذلك فقهاء قرطبة ، أصحاب الرأي والتقليد ، الزاهدين في الحديث ، العارين من علوم التحقيق ، المقصرين عن التوسع في المعرفة ، ففسدوه ، ووضعوا فيه القول القبيح ، حتى ألزموه البدعة ، وشنئوه الى العامة ، وتخطى كثير منهم برميهم الى الانحاد والزندقة ، وتشاهدوا عليه ، بغليظ الشهادة ، داعين الى سفك دمه ، وخاطبوا الأمير محمداً في شأنه ، يعرفونه بأمره ، ويكثررون عليه بكل ما يرجون ، من الوصول الى سفك دمه ويسألونه تعجيل الحكم فيه ، فاشتد خوفه ، بقى جداً ، واستتر خوفاً على دمه ، وعمل على الفرار من الأندلس ، ان أمكنه ذلك ، فأرشدته الله الى التعلق بحبل هاشم بن عبد العزيز ، وسؤاله الأخذ بيده ، وكتب الى الأمير محمد ، ينشده الله تعالى في دمه ، ويسأله التثبيت في أمره ، والجمع بينه وبين خصومه ، وسماع حجته ، فيأتي في ذلك بما يوفقه الله له ، فألقى الله في نفس هاشم الاحتقار بشكواه ، والاعتناء بأمره ، فشمّر له عن ساعده ، وأوصل كتابه الى الأمير محمد ، يشرح حاله ، فعطف عليه ، واتهم الساعين به اليه ، فأمر بتأمين بقى بن مخلد ، واحضاره مع الطالبين له فتناظروا بين يديه ، فأدلى بقى بحجته ، وظهر على خصومه ، واستبان للأمير حسدهم اياه ، لتقصيرهم عن مداه ، فدفعهم عنه ، وتقدم اليه بمطأطة قدمه ، ونشر غلمه ، وأمر بإيصاله اليه في زمرة الفقهاء ، والرفع من منزلته ، فاعتلى درة العلم ، ولم يزل عظيم القدر عند الناس ، وعند الأمير محمد ، الى أن مات رحمه الله » (٧١) .

- (٧١) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب ، ص ١٥٤ .
 ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨١ — ٨٣ .
 ابن حيان : المقتبس : تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢٤٥ — ٢٥٠ ، وكذلك ص ٢٦١ — ٢٦٥ .
 هذا ، وقد وردت ترجمة : بقى بن مخلد في معظم كتب التراجم وأشير الى بعضها :
 الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٧٧ ، ابن بشكوال : الصلوة ، ص ١١٦ .
 الضبى : بغية الملتبس ، ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

ولقد عمدت الى اثبات هذه الرواية الطويلة ، لأن لها معنى خاصا في العملية التعليمية ، حيث فتحت الباب على مصراعيه ، لانتشار علم الحديث في الأندلس ، ذلك العلم الذي كانت له بدايات متواضعة ، بدأت منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، ولكنها لم تزدهر وتنتشر الا في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن . ويقول ابن الفرضي ، عن أثر بقى ابن مخلد : انه هو « الذي نشر حديثه ، وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ ، انتشر الحديث في الأندلس ، ثم تلاه ابن وضاح فصارت الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك ، حفظ رأى مالك وأصحابه » (٧٢) .

ويعترف المستشرق الأسباني الكبير غونثاليث بالينثيا ، المتخصص في الدراسات العربية ، بقيمة المحاولة ، التي كادت أن تكلف بقيا حياته ، فيقول :

« أما في بقية صنوف الآداب ، فقد مضى الناس على ما قرره السلف من المناهج ، ففي دراسة الفقه ، مضوا على الأسلوب التقليدي ، ولم يشذ عن ذلك ، الا المحاولة الجريئة التي قام بها بقى بن مخلد ، عندما أراد أن يلحق الناس أصول مذاهب فقهية أخرى ، غير المذهب المالكي ، كالذهب الشافعي مثلا ، وقد كادت جراته هذه أن تكلفه حياته ، ولولا تدخل الأمير محمد بنفسه في الأمر — استجابة لشكوى تقدم بها الفقهاء اليه في أمر بقى — لما نجا هذا الأخير من هلاك محقق فقد أقر الأمير بقيا على التدريس كما يريد ، وأتاح الفرصة بذلك

= ومن الدراسات الحديثة : الأوسى : فصول من الأدب الأندلسي ، ص ٤٦ .

محمود على مكي : رسالته للدكتوراه المذكورة ، ص ٢٠٦ . رييرا : التعليم بين المسلمين الأسبان ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٧٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨١ ، الديباج المذهب ، ص ٢٤٠ .

• للمذهب الشافعي في الأندلس « (٧٣) » •

ويذكر ابن حيان ، أنه « كان من طباع الأمير محمد بن عبد الرحمن الأناة والحلم ، قد ظاهرهما على حليتي اليقظة والفهم ، وكان مكرما لأعلام الناس ، مقدما على طبقاتهم ، لذوى الفقه والعلم منهم ، يرفع مجالسهم ، ويزلف رسائلهم ويسعف رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك التحذر من تحاسدهم ، والتوقف على السماع من بعضهم في بعض ، ويسعى لاستئلافهم ، والاعراض عما يشاكسون فيه ، ولا يؤثر شيئا على السلامة منهم ، يعيد القول في ذلك ويبدئه » (٧٤) •

ولذلك لم تكن حادثة بقى بن مخلد ، هي الحادثة الوحيدة التي تدخل فيها الأمير شخصيا لانقاذ عالم من علماء المدينة ، من سورة غضب الفقهاء ، ومن تعصبهم الرافض لكل جديد — ويحكى لنا ابن حيان أيضا ، موقفه من العالم محمد بن عبد السلام الخشنى (المتوفى ٢٨٦ هـ / ٨٩٨ — ٨٩٩ م) ، فيقول :

« لما سعى بالفقيه أبى عبد الله الخشنى ، الى ما نسب اليه ، فأدرج في طى المطالبة معه ، وأخيف في سجنه اخافة بقى ، التي أدته الى الاستخفاء ، لم يقتد به في ذلك لصرامته ، واباء نفسه ومناقبه ، وأبى أن يستخفى ، وقال : ما كنت أستخفى لقول الحق ، ولا أخشى في الله أحدا ، وإن أصب في الله ، فطريق الخير سلك بى ، فميل في الطلب عليه ، وأسىء القول فيه •

وكثر على السلطان في شأنه حتى أمر محمد بن حارث ، متقلدا أحكام السوق ، باحضاره ، ووقفه على ما ينسب اليه ، ومعرفة ما عنده . وكان ابن حارث ، متقلدا أحكام السوق ، موصوفا بالأفن والجهالة ، فأحضر الخشنى معنوتا به ، فلما مثل بين يديه خشن سؤاله ، وقال له :

إيه يا عدو الله وعدو نفسه ! أنت القائل ان فى القرآن ناسخا ومنسوخا؟ فقال الخشنى : ان الله تعالى يقول فى محكم كتابه : « ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها » (٧٥) ، (فسطى عليه) سطوة غشوما ، (فعلم بذلك وليد بن عبد الرحمن بن غانم ، متولى المدينة) (٧٦) ، فدخل الى الأمير محمد ، فأعلمه بما أحدثه صاحب السوق محمد بن حارث على محمد بن عبد السلام ، وحكى له قوله له • فضحك الأمير محمد حتى وضع كفه على وجهه ، ثم قال : يا وليد ، لقد لقي الخشنى من ابن حارثنا عنتا • لكأنى أنظر اليه أعرابيا فى ثماته ، بدويا فى لهجته ، يكلمه بما لا يفهمه • اخرج الساعة الى الجاهل المائن ابن حارث ، فعنفه أشد التعنيف وأعلمه أنه لولا عذرنا إياه ، لجهله بهذا الشأن الذى ليس بعذر لنا فى تولية مثله لعاقبناه على فعله ، ومر باطلاق محمد بن عبد السلام ، ثم اعتذر عنا اليه لما نيل منه ، وقل له فليطأ من جأشه ، ويعمر مجلسه ، وينشر علمه » (٧٧) •

ولذلك كان الخشنى يبدأ مجالس تعليمه ، بالدعاء للأمير محمد ، ويختم هذه المجالس بالدعاء له أيضا على ما يذكر ابن حيان فى الصفحة المذكورة بها الجملة السابقة •

ويورد ابن حيان بعد ذلك ، روايات سابقة من المؤرخين لهذه القصة التى تلقى ضوءا باهرا على عدة قضايا ، قد أعود الى بحثها فى مجالات أخرى (٧٨) لتتشابهها مع ما أورده ابن القوطية عن القاضى « أمية بن

(٧٥) قرآن كريم : سورة البقرة ١٠٦/٢ •
 (٧٦) ما بين القوسين ، الأول وضعته ليستقيم الحديث لأنه ناقص من النص ، والثانى من تعليق الدكتور مكى فى ص ٢٥٢ ، من المقتبس •
 (٧٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٢٥٠ — ٢٥٢ •
 (٧٨) نفس المصدر ، ص ٢٥٢ — ٢٦٢ •
 أما عن ترجمة محمد بن عبد السلام الخشنى ، فننظر بالاضافة الى ذلك : الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٦٣ — ٦٥ • النباهى : قضاة الاندلس ، ص ١٣ ، ١٤ • الضبى : بغية الملتبس ، ص ١٠٣ • السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٥٢ • المقرئ : نقح الطيب ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٥ ، ص ٩٧ • ابن حيان : المقتبس ، نشر انطونيا ،

عيسى — أحد وزراء الأمير — واهتمامه بحادث تعليم الأسرى الموجودين بدار الرهائن ، وما لذلك من دلالة على تدخل الدولة في التعليم » (٩٧) •

ومثال آخر على اهتمام الأمير محمد بحماية العلماء ، هو موقفه من الفقيه القرطبي قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار (المتوفى ٢٧٨ هـ / ٨٩٠ م) ، فقد رخل قاسم الى المشرق ، وتعلم على يد أساتذة المذهب الشافعي هناك ، وحينما عاد الى الأندلس ، اصطدم بعقلية فقهاء المالكية المتمسكة بالتقليد والحفاظ على آراء من سبقهم ، وعدم قبولهم للتجديد ، وقرر أن ينشر بين مواطنيه مبادئ المدرسة الجديدة ، عن طريق التعليم والتأليف ، ولقد تمكن من الحصول على حماية الأمير محمد الذي عينه وثائقيا خاصا به (٩٨) •

ونختتم الحديث عن هذا الأمير بما قاله عنه أقرب المؤرخين لعصره بأنه كان « مكرما لأعلام الناس من أهل العلم » (٩٩) ، وكان « شغوفا بالبيان ، مؤثرا لأهل الآداب » (١٠٠) •

ولقد أدى الاهتمام الذي بذله كلا الأميرين عبد الرحمن ومحمد انى ازدياد تطور الحركة الثقافية ونموها ، بحث أنه حينما تعرضت الأندلس لفترة طويلة من التمزق ، امتدت على مدار حكم الأمير عبد الله (من ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م) ، لم تتأثر هذه الحركة ، ورغم أنها كانت أسوأ فترات حكم أسرة بنى أمية سياسيا ، الا أنها ظلت محتفظة بضوئها الثقافي والعلمي ، ويصف لنا المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان ، الجو- العلمى والثقافى المحيط بالأمير عبد الله قائلا : « كان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة ، ويعدها (يقصد قبل

(٧٩) ابن القوطية : افتتاح الأندلس — تحقيق روبرا ، ص ٩٤ •

(٨٠) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ •

غونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأسبانى — النص الأسبانى ،

ص ٢٧٧ •

(٨١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس — طبعة مدريد ، ص ٧١ •

(٨٢) ابن القوطية : افتتاح الأندلس — طبعة مدريد ، ص ١٤٥ •

تتولى الامارة وأثناء حكمه) ، أعمر مجالس الملوك بالفضائل ، وأنزهها عن الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الأدب والعلم » (٨٣) ، ثم يواصل الحديث قائلاً : « كان في مقدمة أصدقائه وجلسه ، زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد بن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمرائها منذ الأمير محمد حتى الناصر ، وموسى بن محمد بن جرير ، المعروف بالزاهد ، وسعيد بن عمر العكي ، وعبيد الله ابن يحيى بن ادريس الخالدي ، وسعيد بن عبد ربه ، ابن أخى صاحب العقد ، وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب . وكان من أخص وزرائه في تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان : عبد الملك بن جهور وعبد الملك بن شهيد . وكان من عادته أن يلجأ الى العلماء وأهل الرأي ، في المشورة ، ويستعين بأرائهم وأحكامهم فيما يواجهه من أحداث وخطوب ، وكان بقى بن مخلد فقيه العصر ، وأعظم علمائه ، أكثرهم حظوة لديه ، وكان يبجله ، ويزوره في داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه » (٨٤) .

ويشهد عصر الأمير عبد الله ، نوعاً آخر من العلوم ينساب بين القرطبيين ، ويتعارض تعارضاً شديداً مع عقلية فقهاءه ، الذين كان يستشيرهم ويقربهم دائماً . ظهر محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح (٢٦٩ / ٣١٩ هـ - ١٨٢ / ٩٣١ م) ، الذى يعتبر أول فيلسوف أندلسي ، وكان « أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة ، على يد صديق لأبيه ، ونشأ محباً للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاماً . ومن العجيب أنه كان في هذه السن المبكرة ، أستاذاً له تلاميذ يعلمهم » (٨٥) . وفي نص آخر ، يوصف ابن مسرة « بأنه أول مفكر أصيل أطلعه

(٨٣) نقل ذلك عن ابن حيان ، طبعة انطونيا ، ص ٣٤ - ٣٦ .

(٨٤) عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، ص ٥٦ .

(٨٥) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

الأندلس الاسلامى ، وكان يستر آراءه ، وراء نسكه وزهده ، وكان أبوه عبد الله من أهل البيع والشراء ، وكان يهوى آراء المعتزلة ، وكان صديقا لخليل الغفلة (انظر ترجمة خليل الغفلة فى علماء الأندلس طبعة القاهرة — ج ١ ، ص ١٦٥ — وطبعة مدريد ، ص ١٢٠ ، ١٢١) ، وهو الذى علم محمدا ، علوم الدين والفلسفة « (٨٦) » .

ويبدو أن ابن مسرة ، قد بدأ فى تعليم مبادئ الفلسفة والاعتزال فى الأندلس واتخذ لذلك مقرا بعيدا عن الرقباء ، فى منزل له بجبل قرطبة ، ولكن الأراجيف والشائعات تناشرت ودارت حول طبيعة تعاليمه مما جعله يخاف على نفسه . ولقد قلت أن أسوأ فترات حكم الأسرة الأموية فى الأندلس ، كانت فترة الأمير عبد الله ، ولذلك فلقد رأى الأمير أن يسكت عن ابن مسرة وأتباعه ، خوفا مما قد يؤدى اليه من فتنة جديدة ، ولكن ابن مسرة اتهم بالزندقة ، « فخرج فارا ، وتردد بالمشرق مدة ، فاشتغل بملاقة أهل الجدل ، وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف الى الأندلس ، فأظهر نسكا وورعا ، واغتر الناس بظاهره ، فاختلفوا اليه ، وسمعوا منه ثم ظهر الناس على سوء معتقده ، وقبح مذهبه ، فانقبض من كان له ادراك وعلم ، وتمادى فى صحبته آخرون غلب عليهم الجهل ، فدانوا بنجلته » (٨٧) .

واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، « ففرقه تبلغ به مبلغ الأمانة فى العلم والزهد ، وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه فى الوعد والوعيد ، وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس ، الجارية على مذهب التقليد والتسليم » (٨٨) .

ولقد اعتبره الدكتور محمود على مكى « أول صوفى فى أسبانيا

(٨٦) غونثالث بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٣٢٧ ، ترجمة حسين مؤنس .

(٨٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٨٨) نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

الاسلامية» (٨٩) • وليس من شك في انتشار تعاليم ابن مسرة ، انتشارا واسعا (٩٠) ، مما سبب قلقا للدولة ، على عهد عبد الرحمن الناصر ، وبأشير الى ذلك عند حديثي عن عهد الخلافة (٩١) •

وهكذا تطورت الأمور التعليمية ، على عهد الأمانة ، تطورا كبيرا ، فتعددت مظاهر التعليم ، وزادت أماكنه ، وكثر عدد الطلاب والمعلمين ، وينقل عن القاضي صاعد الطبقي (المتوفى ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) قوله :

« ان هذه البلاد استمرت بعد الفتح لا يعنى أهلها بشيء من العلوم ، ألا بعلوم الشريعة ، وعلم اللغة ، الى أن توطد الأمر لبنى أمية ، فتحرك ذوو الهمم ، لطلب العلوم » (٩٢) •

ومن هذه المذاهب التي حاولت في فترة مبكرة أن تجد لها أرضا في الأندلس المذهب الشيعي ، وهذا المذهب بالذات واجه مقاومة عنيفة من الدولة ، لأنه يقوم على سلب بتي أمية حقهم في الحكم ، ويقصر ذلك على آل البيت •

(٨٩) محمود مكي : الرسالة المذكورة ، ص ٢٢٢ •
وانظر أيضا ترجمة لابن مسرة نشرها « بدرو شاليتا » ، ضمن تحقيقه للجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ، ص ٣١ •
(٩٠) أنظر الكتاب الذي وضعه المستشرق الأسباني آسين بلاثيوس عن ابن مسرة ومدرسته ، في مدريد

Asin Palacios : Ibn Masarra y Su Escuela.

(٩١) أنظر في ذلك :
ابن حيان : المقتبس — الجزء الخامس ، تحقيق بدرو شاليتا ، ص ٣٥ •

محمد عبد الله عنان : السفر الخامس من المقتبس ، ص ١٣١ •
(مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية — مدريد ، العدد ١٣ ، ٦٥ — ١٩٦٦) •

(٩٢) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة في رأى ابن رشد ، ص ٧ •

ولقد نشأ الفكر الشيعي ، بعد وفاة الرسول تقريبا ، وازدهر خلال الصراع بين علي ومعاوية ، واستيلاء الأمويين على الخلافة في المشرق ، ومحاولتهم التخلص من مطالبات الأسرة الهاشمية بالحكم ، واستطاع المتشيعون لعلي بن أبي طالب ، بالتحالف مع أبناء عمهم من بني العباسي ، الاطاحة بحكم أسرة بني أمية في دمشق ، وفي هذه اللحظات تمكن العباسيون من الاستحواذ على السلطة وحدهم ، وعملوا على القضاء على الأمويين والعلويين على حد سواء — مما دفع بأصحاب المذهب الشيعي الى العمل سرا ، حتى تمكنوا من تحقيق بعض النجاح في فارس وشمال أفريقيا ، وحاولو التسرب الى الأندلس — يقول الدكتور مكى : « أن الأمر لم يخل ، بكل تأكيد ، من ثورات ذات طابع شيعي ، ولكنها كانت مشتتة ، وقليلة النجاح » (٩٣) .

« ولقد كان من بين هذه الثورات ، والمؤامرات الكثيرة ، التي تجرّد عبد الرحمن الداخل للقضاء عليها بيد حازمة ، أخبار فتنة ، قام بها جزير الأندلس ، يقودهم معلم صبيان ، يسمى « شقيا » ، جمع بين الحماس الديني ، والشعبذة ، وزعم أنه ينتسب الى علي وفاطمة » (٩٤) .

ويوافق المستشرق الأسباني ، غونثالث بالينثيا ، على أن ذلك ، كان المقصد منه ، القضاء على محاولة ادخال الفكر الشيعي ، حين يذكر تلك القصة عند حديثه عن نشأة التفكير الفلسفي في الأندلس ، ويذكر : « وقد قضى بعنف على الحركات الأولى التي رمت الى التجديد في ميدان الفقه ، خاصة ، وكان لها في نفس الوقت طابع سياسي ، ومن هذه

(٩٣) محمود علي مكى : رسالته المذكورة ، ص ٣ .
وانظر مقال للدكتور محمود علي مكى عن التشيع بالأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمطرد — العدد ٢ (١٩٥٤) .
(٩٤) غونثالث بالينثيا : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٢٢٣ ، و ص ٢٢١ من النص الأسباني .

الحركات تلك التي قام بها « شيعيا بن شقيا » ، وهو مؤدب صبيان ، نحا نحو التعصب والشعبذة ، وزعم أنه من أبناء على وفاطمة ، وانتحى بناحية من شنتبريه Santabria وقد قضى عبد الرحمن الداخل عن هذه الثورة سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٩ « (٩٥) » .

ويحدد الدكتور مكى القضاء على هذه الثورة فيما بين سنتي ١٥٠ ، ١٦٠ هـ / ٧٧١ — ٧٨١ م (٩٦) .

ونشير أيضا في هذا المجال الى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، من أهل وادى الحجارة (توفي ٣٠٥ هـ / ٩١٧ — ٩١٨ م) ، ذلك الرجل الذى « لم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط ، متقن ، حسن التوجيه للحديث ، صدوق » ، ولكنه لم يذهب مذهب مالك ، وكان « يزن بالتشيع لشيء كان يظهر منه ، فى حق معاوية رضى الله عنه » (٩٧) .

ومن المذاهب التي انتشرت فى الأنندلس خلال هذه الحقبة ، ووجدت مقاومة من المذهب المالكي ومن الدولة ، مذهب الاعتزال ، الذى بدأ فى العراق ، وانتشر فى الشرق ، حتى أصبح فى فترة ما ، المذهب الرسمى للدولة العباسية .

ولأسباب سياسية ، ودينية ، واختلافات فقهية فى كثير من

-
- (٩٥) نفس المرجع ، ص ٣٢٤ « النص العربى » — ترجمة د. حسين مؤنس .
(٩٦) ابن حيان ، المقتبس — طبعة القاهرة ، ص ٢٦٦ (تحقيق د. محمود مكى) .

مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .
(٩٧) القرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ . الحميدى : جنوة المقتبس ، ص ٣٩ ، الضبى : بغية المقتبس ، ص ٥٥ ، ابن حيان : المقتبس ، تعليق الدكتور مكى رقم ٤٥٤ ، ص ٥٧٧ ، ومقالته عن التشيع فى الأنندلس — مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمطريد ، العدد الثانى — ١٩٥٤ م .

المسائل ، كان المذهب المالكي من أكبر أعداء المعتزلة ، من الناحية الفكرية ، كما كان الأمويون من أكبر أعدائهم في الجانب السياسي .

ولم تعدم الأندلس بذورا للاعتزال على أرضها ، ومن أشهر معتزلي أسبانيا في تلك الفترة ، خليل بن عبد الملك المعروف بخليل « الفضلة » أو « الغفلة » ، وهو من أهل قرطبة ، وكان مشهورا بالقدر ، لا يتستر به ، « ولما مات خليل ، أتى أبو مروان بن عيسى ، وجماعة من الفقهاء ، وأخرجت كتبه ، وأحرقت بالنار ، إلا ما كان فيها من كتب المسائل » (٩٨) ، ولعل هذه هي أول مرة تحرق فيها كتب على أرض أسبانيا الإسلامية ، وسنرى كيف سيتكرر هذا الحادث مرات على مدار تاريخ هذه المنطقة .

ومن الغريب أن بقى بن مخلد ، الذى تعرض لمضايقة الفقهاء له ، كان من الذين هاجموا خليل ، وحرمه من حضور مجلسه ، بل أنه هدده بسفك دمه « فقال له بعد سؤاله عن عدة آراء ، ومنها رأيه في القرآن : والله لولا حالتك ، لأشرت بسفك دمك ، ولكن قم فلا أراك في مجلسي بعد هذا الوقت » (٩٩) ، مما يبين لنا السيطرة التامة للمذهب المالكي ، ودرجة التعصب التى وصلت الى التهديد بسفك الدم ، مما دفع الى نشأة المدارس السرية ، تحت رايه ظاهرية من الزهد والتقشف ، على ما أشرنا اليه من قبل في حالة ابن مسرة — أو الى التزام المنزل ، والبعد والتدريس ، مثلما حدث مع القرطبي «حسن بن سعد بن ادريس ابن رزين بن كسيلا الكنانى (المتوفى ٣٣٢هـ / ٩٤٣ — ٩٤٤م) ، «الذى كان يذهب الى النظر ، وترك التقليد ، ويميل الى قول محمد بن ادريس

(٩٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ « طبعة القاهرة » — و ص ١٢٠ ط . مدريد .

بالنشا : الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٢ من « النص الأسبانى » .

راضى : الأندلس والناصر ، ص ٢٠ .

(٩٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس — ط ، مدريد ، ص ١٢٠ .

الشافعي ، وكان يحضر الشورى ، ولما رأى الفتيا دائرة على مذهب المالكيين ، ترك شهودها ، ولزم بيته « (١٠٠) » .

كما ظهرت في هذه الفترة ، نحل ومذاهب أخرى ، لا أجد داعية لذكرها لأنها حوربت محاربة شديدة ، وقضى عليها ، وظل المذهب المالكي سائدا ومنتشرا الى فترة طويلة ، ويصف ابن الخطيب حالة أسبانيا الاسلامية قائلا :

« أحوال هذا القطر في الدين ، صلاح العقائد ، سنية ، والنحل فيهم معروفة ، فمذاهبهم علي مذهب مالك بن أنس ، امام دار الهجرة ، جارية » (١٠١) .

(د) عصر الخلافة :

يطلق اسم « عصر الخلافة » تجاوزا على عصر الخليفة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م — ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) ، ولكن من المعروف تاريخيا ، أن عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بعبد الرحمن الثالث ، تولى الحكم سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ، وعمره ثلاثة وعشرون عاما ، وظل ستة عشر عاما كاملة مستخدما لقب أمير فقط ، ولم يتسم بالخلافة ، واعتبارا من عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م ، اتخذ الأمير عبد الرحمن الثالث لقب الخلافة ، وتسمى بالناصر لدين الله (١٠٢) — وليس هنا مجال الحديث عن التاريخ السياسي ، ولكن المهم الإشارة الى أن الأندلس في عصر الناصر ، قد وصلت الى درجة

(١٠٠) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ط . القاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٠١) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ١٣٤ .

(١٠٢) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شاليتا ، ص ٢٤١ ، شانثيت البرنوسى ، اسبانيا الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣١٥ ، سواريث فرنانديث : مجمل التاريخ العالمى ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ، وتاريخ اسبانيا ، ص ٦٩ .

من الاستقرار السياسى ، لم تعرفها من قبل ، بل انها وصلت الى قمة مجدها السياسى خلال فترة حكم عبد الرحمن الثالث ، وذلك ترك آثاره على كافة مجالات الحياة الأخرى .

وبالنسبة لمجال تشجيع العلوم ، والعناية بالتعليم ، على عهد عبد الرحمن الناصر ، فاننا نجد أنفسنا أمام فترة من الفترات التى تفخر بها الأندلس والتاريخ الأندلسى الى يومنا هذا ، فاننا نجد أنفسنا أمام صفحة مشرقة من صفحات عبد الرحمن الناصر ، لا يمكن أن تنكر ، بل على العكس ، يعترف بها كافة المؤرخين ، من المشرق والمغرب على حد سواء .

اننا نجد على عهد الناصر ، وربما للمرة الأولى فى التاريخ ، ما يمكن أن نطلق عليه بالتعبير الحديث ، اسم « وزير الدولة للعلم » ، فلقد قام عبد الرحمن الثالث ، بعد مضى فترة من حكمه ، بندب ابنه الحكم ، ولى عهده ، للقيام بمهمة رعاية العلم والعلماء ، فى مملكته ، وأنقل ذلك عن صاعد الطبقي (توفى ٤٦٦ هـ / ١٠٢٣ م) ، حيث يقول فى كتابه « طبقات الأمم » :

« ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة ، انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله ، ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وذلك فى أيام أبيه ، الى العناية بالعلوم ، والى ايثار أهلها ، واستجلب من بغداد ، ومن مصر ، وغيرهما من ديار المشرق ، عيون التأليف الجليلة ، والمصنفات الغريبة ، فى العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها فى بقية أيام أبيه ، ثم فى مدة ملكه من بعده ، ما كاد يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة » (١٠٣) .

ولهذا الحادث أثره الكبير فى الحياة العلمية فى الدولة الأموية ،

لأن اختيار الحكم بالذات لهذه المهمة ، وهو الذى « تهيأ لذلك ، لفرط
مجبته للعلم ، وبعد همته فى اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه الى
التشبه بأهل الحكمة من الملوك » (١٠٤) — قد صبغ الحركة العلمية
على عهد عبد الرحمن الناصر ، بعدة مظاهر :

أولاً — فتح الباب على مصراعيه ، لاستجلاب العلماء المشارقة الى
الأندلس • ومن الصعب ، تحديد عدد الوافدين ، الذين وفدوا فى
هذه الفترة لكثرتهم ، ولكن من الواضح أن الحكم كان يختار
عينات جيدة من الأساتذة ، أمكن لها أن تملأ جوانب الأندلس
عامة ، علما وتعلما ، ومن أبرز من قدم فى هذه الفترة ،
أحمد بن أبى عبد الرحمن القرشى ، وهو « من أهل مصر ،
وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله اليها فى (محرم ٣٤٣هـ /
٩٥٤م) فأكرم الناصر مثواه ، وكان فقيه أهل مصر » (١٠٥) —
وأبو على القالى البغدادى (٢٨٨ — ٣٥٦هـ = ٩٠١ — ٩٦٧م)
ويجب أن نتوقف قليلا أمام تلك الشخصية العلمية الباهرة
لسببين : أولهما قيامه بتأديب الحكم المستنصر ، مما سترك
أثره على الخليفة فيما بعد ، وثانيهما المجموعة الهائلة من
الطلبة ، الذين تلقوا العلم على يديه فى قرطبة ، علاوة على
المؤلفات التى خلفها لنا •

يقول المقري : « ان الناصر ، هو الذى استدعاه من بغداد » (١٠٦) ،
بينما تذكر مراجع أخرى كثيرة أن الحكم المستنصر ، هو الذى
استدعاه الى قرطبة (١٠٧) ، ولقد وصل الى الأندلس فى عام
٣٣٠هـ / ٩٤١م ، حيث استقبله الحكم المستنصر بالله أحسن
استقبال ، « وتلقاه بالجميل ، وحظى عنده ، وقرب منه ،

(١٠٤) صاعد : نفس المصدر ، ص ٨٨ .

(١٠٥) المقري : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(١٠٦) المقري : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

وبالغ في اكرامه » (١٠٨) • ونستخلص من الروايات التي سجلت استقبال الناصر لأبى على القالى ، مدى الاهتمام الكبير بالناحية العلمية الذى بذله الخليفة عبد الرحمن الثالث • وتجمع كتب التاريخ والتراجم ، على أن الحكم ، « الذى كان يتصرف عن أمر أبيه ، أمر الوزير ابن رماحس ، أن يجرى مع أبى على الى قرطبة ، وينلقاه فى وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكربة لأبى على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة فى موكب نبيل » (١٠٩) •

ثانيا — اعطاء هؤلاء المعلمين الفرصة للتعليم فى مساجد قرطبة ، مما ساهم فى رفع المستوى العلمى والتعليمى لأهل الأندلس ، وشجع على الرحلة من الأقاليم الى قرطبة ، ولا يعنى ذلك ، انتهاء النهضة العلمية فى عواصم الأقاليم الأخرى ، بل ان هذه الأقاليم قد أخذت حظها أيضا من عناية الخلفاء بها ، وان كانت قرطبة على أساس أنها العاصمة ، قد احتلت المكانة الأولى فى ذلك المجال • وسوف أعود الى مناقشة مسألة اعطاء المعلمين الفرصة للتعليم فى مساجد قرطبة من قبل الخلفاء عند الحديث عن تدخل الدولة فى العملية التعليمية ، فى الفصل الثالث من هذا الباب •

ثالثا — استجلاب البارزين من علماء الأقاليم الى قرطبة ، اما للاقامة بها ، أو لاعطاء بعض الدروس ، ثم العودة الى بلادهم الأصلية ، مثلما كان الحال مع أبى يحيى زكريا بن خطاب التيطلى ، الذى « رحل سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م ، وقدم الأندلس ، وكان الناس

(١٠٨) الحميدى : نفس المصدر ، ص ١٥٥ •

(١٠٩) المقرئ : النفح ، ج ٤ ، ص ٧١ ، جونثالث بالينثيا :

الفكر الأندلسى ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ من « الترجمة العربية » ، دائرة المعارف

الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ،

ص ٢٠٤

يرحلون اليه في تطيلة للسمع منه ، واستقدمه المستنصر الحكم ، وهو ولي عهد ، فسمع منه أكثر مروياته ، وسمع منه جماعة من أهل قرطبة ، وكان ثقة مأمونا » (١١٠) .

وكذلك قام الخليفة بنقل الفقيه محمد بن عيسى بن رفاعه النخولاني (توفي ٣٣٧هـ — ٩٤٨م) من أهل رية ، ولقد كان لهذا الرجل شهرة طيبة ، لم يجد ابن الفرضي بدا من الاعتراف بها حين يقول « انه كان يرحل اليه للسمع منه من قرطبة وغيرها » . وعلى الرغم من أن ابن الفرضي يتهم ذلك الفقيه بالكذب ويحاول أن يؤكد ذلك بأكثر من وسيلة الا أنه يقول « استقدم محمد بن عيسى الى قرطبة سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م ، فأقام يحدث بمدينة الزهراء بقية ذلك العام ثم انصرف الى رية ، فمات بها بعد ذلك حوالى عام ٣٣٧هـ » (١١١) . كما أن الحكم استقدم الشيخ محمد بن مروان بن زريق (توفي ٣٣٩هـ / ٩٥١م)، من أهل بطليوس ، الى قرطبة للاستفادة منه (١١٢) .

رابعاً : الاهتمام بالكتب : ولقد اشتهر عن عبد الرحمن الناصر ، حبه للكتب ، حتى بلغت شهرته في ذلك ، الامبراطور البيزنطي ، الذي رأى أن أغلى هدية يمكن أن يقدمها اليه ، هي كتاب جديد ، هو كتاب « ديسقوريدس » . ويصف المستشرق الأسباني الكبير « خوليان ريبيرا » هذه النسخة قائلاً : « انها كانت نسخة رائعة ، كتبت بحروف من ذهب ، وزينت برسوم جميلة ، تمثل النباتات المذكورة في النص ، وقد رجا العاهل الأموي الامبراطور البيزنطي ، أن يرسل له عالماً ليترجم له الكتاب ، لأنه لا يعرف اليونانية ، ولم يسهل عليه العثور على شخص عالم بها ، يستطيع أن يترجم له الكتاب ،

(١١٠) المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ .

(١١١) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

فأرسل اليه الامبراطور الراهب نيقولا ، « ليكون في خدمته » (١١٣) .

وانقسم الاهتمام بالكتب في هذه الفترة الى مظهرين :

أولهما — الحث على التأليف ، والاغداق ما أمكن على العلماء ، لكي يقوموا بتأليف الكتب ، فلقد كان « الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ، ينشط أبا على ، ويعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالافراط في الاكرام » (١١٤) ، ولهذا ، « طرز الشيخ أبو على القالى ، كتاب «الأمالى» باسم الحكم المستنصر » (١١٥) ، كما أن عبد الملك بن عمر بن محمد ابن عيسى بن شهيد ، الأديب ، المؤرخ ، ألف للحكم ، ولى العهد ، فى خلافة أبيه الناصر ، كتابا فى الآداب والوصايا ، أسماه « أصلاح الخلق » (١١٦) . كما « قام أحمد بن محمد ابن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ — ٩٤٠ م) ، بجمع ديوانه الشعرى ، البالغ أكثر من اثنين وعشرين جزءا ، للحكم المستنصر على عهد أبيه » (١١٧) .

والقاء نظرة تأملية ، على الموضوعات التى اهتم بها الحكم فى عهد والده الناصر ، يبين لنا نوع اهتماماته التى لم تقتصر على أعمال دينية ، وانما شملت الشعر ، واللغة والأدب . . الخ .

-
- (١١٣) ريبيرا : اهتمام المسلمين فى الاندلس بالكتب ، ترجمة جمال محرز ، ص ٨٦ (مجلة معهد المخطوطات العربية) .
(١١٤) المقبرى : النفح ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
(١١٥) نفس المصدر ، ص ٧٢ .
(١١٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٦٧ .
الراكشى : ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الجزء الاول ، ص ٢٦ .
(١١٧) الحميدى : الجذوة ، ص ٩٤ — ٩٦ .
الضبي : البغية ، ص ١٤٨ — ١٥١ .

ثانيهما - الحصول على مؤلفات من كافة البلاد الاسلامية ، وخاصة من بغداد ، «فأرسلوا رسلا أذكياء ، أكفاء ، الى دار السلام مزودين بمبالغ ضخمة من المال ، وأوصوهم أن يسلكوا الممكن وغير الممكن من الطرق للحصول على أهم ما تتباهى به بغداد من دور العلم ، وجواهر المعرفة ، فذهب أولئك الرسل ، واستعملوا الروية والأناة ، وبذلوا المال بسخاء ، فنجحوا في رسالتهم ، وقاموا بمهمتهم خير قيام ، وعادوا من دار الحكمة وقد نقلوا أكثر ما ترجم من المؤلفات في بغداد ، وسلموها للخلفاء ، فحفظوها بين سحورهم ونحورهم ، ضنا بها ، وحرصا عليها ، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها ، فذاعت في ربوع الأندلس ثم تخطت البحر المتوسط الى شمال أفريقيا » (١١٨) .

والنتيجة الحتمية لهذين الاتجاهين ، أعنى : الحث على التأليف ، والبحث عن الكتب في المشرق ، تضخم مكتبة قرطبة ، بصورة كبيرة ، وقيام كل من الأمراء والمواطنين بتقليد الحكام في ذلك ، مما أفسح المجال لظهور مكتبات كثيرة في الأندلس ، سوف نتناولها بالدراسة في موضعها ، عند الحديث عن المكتبات ودورها التعليمي .

وثمة جانب آخر تتجلى فيه عناية الناصر بالتعليم ، ألا وهو رعايته للعلماء والفقهاء والمعلمين ، فكان يستقبلهم في مجلسه ويمنحهم جوائزهم ، ولم يقتصر ذلك على المشهورين منهم ، بل لقد وصل الى معلمى الكتاب ، ويقص علينا ابن الفرضي ، أن « محمد أحمد بن يحيى الزهرى ، المعروف بالأشبيلي الزاهد ،

(١١٨) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٣ ، ١٤ .

وآسين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٨٠ - تاريخ التعليم)

من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عبد الله (توفي ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ،
كان معلم كتاب ، وكان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن
ابن محمد ، ويأخذ جوائزهم « (١١٩) » .

لقد وصلت الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة ، الى درجة عالية من
التطور ، حتى أصبحت « أعجوبة العصور الوسطى » (١٢٠) ، ولكن ذلك لم
يكن نتيجة لعصر الخلافة فحسب ، وانما هو — على ما بينت في هذا الباب —
حصار سنوات طويلة من الاهتمام بالعلماء والأدباء ، وتشجيع القيام
بالتعليم ، والحرص على الحصول على الكتب ، حتى أن العالم الكبير ،
واللغوي الفذ أبا علي القالي عند وصوله الى أرض الأندلس ،
ولكثره ما رأى من ضعف اللغة على مدار رحلته الى الأندلس ، كان
يتصور أنه ، عند وصوله الى الأندلس ، سوف يحتاج الى مترجم ، ولم
يكن الأمر كذلك ، فحينما استقبله ابن رماح وصحبه في الطريق الى
قرطبة ، ضمن وفد كبير من عليّة القوم ، ساروا يتذكرون الأدب ،
« فأنشد أبو علي بيت عبدة بن الطيب :

ثم قمنا الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

وأخطأ أبو علي ، وأنشد « أعرافها لأيدينا مناديل » فأنكر ابن رفاعه (١٢١)
الألبيري ذلك ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه حرج وزعارة ،
واستعاد أبا علي تثبتا مرتين ، فأنشده في كليتهما « أعرافها » فلو

(١١٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٣٤٢ .

(١٢٠) فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ١١٦ .

ولم يترك الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم مجالا للحديث
عن قرطبة بعد صدور كتابه الرائع « قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية »
والذي صدر في بيروت في جزعين في عام ١٩٧١ ، وللأسف الشديد أن
الكتاب قد التهمته نيران الحرب الأهلية ولم تنج منه الا عدة نسخ تكرم
المؤلف بإيداعها مكتبة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد ومكتبة
المعهد الأسباني العربي للثقافة .

(١٢١) محمد بن رفاعه الأموي الألبيري ، توفي في عام ٤٠٣ أو ٤٠٤ ،
انظر الإحاطة ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ابن رفاعه عنانه منصرفا وقال : أمع هذا يوفد على أمير المؤمنين ، ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط فيه الصبيان ؟ والله لا أتبعه خطوة ، وانصرف عن الجماعة . وندبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب الى الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لابن رفاعه ، ويشكوه ، فأجابه — الحكم — على ظهر كتابه : الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا ، من يخطئ واغدا أهل العراق اليها ، وابن رفاعه أولى بالرضا عنه ، من السخط عليه ، فدعه وشأنه وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله ، أو يحط به » (١٢٢) . وعند وصول أبى على القالى الى قرطبة ، أثنى على من بها من الفقهاء وخاصة محمد ابن القوطية .

ولكن على الرغم من ذلك كله ، على الرغم من اجماع المؤرخين والكتاب ، على رعاية الناصر للعلوم ، واهتمامه بالحركة التعليمية الا أننا يجب أن نتوقف قليلا أمام الحملة العنيفة والشديدة التي وجهها الناصر ضد أتباع مذهب ابن مسرة القرطبي . هذا ، ولقد قدم لنا الجزء الذى نشر حديثا من « مقتبس ابن حيان » نصوصا تفصيلية وواضحة عن هذه الحملة ، يتبين منها أن الناصر قد كلف صاحب المدينة ، عبد الله بن بدر ، « بالتنقير عنهم ، والقصر لآثارهم ، وطلب الدلائل عليهم ، والايقاع بمن صح لديه أنه منهم ، أو مقول لهم ، فتجرد ابن بدر ، يتشد تخويفهم ، وأغلظ لمن عثر عليه منهم ، فجرت لهم فى ذلك خطوب ، يطول القول فيها » (١٢٣) ، ولم يكتف الخليفة بذلك وانما أصدر كتابا فى شأن هؤلاء ، قرىء فى جميع الأمصار .

ولقد توقفت طويلا أمام هذه النقطة : لماذا قام عبد الرحمن

(١٢٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٧١ .

ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

الثالث بذلك ؟ هل حقا كانت تعاليم ابن مسرة من الخطورة بحيث تدفع بالناصر الى شن هذه الحملة القوية ؟ أم أن سلطة الفقهاء في قرطبة كانت قوية الى درجة تجبر الخليفة على اتخاذ مثل هذه الاجراءات الشديدة ؟ •

ان عددا كبيرا من الأبحاث الحديثة ، قد أثنت على ابن مسرة ، وأبعدت عنه أى شك في الاحاد أو الهرطقة أو الزندقة ، بل ان المؤرخين القريبين جدا من العصر ، يثنون على عمله الدينى عامة والمالكي خاصة فيصفه ابن حيان بأنه كان « يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنة » سرد القرآن ويشققها بالاجتلاب بأوضح برهان ، حتى يخرج منها أجزاء مختصرة حسنة لم يزل الاجماع من مخالفة الى اليوم ، واقعا على أنها أفضل ، وأوجز ، وأبسط من كل مختصرة ، صيغت فيها » (١٢٤) •

أما بالنسبة لسلطة الفقهاء في تلك الفترة ، فأننى ، على الرغم من العناية الكبيرة التى قدمها لهم الناصر لدين الله ، لا أعتقد أن الخليفة كان راضيا لهم ، بل على العكس من ذلك تماما ، لقد كان يتمتع بسلطة قاهرة ، مكنته من تنفيذ أشياء كثيرة ، على الرغم من الفقهاء ، وليس أدل على ذلك ، من اتخاذ منذر بن سعيد البلطى الظاهرى (٢٧٢ - ٣٥٥ هـ / ٨٨٦ - ٩٦٦ م) ، قاضيا ، وصاحباً للصلاة ، والخطابة بجامع الزهراء ولقد كان منذر ظاهريا ، يقول بقول داود ابن على الظاهرى ((توفي ٢٧٠ هـ / ٨٨٢ م) ، ولا يخفى ذلك • حقا انه كان اذا جلس للقضاء حكم على المذهب المالكي - ولكنه في مؤلفاته ودروسه ، ومجالس علمه ، لم يكن يخفى اتباعه للمذهب الظاهرى ، بل ان البعض قد وصل الى القول بأن منذر بن سعيد ، « كان من المؤيدين

لابن مسيرة ، في معظم آرائه » (١٢٥) ، ومع ذلك لم يتعرض منذر لأية مضايقة من فقهاء قرطبة ، بسبب منزلته من الناصر .

وإذا ما وضعنا في الحسبان ما حدث مع الفقيه ، أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني (توفي ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م) وصاحبه الفقيه أبى محمد بن حزم ، حيث تعرض لهما صاحب المدينة ، وأمرهما بالقيام وترك التحلق ، ومنع العامة عن الاجتماع اليهما (١٢٦) ، ثم تعرض أتباعهما للسجن ، والامتهان — لأدركنا أن شخصية الناصر كانت فعلا أقوى من فقهاء عصره وأنه لم يكن يخضع لهم في مسألة مثل مسألة ابن مسيرة .

لقد فكرت في البداية ، أن الناصر ، ربما قد قام بذلك في السنتين الأوليين من حكمه ، لكي يكتسب مودة العامة والفقهاء ، ومساعدتهم له في القضاء على حركات التمرد ، التي كان عليه مواجهتها ، عند توليه أمر البلاد ، ولكن الحصول على التواريخ الثابتة لهذه الحملة ، والتي يذكر البرازي ، أقرب المؤرخين لعصر الناصر ، أنها بدأت ، اعتبارا من يوم الجمعة ، لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاثة مائة (٩٥١) ، ثم « تمادى الطلب لهذه الفرقة المسبرية ، والاختافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر » (١٢٧) ، الذي توفي سنة ١٠٣٥ هـ / ٩٦١ م .

إن التفسير الوحيد ، الذي أجده مقنعا ، ولعلنى أكون مخطئا ، هو أن الناصر في تلك المرحلة ، كان قد وصل الى سن الشيخوخة ، وبالتالي

المقرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ، ازهار الرياض ، ص ٢٩٥ .

على راضى : الأندلس والناصر : ص ٥٤ .
عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣١١ .
(١٢٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٧ .

أسين : ابن حزم القرطبي ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
Asin Palacios : Abenhazam de Cordoba, 10 136, 137.

(١٢٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شاليتا ، ص ٣٠ .

أصبح ضعيفا، كما أنه، وهو الرجل الذي أنفق ببذخ، على أعمال دنيوية. ربما اعتوره الحنين الى القيام ببعض الأعمال، التي يتقرب بها الى الله. مثل العمل على الحفاظ على السنة، وحمايتها من البدع.

ومن المناسب في هذا المجال، أن نصحح، اعتمادا على أحدث ما نشر من مقتبس ابن حيان، بعض ما قاله المستشرقان الأسبانيان الكبيران، «ميجيل آسين بلاثيوس»، و«انخيل غونثالث بالينثيا»، عند الحديث عن «ابن مسرة ومدرسته»، حيث يقول لنا أولهما: «ان ثلاثة حملوا على عاتقهم مسئولية مقاومة المسرية واضطهادها، وأكثر هؤلاء الثلاثة مكانه، بل وأعلامهم من الناحية الوظيفية الرسمية الفقيه محمد ابن بقى (٣١٧ — ٣٨١ هـ/ ٩٢٩ — ٩٩١ م (١٢٨)، وهو فقيه ضالع في الفقه والتشريع، تولى قضاء الجماعة في قرطبة، بعد وفاة الحكم الثاني. أما الثاني، فهو اللغوى الشهير، والأديب الأشبيلي، أبو بكر ابن الزبيدي (٣١٦ — ٣٧٩ هـ/ ٩٢٨ — ٩٨٩ م) (١٩٢)، مؤدب الخليفة هشام الثاني. ولقد كتب الزبيدي كتابا في الرد على ابن مسرة، عنوانه «هتاك سستور المحدثين»، أما الثالث، فهو المحدث الشهير، الفقيه أبو عمر بن لوب الطلمنكي (٣٤٠ — ٤٢٨ هـ/ ٩٥١ — ١٠٣٧ م (١٣٠)، الذى كتب كتابا ضخما، يكشف فيه العورات المستورة لمذهب ابن مسرة. ويرى آسين بلاثيوس، أن بدء حملة الاضطهاد ضد أتباع ابن مسرة، كان فى أواخر حكم الخليفة المستنصر بالله، ذلك الخليفة الذى أنهى زهر سنوات عمره، وأحسن بدنو الموت، بعد مرضه، أصبح يستعد للحساب ولقاء الله، مكفرا عن ذنوبه التى ارتكبها، حين شجع الفلسفة

(١٢٨) الحميدى: جذوة المقتبس، ص ٩٣.

الضبي: بغية الملتبس، ص ١٤٦.

(١٢٩) الزبيدي: كتاب الواضح، المقدمة.

الحميدى: جذوة المقتبس، ص ٤٣.

العزاوى: نعمة رحيم: أبو بكر الزبيدي الأندلسي، ص ٥٦ وما بعدها.

(١٣٠) الضبي: بغية الملتبس، ص ١٦٢، الحميدى: الجذوة،

وحراستها ، وذلك عن طريق القيام ببعض الأعمال الخيرية ، مثل عتق الجوارى ، وتوزيع الصدقات ، وتشجيع مدارس لتعليم القرآن ، وتوصية ابنه هشام بدراسة الكتب الدينية . ولقد مات الحكم بعد ذلك ، وتولى أحمد بن بقى قضاء الجماعة ، واستغل منصبه أكبر استغلال ، لكى يناهض هذه الموجة المسرية المتقدمة والمنتشرة — ساعده على ذلك سياسة العودة الى الدين الصحيح ، التى أوصى بها الحكم ابنه هشام ، وبدأ الاتهام يلاحق هذه المجموعة من القرطبيين ، أتباع ابن مسرة . ويختم آسين هذه الآراء والملاحظات ، بأن «أيا منهم لم يتعرض لعقوبة كبرى بسبب معتقداته لأن القاضى لم يتمكن من الوصول الا الى نتائج بسيطة لا يعرف مدى خطورتها» (١٣١) . ولقد تابعهما فى القول ، بأن الحملة ضد أتباع ابن مسرة لم تبدأ الا فى أواخر عهد الحكم ، السيد : نعمة رحيم العزاوى ، حيث يقول « تعرض ابن مسرة للاضطهاد فى حياته ، واشتد الهجوم على أتباع مذهبه ، حين أظهر النحكم فى أخريات أيامه ، الرغبة فى التكفير ، عما أبدى من تسامح وميل للفلسفة » (١٣٢) .

لكن الحقيقة ، كما سبق أن بينت هى أن الحملة قد بدأت فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وتولى حمل لوائها ، صاحب المدينة ، عبد الله ابن بدر .

والحقيقة كذلك أن أتباع ابن مسرة قد تعرضوا للامتهان الشديد « وجرت لهم خطوط يطول القول فيها » (١٣٣) ، مما يلقي ظلالا ،

(١٣١) آسين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

Asin Palacios : Ibn Masarra y su Escuela, p. 89, 90.

وثقلى الكلام تقريبا ، ذكره غونثالث بالينثيا : تاريخ الأدب الأندلسى ،

ص ٢٢٦ .

Gonzalez Palencia : La Literatura Arabigo Espanola,

p. 226 .

(١٣٢) العزاوى : أبو بكر الزبيدى الأندلسى : ص ٤٤ .

(١٣٣) ابن حيان : المنتبى — تحقيق سالمبنا ، ص ٢٤ .

ولو باهتة ، على تسامح الحكم بالذات ، لأنه اذا كانت هذه الحملة قد بدأت في أواخر حكم الناصر ، وكان الحكم يتصرف عن أمر أبيه ، بل كان الحكم هو المسئول الأول عن النواحي العلمية والتعليمية ، فان ذلك يدعو الى التساؤل أكثر من مرة عن الأسباب المباشرة وراء ذلك ، ولكن بما أن ذلك ليس قصد المراد هنا — فلنتترك السؤال لفرصة أخرى قد نستجيب فيها لما في النفس من شكوك ، وأكتفى فقط بعرض نص كتاب عبد الرحمن الناصر بهذا الخصوص :

كتاب الخليفة في التنديد بمذهب ابن مسرة وأتباعه

أنفذ الخليفة الناصر لدين الله ، الى آفاق ملكه ، بشأن هؤلاء
المبتدعة كتابا طويلا قرىء عليهم بأمصارهم من انشاء الوزير الكاتب
عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فان الله ، تعالى جده وعز ذكره ، جعل دين الاسلام
أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى
منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن
يقبل منه) (١) الآية ، وقضى فى محتوم أمره ونفاذ حكمه أن ينسخ به
الديانات ويختتم برسالته الرسالات ، فبعث محمدا خاتم النبيين وأكرم
الأكرمين وأعز الخلائق على رب العالمين بأن كتب الصلاة والسلام
عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ،
وأرسله بأفضل دين سماء حنيفا الى خير أمة اختارها وسطا (٢) .
لما قال ، عز من قائل ، اذ عرفنا فضل ما هدانا اليه من الدين وكرمنا
به على سائر الأمم (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر) (٣) الآية ، فله ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ،
الشكر على خصائص هذه الفضيلة والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ
من الغواية وهدى فأحسن الهداية ، وأنار فأبان الحجة وكفانا بواضح
المناهج مؤنة الفكرة ونظم زمان الأمة وجمع وجوه السعادة العاجلة
والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة واجتتاب نزعات الفرقة ، حيث يقول
عز وجهه لنبيه ، المخصوص بهداه ، صلى الله عليه وسلم ، تحفيا به

(١) قرآن ، س ٣ ، آية ٨٥ .

(٢) قرآن ، س ٢ ، الآية ١٤٣ .

(٣) قرآن ، س ٣ ، الآية ١٠ .

وبعباده ، ورأفة بسطها على خير خلقه ، واعلاما لهم بتواصل الدين من قبله لأنبيائه وكرامة لاختلافهم بعد رسوله — صلعم — (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه) (٤) الآية ، فخوف وحذر ونهى عن تفرق الكلمة و (نبه) على البعد ٠٠٠ ونفى الله الخبائث عنها ، وفضلها على سائر البلدان واستقر فيها الدين كهيئته يوم أكمله الله لعباده ، ولما استوسعت الطاعة وشملت النعمة وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيرا ولا تأتمر رشدا ، من طغام السواد ومن ضعف آرائهم ومن خشونة الأوغاد ٠٠٠ كتبنا لهم يعرفوها ضلت فيها طومهم ، وقصرت عنها علومهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان وأحل عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن واستياسوا وآيسوا من روح الله (ولا يئأس من روح الله الا القوم الكافرون) (٥) ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرفوا التأول في حديث رسول الله — صلعم — فبرئت منهم الذمة بقوله تقديست أسماؤه (ألم تـ الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ، فسوف يعلمون) (٦) — الى قوله (اذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون) (٧) ، فهذا أبلغ الوعيد وأفظع النكال لـ (من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) (٨) ثانيا عطفه (ليضل عن سبيل الله) (٩) انى قوله (عذاب الحريق) (١٠) ، ثم تجاوزوا في البهتان ، وسدوا على أنفسهم

(٤) قرآن ، س ٤٢ ، آية ١٣ .

(٥) قرآن ، س ١٢ ، آية ٨٧ .

(٦) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٦٩ ، ٧٠ .

(٧) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٧١ ، ٧٢ .

(٨) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٨ . او س ٣١ ، آية ٢٠ .

(٩) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .

(١٠) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .

أبواب الغفران ، فأكذبوا التوبة وأبطلوا الشفاعة ونالوا محكم التنزيل وغامض متشابه التأويل ، بتقدير عقولهم (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله) (١١) ، الى قوله (وما يذكر الا أولو الأبواب) (١٢) فصاروا بجهل الآثار وسوء حمل الأخبار الى القدح في الحديث وترك نهج السبيل ، فأساؤوا الفهم عن العلوم ، وأقدموا بمكروه القول في السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب أوضاعها وتابعوا شهواتهم فيها ، وتتابعوا فيما أوبقهم وورطهم ورأوا لتخضع وحشية ، يحثهم لازم الضلالة وداعية الهلكة والشذوذ عن مذهب الجماعة من غير نظر نافذ في دين ولا رسوخ في علم ، حتى لقد تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهليين ، خلافا على أدب الله تعالى وقوله ، جل جلاله (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) (١٣) وقالوا بالاعتزال عن العامة ، وشدوا أزره فأثروه ، وانكشفوا فنكرهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) (١٤) الآية ، فلجوا في جهالتهم ، وتاهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقدوا على الأمة الحنيفية ، واعتقادا لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وتذرعوا الى انتهاك حرمتها وسبى ذراريها (قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر) (١٥) الآية ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط بهم ، ولما صار غيهم فاشيا وجهلهم شائعا ، واتصل بأمر المؤمنين من قدحهم في الديانة ، وصدوفهم عن الجادة ، ما شغل نفسه ، وأقضى مضجعه وأسهر ليله ، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم (١٦) ، وأوعز ايعازا شديدا وانذارا فظيحا ، وعهد عهدا مؤكدا شافيا كافيا ،

(١١) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .

(١٢) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .

(١٣) قرآن ، س ٤ ، آية ٨٦ .

(١٤) قرآن ، س ٣٩ ، آية ١٨ .

(١٥) قرآن ، س ٣ ، آية ١١٨ .

(١٦) اقتباس من القرآن ، س ٨٤ ، آية ١٠ .

عظّم به لوجهه ، تبارك اسمه (١٧) ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليقرب قلب الجاهل ، ويفت كيد المستهتر الحائر ، وينقض عزم المعاند المعاجل ، ويضطر الغواة الى الانابة الصحيحة التي تقبلها الله منهم ، أو يكشفه عن الأذهان سرائرهم ، فيكون عليهم الشهيد ، و (انهم آتيهم عذاب غير مردود) (١٨) . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ، ويرسله في بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده اليك والى سائر قواده وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ولا يحرم القاصي بأعم الداني من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهة وقتنة فلم تحل الديار ، ولا تعفت الآثار ، ولا استحق البلاء على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم الا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل للسنة والاعتداء في القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم - هذا عند وروده عليك في الجامع قبلك ، وانشره في أسماع رعيته ، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وابث فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تجلى بطبقتهم أن انتسب اليهم ، وقامت عليه البيانات بذلك عندك فاكتب الى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم وأسماء الشهود عليهم ونصوص شهاداتهم ليعهد باستجلابهم الى باب سدته ، لينكلوا بحضرته فيذهب غيظ نفسه ويشفى حر صدره وأياك أن تداهن في أهل الريّة وتتخطاهم الى ذوى السلامة والأخوة الصالحة ، فان فرطت في أحد الأمرين أو كليهما فقد برىء الله منك وأحل دمك ، فأعمله واغتمله ، ان شاء الله تعالى » .

ويقول ابن حيان بعد ذلك :

« وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والاخافة لهم ، وتخويف

(١٧) اقتباس من القرآن ، س ٥٥ ، آية ٧٨ .

(١٨) قرآن ، س ١١ ، آية ٧٦ .

الناس من فتنهم ، بقية أيام الناصر لدين الله » (١٩) •

* * *

تولى الحكم بن عبد الرحمن الخلافة في قرطبة سنة ٩٣٥٠/٩٦١م ، وعمره حوالي سبعة وأربعين عاما ، وتوفى سنة ٩٣٦٦/٩٧٦م ، أى أنه ظل على عرش الخلافة ستة عشر عاما ، وهى فترة قصيرة جدا نسبيا ، لكنها فى تاريخ الأندلس ، من أنصح صفحاته ، اهتماما بالعلم والعلماء ، ولا يختلف فى ذلك اثنان ، وليس من الممكن ايراد ما كتب عن الحكم الثانى لأن مجرد الوقوف على ذلك فقط ، عملية صعبة جدا ، بل ومستحيلة ، فهناك كتب كثيرة جدا ، كتبت فى الشرق أو الغرب ، قديما أو حديثا ، فى تاريخ الأدب ، أو فى التاريخ ، أو فى الفلسفة ، أو فى تاريخ العلوم ، قد خصصت صفحات لهذا الخليفة العظيم ، وإذا كان الحكم قد اعتلى عرش الخلافة هذه المدة القصيرة فقط ، إلا أن تاريخه العلمى يرجع الى ما وراء ذلك بعشرات السنين ، حينما تحمل عن والده عبء الجانب الثقافى والعلمى والتعليمى فى مملكته ، وجعل من دولته بعد ذلك ، امتدادا لنشاطاته وأعماله التى مارسها خلال عهد والده •

والجدير بالذكر أن الحكم لم يكن خليفة يرفع العلوم ، ويحمى العلماء ويشجع على التعليم فحسب ، ولكنه هو نفسه كان عالما كبيرا ، وسندا يعتمد عليه ، ومرجعا يحتكم اليه ، يقول المشرق الفرنسى ، ليفى بروفنسال : « علينا أن نبرز فى المقام الأول ذلك الاسم الخالد ،

(١٩) نشر هذا النص لأول مرة ، المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان ، تحت عنوان (اكتشاف السقر الخامس من المقتبس) — مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمطرد ، العدد ١٣ ، عام ٦٥ — ١٩٦٦ ، الصفحات ١٢٥ — ١٣٧ .
ابن حيان : المقتبس ، الجزء الخامس ، تحقيق شاليتا ، الصفحات ٢٥ — ٣٠ .

الحكم الثانى عالم لا غبار عليه ، راعيا مهيبا عظيما للآداب والعلوم ، صديقا للفنون » (٢٠) .

أما غوثالث بالينثيا فيقول : « ان تسامح الحكم مع العلماء ، لم يكن له حدود ، مما دفعهم للالتفاف حول بلاطه ، ولقد قام بحمايتهم وتشجيعهم حتى الفلاسفة منهم ، وأعطى الحرية لهم ، لكي يقوم الرياضيون والفلكيون بالتدريس علنا لتلاميذهم » (٢١) . وتصفه دائرة المعارف الاسلامية ، بأنه كان « راعيا للفنون والعلوم والتربية » (٢٢) .

ولقد تحول مسجد قرطبة فى عهد الناصر والمستنصر ، الى جامعة حقيقية وليس المجال هنا للافاضة فى هذا القول ، لأننى سأتناوله عند حديثى عن المساجد ، ولكن ما هو جدير بالاشارة هنا ، أن الحكم ، « قد عهد الى أخيه المنذر ، بالاشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها » (٢٣) ، دون أن يهمل هو رعاية هذا المكان ، بل كان شديد الاهتمام به ، حتى وصل عدد طلابه وزواره الى الآلاف (٢٤) .

(٢٠) ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا — النص الاسباني ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

Léve Provençal : Espana Musulmana ; V. 10 325.

الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٩٩ . ولقد أورد ابن الأبار نصا طويلا فى صفات الحكم العملية فى كتابه : الحلة السيرة ، انظر ج ١ ، ص ٢٠٣ — تحقيق الدكتور حسين مؤنس .

(٢١) غوثالث بالينثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، النص الاسباني ، ص ٢٠ ، و ص ٢٨٣ ، وأنظر أيضا الترجمة العربية ، ص ٤٤٨ . (٢٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الانجليزية ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

The Encyclopædia of Islam ; T 2 ; pp. 223.

(٢٣) عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ، الطبعة الثالثة ، ص ٤٥٧ .

(٢٤) محمد غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ ، وأنظر أيضا قول عبد الملك بن زيادة : « انى اذا احتوشتنى ألف محبرة ... » ، الحميدى : ص ٢٦٦ ، وخوليان ريبيرا : فى اهتمام المسلمين بالكتب ، ترجمة د. جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد رقم ٥ ، ج ١ (١٩٥٩) ، ص ٧٣ .

ويمكن لنا أن نلخص اهتمام الحكم بالنواحي العلمية والتعليمية في هذه النقاط :

أولا — استجلاب العلماء من كافة نواحي الأندلس الى قرطبة ، التراجم على أنه كان يختار أفضل العلماء ، أو من تتوافر لديهم وسماحه لهم بالتعليم في المساجد العامة بقرطبة ، وتدلنا كتب تصوص ليست شائعة عند الناس ، فعلى بن معاذ بن سمرعان الرعيني (المتوفى ٣٨٩هـ / ٩٩٩م) ، بجاني ، كان لغويا ، نسابا ، مستقده الحكم المستنصر بالله ليقبض من علمه ، وكان عنده جميع كتب ابن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد سلمة نحو من سنة ، ثم عاد الى بجانة (٢٥) . وفي تلك الاشارة الخاصة بتحديد جلوس هذا الفقيه « بحومة مسجد سلمة » ما يوحى بشيئين :

(أ) وجود مساجد أخرى في قرطبة لها أهمية ، غير المسجد الجامع .

(ب) وجود أماكن خاصة بالاقامة ، ملحقة بالمسجد ، يقيم فيها هذا الفقيه مدة عام ، ثم يعود بعد ذلك الى وطنه « بجانة » .

واستقدم المستنصر بالله ، أيضا « محمد بن فرج بن سبعون النحلي (توفي ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) الى قرطبة ، فسمع منه غير واحد » (٢٦) ، وتوفي هذا الرجل في بجانة ، مما يدل على عودته من قرطبة بعد انتهاء مهمته هناك .

(٢٥) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٢٦) ابن الفاضل : عام في الأندلس ، ص ٣٧٣ .

وكذلك حدث نفس الشيء مع محمد بن مروان بن زريق
من أهل بطليوس ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، وكتب
عنه (٢٧) .

لهم بل كان هوشخصيا مهتما باستقدامهم الى قرطبة والترحيب
ثانيا — اتساع رحيل العلماء المشاركة الى الأندلس ، وتكريم المستنصر
بهم ، وإكرام مثواهم ، ورفع منازلهم عنده ، ومن هؤلاء الذين
وصلوا الى قرطبة على عهد المستنصر بالله « اسماعيل بن عبد
الرحمن بن علي القرشي (توفي بعد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م)
الذي رحل من مصر الى الأندلس ، فحل يومئذ على الحكم
المستنصر على الرحب والسعة » (٢٨) . ولقد أورد ليفي بروفنسال
أسماء عدد كبير من هؤلاء (٢٩) .

ثالثا — احترام الحكم المستنصر للعلماء ، ومكانتهم ، مما جعلهم
يهتمون بدروسهم وطلابهم ، ورفع من قدرهم عند الناس ،
وعند الطلبة ، ولقد وصل بعض هؤلاء الفقهاء والمعلمين الى
درجة عالية من المهابة ، حتى أنه كان يطلب ولا يرد له طلب .
وأسوق تلك القصة الطويلة التي حفظها لنا المقرئ عن الفقيه
ابراهيم بن اسحق — يقول المقرئ :

« كان معظما عند الناصر وابنه الحكم ، وحق لهما أن
يعظماه ، فقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرح قال : كنت

(٢٧) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

(٢٨) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

المقرئ : نفح الطيب — ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٢٩) ليفي بروفنسال : أسبانيا الإسلامية ، ص ٣١١ .

أختلف يوما إلى الفقيه أبي إبراهيم — رحمه الله تعالى — فيمن
يختلف إليه للتفقه والرواية ، فأثنى لعنده في أحد الأيام في
مجلسه بالمسجد المنسوب « لأبي عثمان » الذي كان يصلي
به قرب داره بجوف قرطبة ، والمجلس حافل بجماعة الطلبة ،
وذلك بين الصلاتين ، إذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل
جاء من عند الخليفة الحكم — فوقف وسلم وقال له : يا فقيه ،
أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فان الأمر قد خرج فيك ، وها
هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت بأعجالك ، فإله الله • فقال له :
سمعا وطاعة لأمر المؤمنين ، ولا عجلة ، فأرجع إليه وعرفه —
وفكك الله عني — أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى ،
معي طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فهم يفتيدونه عني ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه
حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أؤكد
من تسييري إليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلى من
هؤلاء المحتسبين في ذات الله ، الساعين لرضاته ، مشيت إليه
إن شاء الله تعالى ، ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصى يهينم
متضاجرا من توقفه فلم يك إلا ريثما أدى جوابه ، وعاد سريعا
ساكن الطيش فقال له : يا فقيه ، أنهيت قولك على نصه إلى
أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك
الله خيرا عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ،
وأمتهم بك حتى ينقضى شغلك ، وتمضى معي ، فقال له :
حسن جميل ولكنني أضعف عن المشي إلى باب السيدة (٣٠)

(٣٠) انظر : أبواب القصر في « نصوص عن الأندلس » ص ١٢٣
للغزري . وحسين مؤنس في « وصف جديد لقرطبة الإسلامية »
ص ١٦٨ .

وعن باب السيدة انظر : « تورييس بالباس » : الأندلس — العدد ١٧
(١٩٥٢) ، ص ١٦٥ .

Torres Balbas : Bab al Sudda. Al-Andalus XVII.

ويصعب على ركوب دابتي لشيخوختي ، وضعف أعضائي ،
وباب الصناعة^(٣١) الذي يقرب الى من أبواب القصر المكرم
أحوط وأقرب وأرفق بي ، فان رأى أمير المؤمنين — أيده الله
تعالى — أن يأمر بفتحه لأدخل عليه منه ، هون على المشي ،
ودودع جسمي ، وأحب أن تعود اليه ، وتنتهي له ذلك حتى
تعرف رأيي فيه ، وكذلك تعود الى فاني أراك فتى سديدا ،
فكن على الخير معينا • ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين
وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين الى ما سألت وأمر
بفتح باب الصناعة ، وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت اليك ،
وأمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك • وجلس الخصى
جانبا حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت
به عادته غير منزعج ولا قلق ، فلما انفضضنا عنه ، قام الى
داره فأصلح من شأنه ، ثم مضى الى الخليفة الحكم ، فوصل
اليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على
ذلك الباب ، فأعيد اغلاقه على أثر خروجه — قال ابن مفرح :
ولقد تعمدنا في تلك العشية اثر قيامنا عن الشيخ ، المرور بذلك
الباب المعهود اغلاقه بدبر القصر فوجدناه مفتوحا كما وصف
الخصي ، وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ما بين كناس
وفراش ، متأهبين لانتظار أبي ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك ،
وطال تحدثنا عنه ، فهكذا يكون العلماء مع الملوك والملوك مع
العلماء ، قدس الله تلك الأرواح » (٣٢) •

= ويقول الدكتور سالم عن باب السدة انه باب الجنان وهو باب
السطح الشرقي من أبواب قصر قرطبة فتحه الأمير عبد الرحمن الأوسط
في سور متدد من سور قرطبة لاغلاق الرصيف وكانت دفتيه من حديد.
وكان الأمير يشرف من السطح على اعدام الثوار أمام الباب .
(٣١) أحد الأبواب الشمالية لقصر قرطبة ، وكان مغلقا . وعرف بذلك
لملاصقته لدار الصناعة القريبة من مسجد أبي عثمان . راجع المقرئ —
ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣٢) المقرئ : نفخ الطيب ، ج ١ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

المقرئ : ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٦ .

مظهر آخر من مظاهر اهتمام الحكم بالحياة التعليمية ، هو قيامه بنفسه بزيارة الفقهاء في مجالسهم ، وتفقد أحوالهم ، ورؤية مستواهم العلمى ، فقد قام الحكم المستنصر بزيارة أبى الحسن على بن محمد الأنطاكى (المتوفى ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ، حيث عين الفقيه الأنطاكى بعض الطلبة لقراءة القرآن يوم هذه الزيارة ، اختارهم من بين طلبته ، وكان منهم خلف بن حسين ابن مروان (٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م) ، والد المؤرخ الكبير ، ابن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩ هـ / ٩٨٧ — ١٠٧٧ م) ، تقول المصادر أنه « قرأ القرآن على أبى الحسن الأنطاكى ، وحكى أنه كان حسن الصوت ، وأحد من عين الأنطاكى للقراءة ، يوم زاره الحكم المستنصر » (٣٣) .

رابعا — انشاء أماكن للتعليم ، ركزها على التعليم الأولى ، أى أنه أنشأ مكاتب في مدينة قرطبة لى يتعلم فيها أولاد الفقراء والضعفاء مجانا ، ثم انه جعل لمعلميها أوقافا من دخل حوانيت السراجين ، لى يتقاضوا منها مرتباتهم ، وتجمع كافة المصادر على أن هذه الخطوة تعتبر من أفضل خطوات الحكم المستنصر بالله حيث تقول : « ومن مستحسنات فعالة وطيبات أعماله ، اتخاذ المؤدين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن ، حوالى المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعهد اليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم » (٣٤) . وعند الحديث عن عام ٣٦٤ هـ /

(٣٣) ابن الأبار : تكملة الصلة — ج ١ ، ص ٢٩٥ .
وانظر التعريف الذى خصه به الدكتور محمود مكي فى مقدمته
لتحقيقه للسفر الثامن من مقتبس ابن حبان ، ص ٨ — ١٩ .

٩٧٤م يقول : « وفيها حبس الحكم المستنصر ، حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء » (٢٥) . هذا ولقد أنشأ الحكم المستنصر ، في هذا المجال ، سبعة وعشرين مكتبا ، منها ثلاثة بجوار المسجد والباقي بكل ربض من أرباض المدينة ، وفي هذه المناسبة يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتب لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

نادتك ياخير تاليها وواعيها (٢٦)

خامسا — اهتمام الحكم المستنصر بالله بتأليف الكتب ، والحصول عليها . وفي هذا المجال ، ارتفع الحكم الى درجة عالية ، لا يكاد يدانيه فيها أحد ، وتتجلى مظاهر اهتمامات الحكم بالكتب وتأليفها ، والحصول عليها فيما يلي :

(أ) تشجيع التأليف ، والاعتناء به ، والاثابة عليه ، واکرام

(٣٥) ابن حيان — المقتبس — تحقيق الحجى ، ص ٢٠٧ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٧٠ .

وهناك من يرى أن الحكم المستنصر بالله قد قام بهذه الأعمال في سنة ٣٦٤ ، أى قبل وفاته بعامين فقط ، بسبب ابلاله من مرض خطير ألم به ، كما أنه لنفس السبب قد أعفق الكثير من عبيده وجواريه ، ومع موافقتى على هذا الراى وصحته كثيرا الا أن ذلك لا يمنع من استخدامه كدليل على اهتمام الحكم بالتعليم والمعلمين لأنه كان فى وسعه استخدام هذه الأموال فى مجالات أخرى كبناء المساجد أو توزيعها على الفقراء دون توجيهها لبناء المكاتب ولصالح المعلمين .

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ — طبعة ليفى بروفنسال ، و ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، طبعة صادر فى بيروت ، و ص ٣٤٠ ،

العلماء العاملين في هذا المجال خارج حدود الأندلس أو داخله، فمن خارج الأندلس، «وجه إلى الحافظ أبي الفرج الأصبهاني، ألف دينار، على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغاني» (٣٧) . هذا ولقد أرسل المؤلف إلى الحكم، نسخة حسنة منقحة، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق، أو ينسخه أحد منهم، وأرسل أبو الفرج أيضا للحكم المستنصر «كتابا ألفه في أنساب بني أمية، يشيد فيه بمجدهم وآثارهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة» (٣٨) . ولقد فعل المستنصر ذلك أيضا مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي، في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كتابا ضخما في «مسالك أفريقيا وممالكها»، وأبى عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى ابن مفرج (٣٩) .

(ب) أما في داخل الأندلس، فلقد كان نشاط الحكم في مجال التشجيع على التأليف كبيرا جدا، واتخذ في هذا السبيل وسائل كثيرة، منها مثلا:

الاعفاء من الغزو في مقابل تأليف كتاب، وهذا ما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث (توفي ٥٣٥٢ / ٩٦٣ م)، المعروف

(٣٧) المقرئ: النفج، ج ٤، ص ٧٢ . عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٤ . أوكانيا: الحكم المستنصر بالله ص ١٨ .

(٣٨) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني ص ٤٥٦ . غوثالبين: الكتب والمكتبات في إسبانيا الإسلامية، ص ٣٦ .

(٣٩) انطونيا: بلاط الحكم المستنصر، ص ٤٢، عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٤ . عنان: دولة الإسلام، ص ٤٥٦ .

بابن الصفار ووالد القاضي يونس ، قاضى الجماعة بقرطبة ،
والذى يحدثننا « ان الحكم المستنصر حينما خرج لغزو الروم
سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، تقدم الى والدى بالكون فى صحبته ،
فاعتذر بضعف فى جسمه ، وألم لا ينجده فقال له الحكم : ان
ضمن لى أن يؤلف فى أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل
كتاب الصولى فى أشعار خلفاء بنى العباس ، أعفيتها من الغزو ،
وجازيته أفضل الجزاء » (٤٠) • ويستطرد الضبى فى هذه الرواية
قائلا : « وخرج أحمد بن نصر الى الفقيه بذلك فقال : أفعل
ذلك لأمر المؤمنين ان شاء الله ، قال : فقال المستنصر : ان شاء
أن يكون تأليفه فى منزله فذلك اليه وان شاء أن يكون فى دار
الملك المطة على النهر فذلك له • فقال : نسأل أن يكون ذلك
فى دار الملك وقال : أنا رجل مورود فى منزلى ، وانفرادى فى
دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شغل ، فأجيب الى ذلك ،
وكمل الكتاب فى مجلد صالح ، وخرج به أحمد بن نصر الى
الحكم المستنصر ، فلقية بالمجلد فى طليطة ، فسر به الحكم » (٤١) •

(ج) تقديم الجوائز الكبرى ، بل واسناد الوظائف المهمة الى
العلماء الذين يعملون على التأليف مثلما حدث مع أحمد بن
عبد الملك الأثيبلى (المتوفى ٤٠١ هـ / ١٠١١ م) ، ولقد كان
« أحفظ الناس لقول مالك وأصحابه ، جمع للحكم أمير المؤمنين
كتابا حفيلا فى رأى مالك سماه : كتاب الاستيعاب ، وكان
جمعه له مع أبى بكر ، محمد بن عبد الله القرشى ، ورفع الى
الحكم ، فوصلهما بجائزة كبيرة ، وقدمهما للشورى » (٤٢) •

(٤٠) ابن خاتان : مطمح الأنفس ، ص ٥٩ .

(٤١) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٣٦ .

الضبى : بغية الملتبس ، ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(٤٢) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٧٥ — ١٧٧ .

أما أحمد بن فرج الجياني ، وهو العالم ، الشاعر الأديب ، فلقد ألف للحكم المستنصر كتاب « الحقائق » ، عارض فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الأصبهاني ، الا أن أبا بكر انما ذكر مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مايتى باب في كل باب مايتى بيت ، ليس منها باب متكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا (٤٣) .
ومحمد بن عبد الله بن سيد ، من أهل بجانة (المتوفى ٣٦٣هـ / ٩٧٤م) كان فقيها ، حافظا للمسائل ، وبوب « المستخرجة » للحكم المستنصر بالله (٤٤) .

أما ما هو مثير للانتباه حقا ، وجدير باللاحظة ، فهو تلك الروح العلمية الحقة للحكم المستنصر بالله ، ومعرفته لشروط تأليف الكتب ، من تهئية المراجع واعداد المكان ، ومتابعة العاملين ، فالحكم لم يكتف بالمساعدات المالية ، بل ساعد أيضا في الناحية العلمية بامداد العلماء بما يحتاجون اليه من مصادر ، فقد أرسل الى الكاتب المصرى أبى سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب (تاريخ مصر والمغرب) كتابا استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه فيما يخص الأندلس (٤٥) .

وكذلك أمر الحكم المستنصر بالله ، محمد بن الحسين ، وابنه سيد ، وأبا على القالى ، بمقابلة كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، في دار الملك التى بقصر قرطبة . وأحضر من الكتاب نسخا كثيرة في جملتها نسخة القاضى منذر بن سعيد ، التى رواها بمصر عن ابن ولاد ، « فمر لنا صور من الكتاب بالمقابلة ،

(٤٣) الضبى : بغية المتجسس ، ص ١٥١ .

(٤٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٦٨ .

(٤٥) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ،

فدخل علينا الحكم في بعض الأيام فسألنا عن النسخ « (٤٦) ، وتمضى القصة طويلة بعد ذلك فيما لا يهمنا ولا يعنيننا ، ولكننا يجب أن نتوقف أمام هذه الأفكار العلمية السليمة في القيام بتحقيق النصوص تحقيقا سليما ، وذلك بالتزود بكل ما هو مطلوب لذلك من الحصول على كافة النسخ ، ثم إيجاد المكان الأنسب للعمل كما هو الحال في أيامنا هذه .

سادسا - وجه الحكم عناية خاصة الى المكتبات ، حتى استطاع أن يجمع في قصره مكتبة يصل عدد مجلداتها الى ٤٠٠٠٠٠ مجلد ، وان فهرسها شغلت أربعة وأربعين مجلدا ، وليس هنا المكان المناسب لمناقشة صحة هذا الرقم ، ولكن جميع المصادر ، قديمها وحديثها ، العربية منها وغير العربية ، تؤكد هذا الرقم وتردده . وهناك في هذا المجال دلائل صحة ، وعلامات شك . فمن علامات الشك التي راودتني في هذا الموضوع ، ما أثاره الدكتور ميكيل دي ابالثا (أستاذ تاريخ اسلامى بجامعة كومياس اللاهوتية بمدريد) ، في المناقشة التي تبعت محاضرتي عن « تدخل الدولة في التعليم في الأندلس » (٤٧) ، حول ضخامة هذا الرقم واستحالته ، وخاصة اذا تمت مقارنته ببعض المكتبات الكبرى في العالم اليوم ، مع اختلاف العصر . ولقد فكرت في ذلك أيضا بعد ذلك ، ووجدتني أمام عبارة أخرى ترددها الكتب التي تتحدث عن هذه المكتبة مفادها : « أن فهرس هذه المكتبة كانت أربعة وأربعين مجلدا ، في كل واحد

منها عشرون ورقة^(٤٨) . ومعنى ذلك أن هناك ٤٤ مجلد $\times ٢٠$
ورقة = ٨٨٠ ورقة \times صفحتين لكل ورقة = ١٧٦٠ صفحة .
فاذا افترضنا أن أقصى حمولة لعمود الصفحة الواحدة ٣٠
سطرا ، فإن الاجمالي في هذه الحالة سيكون ٥٢٨٠٠ عنوان .
صحيح من الممكن أن يكون هناك من بعض العناوين عشرات
النسخ ، أو أن بعض الكتب تتكون من عشرات الأجزاء
والمجلدات ، ولكن مع ذلك يبدو الفارق واسعا والبون شاسعا ،
حتى إذا أخذنا بقول ابن حزم في الجمهرة ، بأن كل مجلد
من الفهرس يحتوى على خمسين ورقة^(٤٩) ، وقمنا بالعملية
الحسابية المذكورة فإن الرقم يصل إلى ١٣٢٠٠٠ عنوان فقط،
ولكن هذا الرقم الأخير قد يقترب بى الى تصديق الرقم الكلى
للمكتبة الذى أورده كثير من المؤرخين ، وخاصة إذا ما علمنا
أن « القرطبيين جميعا كانوا في هذه الفترة يعيشون الكتب ،
وأنه في الربض الغربى من المدينة ، كان حوالى مائة وسبعون
امراة يكسبن رزقهن من نسخ الكتب »^(٥٠) . ويشك الدكتور
غلاب في هذا الرقم ، مرجعا ذلك الى الاسراف الذى كان
يلجأ اليه المؤلفون المسلمون عادة عند ذكر الأرقام »^(٥١) .

-
- (٤٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ١٨١ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .
سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٣١٤ .
(٤٩) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٢٢ .
ليفى بزوفنتسال : تاريخ أسبانيا ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .
ابن الأبار : الحلة السراء — ج ١ ، ص ٢ : ٣ — تحقيق د. حسين
مؤنس .
(٥٠) سانشيث البرنوث : اسبانيا الإسلامية ، ج ١ ، ص ٤١٥ .
Sanchez Al-bornoz : La Espana Musulmana ; 1 : 415
مانويل ريو : محاضرات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٩٦ .
Rie ; Manuel : Lecciones de Ho Medieval ; 196
(٥١) محمد غلاب : الفلسفة الإسلامية ، ص ١٥ .

ولكى يصل الحكم الى هذا المستوى في جمع الكتب ،
فانه لجأ الى عدة أساليب ناجحة منها : —

(أ) أنه وجه رسلا الى بلاد المشرق ، وخاصة الى بغداد
ودمشق والقاهرة ، لشراء الكتب ، باذلا في سبيلها أحسن
الأثمان . ولعل أجمل وصف لذلك ، ما يقوله ابن الأبار عن
الحكم المستنصر من أنه « كان شغوفا بالعلوم ، حريصا على
اقتناء دواوينها ، يبعث فيها الى الأقطار والبلدان ويبدل
في أعلاقتها ودفاترها أحسن الأثمان ، ونفق ذلك لديه ، فحملت
من كل جهة اليه ، والمالك سوق ، ما نفق فيها ، جلب اليه ، حتى
غصت بها بيوته ، وضافت عنها خزائنه » (٥٢) .

ولقد جعل الحكم ، في هذه البلاد ، مندوبين دائمين له ،
لتقريب هذه الكتب ، وتوافيه بها ، ويذكر لنا التاريخ أن من
« وراقبه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق
والأندلس جماعة » (٥٣) .

(ب) استخدام الحكم عددا كبيرا من النساخ في منزله يتولون
نسخ الكتب النادرة ، بل انه أقام صناعة متكاملة في داره ،
تضم النساخين والمجلدين ، والضابطين ، يقول لنا ابن خلدون
« ان الحكم جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة
في الضبط ، والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله » (٥٤) .
كما أن عباس بن عمر بن حرون الكتابي (توفي ٥٣٧٩/٩١٩م) ،
من أهل صقلية « قد خرج الى الأندلس ، فقدمها عام ٥٣٣٦هـ ،

(٥٢) ابن الأبار : الحلة السراء — ج ١ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ١٨١ .
المقري : نفح الطيب — ج ١ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .
(٥٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .
غوثالبیس : الكتب والمكتبات ، ص ٣٥ — ٣٦ .
(٥٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .

واتصل بولى العهد ، الحكيم بن عبد الرحمن ، رحمه الله ،
« فتوسع له فى الورق ، وصار فى جملة الوراقين » (٥٥) .
(ج) مساهمته فى جعل الأندلس أكبر أسواق الأدب والعلم ،
فكان المؤلفون يؤمنونها من جميع البقاع ، حاملين انتاجهم
فاذا مثلوا فيها ، اشترى منهم الخليفة هذه المنتجات بأثمان
حرية بتشجيعهم ، ويحيلهم على العودة بأضعاف ما كان معهم .
ويقول الدكتور غلاب « ان التاريخ يحدثنا أن الحكم الثانى
كان له فضل التفوق فى جمع هذه الثروة العظيمة التى كان
لها فيما بعد أثرها البارز فى بناء صرح المدنية الانسانية ، بما
أحدثته من انقلاب فى الأفكار الأوروبية فى أواخر القرون
الوسطى ، مما كان أحد الأسباب القوية والمباشرة للنهضة
الأوروبية » (٥٦) .

وكما أثرت من قبل ، لقد ساعد على ذلك أن الحكم لم
يكن راعيا للعلوم والآداب فحسب ، بل كان عالما ، يعرف
قيمة العلماء ويعرف قيمة الكتاب ، ومع التسليم بمبالغة الكتاب
والمؤلفين فى اصفاء الألقاب والأوصاف الا أنه لا شك فى أن
لذلك ظلا من الحقيقة ولو نوعا ما ، فيقول ابن الأثير واصفا
الحكم المستنصر « كان مع هذا كثير التهميم بكتبه والتصحيح
لها والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد له كتابا كان فى خزائنه
الا وله فيه قراءة ونظر ، من أى فن كان من فنون العلم ،
يقرؤه ، ويكتب فيه بخطه ، اما فى أوله أو فى آخره ، أو فى
تضاعيفه ، وفى نسب المؤلف ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب
الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده ،
لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به مأمونا

(٥٥) ابن القرقي : علماء الأندلس ، ص ٢٤٧ .

(٥٦) غلاب : الفلسفة الإسلامية ، ص ١٤ .

عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم،
ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به « (٥٧) » .

والحميدى يؤكد أنه رأى بنفسه خط الحكم المستنصر
على كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، حيث قيد الحكم
تاريخ ميلاد ابن عبد ربه (٥٢٤٦ / ٨٦٠م) ، وتاريخ وفاته
(٥٣٢٨ / ٩٣٩م) ويقول : هذا آخر ما رأيت بخط الحكم
المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا ، لأنه كان عالما
ثبتا . (٥٨) . كما أن القاضي عياض يقول عنه « وكان الحكم ممن
طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه
كثير من أهل العلم » (٥٩) .

لقد أطلت الكلام عن الحكم المستنصر بالله ، أو أن شئت
أطلت الكلام عن فترة الخلافة ، لأنها « العصر الذهبي » (٦٠)
لأسبانيا الإسلامية في كافة المجالات ، ولأنها الفترة التي ألح
فيها أستاذى الدكتور « لويس سواريث فرنانديث » ، في
أكثر من مرة تحدثنا فيها ، على أنها أكثر فترات تاريخ أسبانيا
الإسلامية تحديدا للذات ، ونضوجا للشخصية . هذا ولقد كتب
المستشرق الأسباني « ميانشور مارتينيث أنطونيا » عن
بلاط الحكم المستنصر العلمى مقالا وافيا ، فيه الغناء لمن

(٥٧) ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٥٨) الضبى : بقية الملتصق ، ص ١٤٨ .

ليفى بروفنسال : أسبانيا الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

Léve Provençal : Espana Musulmana, 2 : 317.

(٥٩) اليحصبي : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٦٠) ريبوبيس ، خوسيه : تاريخ أسبانيا - ج ٢ ، ص ١٢٩ .

Repollés Aguilár : J. Ho de Espana, 2 : 129.

يريد الاطلاع على المزيد (١١) •

ولكن الى أى مدى يمكن لنا الانطلاق فى الحديث عن رعاية الحكم المستنصر للعلوم والآداب ؟ كما قلت سابقا ، لم يكن هذا هو المجال للحديث تطويلا عن الاهتمامات العلمية للحكم ، ولذلك لم أستوف كثيرا مما تحت يدي مما قيل فى حق هذا الخليفة العظيم ، وأقول مرة أخرى ليس هنا المجال المناسب تماما ، لتبيان الى أى مدى كانت هذه الرعاية والعناية ، فقط أود أن أشير الى بعض الملاحظات التى يمكن أن تلقى ظللا ، ولو باهتة ، على اندفاع كل من يكتب فى الثناء على الحكم المستنصر •

ان ما حدث من اضطهاد لاتباع ابن مسرة على عهد والده ، عبد الرحمن الناصر ، والتاريخ المحدد الذى بدأت فيه هذه الحملة ، يؤكد أن الحكم فى تلك الفترة ، كان يناهز الأربعين من عمره ، كما أنه كان يتمتع بسلطة حقيقية ، ولكننا لم نسمع له صوتا فى حماية هؤلاء مما أوقع بهم من عذاب ، بل ان نهايات حكم الحكم قد شهدت أيضا محاولات لتتبع الفلاسفة وعقابهم ، وأرجع كثير من المؤرخين ذلك ، الى ضعف الحكم وشيخوخته ، ورغبته فى التكفير عن خطاياه ، بالتسامح مع الفلسفة خلال حكمه (١٢) •

(٦١) انطونيا : بلاط الحكم المستنصر العلمى ، نشر بمجلة الآباء الاغسطونيين بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٢٩ •
Antuna. M.M. : La Corte Literaria de Alhaquem II en Cordoba ; en Religión y Cultura ; Revista de los P.A., 1929.

(٦٢) آسن بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٩٠ •

علاوة على ذلك ، فان تربية الحكم كانت تربية دينية تقليدية، مما قد يجعل من الصعب عليه الانطلاق الى حدود بعيدة في مسألة التسامح ، واعطاء الحرية لتبادل العلوم ، وينقل لنا القاضي عياض رأى الحكم المستنصر في كل من هو على غير المذهب المالكي ، ومن ذلك الرأى يمكن لنا أن نقف ، ولو قليلا ، أمام ذلك الاندفاع الهائل في تقييم الحكم المستنصر ونص القاضي عياض كالتالى :

«وفي كتاب الحكم المستنصر الى الفقيه أبى ابراهيم(٦٣)، وكان الحكم ممن طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم ، فقال في كتابه : وكل من زاغ عن مذهب مالك ، فانه ممن رين على قلبه وزين له سوء عمله » (٦٤) .

(٦٣) انظر العلاقة التي تربط الحكم بالفقيه أبى ابراهيم من خلال القصة الواردة في هذه الأطروحة ، ص ٧٥ — ٧٧ .

(٦٤) انظر كتاب الحكم المستنصر ، ص ٧٥ — ٧٧ .

(هـ) الدولة العامرية :

الحديث عن الدولة العامرية ، ليس الا امتدادا للحديث عن فترة الخلافة في الأندلس ، ولكن أغلب المؤرخين يميل الى اطلاق هذا الاسم على حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، حيث أنهم قد استولوا على السلطة الحقيقية في الأندلس ، ولم يتركوا للخليفة « هشام الثانى » الذى حكم من (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٩ م) ، الا السلطة الاسمية .

وأورد هنا ما كتبه المستشرق الفرنسى الكبير «ليفى بروفنسال» عن التغير السياسى ، الذى وقع فى هذه الفترة :

« بدأت أسبانيا الاسلامية ، بعد وفاة الحكم الثانى ، فترة جديدة تعرضت فيها سلطة الخلافة لضربة قوية لم يكن لها سابق أو نذير ، حيث أن الخليفة الجديد ، علاوة على كونه حدثا صغير السن ، كان أيضا أضعف من أن يمارس بنفسه مهام الخلافة ، وأضعف من أن يطالب بذلك حتى بعد أن صار شابا أو رجلا كبيرا ، لقد انتقلت هذه المهام ، وتلك المسؤوليات الى يد ديكتاتور حقيقى ، أو الى «الحاجب» الذى كان رجلا شهما ، غير هياب أو متردد . انتقلت هذه المسؤوليات الى يد عامل أو موظف ، لم يعرف لطموحاته حدود ، ارادته من حديد ، ذو قدرة سياسية فائقة ومقدرة حربية لا ينازع عليها ، ومهارة لاتخطئ فى اقتناص واستغلال الفرص ، مما مكنه من الصعود الى أعلى مراتب الشرف والرياسة فى ذلك الوقت ، لقد كان يكفى مرور عذة أعوام ، تمكن فيها من القضاء على كافة منافسيه ، ليحدث ما يمكن أن نطلق عليه « انقلابا » وليوضع بين يديه ، دون منازعة ، سلطة الحكم فى الأندلس ، ومن ذلك الحين ، سيمعد هذا الشاب طريقا مكللا بالغار ، مؤكدا أنه ، ربما أكثر مما كان عبد الرحمن الناصر ، فارس وبطل مجد الاسلام على شبه الجزيرة الأيبيرية دون منازع ،

وأنة قد سجل في سجلات تاريخ الامبراطورية الأسبانية الاسلامية (الأندلس) أعظم انتصاراتها رنيناً ودويًا ، فقد أخضع بيد حازمة ، ثورات السكان ، وتمردات المدن ، وقضى على نفوذ الأرستقراطية العربية ، وسلطة الصقالبة وأعاد تنظيم الجيش ضاماً اليه قوات تدين له بالولاء والطاعة العمياء . لقد كان هذا الرجل ، على مدى أكثر من عشرين عاماً ، الحاكم الأوحده ، والسلطان المطلق في الأندلس ، بينما لم يكن للخليفة الحقيقي الا اللقب ، والمراسم المظهرية » (١٥) .

لقد قلت في أول هذا الباب ، أن السياسة لا يمكن أن تنفصل عن التعليم أو عن رعاية العلوم والآداب ، وأن العامل السياسي ، يتدخل دائماً ، لكي يجعل من العامل التعليمي أداة لخدمة السياسة ، والمثال الحالي للمنصور بن أبي عامر ، مثال حي على محاولات التقرب ، ولو ظاهرياً لمشاعر العامة ، واستمالة رجال الدين ، ويصف لنا صاعد الطبقي المتوفى (٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) ما حدث بقوله « تولى هشام وهو غلام لا يحتلم بعد فتغلب على تدبير ملكه بالأندلس ، حاجبه أبو عامر محمد بن عبد الله وعمد أول تغلبه عليه الى خزائن أبيه « الحكم » الجامعة للكتب المذكورة وغيرها ، وأبرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر من خواص أهل العلم بالدين ، وأمرهم باخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق ، وعلوم النجوم ، وغير ذلك من علوم الأوائل ، جاشاً كتب الطب والحساب ، فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو ، والأشعار ، والأخبار ، والطب

(٦٥) ليفي بروفنسال : اسبانيا الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩٧ ،
ونظر أيضاً في هذا المجال : كارل غبريمبرج : العصور الوسطى ،
ص ١٣٤ - ١٣٨ . واميليومتر : اسبانيا العصور الوسطى ،
ص ٩٣ ، ٩٤ .

Léve Provençal : Espana Musulmana ; 1 : 497.

Grimberg ; Carl : La Edad Media : 134 - 138.

Mitre ; Emilio : La Espana Medieval, 93 - 94.

والفقه ، والحديث ، وغير ذلك ، من العلوم المباحة عند أهل الأندلس ،
الا ما أفلت منها ، وذلك أقلها ، أمر باحراقها وأفسادها ، فأحرق
بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة ،
وغبرت بضروب من التغابير ، وفعل ذلك تحببا الى عوام الأندلس
وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم ، اذ كانت تلك العلوم مهجورة
عند أسلافهم ، مذمومة بالأسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهما
عندهم بالخروج عن الملة ومظنوننا به الالحاد في الشريعة ، فسكن
أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، وخملت نفوسهم وتسترخوا بما
كان عندهم من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت
يكتُمون ما يعرفونه منها ، ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب
والفرائض والطب ، وما أشبه ذلك ، الى أن انقرضت دولة بنى أمية ،
من الأندلس » (٦٦) •

ومن ناحية أخرى ، شهدت فترة المنصور ، اضطهادا حقيقيا لأتباع
ابن مسرة ، وتولى القاضي محمد يبقى بن زرب — على ما بينت سابقا —
مسألة الرد عليهم ، كما أنه تولى أحراق كتب ومؤلفات كل من كان يشك
في أنه من أتباع ابن مسرة ، أمام المسجد الجامع بقرطبة ، وعلى مرأى
جمع غفير من الناس ، من بينهم أصحاب هذه المؤلفات — أورد ذلك
النباهي (توفي قبل عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م) ، ولكن النباهي أخطأ في
تحديد عام ٨٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، كسنة احراق كتب أتباع ابن مسرة ، وتابعه
على ذلك الخطأ الدكتور جودة عبد الرحمن في مقالته المنشورة عن
القاضي أبي الوليد الباجي (٦٧) ، يقول النباهي : « اعتنى القاضي
ابن زرب بطلب أصحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستتابة من
علم أنه يعتقد مذهبهم ، وأظهر للناس كتابا حسنا وضعه في الرد على

(٦٦) صاعد الطبقي : طبقات الأمم ، ص ٨٨ ، ٨٩ •

(٦٧) جودة عبد الرحمن : وصية القاضي أبي الوليد الباجي ،

ابن مسرة ، قرىء عليه وأخذ عنه ، وفي سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، استتاب جملة من الناس ، جىء بهم اليه ، من أتباع ابن مسرة ، ثم خرج الى جانب المسجد الجامع الشرقي ، وقعد هناك ، فأحرق بين يديه ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه ، وهم ينظرون اليه في سائر الحاضرين » (٦٨) .

والخطأ في تحديد التاريخ هنا ، حيث كان منذر بن سعيد البلوطي هو قاضي الجماعة في قرطبة حتى وفاته في عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٧ م ، وتبعه القاضي محمد بن السليم (٦٩) ، وتولى ابن ييقى القضاء بعد وفاة محمد بن السليم في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وعند ذلك ، تولى تعقب أتباع ابن مسرة (٧٠) ، ويبدو أن النباهي لا يعول عليه كثيرا في التواريخ ، والدليل على ذلك ، ذكره عند الحديث عن القاضي منذر ، أنه « ظلك قاضيا الى أن توفي في عقب ذي القعدة سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م » (٧١) ، ثم ذكره لنص كتاب الحكم المستنصر بالله ، في تولية محمد بن السليم القضاء ، وأن هذا الكتاب قد صدر في سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م (٧٢) .
والصحيح أنه تولى سنة ٣٥٦ .

سمة ثالثة ، يمكن أن تطلعنا على التداخل بين السياسة والعلم ، حيث أن المنصور بن أبي عامر ، لم يواصل أكرام بعض العلماء الذين اعتبرهم صنائع الحكم المستنصر ، ونستدل على ذلك مما يقوله ابن فرحون عند حديثه عن محمد بن حارث الخشني (توفي ٣٧١ هـ / ٩٨١ م)

-
- (٦٨) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٨ .
 - (٦٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٤٠ .
 - النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط ٧ ، ص ٤٧ .
 - (٧٠) انظر ما قاله آسـين بلاثيوس في : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٩ — ٩٠ .
 - بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١٦ .
 - (٧١) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ .
 - (٧٢) نفس المصدر : ص ٧٦ . وانظر التاريخ الصحيح عند ابن الفرغى ، ص ٣٧٢ .

من أنه « قد آلت به الحال بعد موت الحكم ، وتقصير ابن أبي عامر°
بصنائع الحكم ، إلى الجلوس في حانوت لبّيع الأدهان » (٧٣) .

ومن ناحية أخرى ، كان للمنصور اهتماماته العلمية ، وجهوده في
الوصول بالأندلس من الناحية الثقافية إلى مستوى أرفع مما كانت عليه
خلال فترة الخلافة على عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني ، فقد مضى
على نفس الأساليب تقريبا في تشجيع العلم والعلماء . ويمكن تلخيص
جهوده في ذلك المجال في النقاط التالية :

أولا — الحث على تأليف الكتب ، وتقديم العطايا الضخمة لمن
يقومون بها ، فقد دفع لصاعد الطبقي خمسة آلاف دينار ثمنا لكتابه
« الفصوص » (٧٤) ، كما أن « أبو مروان القرشي المعيطي ، جمع في
أقاويل مالك بن أنس وروايات أصحابه عنه كتابا ، اجتمع على جمعه
مع الفقيه أبي عمر أحمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المكوي ، بأمر
المنصور بن أبي عامر » (٧٥) .

كما أن حسان بن مالك بن أبي عبده ، حينما رأى المنصور بن أبي
عامر مهتما بكتاب كتب « في أيام الرشيد » ، فقام بتأليف كتاب للمنصور
على مثال هذا الكتاب ويقول الضبي أن « سبب تأليفه إياه ، أنه دخل
على المنصور وبين يديه كتاب أبي السري يعجب به ، فخرج من عنده ،
وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفا ونسخا ، وتصويرا ، وجاء به في
مثل ذلك اليوم من الجمعة الأخرى وأراه إياه ، فسر به ، ووصله
عليه » (٧٦) .

(٧٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .
(٧٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .
عنان : دولة الاسلام في الأندلس — العصر الأول — القسم
الثاني ، ص ٥٢٧ .
(٧٥) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٧٧ .
الضبي : بغية الملتبس ، ص ٥١٤ .
(٧٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٨٣ .

ثانيا - أن المنصور قد شجع أيضا قدوم العلماء المشاركة الى الأندلس ، وأعطاهم نفس الفرصة في احضار المزيد من الكتب المشرقية الى قرطبة، واذاعتها بين الناس، كما أنه حثهم على تأليف كتب جديدة، ربما لا تقل في أهميتها عن الكتب التي ألقت على عهد عبد الرحمن الناصر أو الحكم المستنصر ، ومن أشهر الوافدين على المنصور ، أبو العلاء صاعد بن الحسن الرُبَيعي ، اللغوي (المتوفى ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م) ، وألف للمنصور مجموعة كتب أوردتها الحميدى الذى يقول أن المنصور كان كثير الشغف بأحدها - كتاب النحواس - « حتى رتب له من يخرج به أمامه في كل ليلة » (٧٧) .

ثالثا - اتخذ المنصور مجلسا علميا خاصا كل أسبوع كان يلتقى فيه مع العلماء والأدباء ، مما أثار حماس الحركة الأدبية على عصره ، وجعل التنافس بين العلماء يزداد ، وخاصة في المجالات اللغوية والشعر ، وتجمع الكتب تقريبا على أن المنصور « كان محبا للعلم ، مؤثرا لأهل الأدب ، مفرطا في اكرام من ينتسب اليهما ويفد عليه متوسلا بهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ومشاركته فيهما ، وكان له مجلس معروف في الأسبوع ، يجتمع فيه من أهل العلوم ، للكلام فيها بحضرته، من كان مقيما في قرطبة » (٧٨) .

رابعا - اهتم المنصور اهتماما كبيرا بالشعراء ، حتى وصل به الأمر الى انشاء ديوان خاص بالشعراء جعل له رئيسا مسئولا عنه هو « عبد الله بن محمد بن مسلمة » ، وتحدثنا كتب التاجم عن هذا

(٧٧) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .
الضبى : البغية ، ص ٣١٩ - ٣٢٣ .
المراكشى (عبدالواحد) : المعجب ، الطبعة السابعة ، ص ٥٠ - ٦٠ .
Pons Boigues : Bio Bibliografico, PP. p. 122.

(٧٨) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
المراكشى : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ٣١ و ص ٣٨ .
ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٦١ .
عنان : المصدر المذكور ، ص ٥٢٥ - ٥٢٧ .

الرجل بأنه كان من أهل العلم والأدب ، ناقدا من نقاد الشعر ، كان رئيسا جليلا في أيام المنصور بن أبي عامر ، وفي ديوانه كان زمام الشعر في تلك الدولة ، وعلى يديه كانت تخرج صلاتهم ورسومهم وعلى ترتيبه كانت تجري أمورهم (٧٩) .

وفي هذا الديوان ، كان يسجل كبار الشعراء وتصرف لهم رواتبهم حسب مكانتهم الأدبية ، وملكتهم الشعرية ، ووردت أخبار هذا الديوان في معظم كتب التراجم وكتب الأدب وكتب التاريخ ، ووردت أخبار هذا الديوان كثيرا مع ترجمة « أحمد بن محمد بن دراج القسطلی (المتوفى ٤٢١ هـ / ١٠٢٧ م) » (٨٠) .

خامسا — قام المنصور بنفسه باختبار العلماء ، سواء القادمون عليه من المشرق أو ممن كانوا من أهل الأندلس ، وكان يعقد لهم مجلسا للمناظرة يحضره كبار العلماء والأدباء والشعراء ، وإذا ما أثبت الممتحن قوته وبراعته ، ونجاحه في الاختبار ، فإن المنصور كان يهديه هدية ، ويقدم له مبلغا من المال كبيرا ، وأورد هنا حادثتين للدلالة على ذلك ، أولاهما مع الشاعر « ابن دراج القسطلی » المذكور آنفا ، الذي « سعى به إلى المنصور ، وأنه منتحل ، سارق لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء ، فاستحضره المنصور واختبره ، واقترح

(٧٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٣٩ .

الضبي : البغية ، ص ٣٢٣-٣٢٤ « طبعة مدريد » ، و ص ٣٣٦ — ٣٣٧ « طبعة القاهرة » .

(٨٠) الحميدى : الجذوة ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

الضبي ، بغية الملتبس ، ص ١٥٨ — ١٦١ « طبعة القاهرة » ، و ص ١٤٩ ، ٥ « طبعة مدريد » .

ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤٠ .

محمود علم ، مكي : ديوان ابن دراج القسطلی ، المقدمة .

عليه ، فبرز ، وسبق وزالت التهمة عنه فوصله بمائة دينار ، وأجرى عليه الرزق ، وأُثبتت في جملة الشعراء » (٨١) .

أما الحادثة الثانية ، فقد حدثت مع صاعد البغدادي ، الذي كان حاضرا مجلس المنصور يوما فأحضرت له وردة في غير وقتها لم يستتم فتحها فأنشد صاعد بديهة بيتين جميلين من الشعر ، أعجب بهما المنصور أيما إعجاب ، فحسده على ذلك « ابن العريف ، وقال لابن أبي عامر : هذان البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر وهما عندي على ظهر كتاب بخطه . فقال المنصور : أرنيه ، فخرج الرجل وذهب الى صديق له « ابن بدر » ، وحكى له القصة ، فأنشد له أبياتا على نفس الوزن والقافية ، وضمن هذه الأبيات بيتي صاعد . وأخذ « ابن العريف » هذه الأبيات ، وعاقبها على ظهر كتاب بخط مصرى ، ومداد أشقر ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها ، اشتد غيظه على صاعد ، وقال لحاضرين ، « غدا أمتحنه ، فان فضحه الامتحان ، أخرجته من البلاد ، ولم يبق في موضع » ، لى عليه سلطان » .

فلما أصبح وجه اليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء فدخل بهم الى مجلس محفل قد أعد فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ، ووضع على السقائف لعب من الياسمين في شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلئ مثل الحصباء ، وفي البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : ان هذا اليوم اما أن تسعد فيه معنا واما أن تشقى بالضد عندنا ، لأن قوما قد زعموا أن كل ما تأتي به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك قبلى شكله ،

(٨١) انظر المراجع المذكورة في الملاحظة السابقة ، كما ان القصة كاملة واردة في عدد كبير من كتب الادب الاندلسي التي تحدثت عن « ابن دراج القسطلی » ، كما اشار الى ذلك الدكتور « أحمد هيكال » في محاضرة له بالأمم المتحدة الأسباني العربي للثقافة بمديرد .

فُصِّفه بجميع ما فيه ، « فأنشد صاعد قصيدة رائعة في ذلك ، تفوق بها على الجميع ، وأمر له المنصور بألف دينار ، ومائة ثوب ، ورتب له في حل شهر ثلاثين ديناراً ، وألحقه بالندماء » (٨٢) .

وهذا الاختبار الذي تعرض له صاعد اللغوى ، ليس الأول من نوعه ، بل لقد عقد له امتحان آخر عند وصوله ، ووردت تفاصيله أيضاً في « نفح الطيب » ، حيث يقول : ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوماً ، وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم ، كالزبيدي والعاص ، وابن العريق ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا ، يزعم أنه متقدم في هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ، فوجه إليه ، فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل ، أخجل ، فرفع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن « أبى سعيد السيرافى » فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب « سيبويه » فبادره العاص بالنسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جل صناعته ، فقال الزبيدي ، « صاحبكم ممزق » (أى كاذب ومموه) فقال صاعد : أخال الشيخ صناعته الأبنية ؟ ، قال الزبيدي : أجل : قال صاعد : وبضاعتي أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار وفك المعتمى ، وعلم الموسيقى ... (٨٣) .

ويبدو أن ابن المنصور ، الذى ولى النجابة بعده ، المظفر عبد الملك ، قد واصل سياسة الاهتمام بالعلم والعلماء ، فعلى الرغم من فترة حكمه القصيرة ، والمشاكل العسكرية التى خاضها ، الا أننا نراه

(٨٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ج ١ ، الصفحات ١٤ — ١٩ (طبعة احسان عباس) .

المقرى : نفح الطيب ، ص ٧٩ — ٨١ .

(٨٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

يقوم بزيارة لبعض الفقهاء في أماكن تدريسه ليتحدث معه ، ويطلب منه الدعاء له (٨٤) .

كما أنه قد قام بنقل العالم أبي محمد مكي بن أبي طالب المقرئ (المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) « إلى جامع الزاهرة ، فأقرا فيه حتى انصرمت دولة آل عامر . فنقله محمد بن هشام المهدي إلى المسجد الجامع بقرطبة ، وأقرأ فيه الفتنة كلها » (٨٥) .

وسقطت الدولة العامرية ، وتعرضت الأندلس للفتنة الكبرى ، ويحدثنا ابن حيان عن مقتل أكثر من ستين مؤدباً في مدينة قرطبة وحدها ، مما يدل على كثرة انتشار مراكز التعليم في قرطبة في هذه الفترة . ولقد نقل الينابنا ابن بسام نص أبي حيان قائلاً : « قال أبو حيان : وأصيب في تلك الواقعة من المؤدبين خاصة ، نيف وستون ، عريت سقائهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم ، لعدمهم » (٨٦) .

وعلى الرغم من الفتنة العنيفة التي أحاطت بقرطبة ، والظروف السياسية السيئة ، وتقلب الأمراء عليها ، إلا أننا لا نعدم بعضهم ممن يهتم بالعلم والعلماء ، بل ويجعل من ضمن الوظائف الكبرى في قصره ، خدمة خزانة الطب والحكمة ، فالخليفة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الذي تولى في عشر من شهر رمضان سنة ٤١٤ هـ ، ديسمبر ١٠٢٣ م ، والملقب بالمستظهر بالله ، اتخذ بعد توليته ، قراراً ببعض الوظائف ، أوردها ابن حيان على النحو التالي :

-
- (٨٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨٤ .
(٨٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٣١ — ٦٣٣ .
عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية ، ص ٢٠٩ .
(٨٦) ابن بسام : الذخيرة ، م ١ ، ج ١ ، ص ٣١ ، وطبعة احسان عباس ، ج ١ ، ص ٤٤ .
عبد الله جمال الدين : رسالته للدكتوراه ، ص ٧ .

خدمة المدينتين ، والزاهرة ، وخدمة كتابة انتعقب والمحاسبة ،
وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناضى والطعام ، وخدمة موارد
الخاصة وخدمة الطراز ، وخدمة المباني ، وخدمة الأسلحة وما يجرى
مجراها ، وخدمة الهواية والقنص والدفع ، وخدمة الوثائق ورفع كتب
المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة الأتزال والنزائل ،
وخدمه أحكام السوق (٣٧) .

قرطبة الخلافة :

اتخذ المسلمون مدينة قرطبة عاصمة لهم ، لأول مرة ، في عام
٩٩ هـ / ٧١٩ م ، وحظيت بنصيب كبير من عناية ولاية الأندلس منذ ذلك
التاريخ . والتغير الكبير الذى طرأ على المدينة بدأ مع بداية عهد
عبد الرحمن الداخل الذى عمد الى « تجديد ما طمس لبنى أمية بالشرق
من معالم الخلافة وآثارها ، فشيّد الدور وأقام القصور » (٨٨) .

ويقول المقرئ عن عبد الرحمن الداخل « انه لما تمهد ملكه شرع

(٨٧) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ،
ص ٣٦ ، ٣٧ ، طبعة احسان عباس ، ج ١ ، ص ٥١ .
عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، القسم
الثانى ، ص ٦١٦ .

عبد الله جمال الدين : رسالة للدكتوراه ، ص ١٤ .
وقد شن الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم هجوما عنيفا على هذه
الملاحظة قائلا : ليس فى هذا ما يدل على الاهتيام بالعلم والعلماء ،
فبعد تبديد خزانة القصر ، وتدمير الزهراء والزاهرة وقرطبة والرصافة
وقتل المؤدبين والإطاحة بالشعراء وتفريقهم الى شرق الأندلس تتحدث
عن اهتمام بالعلم والعلماء على أساس أقوال لا قيمة لها ، نفس
ابن حيان يعلق عليها بقوله : « هذا زخرف من التسطير وضع على غير
حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل » فله شكرى على هذا
التصحيح .

(٨٨) عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص ٦ ، قرطبة
حاضرة الخلافة في الأندلس ، ص ٤٦ .

في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى مدينة قصر الامارة ، والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا ، وجنانا واسعه ، نقل اليها غرائب الغرائس ، وكراثم الشجر من بلاد الشام ، وغيرها من الأقطار » . كما أنه يعود انى القول في موضع آخر : « ان عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره ، وعظم ، ببنى القصر بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى بقرطبة الرصافة ، تشبها برصافة جده هشام » (٨٩) .

كما أن عبد الرحمن الداخل قد بدأ في بناء المسجد الجامع — ذلك المسجد الذى تطور فيما بعد لى يصبح أكبر مسجد في غرب الاسلام على الاطلاق ، وواحدا من أكبر المساجد ، في العالم الاسلامى بأكمله .

وشهدت قرطبة تطورا كبيرا على عهد الأمير هشام « الذى زاد في مسجد أبيه ، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد ، وعنى بنشر اللغة العربية وتدريسها حتى أصبحت تدرس في مدارس اليهود ، كما جمل مدينة قرطبة ، وزينها بالحدائق والبساتين ، والمباني الجميلة . وكثيرا ما كان هشام يشاهد متجولا في طرقات قرطبة ، يخالط الناس ، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم » (٩٠) .

أما عصر عبد الرحمن الثانى فقد شهد ما يمكن أن نطلق عليه انقلابا اجتماعيا كبيرا ، حيث شهدت المدينة سيلا من التأثيرات المشرقية عامة والعراقية خاصة ، ساهمت في تطوير المستوى الاجتماعى والأدبى ، والفنى بالمدينة . ساعد على ذلك كون الأمير عالما متبحرا في علوم الشريعة والفلسفة (٩١) ، علاوة على كونه شاعرا مطبوعا ، ذا همة عالية ،

(٨٩) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٩٠) عبد الشافى غنيم : محاضرات في التاريخ الاندلسى : عصر الامارة .

(٩١) ابن خلدون : التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٣٠ .

المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

احتضن العلماء والأدباء ، ورفع قدر رجال العلم والأدب والفن ، ممن ضاق المشرق بمواهبهم ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم وفادتهم •

ويرى الدكتور عبد العزيز سالم « أن المجتمع القرطبي قد تأثر في عصر عبد الرحمن الثاني ، بالتقاليد العراقية التي أخذت تغزو الأندلس ، وتمتزج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلا تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر ندين الله حتى سقوط مملكة غرناطة » (٩٢) •

وعلاوة على ذلك ، فإن عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شهد قدوم الموسيقى ، الفنان الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب والذي سبقت الإشارة إليه قبلا ، ويعتبر زرياب ، بلا شك ، بداية عصر اجتماعي جديد ، لا في مجال الموسيقى والغناء فحسب ، ولكن في مجالات الحياة الاجتماعية حيث عمل على تطعيم هذه الحياة بكثير من التقاليد العراقية والفارسية ، وإذا كان وصول زرياب وما قدمه لصالح الآداب الاجتماعية القرطبية ، يعتبر نقطة حاسمة ، فإن الفضل في ذلك يرجع أيضا الى الأمير الأندلسي « الذي جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة » (٩٣) •

ويرى المستشرق الأسباني أنخيل غونثاليث بالنسيا أن زرياب « لم يستهو أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بأدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته في ارسال شعره ، وولائمه البديعة التي كان يتفنن في ترتيبيها ، فأخذ الناس عنه ذلك كله ، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذي يحتذيه القرطبيون

(٩٢) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج ١ ،

(٩٣) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٤٦ •

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٦ •

في اعداد مابسهم ، ومن ذلك الحين ، جهد حكام الأندلس ، في أن يكون لقصورهم مجد أدبي يحاكى ما كان لقصور خلفاء المشرق « فاهتموا برعايه الاداب والعلوم والفنون ، حتى تصل قرطبة الى مستوى يضاهي ما وصلت اليه دمشق وبغداد » (٩٤) .

ولقد كانت قرطبة في مبدأ نهضتها ، تتخذ من بغداد مثلا أعلى ، تسير على نمودجه ، وتنسج على منواله في كل شيء ، « في الآداب والهن ، وفي الموسيقى والفلك ، وفي الطب والكيمياء ، وفي العلم والحكمة ، وفي الأخلاق والسياسة ، وبالأجمال في كل نواحي الحياة الثقافية » (٩٥) ، وهذا صحيح نوعا ما ، ولكي الحال لم يبق كذلك دائما ، لأن قرطبة على عهد عبد الرحمن الثالث ، والحكم المستنصر ، والخليفة هشام الثاني (فترة المنصور بن أبي عامر) ، قد شهدت تطورا عمرانيا وعلميا واجتماعيا ، جعلها من أعظم المدائن في الغرب ، ان لم تكن احسنها في العالم كله ، وتركت قرطبة أثرها الخالد على كافة الكتاب والمؤلفين في الشرق والغرب ، واعترف العالم كله بعظمتها وجلالها ، ويخفى ان تلقى نظرة على ما قلناه في حقها بعض المؤلفين العرب والأجانب لكي نصل الى تصور حقيقي لهذه المدينة :

« ... أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس وقطبها وقطرها الأعظم وأم مدائنها ومساكنها ، ومستقر الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية والاسلام » (٩٦) ، ومدينة العلم ، ومقر السنة والجماعة ، نزلها فيما

(٩٤) غونثال بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٨ — ٥٠ .
عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة — ج ١ ، ص ٥٨ ، ٥٧ .
(٩٥) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٣ .

(٩٦) في هذه الجملة نوع من المبالغة ، لأن قرطبة لم تكن يوما دار المملكة في النصرانية فقبل فتح المسلمين للأندلس ، كانت طليطلة ، أما أثناء حرب الاسترداد وبعدها فلقد اتخذت أكثر من مدينة في أسبانيا ، عاصمة لأسبانيا ، كما أن أسبانيا في ذلك الوقت كانت مقسمة الى ممالك عدة ، لكل منها عاصمة ، وحين توحدت أسبانيا على يد الملكين الكاثوليكين كانت عاصمة أسبانيا هي المدينة التي يوجد بها البرلمان الأسباني ، ثم اتخذ فيليب الثاني مدريد عاصمة له في عام ١٥٦١ م .

نزل جل من الصحابة ، وجملة من التابعين ، رضى الله عنهم
أجمعين » (٩٧) .

ويزيد الادريسي (٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) (٩٨) في وصف المدينة فيقول :

« ومدينة قرطبة ، قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدائنها ودار الخلافة
الاسلامية ، وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم
أظهر من أن تستر ، واليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم أعلام
البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن
الزى في الملابس والمراكب ، وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل
التخصص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائق ،
ولم تخل قرطبة من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير ،
لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم مراكب ، وهم عليّة ، وهى فى
ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ،
وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر
الصناعات (٩٩) . وفى طولها من غربها الى شرقها ٣ أميال ، وكذلك
عرضها من باب القنطرة الى باب اليهود بشمالها ميل واحد ، وهى فى
سفح جبل مطل عليها ، يسمى جبل العروس ، ومدينتها الوسطى هى

(٩٧) مجهول : جغرافية الأندلس وتاريخها ، المخطوط رقم ٣٦ ،
بالمعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمديريّة ، ص ١١ ، ١٢ .
د. حسين مؤنس : وصف جديد لقرطبة الاسلامية ، مجلة المعهد
المصرى ، العدد ١٣ ، ص ١٦٤ .

(٩٨) انظر : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس من
ص ١٦٥ الى ص ٢٨٠ .

(٩٩) يورد الدكتور حسين مؤنس تفسيراً لهذه العبارة ، عند حديثه
عن « طبوغرافية قرطبة » ، مفاده انقسام قرطبة الى خمسة أقسام
رئيسية يتولى مسئولية الحراسة فى كل منها عريف ، أو أن المدينة
خلال زيارة الادريسي لها لم تعد مدينة واحدة ، وانما خمس مدائن
متجاورة يشرف على الأمن فى كل منها عريف مستعينا بعدد من الحراس ،
أو أن ذلك هو التقسيم الذى أقامه المرابطون فى الأندلس ، انظر فى ذلك
« تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

التي فيها بآب القنطرة (١٠٠) ، وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله ، بنية وتنميكا ، طولاً وعرضاً » (١٠١) .

أما المقرئ ، فقد خصص صفحات طويلة للحديث عن قرطبة ، والاشادة بجمالها وعظمتها ولا أجد داعياً لذكرها هنا لطولها ، ولكن سأورد ما نقله عن الخجاري (المتوفى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م) :

« حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الامام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر النواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات ، الفائقة .

والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط ، الا على البحث والطلب ، لأنواع الفنون والأدب » (١٠٢) .

(١٠٠) بالنسبة للمدينة الوسطى — انظر الدكتور عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٧٥ ، وعن القنطرة ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

وأميليو غارثيا غومث في : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، مجلة الأندلس ، العدد ٣٠ ، ص ٣١٩ — ٣٨١ .

Garcia Gomez : Notas Sobre la Topografia Cordibesa

en Los «Anales de al Hakam II» por Isa al Razi.

Al Andalus XXX ; 319.

(١٠١) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢٠٨ .

(١٠٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ .

وانظر أيضاً في نفس الجزء الصفحات ٨ ، ١٠ ، ١١ ، و ج ١ ،

ص ١٤٧ .

أما عن الكتاب الغربيين عامة ، والأسبان خاصة ، فقد أعطوا المدينة حقها من الوصف والتقدير ، وسنشير باختصار الى بعض أقوالهم :

« كما كان القرن العاشر الميلادي قرن الكمال بالنسبة للخلافة ، فهو أيضا كذلك بالنسبة لقرطبة ، تلك المدينة الواقعة بين الشرق والغرب ، كانت مثل بيزنطة ، ملتحقة للتيارين • وعلى عهد عبد الرحمن الناصر ، وصلت مساجدها الى ألف وستمئة مسجد وحماماتها لا يحصيها عدد • ازدانت المدينة بالقصور الفخمة ، والعلماء الأجلاء ، الذين من أجلهم جمع الحكم الثاني مكتبته الشهيرة ذات الأربعمئة ألف مجلد » (١٠٣) •

« قرطبة ، العاصمة الخلافية ، وصلت الى قمة لمعانها ، الى أن تصبح أكثر مدن عصرها ازدهارا وجمالا » (١٠٤) •

« ما أسرع ما وصلت قرطبة الى أن تكون مدينة رائعة مأهولة مثل بغداد ذاتها ، لقد وصل تعدادها الى أكثر من نصف مليون ساكن ، كانت عامرة بالقصور الفخمة ، والمساجد الشامخة ، والمكتبات الوافرة ، والمدارس الشهيرة ، حيث علم أعظم الرجال علما في ذلك الوقت » (١٠٥) •

« لقد ترك العرب اسمهم خالدا على هذه المدينة ، ان أكثر من خمسمئة عام من الحكم العربي للمدينة ، قد جعل من قرطبة ، مدينة

(١٠٣) سواريث فرنانديث : مجمل التاريخ العالمى ، ج ٣ ، العصور الوسطى ، ص ٢٦٩ .
وانظر أيضا كتابه « تاريخ أسبانيا في العصور الوسطى » ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(١٠٤) سانتا ماريا : تاريخ أسبانيا العالمى ، ص ١٠٧ .
Santamaria A. : Ho Universal de Espana 107.

(١٠٥) خوسيه اجيلار : تاريخ أسبانيا ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
Benalles Aguilera : Ho de Espana 1 . 128

خاصة بهم ، بما قاموا به فيها . نعم ، لقد كانت خضارتهم أصيلة
تطعمت بما حصلوا عليه من لقاءهم مع العناصر القديمة للثقافة الاسبانية
الرومانية » (١٠٦) .

ويقول في مكان آخر من نفس الكتاب متحدثا عن القرن العاشر :

« انه قرن العظمة في قرطبة ، فاليها جاءت سفارات كل الأمم :
خوان جورتر Juan de Gortz (٩٥٣م) قدمها سفيرا باسم
الامبراطور الألماني « أتون العظيم » Otôn el Grande ، وقد
ترك لنا بهذا السفير ، وصفا رائعا وشيقا لهذه الرحلة ، ومن قبله كان
قد وصل الى قرطبة سفراء القسطنطينية ، وامبراطورها البيزنطي » (١٠٧) .

« على عهد الخلافة في قرطبة ، نمت كل عناصر العظمة ، تلك
العناصر التي غرست على عهد الامارة ، فوصلت قرطبة الى نصف
مليون نسمة ، واحتوت على ثلاثة آلاف مسجد ، ومائة وثلاثة عشر
ألف منزل ، بالاضافة الى مائتي حمام » (١٠٨) .

أما المستشرقة الألمانية « زيغريد هوتكه » فتقول عنها :

« تجتذب قرطبة طلاب العلم من كل أنحاء الشرق ، بل والغرب
أيضا — تجذبهم بمدارسها العليا ، ومكتبتها العظيمة التي جمع لها الخليفة

(١٠٦) انطونيو خاتن : تاريخ مدينة قرطبة ، ص ١٢ .
Jaen, Antonio : Ho de la ciudad de Cordoba p. 120.

(١٠٧) نفس المصدر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .
وانظر أيضا ما يقوله سانشيت البرنوس في كتابه الجديد « صفحات
جديدة عن ماضي اسبانيا » ، ص ٧٢ وما بعدها .

Sanchez Albornos :

Neurvas Pâginas sobre el pasado de Espana ; pp.

71 - 107, Madrid, 1979.

(١٠٨) بولياريو : تاريخ اسبانيا ، ص ٧٨ .
Policarpo Mingot : Historia de Espana ; p. 78.

الحكم الثانى ، وهو من أشهر علماء عصره ، نصف مليون من الكتب تقريبا ، جمعها له عشرات من رجاله ، وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته التى حدثت قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عاما » (١٠٩) •

وعلى الرغم من اعترافنا بالمبالغة التى يلجأ اليها المؤرخون والجغرافيون العرب فى اعطائهم الأرقام ، الا أن الحقيقة التى لا جدال فيها هى أن هذه الأرقام ، رغم ما فيها من مبالغة ، ليست الا تعبيرا عن عظمة هذه المدينة ، التى وصل عدد سكانها فى هذه الفترة لأكثر من نصف مليون نسمة ، وامتدت مساحتها الى مسافات بعيدة ، تصورنا لنا المخطوطة الخاصة بجغرافية الأندلس قائمة :

واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا ، وفى عرضها فرسخين وذلك بالأميال أربعة وعشرون ميلا فى الطول ، وستة أميال فى العرض (١١٠) ، كل ذلك ديار ، وقصور ، وبساتين ، ومساجد ، وقيسارات ، وخانات ، وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادى المسمى بالوادى الكبير •

وتواصل المخطوطة الحديث عن أبواب قرطبة ، وسورها ، وقصرها وأبوابه الرئيسية ، وأرباضها البالغة واحدا وعشرين ربضا ، ثم يورد أسماء هذه الأحياء بالأسم التى أن يصل الى القول :

« وأحصيت دور قرطبة التى بها وأرباضها ، فى أيام الحاجب المنصور »

(١٠٩) زيفريد هوتكة : شمس العرب تسطع على الغرب « الترجمة

العربية » ، ص ٣٥٣ •

(١١٠) يرى الدكتور حسين مؤنس أن ذلك مقبول ، اذا كان المقصود المدينة وما يتبعها اداريا وماليا من القرى والأراضى (انظر تحقيقه لهذا الجزء المنشور بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، العدد ١٣ ، ص ١٦٦ ، التعليق رقم ٥) •

محمد بن أبى عامر ، فكانت مائة ألف دار (هنا سقطت كلمة من المخطوطة يعتقد الدكتور مؤنس أنها « أو مائتين ») ، وثلاث عشر ألف دار ، وسبعة وسبعين دارا ، وهذه دور الرعية ؟ أما دور الأمراء والأكابر والوزراء ، والرؤساء ، والقواد ، والكتاب ، والأجناد ، وخاصة الملك ، فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مصارى الكراء والحمامات والخانات •

وكان بها من المساجد ثلاثة عشر ألف مسجد وثمانمائة مسجد ، ونيف وسبعون مسجدا ، وكان بربض شقندة خاصة ثمانمائة مسجد (هنا يلاحظ الدكتور مؤنس أن المؤلف قد خلط بين عدد الدور وعدد المساجد ، ويبين أن الرقم قد ورد عند المقرئ ج ٢ ص ٧٩ ، ٣٨٧٧ مسجدا ، ويعيد التذكير بأن الكثيرين من المؤلفين القدامى لم يكن لديهم تصور سليم عن الأرقام — انظر ص ١٦٩ — التعليق ٩) •

وكان عدد حماماتها ثلاثة آلاف حمام ، وسبعمئة حمام وأحد عشر حماما وكان بها من الفنادق والخانات ألف وستمئة فندق لسكنى التجار والمسافرين والعزاب والغرباء وغيرهم •

وكان بها من الحوانيت ثلاثون ألف حانوت ، وأربعمائة واثنان وخمسون حانوتا •

وانتهت دور قصرها الكبير الذى ينزله الخلفاء والملوك الى أربعمائة دار ونيف وثلاثين دارا ، كلها للملك وحرمة وفتياته » (١١١) •

ولا يكتمل الحديث عن عظمة مدينة قرطبة على عصر الخلافة ، الا بالحديث عن مدينتى الزهراء والزهرة ، والمسجد الجامع وقنطرة الوادى •

(١١١) مجهول : جغرافية الأندلس ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ص ١٦٦ — ١٧٠ .

ومدينة الزهراء تمثل عظمة الخلافة على عهد عبد الرحمن الناصر، ويحيط بدوافع انشائها وبنائها أساطير كثيرة ، وحكايات خيالية جامحة وتقع شمالى غربى مدينة قرطبة على مسافة ١٠ كيلو مترات تقريبا ، وشرع فى بنائها عام ٣٢٥ هـ ، الموافق ٩٣٦ م ، وعهد الناصر الى ولده الحكم المستنصر بالأشراف على بناء المدينة ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، وكتب التاريخ والآثار حافلة بالأرقام الخاصة بعدد العمال والرواتب وتكاليف ذلك بالدنانير والدراهم ، وأسعار شراء الرخام من القسطنطينية ومن قرطاجنة وأفريقية ، وتونس ومن سائر بلاد الأندلس ، مما لا أجد داعيا للإشارة إليه هنا (١١٢) .

ومنذ تأسيس قصرها الرئيسى ومسجدها ، اتخذت مقرا للخلافة، ونقل إليها بيت مال المسلمين ، والديوان والمطبخ والخزائن (١١٣) و « أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس ألا من بيتنى دارا

(١١٢) للحصول على تفصيلات وافية عن مدينة الزهراء ، يمكن الاطلاع على بعض الأعمال التالية :

المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٠١ — ١٠٤ . وازهار الرياض ج ٢ ، ص ٢٦٧ — ٢٧٢ .

الأدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢٦٢ .

مجهول : جغرافية الأندلس ، ص ١٧٠ .

العزرى : نصوص عن الأندلس ، ص ١٢٣ .

ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

ابن غالب : فرحة النفس ، ص ٣١ — ٣٣ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ ، ص ٢٢٩ — ٢٥٨ .

تاريخ المسلمين وآثارهم ، ص ٤٠٧ — ٤١١ .

عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الاول ، القسم الثانى ، ص ٣٩٥ — ٤٠٥ . الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ، ص ٣٥ وما بعدها .

Terres Balbas; Ciudades Hisano Musulmanes. 1 : 63.

(١١٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٠٨ .

أو أن يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم ،
فتسارع الناس الى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وترايدت فيها
الرغبة » (١١٤) ، وتوفي عبد الرحمن الثالث بمدينة الزهراء في عام ٣٥٠ هـ
/ ٩٦١ م ، وواصل الحكم المستنصر من بعده العناية بالمدينة حتى
وفاته ، ولقد وضعت وفاة الحكم وانشاء المنصور لمدينته الجديدة
الزاهرة ، حدا لتوسع الزهراء بل والبداية للقضاء عليها .

أما عن مدينة الزاهرة ، فلقد كان المنصور بن أبي عامر يهدف الى
أن يثبت أنه لا يقل عظمة وسلطانا ، عن الخليفين الناصر والمستنصر ،
فشرع في بنائها في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، « وشحنها بجميع أسلحته ،
وأمواله وأمتعته واتخذ فيها الدواوين ، وعمل في داخلها الأهراء ،
وأطلق بساحتها الأرجاء ، ثم أقطع ما حوالها لوزرائه وكتابه ، وقواده
وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور وجليات القصور ، واتخذوا خلالها
المستعلات المفيدة ، والمنازه المشيدة ، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها
الأرفاق ، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها ، والحوال بأطرافها ،
للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو في البناء حوله ، حتى اتصلت
أرباضها بأرباض قرطبة » (١١٥) .

(١١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(١١٥) ابن عذارى : ج ٢ ، ص ٤١٢ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ص ٢٥٨-٢٦٣ .

عنان : دولة الاسلام في الأندلس - العصر الأول ، القسم الثاني

ص ٥٢٢ . علاوة على أن معظم المصادر المشار اليها عند الحديث عن مدينة

الزهراء وعن مدينة قرطبة ، قد تناولت أيضا مدينة الزاهرة .

انظر :

Torres Balbas : Madina al Zahira

La Ciudad de Almanzor, Al Andalus V. XXI (1956)

p. 254.

Ciudades Hispano — Musulmanes ; 1 : 66.

أما المسجد الجامع الذى أمتازت به مدينة قرطبة عن باقى مدن الأندلس بكاملها فسوف تأتى الإشارة اليه عند الحديث عن المؤسسات التعليمية فى الأندلس ، ولهذا لا أجد داعيا لذكره فى هذا المجال .
أما قنطرة قرطبة ، فعلى الرغم من كونها معلما رئيسيا من معالم مدينة قرطبة ، حتى تعد أولى أربع مظاهر تتميز بها مدينة الخلفاء ، ويجمع أحد الشعراء هذه المزايا فى بيتين هما :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهاء ثلاثة

والعلم أعظم شئ وهو رابعها (١١٦) .

ولم يكن قصدى من ذلك الذى عرضته عن قرطبة وأرباضها وضواحيها أن أقدم وصفا تاريخيا أو وصفا للمدينة ، لأن ذلك موضوع يحتاج الى مجلدات كاملة ، وهناك بالفعل عشرات المجلدات تناولت هذه المدينة عمرانيا ، وحضاريا واجتماعيا وفنيا ، ومن الصعب على دارس فى غير هذه التخصصات ، أن يلم بكل ما كتب عن هذه المدينة العظيمة ، وانما قصدت مما كتبه عنها ، إعطاء صورة عن الحياة الحضارية للمدينة ، يمكن أن تقودنا الى تصور الحياة العلمية والتعليمية التى تخللت هذه الأحياء الواسعة ، وعمرت بها تلك المساجد الكثيرة ، وحفلت بها المكاتب ، والمجالس ، أردت أن أصل الى الحقيقة التى عبر عنها عبقرية زمانه ، فيلسوف التاريخ ، وأشهر وأبرز علماء الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون ، الذى صاغ أفضل معادلة بين الحضارة والتعليم ، حين قرر أن « التعليم للعلم من

(١١٦) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ، ص ٣١٠ .
Gayangos : The History of the Mohammedan Dynasties in Spain ; 1 : 327.

جملة الصنائع » (١١٧) ، ضارباً الأمثلة الحية بالوقائع التاريخية التي مر بها عالم المغرب الاسلامي فقال : « اعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب ، باختلال عمرانها ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر ، وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، واستبحر عمرانهما ، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم ، لامتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة . فلما خرجتا ، انقطع التعليم من المغرب ، الا قليلا » (١١٨) .

ويعود ابن خلدون لتأكيد فكرته ، مبينا أن انقطاع التعليم بالأندلس سببه تناقص العمران ، وأن استمراره بالشرق يرجع إلى اتصال العمران فيقول :

« وأما أهل الأندلس ، فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتي السنين . »

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه » (١١٩) .

« فالعلم من جملة الصنائع ، والصنائع تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة .. الخ » (١٢٠) .

وأجد أيضا في ذلك المجال ، أن أستاذي ، الدكتور لويس سواريث

(١١٧) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .

(١١٨) نفس المصدر ، ص ٩٨٦ .

(١١٩) نفس المصدر ، ص ٩٨٨ .

(١٢٠) نفس المصدر ، ص ٩٩٠ — ٩٩١ .

وانظر أيضا عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة ينسية ،

ص ١٧٦ .

فرنانديث ، على حق في تصويره لقرطبة في القرن العاشر الميلادي ، وكأن كل شارع منها ، وكل ركن من المدينة حافلان بالطلبة والمعلمين ، من كل الطبقات والأديان ، كل منهم يسعى الى علم معين ، أو الى أستاذ معين وليس غريبا أن تتطابق تلك الصورة التي يرسمها الدكتور سواريث وهو المؤرخ الوسيط ، الذي يركز معظم اهتماماته على دراسة تاريخ أسبانيا المسيحية مع ما يقوله الدكتور حسين مؤنس المؤرخ المصري ، المتعمق في الدراسات الأندلسية ، حين يصف مناخ قرطبة خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، بقوله :

« يمكن أن تتصور البيئة العلمية الأندلسية ، في ذلك العصر بيئة تأليف وترجمة ، وتجديد ، وطلب للعلم والمعرفة ، مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، مركزا من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة في العالم كله » (١٢١) .

(١٢١) مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،

ص ٥٦ .

هذا وقد تعرض هذا الجزء من الرسالة لنقد عنيف من الدكتور عبد العزيز سالم على أساس تركيزه على مدينة قرطبة فقط وعدم الاهتمام بالحوضر الأندلسية الكبرى . ووصفه بأنه خارج عن موضوع الرسالة ، ومع تسليمي بصحة رأي سيادته في أنه قد يبتعد بالقارىء عن الموضوع الأصلي الا أنني رأيت التركيز عن قرطبة ، على أساس أنها العاصمة ، ويوصفها مثالا للمستوى الاجتماعي الذي شهدته المدن الأخرى ، ولم أرغب في الخروج عن الموضوع أكثر من ذلك .

الفصل الثاني

منذ سقوط الدولة الأموية الى سقوط غرناطة

(١) عصر الطوائف :

تعرضت الأندلس لفترة من التمزق السياسى ، وذلك بانقسامها الى ممالك صغيرة متنازعة فيما بينها ، وتعتبر هذه الفترة من أسوأ عهود الأندلس سياسيا ولكنها على العكس من ذلك ، كانت فترة ثقافية لامعة حيث أعطت فترة الاستقرار السابقة ثمارها خلال عصر الطوائف ، فبرز كثير من العلماء والأدباء والشعراء • ولقد حاول ملوك الطوائف الاحتواء على أكبر عدد من هؤلاء فى ممالكهم الصغيرة ، مما أشعل روح التنافس العلمى والثقافى • وينقل المقرئ قول الشقندى : وكان فى تفرقتهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، اذ نفقوا سوق العلوم ، وتباروا فى المثوبة على المنثور المنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم الا قول : العالم الفلانى عند الملك الفلانى ، والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى (١) •

ولقد عرفت كثير من هذه الممالك بتشجيعها لمجالات أدبية معينة على ما مالت اليه مشارب الحكام ، ففى أشبيلية ، ازدهر الشعر على أيام ابن عباد ، لان الأمير نفسه كان شاعرا واتخذ وزاره وكتابه من الشعراء ، بينما لم يجد الشعراء عند صاحب دانية مجالا واسعا رغم اهتمامه بالعلوم والأدب اهتماما كبيرا جدا • ويصف ابن حيان مجاهد العامرى صاحب دانية بقوله : كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن - عنى بذلك من صباه ، وابتداء حالة التى حين اكتماله ، ولم يشغله عن

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .

خفاجة : قصة الأدب فى الأندلس ، ص ٦٧ - ٧٠ .

عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ١٧٤ .

البريد عظيم ما مارس من الحروب برا وبحرا ، حتى صار في المعرفة
 جميع وحده وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمّة ، وكانت دولته أكثر
 الدول خاصة وأسراها صحابة ، لانتحالها العلم والفهم ، فأمة جملة
 العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيموا في ظل سلطانه ، واجتمع عنده
 من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة وحلبة ظاهرة ، على
 أنه كان فيما بلغنى مع أدبه من أزهد الناس في الشعر ، وأحرمهم
 لأهله ، وأنكرهم على منشده لا يزال يتعقبه عليه كلمة كلمة ، كاشفا
 لما زاغ فيه من لفظة وسرقة ، فلا تسلم على نقده قافية ، ثم لا يفوز
 بالتخلص من مضماره على الجهد لديه بطائل ، ولا يحظى منه بنائل ،
 فأنصرف الشعراء لذلك عن مدحه ، وخلا الشعر من ذكره (٢) .

ولن استطرد في الحديث كثيرا عن اهتمامات مجاهد حاكم دانية ،
 لأن ذلك موضوع طويل (٣) ، ولكن تكفى الإشارة الى أنه حاول أن يدفع
 ١٠٠٠ دينار لأبى غالب ، المعروف بابن التبان المرسى ، على أن يزيد في
 ترجمة كتابه « الموعب » أنه ألفه لأبى الجيش مجاهد ، فرد الفقيه
 المال ، وأنف من ذلك قائلا : والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما
 غطت ، ولا استجزت الكذب ، فانى لم أجمعه لك خاصة ، وإنما جمعته ،
 لكل طالب علم عامة (٤) .

أما في دولة بنى المظفر أمراء بطليوس ، فكانت أيامهم في غرب

(٢) ابن بسام : الذخيرة — القسم الثالث — ج ١ ، ص ٢٣ ، تحقيق

أحسن عباس .

عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ط ١ ،

ص ١٩٢ — ١٩٤ .

(٣) المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ١١٠ .

انظر مختار العبادى : الصقالية في إسبانيا ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٤) مختار العبادى : الصقالية في إسبانيا ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

الأندلس أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الأدب ، وكان المظفر يحيى ابن منصور المتوفى ١٠٦٧/٥٤٦٠م ، أحرص الناس على جمع علوم الأدب ، خاصة من النحو والشعر ، ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتابا كبيرا ترجمه باسمه « (٥) . كما كانت بطليوس زمن المتوكل ، دار أدب وشعر ونحو وعلم ، وأحاط به مجموعة جمعة من كبار الشعراء .

أما عن أبى القاسم بن عباد المعتمد على الله ، فلقد اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ، ما لم يجتمع لك قبله من ملوك الأندلس ، وكان « مقتصر من العلوم ، على علم الأدب ، وما يتعلق وينضم اليه » (٦) .

وازدهرت الحياة الأدبية والعلمية في باقى أقاليم الأندلس الأخرى ، مثل بلنسية (٧) ، سرقسطة (٨) ، وملقة (٩) ، والمرية (١٠) ، وقرطبة (١١) . ولقد سبق القول أن « السلطان سوق ، يجلب اليه ما

(٥) المراكنى : المعجب ، ص ١١١ .

وعن بطليوس وبنى الأمطس . أنظر كتاب مانويل تورون : « أرض بنى الأمطس » .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٩ .

وأنظر أيضا : صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس .

(٧) عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية .

(٨) ترك : مملكة سرقسطة في القرن الحادى عشر الميلادى .
Afif Turk : Reino de Zaragoza en S. XI.

(٩) روبلس : تاريخ مالقة الإسلامية .
Guillen Robles : Malaga Musulmana.

(١٠) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ١٧٤ —

١٨٥ .

محمد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية (رسالة ماجستير بجامعة الاسكندرية) .

(١١) خالد الصوفى : بنو جهور في قرطبة .

Khalid Soufi : Los Banu Gahwar en Cordoba.

ينفق لديه » (١٢) •

ولقد برز في تلك الفترة ، عدد كبير من العلماء والأدباء والفقهاء ،
والشعراء ، والمؤرخين ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

ابن حيان (المتوفى ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م) ، وهو من أشهر مؤرخي
المسلمين في العصور الوسطى (١٣) ، وصاعد الطبقي (المتوفى ٤٦٢ هـ /
١٠٦٩ م) ، وصاحب كتاب « طبقات الأمم » (١٤) ، وأبو الوليد الباجي ،
الذي أدخل الأندلس علوما كثيرة وتناظر مع ابن حزم (المتوفى ٤٧٤ هـ /
١٠٨١ م) (١٥) ، وابن حزم الظاهري (المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) (١٦) ،
الذي يعتبر قمة من قمم الفكر الانساني •

ومن الشعراء الذين برزوا في تلك الفترة يمكن الاشارة الى ابن
دراج القسطلي ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن شهيد • وحتى
لأكثر من الأسماء الالامعة في مجال الأدب ، فانني أشير على القاريء
المتعطش أن يلقى نظرة على ذخيرة ابن بسام الثستريني ، التي أعاد
تحقيقها واستكملها مؤخرًا ، الدكتور احسان عباس (١٧) •

(١٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ج ١ — تحقيق : لطفى
عبد البديع ، ص ٤ .
وبصورة عامة أنظر : عبد الله عنان : ملوك الطوائف .
(١٣) أنظر ترجمة ابن حيان : المقدمة التي كتبها الدكتور محمود على
مكي ، لتحقيقه للجزء الثاني من المقتبس ورسالة دكتوراه عبد الله
جمال الدين .

(١٤) طبع الكتاب أكثر من مرة في القاهرة وغيرها من بلدان العالم .
ابن حيان : نصوص من كتاب المئين ، اعداد عبد الله جمال الدين .
(١٥)

(15) Turki, A. : Polemiques Entre Ibn Hazem et Bayi....
Asin Palacica : Abenhazam de Cordoba y su Historia....

ابن بسام : الذخيرة ، الجزء الثالث ، القسم الأول ، ص ٩٠ (طبعة
بيروت) •

(١٦) الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) .
خفاجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ١٦١ — ١٦٧ و ص ٢٠٣ .
(١٧) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان

ولم تخل الفترة أيضا من بعض الاضطهاد للعلماء وخاصة ما تعرض له ابن حزم من مطاردة من مكان الى آخر ، حيث استقر به المقام في قرية صغيرة لا يؤمه فيها الا صغار الطلبة ، وأحرقت كتبه في أشبيلية ويقول ابن حيان عنه :

طفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، الى أن انتهوا الى منقطع أثره تربية بلدة من بادية لبلة ، وبها توفي رحمه الله ٤٥٦ هـ ، وهو في ذلك غير مرتدع ، ولا راجع الى ما أرادوا به ، بث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده من عامة المقتبسين منهم ، من أصاغر الطلبة (١٨) .

(ب) المرابطون والموحدون :

قابل تدهور الأمور السياسية في الأندلس ، ازدياد قوة أسبانيا المسيحية ، وخاصة مملكة قشتالة ، التي تمكنت من فرض حمايتها على الدويلات الاسلامية ، وطمعت في السيطرة عليها واحدة بعد الأخرى .

كما أن تلك الفترة شهدت ظهور دولة جديدة على الجانب المقابل للأندلس من البحر المتوسط ، أى في المغرب الأقصى ، هي دولة المرابطين (١٩) التي وصلت الى قمة عظمتها وقوتها على عهد أميرها

(١٨) انظر المراجع المذكورة عاليه — وراجع أيضا :

الحموى : معجم الأدباء ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ ، طبع فريد الرفاعى .
أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٧ ، و ص ٥٤ ، ٥٥ .

ومن النقاط التي اثارت نقاشا في هذه الرسالة هو التطويل والتركيز على مدينة قرطبة والاهمال أو شبه الاهمال لباقي حواضر الأندلس الكبرى وعذرى في ذلك أن قرطبة هي قصبة الملك هناك ومجتمعها يمثل المجتمع الأندلسي كله دون أن أقصد الاقلال من أهمية المدن الأخرى . المؤلف .
(١٩) أنظر في تاريخ الدولة المرابطية بعض الأعمال التاريخية التالية :

ابن أبر زرع : روض القرطاس ، ج ٢ ، ص ٣ . المراكشى : المعجب

ص ١٩٢ — ٢٦٠ .

حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ . عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (القسم الثانى) القاهرة ١٩٦٤ . =

يوسف بن تاشفين (٤٥٣هـ - ٥٠٠هـ / ١٠٦١ - ١١٠٧ م) وابنه الأمير
على بن يوسف *

هذه الظروف مجتمعة دفعت بملوك الطوائف الى الاستعانة
بالمرابطين ضد أسبانيا المسيحية ، ولكن المسألة انتهت بعد فترة من الزمن
بالقضاء على ملوك الطوائف ، واستيلاء المرابطين على ممالكهم ، ودخول
الأندلس ضمن الدولة المرابطية ، واستمرت كذلك الى أن سقطت الدولة
المرابطية ، وحلت محلها الدولة الموحدية (٢٠) *

وكثير من المؤرخين الأسبان ، وخاصة غير المستشرقين ، يصفون
فترة المرابطين والموحدين ، بحكم الأسرات الأفريقية ، وبعضهم يرى
أنها فترة احتلال أجنبي ، ويرى الدكتور لويس سواريث ، في نقاشاته
معى أن أسبانيا الإسلامية ، كأسبانيا الأسبانية ، تجلت ذاتها في مرحلتين
فقط ، الأولى في فترة الخلافة الأموية في قرطبة ، والثانية في دولة بنى
نصر في غرناطة ، ولذا كان رؤية التركيز على هاتين الفترتين في هذه
الدراسة ، ولقد كنت أرى باستمرار ، ومازال رأيى كذلك ، أن تاريخ

= وتاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين (ترجمة عنان ، القاهرة
١٩٥١) . ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٤ ، تحقيق احسان عباس
بيروت ١٩٦٧ .

(١٩٥١) . ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٤ ، تحقيق احسان عباس ،
(٢٠) أنظر في تاريخ الموحدين بعض الأعمال التاريخية التالية :

ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق هويسى ميراندا .
« الحل الموشية » المنسوب خطأ لابن الخطيب ، تحقيق البشير الفورنى ،
تونس ، ص ٧٨ وما بعدها روض القرطاس ، ج ٢ ، ص ١٠٠ . نظم
الجهان ، ص ١٠٢ . والتاريخ السياسى للإمبراطورية الموحدية للمستشرق
الأسبانى « هويسى ميراندا ، جزءان » تطوان ١٩٥٦ .

Huici Miranda, A. : Historia politica del Imperio
Almohade.... 2 tomos, Tetuan, 1956.

ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة (تحقيق عبد الهادى
التازى) .
عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب .

المغرب والأندلس يتصل ببعضه صلة قوية ، الى درجة يستحيل معها الفصل ، بل ما هو أكثر من ذلك ، ان تاريخ الأقاليم الاسلامية الكبرى ومنها اقليم غرب العالم الاسلامي ، يرتبط ببعضه ، وأن محاولات التقسيم الجغرافي ، محاولات مبتسرة ، وتجزئة غير سليمة ، ولعل لا أبعد كثيرا اذا قلت أن تاريخ العالم الاسلامي بأكمله خلال العصور الوسطى متشابك ، ومتصل ومتقارب ، واذا كانت الصورة غير واضحة أو مختفية في المجالات السياسية ، فهي ولا شك حية قوية واضحة في المجالات الثقافية والاجتماعية ، ولست أقصد من ذلك القول بصورة واحدة تماما وانما أقول أن لكل منطقة ، علاوة على السمات العامة التي تربطها بغيرها من مناطق الاسلام ، لها سماتها الخاصة ، ومميزاتها النوعية .

ولقد شرحت وجهة نظري لأستاذي ، باستحالة فصل الفترة التاريخية للمرابطين والموحدين عن مسار التاريخ العام للأندلس ، وخاصة في مجال التعليم ، حيث أن المؤسسات التعليمية كانت قد استقرت أسسها منذ فترة طويلة ، وواصلت عملها رغم التغيرات السياسية التي طرأت على الأندلس .

لقد شهدت فترة المرابطين اهتماما نوعيا بالعلوم ، فلقد كان لها فكرها الخاص الذي طبع التعليم في الأندلس ، ونتيجة لتعصبهم الديني ، ازدهرت علوم واطمحت علوم أخرى ، فهم قد اهتموا اهتماما كبيرا بالمذهب المالكي ، وأهملوا ما عدا ذلك ، واضطهدوا علماء الكلام ، مما طبع عصرهم بطابع معين من الدراسات ، يقول المراكشي حين يتحدث عن الأمير يوسف بن تاشفين :

« واشتد ايثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان اذا ولي أحدا من قضاته ، كان فيما يعهد اليه ألا يقطع أمرا ولا يبيت في صغير من الأمور أو كبير ، الا بمحضر من أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس .

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة اليهم ،
وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته ، فعظم أمر
الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس اليهم ، فكثر لذلك
أموالهم ، واتسعت مكاسبهم » (٢١) .

ويقول في موضع آخر :

«ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده ، الا من علم علم
الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ،
وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب
الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من
مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان
بتفكير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام . وقررا
الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ،
وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره
الى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحکم في نفسه
بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت الى البلاد بالتشديد
في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ،
ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله (المتوفى ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م)
المغرب ، أمر أمير المسلمين بأحراقها وتقديم بالوعيد الشديد — من سفك
الدم واستئصال المال — الى من وجد عنده شيء منها ، واشتد
الأمر في ذلك » (٢٢) .

(٢١) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٣ ،
والطبعة القديمة ص ١٧٧ .

(٢٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ . ابن القطان : نظم الجمان ،
ص ١٤ ، ١٥ .

الناصرى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ص ٦٧ ، ج ٢ .
هنا : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ط ١٩٦٤ ،

وأُسرف الأمير يوسف بن تاشفين في تقريب الفقهاء ورعايتهم ، وكان محبا لهم والعلماء والصلحاء ، مقربا لهم ، مكرما لهم ، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال أيامه (٢٣) . أما ابنه علي ، فقد حط من بلاطه في مراكز مركزا للكثير من رجال الأدب والعلم ، حيث قصده هناك أبو بكر بن الجذ وابن القبطرنة وابن عبدون وابن أبي الحصال .

ولعل قصر فترة المرابطين ، وانشغالهم بالحروب الكثيرة في تثبيت دعائم دولتهم ثم في المحافظة عليها ، قد صبغ هذه الدولة بالطابع العسكري ، ولم يعطها الفرصة الكبيرة لازدهار علوم أخرى كثيرة ، أو حجب الأنشطة العلمية ، فلم يصل إلينا الكثير من المعلومات عنها .

وعلى العكس من قلة المعلومات التي نجدها بين أيدينا ، عن دولة المرابطين فإننا نتمتع ببيانات وافرة ووثائق كثيرة عن الموحدين ، ولست أدري السبب في ذلك ولكن من المحتمل أن يكون كما سبق لى القول ، قصر فترة المرابطين ثم امتداد حكم الموحدين لفترة طويلة جدا ، مما مكن المؤرخين على عصرها من التأريخ للفترة السابقة .

هذا ولقد أبدت الدولة الموحدية بالتعليم اهتماما كبيرا جدا ، وذلك لقيامها على عقيدة دينية ، مما حتم ضرورة الاهتمام بنوعية التعليم حتى يمكن اقناع الناس بهذه العقيدة ، وحملهم على دراسة مؤلفات مؤسس هذه الدولة محمد بن تومرت (٢٤) ، ولقد وضع الموحدون لذلك برنامجا إجباريا أنقله هنا عن كتاب العلوم والفنون على عهد الموحدين (٤٨٧ — ٥٥٨ هـ / ١٠٩٤ — ١١٦٣ م) (٢٥) .

(٢٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ٣٨ .
(٢٤) عن الشيخ ابن تومرت ، انظر : ابن القطان : نظم الجبلان الصنهاجى : أبو بكر بن علي المكنى بالبيدق : وكذلك أخبار الموحدين ابن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر .
المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٦٢ — ٢٨٧ .
(٢٥) محمد النونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، تطوان ١٩٥٠ .

وضع هذا النظام للتعليم الاجبارى عبد المؤمن بن على ، ويقوم هذا البرنامج على أنه يجب على كل من انضوى تحت راية الموحدين أن يتعلم الضرورى من العقائد وما يتعلق بالصلاة ، ولقد بالغ فى هذا الأمر ، فجعله حتما لازما على كل مكلف — الرجال والنساء ، والأحرار والعبيد — ورخص لمن يفهم اللسان البربرى دون العربى أن يقرأ بلسانهم ، عقيدة ابن تومرت — التوحيد — البربرية • أما الذين يفهمون العربية ، فكان لزاما عليهم أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت العربية — المرشدة — وأكد على الجميع فى حفظ ذلك وتدبره وملازمة قراءته ، وتعاهده ، كما أكد على العوام ، ومن فى الديار فى حفظ أم القرآن ، وما تيسر من القرآن ، وألزم نوابه أن يقيموا علماء أمناء من قبلهم ليعلموا الناس ما ذكر •

وزيادة فى الاهتمام ، نرى عبد المؤمن يشرف بنفسه على مباشرة هذا النوع من التعليم فى مراكز وناحياتها ، ويكتب الى نواحي المملكة الأخرى يقص عليهم عمله هذا ، ويأمرها بأن تحتذى حذوه ، وتقوم بدورها بتطبيق هذا المنهاج •

ويلحق بكتابى المهدي المقربين ، مجموع أحاديث الجهاد ، الذى أمر يوسف (٢٦) بتدوينه ليملى على الموحدين ليدرسوه ، فكان يدايه على الناس بنفسه ، وكان كل واحد من الموحدين والسادة يجرى بلوح يكتب فيه الاملاء •

(٢٦) بالنسبة لجهودات كل خليفة موحدى على حدة سوف نتناولها لاسا ضمن هذه الرسالة فى تناولنا لبعض المجالات المحددة ، ومن السهل على من يرغب الاستزادة مراجعة مجموعة المصادر المذكورة فى تاريخ دولتى المرابطين والموحدين وأخبار المهدي بن تومرت ، وفى هذا المجال بالذات يمكن مراجعة كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين للمنونى • وكتاب تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى للأستاذ غنيمية •

وكذا مجموع أحاديث الصلاة وما يتعلق بها ، الذي جمعه بأمر يعقوب طائفة من العلماء ، فكان يمليه بنفسه على الناس ، ويأمرهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنن من الكسا والأموال (٣٧) .

ولقد كان عبد المؤمن مؤثرا لأهل العلم ، محبا لهم ، محسنا اليهم ، يستدعيهم من البلاد الى السكن بجواره ، والجوار بحضرته ، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنوية بهم ، والاعظام لهم (٣٨) .

ولقد اتخذت الدولة الموحدية مواقف محددة لصبح التعليم في بلادها بصيغة جديدة ، وخاصة القضاء على المذهب المالكي ، ودراسات الفروع ، والعودة الى دراسة الحديث والمدرسة الظاهرية ، فالأمير عبد المؤمن قد أمر في سنة ٥٥٠ هـ / ١١٢٤ م ، بأصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده ، وتغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ، ورد الناس الى قراءة الحديث ، وكتب بذلك الى جميع طلبة المغرب والعدوة (٣٩) .

وهناك من يتحدث عن حرية كبيرة سادت عصر الموحدين حيث يقول الأستاذ عبد الهادي التازي بأنه « كان من رأى الموحدين — على العموم — أن لا يجبروا على الناس في تفكيرهم ، ولذلك فقد ازدهرت الفلسفة ، وارتفعت رعوس المفكرين في كل زاوية ، بل ان أفقهم كان لا يضيق عن سماع النقد ، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يجلو رجال الفكر والعلم ، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريمات ، والمظاهر السامية » (٤٠) .

(٢٧) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٩٣ .

(٢٨) نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .

(٢٩) ابن أبي زرع : الأيس المطرب ، ص ١٥٤ .

(٣٠) ابن أبي زرع : الأيس المطرب ، ص ١٥٤ .

لكن من الصعب التصديق بذلك ، حيث أن الموحدين تعصبوا كثيرا ضد المذهب المالكي ، ولعل في قصة الفقيه محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبي ، المالكي (المتوفى ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م) ، ما ينفي تلك الحرية التي تطلق على الموحدين ، فلقد كان من جلة العلماء الحفاظ ، متفننا في المعارف كلها ، جامعا لها ، كثير الرواية ، واسع المعرفة ، حافل الأدب .

كان من كبار فقهاء المالكية ، يتصرف في علوم شتى ، وانتفع به أهل قرطبة في الفقة والأصول ، وقدم مصر هاربا من بني عبد المؤمن ودولته (الموحدون) ، لما ظهر بالمغرب ، ثم خاف أن يستولى على مصر ، فقدم الحجاز ، فخاف أن يحجه فدخل اليمن (٣١) .

أما على عهد أبي يوسف يعقوب (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ — ١١٩٩ م) ، فقد انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يخرجوا منها ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار ، وتقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي ، والخوض في شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة (٣٢) .

صحيح أن الفلسفة قد شهدت على عهد الموحدين ازدهارا كبيرا ، وخاصة على يدى ابن طفيل وابن رشد ، وأن بعض الأمراء الموحدين كانوا متضلعين في تلك المادة ، ولكن ذلك لم يمنع من أن يتعرض

(٣١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٦٠ .

ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

ابن رشد للإيذاء ، وأن يكتب أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب « بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة — أى الفلسفة — وباحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ سمت القبله فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد ، وعمل بمقتضاها » (٣٣) ، وسوف أتناول ذلك تفصيلا عند التحديث عن الفلسفة ، وغيرها من العلوم المنتشرة في الأندلس .

هناك جانب آخر من جوانب الاهتمام بالتعليم يعزى الى الدولة الموحدية ، ألا وهو انشاء المدارس في مناطق كثيرة من الامبراطورية الموحدية بشطريها الأفريقي والأندلسي ، وبما أننى سوف أتناول مسألة المدارس في الأندلس في فصل خاص ، فسأترك ذلك الموضوع ، لمعالجته هناك .

(ج) الدولة النصرية :

بعد فترة من الازدهار السياسى ، والعسكرى ، والثقافى ، أصاب دولة الموحدين التدهور السريع ، وخاصة بعد معركة العقاب (١٥ صفر ٦٠٩ هـ — ١٦ يولية ١٢١٢ م) (٣٤) . ويرى ابن عذارى ، أنها كانت السبب في هلاك الأندلس الى الآن (٣٥) . (أى الى عهد المؤلف) وقامت في

(٣٣) المراكشى : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ٤٣٧ .

(٣٤) انظر عن معركة العقاب بعض الأعمال التاريخية مثل :

هويسى ميراندا : من الأرك الى العقاب ، مغارك الاسترداد الكبرى .

Huici Mirande : las Grandes Batallas de La Reconquista

اجوادى بلاى : مجمل تاريخ اسبانيا ، ج ١ ، ص ٦٤٥ .

Aguado pleye : Manual de Historia de Espana 1. 645.

(٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، تحقيق هويسى ميراندا ،

الأندلس عدة ثورات محلية منفصلة عن الدولة الموحدية ، وعادت الأندلس الى فترة تشبه فترة ملوك الطوائف ، وتقدمت الجيوش الأسبانية المسيحية ، تسترد المدن والقواعد الأندلسية الكبرى ، وخيم على الأندلس شبح النهاية المحتومة للدولة الإسلامية هناك ، وخلال هذا الظلام والغبار تمكن أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري (٥٩٥ هـ - ٦٧١ هـ / ١١٩٨ - ١٢٧٢ م) ، من أن يؤسس له إمارة ، ما لبثت بعد دخوله غرناطة في عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م واتخاذها عاصمة له ، أن نمت وتطورت ، وأصبحت دولة صمدت للتيارات السياسية ولحركة الاسترداد الأسبانية مدة تزيد على مائتين وخمسين عاما ، ولقد عرفت هذه الدولة في التاريخ باسم الدولة النصرية ، أو دولة بنى الأحمر ، وتتميز بأنها صورة مصغرة لدولة الأندلس الكبرى على عهد الخلافة فعلى عهدها لم تعد غرناطة أو لم يعد الأندلس جزءا تابعا لامبراطورية شمال أفريقية ، دون أن يعنى ذلك انقطاع الصلة مع هذه المنطقة من العالم .

هذا ولقد شهدت الدولة النصرية في غرناطة مراحل من القوة والضعف ودورات من الانتصارات والهزائم ، وسلسلة من المحالفات والمعاهدات مع ممالك أسبانيا المسيحية وخاصة قشتالة وأراجون ومع ممالك العالم الإسلامي الأخرى ، وليس هذا هو مجال التطويل في هذه الموضوعات التي سبقنى غيرى من الأساتذة والباحثين الى دراستها (٣١) .

(٣٦) الدراسات الخاصة بملكة غرناطة كثيرة جدا ومتنوعة ومن الصعب حصرها وتكفى الإشارة الى بعض الكتب التاريخية مثل :
ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، وأعمال ابن الخطيب الأخرى .

الطوشي (أحمد محمد محمود) : مظاهر الحضارة في ملكة غرناطة .
شبانة (محمد كمال) : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة .
العبادي (أحمد مختار) : ملكة غرناطة على عهد ملكها محمد الخامس .

هذا ولقد أسرفت كتب التاريخ والرحلات والجغرافية في وصف
غرناطة وأبراز محاسنها ، فيقول عنها المقرئ « غرناطة من أحسن
بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شيء بها
ويشقها نهر حدرة ، ويطل عليها الجبل المسمى بشطير ، الذي لا يزول
الثلج عنه شتاء وصيفا ، ويجمد عليه حتى يصير كاللحجر الصلب ، وفي
أعلاه الأزهار الكثيرة ، وأجانس الأفوايه الرفيعة » (٣٧) •

وينقل المقرئ وصف ابن بطوطة لغرناطة بأنها « قاعدة بلاد
الأندلس ، وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في الدنيا ، وهو مسيرة
أربعين ميلا ، يخترقها نهر شنيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة ،
والبساتين الجليلة ، والجنت والرياضات والقصور ، والكروم محدقة
بها من كل جهة ٠٠٠ » (٣٨) • أما عن الرحالة المصرى عبد الباسط ،
فقد زار غرناطة قبل سقوطها بحوالى خمسة وعشرين عاما ، ووصفها
لنا قائلا :

« ورأيت غرناطة ، فاذا بها بلدة نزهة عظيمة ، من أعظم بلاد
الأندلس وهى قاعدة ملك الاسلام بالأندلس ، وتخت السلطنة بها •
غربية الوضع ، حسنة الأبنية ظريفة ، أنيقة ، بديعة الوضع ، بها سائر
أرباب الصنائع ، وهى كدمشق الشام ، وبها المياه الجارية والبساتين
والأجنة والكرم ، وهى مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء ،

-
- Prieto Vivos ; A. : Formacion del R. de Granada. =
Simonet ; F. : Descripcion del R. de Graada Lafuente
Alcantra : Historia de Granada.
Gallego Burin : Los Moriscos del R. de Granada Segun
el rienado de Guadix.
Caro Barojs ; A. ; los Moriscos del R. de Grana da Granada.
Ladero Quesado : Granada Historia de un Pais
Islamico (1232—1561).

(٣٧) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ •

(٣٨) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ •

وأرباب الفنون والكمالات ، وبها بقايا الناس ، والآثار العظيمة والأمكنة للنزهة انخ » (٣٩) . ويستطرد الرحالة المصرى بعد ذلك ، متحدثا عن علماء غرناطة ومشايخها ورجال الأدب والفكر فيها مما يدل على مدى التقدم الثقافى الذى وصلت اليه هذه المملكة على الرغم من انهيارها السياسى والعسكرى والصراع الأسرى الذى اوقعها فريسة سهلة على يد الملكين الكاثوليكيين ، سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٣ م (٤٠) .

بدأ الازدهار الثقافى فى مملكة غرناطة على عهد ثانى أمرائها أبى عبد الله محمد ، الملقب « بالفقيه » ، لما اشتهر به من العلم والفقه ، ولقد ولد هذا الأمير بغرناطة عام ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م ، ويقول ابن الخطيب أنه يؤثر عنه « تنظيم دواوين المملكة ، وتقدير الضرائب ، وترتيب رسوم الملك والألقاب على خدمتها ، وعرف ببراعته فى السياسة وسعة أفقه ، وتوفره على المزيد من اللّخال الفاضلة ، بالإضافة الى العلم ، وممارسة الشعر ، وإيثاره مجالس الأدباء والفقهاء » (٤١) . ومن المصادقات الغربية ، معاصرتة للملك القشتالى ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، مما قد يوحى بنوع من التأثر فى اتخاذ الألقاب ، وإن قال ابن خلدون انه عرف باسم الفقيه ، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه ، ولاشتغاله بالفقه زمنا فى صباه (٤٢) ، وتوفى هذا الأمير عام ٧٠١ هـ — ١٣٠٢ م .

(٣٩) مملكة غرناطة ، عام ١٤٦٥ ، ١٩٦٦ م ، مذكرات رحلة مصرى ، الاندلس ، العدد الأول ، ص ٣١٣ — ٣١٤ .
Levi Della Vide : EL Regno Granata, Nel 1465—1466 ;
Nei Ricorde di un Viaggiatore Egiziano. (al Andalus 1.
1933 ; 307.

(٤٠) سواريث فرنانديث : تاريخ اسبانيا (غزو مملكة غرناطة) ، ص ٥٩٦ ٦٠٤ .

(٤١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٥٦٥ .

شبانة : يوسف الأول ، ص ٢٧ .

الطوخى : مظاهر الحضارة فى غرناطة ، ص ٦ .

(٤٢) الطوخى : الرسالة المذكورة ، ص ٦ .

ولقد عمل هذا السلطان على احضار العلماء من المدن الأندلسية الى غرناطة ، يقول ابن الخطيب عند الحديث عن محمد بن ابراهيم ابن محمد الأوسى (توفي ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) ، أنه من أهل مرسية ، وأنه أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر من مدينة بجاية فانتفع الناس به (٤٣) ، كما أن الفقيه الكبير أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد (المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م) والذي انتهت اليه الرياسة بالأندلس فى صناعة العربية وتجويد القرآن ، ورواية الحديث ، حين نشأت بينه وبين المتغلب على مالقة وحشة ، أكدتها سعاية ، وكبس منزله فى حينه ، واستولت الأيدى على ذخائره وكتبه ، وفوائد تقييده عن شيوخه ، لحق بغرناطة ، آويا الى كنف سلطانها الأمير أبى عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر ، فأكرم مثواه وعرف حقه (٤٤) .

ويعد هذا من أكبر مظاهر اهتمام الأسرة النصرية بالعلماء والمعلمين حيث أننا نجد جميع أمراء هذه الأسرة يواصلون هذه السياسة ، وساعدهم وزراؤهم فى ذلك ، فنجد الوزير ابن الحكيم يهش لقدوم الفقيه محمد بن خميس (المتوفى عام ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م) الى غرناطة فى عام ٥٧٣ هـ / ١٣٠٤ م ، ويمت اليه بالوسيلة العلمية واجتذبه بخطبة التلميذ ، واستفزه بتأنيسه وبره ، وأقعدده للاقراء بجواره (٤٥) .

ولا شك أن أكبر عناية بالمعلمين والتعليم قد شهدتها غرناطة على يدى ملكيها الكبيرين يوسف الأول (٤٦) ، ومحمد الخامس (٤٧) ، حيث أجريا الجراية على العلماء والمعلمين وأوليا اليهم وظائف كثيرة ،

(٤٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٤٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٨٨ — ١٩٣ .

(٤٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ — ٥٦٢ .

(٤٦) شبانة : يوسف الاول ملك غرناطة .

(٤٧) العبادى : مملكة غرناطة ، على عهد محمد الخامس .

وأوكلا اليهم أعمالا يتقاضون منها جراية ، ثم لكى يقدموا فى نفس الوقت بالتدريس وتعليم الناس ، فالفقيه محمد بن محمد النمري الضرير (المتوفى ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م) كان حافظا للقرآن أستاذا ، يقوم على العربية خير قيام « توفى بغرناطة تحت جراية من أمرائها ، لاختصاصه بقراءة القرآن على قبورهم » (٤٨) •

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بنقل الفقيه محمد بن محمد العبدري من سبتة الى غرناطة ، حيث قعد للاقراء ، الى أن توفى عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م (٤٩) •

كما أن ابن الخطيب يقول فى ترجمة محمد بن عبد الولي الرعيني (المتوفى ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) بأنه « طلب الى الناصر للاقراء ، فأبى لشدة انقباضه فنبهت بالباب السلطاني على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك فى شهر شعبان من عام وفاته » (٥٠) •

أما الوزير أبو عبد الله المحروق فقد اختص بالفقيه محمد بن أحمد ابن فتوح بن شقرال (المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م) ، ورتب له بالحمراء جراية وقلده نظر خزانة الكتب السلطانية (٥١) •

وعلى عهد السلطان يوسف الأول شهدت غرناطة حدثا تاريخيا فيما يتعلق بالعملية التعليمية ، أقصد بذلك تأسيس المدرسة النصرية فى غرناطة ، كما أن هناك ما قد يبين تأسيس مدارس أخرى على عهد الملك محمد الخامس • وسوف أتناول هذه النقطة بالتفصيل ، فى الفصل الخاص بالمدارس فى الأندلس •

(٤٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣١ — ٣٣ •

(٤٩) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٧ — ٢٨ •

(٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٣ — ٣٥ •

(٥١) نفس المصدر : ج ٣ ، ص ٢٣ — ٢٥ •

ولقد كان لسقوط المدن الأندلسية الكبرى ، قرطبة وبلنسية وأشبيلية ومورسية وغيرها ، وهجرة كثير من علمائها الى غرناطة ، أثره الكبير فى ارتفاع المستوى الثقافى لهذه المملكة الى درجة تعيد الى الأذهان الفترة التى كانت عليها قرطبة على عهد الحكم المستنصر بالله .

ولقد لمت أسماء كثيرة جدا فى المجالات العلمية والأدبية ولا أجد داعيا للأشارة الى بعضها لأن ذلك قد يوحى بعكس ما أريد ، ولكن من يلقى نظرة متعجلة على مؤلفات ابن الخطيب أو على مؤلفات أبى الوليد بن الأحمر (المتوفى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) (٥٣) ، وغير ذلك من الكتب يمكنه أن يقدر اهتمام الدولة النصرية بالعلم والعلماء .

وأود أن أشير الى أن هذه الحركة الفكرية الكبيرة لم تقتصر على مدينة غرناطة ، وانما نافستها مدينة مالقة ، ومدينة وادى آش حيث كان لمجلس الاقراء بالمسجد الجامع بمالقة شهرة علمية كبيرة ، وعاش فى المدينة عدد كبير من العلماء اللامعين ، والمعلمين المعروفين .

ويقول روبلس فى كتابه عن تاريخ مالقة :

« ان الحركة الأدبية والعلمية فى مالقة كانت تتمتع بمستوى عالٍ ومكانة مرموقة خلال الفترة التى أركز فيها هذه الدراسة ، وتزداد وضوحا أمامى كلما ركزت انتباهى على مجال من المجالات . لقد وجدت فيها أكاديمية، بمساجدها مكتبات تنمو وتزداد، من هبات العلماء » (٥٣) .

الفصل الثالث

بعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم

في الأندلس

تدخل الدولة في التعليم في الأندلس ، مسألة اختلف حولها الباحثون والدارسون كثيرا باختلاف الفترة الزمنية ، وباختلاف مفهومهم لمعنى تدخل الدولة في التعليم — فهناك من ركز آراءه حول مسألة انشاء المراكز التعليمية ، ومن اعتمد على العملية التدريسية ذاتها ، ومن انطلق في آرائه على نظام التعليم . وفي كل نقطة من هذه النقاط ، تعارضت الآراء وتباينت ، واختلفت التعبيرات ، ولتحاول أن نلقى نظرة سريعة على هذه الآراء ، لنوضح مدى الفرق في اختلاف وجهات النظر .

ومن الممكن تصنيف هذه الآراء الى مجموعتين ، أولاها ما تميل الى الرأي القائل بالتدخل المباشر والواضح للدولة في نظام التعليم ، وتتشكل هذه المجموعة من عدد لا بأس به من المؤرخين العرب والمتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية من غير العرب ، وينسب هؤلاء الى بنى أمية في الأندلس قيامهم بتأسيس مجمع للعلوم في قرطبة حيث كانوا يعملون على الطريقة الشرقية ، علوم الكلام والفقه ... الخ ، ونستعرض فيما يلي بعض هذه الآراء :

يرى الدكتور عبد الغنى عبود أن الدولة في الاسلام تتدخل في التعليم بوصفها ممثلا للجماعة الاسلامية ، عندما تحس قصورا أو عجز في بعض المجالات أو الاتجاهات (١) .

ويقول الأستاذ أحمد أنور الجندي : «لقد كان الملك الاسلامي مملوءا

(١) عبد الغنى عبود : في التربية الاسلامية ، ص ١١٦ .

بالمدارس والكليات ، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤونة دفع أجر التعليم ، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة » (٢)

ويقول الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة في كتابه عن قصة الأدب في الأندلس « لم يلبث العرب بعد قليل من مقامهم في الأندلس أن بنوا القصور ، وأنشأوا الجامعات ، وأقاموا المكتبات » (٣) .

وفي موضع آخر يصف مدينة قرطبة بأنها « كانت من أشهر مدن الأندلس الاسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن ، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم ، واشتهرت بمبانيها العظيمة ومساجدها التي أشهرها مسجد قرطبة الكبير ، وقد كان من أكثر جامعات العلوم الاسلامية ، تخرج منه العلماء والفلاسفة » (٤) .

ويقول الدكتور غلاب « أن الحكم الثاني كان شديد العناية بمعهد قرطبة الذي كانوا يعدون طلعيته بالآلاف ، وأنه أعلن التسامح الديني الذي أمر به الاسلام ، وأباح حرية الجدل والنقاش في جميع المسائل الحيوية » (٥) .

أما الأستاذ محمد يوسف ، فيرى أن بنى أمية قد قاموا بتأسيس مجمع للعلوم في قرطبة حيث كانوا يعلمون على الطريقة الشرقية علم الكلام والفقه والفلسفة (٦) . ويميل الى هذا الرأي أيضا المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان (٧) .

أما الدكتور حسين مؤنس ، فانه يصوغ العلاقة بين الدولة وبين

(٢) أحمد أنور الجندي : مجلة دعوة الحق ، العدد ١٠٢٩ ، ص ٤٠ .

(٣) خفاجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤) خفاجة : نفس المصدر ، ص ٨ .

(٥) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ .

(٦) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة في رأى ابن رشد

وفلاسفة العصور الوسطى ، ص ٨ .

(٧) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الاول ، القسم الثاني ، ص ٤٥٧ .

الفقهاء على أساس أنها أولا علاقة مصلحة وبحث من جانب الدولة على
التأييد الشرعي من جانب الفقهاء (٨) .

ولم يقف الأمر على الباحثين والدارسين العرب فقط ، وإنما
شاركهم الرأي عدد من المستشرقين المتخصصين في الدراسات العربية
والاسلامية ، ومن هؤلاء مثلا :

يقول انخيل غونثالث بالنسيا : « كان من نتائج سياسة التسامح ،
ورعاية الثقافة التي بدأها الحكم المستنصر أن ظهرت المدارس ، واجتمع
المشتغلون بكل علم من العلوم ، بعضهم الى بعض » (٩) .

ويتحدث خوسيه انطونيو كوندى عن ذهاب الأميرين هشام
وسليمان ابني عبد الرحمن بأنهما كانا يحتفلان بعيد ميلاد والدهما
ويقدمان هدايا عظيمة الى الرجال المثقفين الذين يتوافدون على الأكاديمية
والتي كانت تحتفل بهذه المناسبة (١٠) .

أما المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفنسال ، فإنه يشير الى هذه
المسألة عند حديثه عن انتشار المذهب المالكي في الأندلس ، قائلا عن
مجموعة الفقهاء الذين تتلمذوا على يد مالك بن أنس بأنهم « عند عودتهم
الى وطنهم قاموا بالدعاية في قرطبة وفي المدن الكبرى بالأندلس للمذهب
المالكي ، وذلك بالموافقة الصريحة للأميرين هشام والحكم » (١١) .

ويقول نفس المستشرق الفرنسي في موضع آخر « ان هشاما
بالإضافة الى تقواه وامتداد ثقافته ، كان يميل دائما الى ما يقوله
الأساتذة القرطبيون ، والذين أتيحت لهم فرصة الحج وزيارة الأماكن
المقدسة الاسلامية ، وخلال حكمه فضل على قدر الامكان ، هؤلاء

(٨) انظر حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٢٥٧—٢٥٨ .

(٩) غونثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ،

ص ٤٤٨ .

(١٠) كوندى : تاريخ الحكم العربي في اسبانيا ، ص ٥٥ ، ط ١٨٧٤م .

(١١) ليفي بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ، النص الأسباني ،

الحجاج من رعاياه ، واهتم اهتماما شخسيا بكل ما أحضروه إلى أسبانيا من بيانات ومعلومات ، عن تطور العلوم الإسلامية في المشرق » (١٢) .

ولم يقتصر الأمر على الباحثين المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية فحسب ، ولكنه انتقل أيضا إلى بعض مؤرخي العصور الوسطى الأسبان مثل سانشيث البرنوس ، وأجواد وبلايى — وأنقل ما يقوله أجواد وبلايى عن الحكم المستنصر :

« لقد كان الحكم متحررا مع الكتاب والعلماء على عصره ، حمى التعليم وأسس في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية ، أما عن جامعة قرطبة فلقد كانت صاحبة الصدى الشديد والرنين الطنان في العالم كله على عهدها ، ففيها علم أبو بكر المروانى القرشى الذى كان يشرح السنة ، وأبو على القالى البغدادى الذى أعطى دروسه في اللغة والشعر ، وابن القوطية ، ذلك الذى كان موضع تقدير القالى ورأى فيه أنه أكثر علماء الأندلس علما بقواعد العربية ، ولقد كان هناك للعلوم الأخرى أساتذة لا يقلون بريقا ولمعانا ، أما غالبية الدارسين ، فلقد كانوا يدرسون الفقه ، أى علم اللاهوت والقانون الإسلامى ، ذلك العلم الذى يمكن دارسه من ارتقاء أعلى المناصب » (١٣) .

وانتقلت هذه الآراء إلى الكتب العامة ورددها بعض من كتب في تاريخ أسبانيا ، ولا أجد داعيا للاستطراد فيما تقصه هذه الكتب عن مدينة قرطبة وعن قصورها الشامخة ، ومساجدها العليا ، ومدارسها الشهيرة التى أنجبت أكثر علماء العصر علما ، لقد أسس الحكم في كل البلاد المدارس المجانية وجعل التعليم العام بطريقة تسمح بالقول بأنه قليلا جدا أو نادرا ما نجد في الأندلس من لا يعرف القراءة والكتابة » (١٤) .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٩٧ .

(١٣) أجوادوا بلايى : تاريخ أسبانيا ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(١٤) أجوادوا بلايى : تاريخ أسبانيا ، ج ١ ، ص ٣٢ .

أما المجموعة الأخرى من الباحثين والأساتذة ، فهي التي ترفض رفضا باتا أن يكون للدولة دور مباشر في العملية التعليمية ، ومثلها مثل المجموعة الأولى تضم عددا من الباحثين العرب والمستشرقين على حد سواء ، ولا بد لنا من الوقوف ، لعرض بعض آراء هذه المجموعة ، حتى يمكن أن نتبين مدى الفرق الكبير بين آراء كل منهما •

يقول الدكتور الأهواني عند حديثه عن التعليم الأولى والكتاب :
« يقوم بالتعليم في هذا المكتب معلم ، هو الذي يستأجر الكتاب ، ويتخذ مكانا للتعليم ، وقد يشترك معلمان أو أكثر في التعليم بالكتاب ، إذا كان عدد الصبيان كثيرا ، ولكن الغالب أنه معلم واحد ، وليس للحاكم سلطان على هذه الكتاتيب ، فهو لا ينشئها ، ولا يشرف على سير التعليم فيها ، ولا شأن له بها وإنما يفتتح المعلمون الكتاب من تلقاء أنفسهم » (١٥) •

أما الدكتور محمد أسعد طلس فهو يقرر « أن الحكومة لم تكن تشرف في صدر الملة الإسلامية ، على المعلمين وكتاتيبهم ، وإنما كانت الرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وخلقه » (١٦) •

أما الدكتور أحمد شلبي ، فقد تطرف كثيرا في هذه الحرية ، فيقول ضمن حديثه عن العلاقة بين الحكومة والمدرسين ، أنهم كانوا « يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل — القيام بالتدريس — دون انتظار من يحثهم على الذهاب ، وظل الناس يلتفون حولهم ، ويأخذون عنهم ، من غير أن تتدخل الحكومات في ذلك ، فقد كان هذا العمل غير داخل في دائرة سلطانها ، فما دام المعلم غير معين منها ، ومادام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجرا ، فقد ترك له أن يدرس ما شاء وقتما شاء » (١٧) •

(١٥) أحمد فؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ، ص ٦٤ .

(١٦) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٧٠ .

(١٧) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٢١٣ .

أما عن الأساتذة الأسبان اغناثيو باورو^(١٨)، وغاليرمو غوثالبيس^(١٩)، وانطونيو بايستروا^(٢٠)، فإنهم يذهبون الى الحرية المطلقة، وحيث أن ثلاثتهم يعتمدون كليا على آراء المستشرق الأسباني الكبير خوليان ريبيرا، فأركز على آرائه باعتباره أفضل من تناول تاريخ التعليم في الأندلس بالدراسة والبحث — يقول خوليان ريبيرا :

« ماذا علينا أن نقول لكي ننفي التأكيد بأن هشام الأول أنشأ مدرسة حسب ما يقول « كوندى » وما يردده الكثيرون ممن تابعوه ونقلوا منه ، أو أن بنى أمية أسسوا أكاديمية تعلم فيها الفنون والعلوم، على ما يقول « دوجات » . انى لايمكننى الاجابة بطريقة أخرى غير القول بأننا لم نجد آثارا أو بقايا لما يقال فى أى مدونة جديرة بالاحترام ، بل على العكس ، فان كل المعلمين فى الأزمنة الباكورة لم يكونوا ملحقين بأية منظمة تعليمية ، وأن تعليمهم كان خاصا بصورة محضة . أقصد أن أقول ، ان المعلمين والطلبة ، كانوا مستقلين تماما عن السلطة العامة » (٢١) .

واذا عاد المستشرق الأسباني ، ليتأمل فى بعض أعمال الحكم الثانى ، واجدا فيها بعض الشك ، فإنه يعود وينفى عنه تماما أى تدخل فى التعليم ، وأنقل ما يقول :

« حقق الحكم الثانى بعض الأعمال التى يمكن أن تفسح مجالا للتمتع فى هذه المسألة — ويسرد هذه الأعمال ثم يحكم عليها بعد ذلك

(١٨) اغناثيو باورو : عن تاريخ التعليم الأسباني الاسلامى فى العصور الوسطى (محاضرة باللغة الأسبانية ، نشرت ١٩٣٤) .
(١٩) غاليرمو غوثالبيس :

La Enseñanza en la España Musulmana

(٢٠) بايستروى (انطونيو) : تاريخ أسبانيا وتأثيرها على التاريخ العالمى ، ص ١٥٠ .

Ballesteros : Ho de Espana y su influencia sobre la
Ho Universal. p. 150.

(٢١) خوليان ريبيرا : تاريخ التعليم بين المسلمين الأسبان ،

بقائلا : « ولكن النظرة المتمعنة تبين لنا أن هذه الأعمال لا تكفى لكى تعطينا الاحساس بأن السلطان كان مكلفا ، كمسئول عن الدولة ، بتعليم وتنقيف رعاياه » (٢٢) •

ويصدر الأستاذ حكما فاصلا تماما فى هذا الأمر حين يقولها صراحة : من المناسب منذ اللحظة الأولى تأكيد ما ساد بصفة رئيسية خلال هذه الفترة ، وبالتالي فى كل الموضوعات التى ندرسها فى هذا المجال، ألا وهو وضوح عدم تدخل الدولة المباشر فى شئون التعليم (٢٣)، ويستطرد الى أن يصل الى القول : باختصار شديد ، لقد جرت أيام حكم العرب لأسبانيا دون أن يبدو تدخل مباشر للسلطة العامة فى التعليم — ما عدا فى نهايات هذا الحكم (٢٤) •

الى أين نمضى بين تلك الآراء المتضاربة تماما ؟ لا شك أن لكل من هذه الآراء وجهة نظر خاصة يعتمد عليها ، وينطلق منها فى اصدار أحكامه وآرائه • وحتى يمكن لنا أن نحلل الأمر تحليلا علميا ، لا بد لنا أيضا من وضع تعريف محدد لمعنى تدخل الدولة فى التعليم ، حتى يمكن أن ننطلق منه لعرض ما نراه مناسبا ، ولا بد من وضع قواعد محددة نستهدى بها طريقنا فى التعرض لمشكلة غامضة تتضارب حولها الآراء تضاربا حقيقيا ، وما أريد قوله هو : ماذا نقصد بتدخل الدولة فى التعليم ؟ •

١ — هل نقصد بذلك قيام الدولة بإنشاء هيئة تنظيمية تتولى الاشراف على المعلمين وأماكن التعليم والطلبة ... الخ ؟ •

٢ — هل نقصد قيام الدولة ببناء المدارس والانفاق عليها ؟ •

(٢٢) نفس المصدر ، ص ١٢ •

(٢٣) نفس المصدر ، ص ١١ •

(٢٤) نفس المصدر ، ص ٢١ — ٢٢ •

٣ — هل نقصد تولى الدولة وضع المنهج والمحتوى التعليمى وتوجيهه فى اطار يتفق وسياسة الدولة ؟ •

٤ — أم نقصد انفاق الدولة على المعلمين ، واعطاءهم مرتبات شهرية ؟ •

٥ — أم نقصد قيام الدولة بذلك كله ؟ •

المشكلة الحقيقية التى تواجه الباحث فى هذا المجال هى محاولات تطبيق مفاهيم ومعايير معاصرة على فترة زمنية يفصل بيننا وبينها أكثر من ألف عام فى بعض فتراتنا ، وأقل من خمسمائة عام فى بعضها الآخر ، ونتيجة لاتساع المفهوم الخاص بتدخل الدولة أو مدى الحرية، فاننى أرى أن للجانب الذى يقول بعدم وجود تدخل للدولة فى التعليم بعض الحق ، اذا كان قصدهم عدم وجود هيئة رسمية تحمل اسم الاشراف على التعليم •

كما أن للدكتور ريبيرا الحق فى الاعتماد على ابن سعيد القائل بأن أهل الأندلس لم يكن عندهم مدارس ، تمويلها الدولة •

اننى شخصيا أعتقد بممارسة الدولة لنوع من التدخل فى التعليم فى الأندلس وأن ذلك التدخل قد شمل كافة النقاط التى بينتها ، وان كان ذلك يتباين من فترة الى أخرى ومن عصر الى عصر ، ولنستعرض معا بعض ما يثبت هذا الرأى ، على الأقل من وجهة نظرى •

لقد أشرت فى بداية هذا الباب الى التكليف الدينى الخاص بتحمل انحاکم مسئولية تعليم الناس الذين الجديد ، وخاصة فى البلاد المفتوحة ، ودور الولاة وأمراء بنى أمية فى نشر الدين واللغة العربية ، كما بينت الأهمية فى عبور عدد من التابعين الى الأندلس ، وكيف أن مهمتهم الرئيسية هى تعليم البربر وأهل الأندلس ، قواعد الدين ، وأصول اللغة العربية ، كما أننى استعرضت الاهتمام الذى بذله حكام

الأندلس بالعلم والعلماء ، وأثر ذلك على تطور المستوى الثقافي ووصوله الى درجة عالية ، مبينا مظاهر اهتمامهم نقطة نقطة .

أولا — التدخل في المنهج التعليمي :

١ — ينقل لنا ابن القوطية ^(٢٥) (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) ، نصا لطيفا ، ولكنه يحمل معنى كبيرا وذلك عند حديثه عن الصميل بن حاتم فيقول « ومن أخبار الصميل ، أنه خطر يوما بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ » وتلك الأيام نداولها بين الناس « (٢٦) ، فقال الصميل نداولها بين العرب ، فقال المؤدب : بين الناس ، فقال الصميل : وهكذا نزلت الآية ؟ قال : نعم هكذا نزلت . قال الصميل : والله اني أرى هذا الأمر سيشركننا فيه العبيد والسفال والأراذل » ^(٢٧) .

ويرى المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا في هذا الموقف الفرق بين رجل السياسة ورجل الدين ، فالأول يسعى لتركيز السلطة في يده عن طريق السيف أو غيره بينما الثاني بما يمتلكه من حماس ديني يسعى لنشر الدين بين الأسباب الجدد ^(٢٨) ، لكن النظرة المتأنية لهذا النص قد توحى بما هو أكثر من ذلك ، أولا وقبل كل شيء الشك في صحة هذا الخبر ، واحتمال أنه خبر موضوع للتهجم على العرب ونقدهم ، وخاصة أن كاتبه « ابن القوطية » من أصل أسباني ، وأن المولدين كانوا قد أحسوا بشخصيتهم ونفوذهم ، وأنهم قد قاموا بأكبر الثورات ضد قرطبة على يد عمرو بن حفصون . وعوامل الشك هي : أولا أن الفترة الزمنية الفاصلة بين الحديث وروايه ، حوالي مائتي عام تقريبا ،

(٢٥) ابن الفرض : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ٧٦ .

الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣٦٩ .

الضبي : نغمة الملتزم ، ص ١١٢ .

الحجي : التاريخ الأنديلسي ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٢٦) القرآن الكريم : السورة الثالثة ، الآية ١٣٩ .

(٢٧) ابن القوطية : افتتاح الأنديلس ، ص ٤٠ — ٤١ .

(٢٨) ابن القوطية : تاريخ الأنديلس ، ص ٢٣ .

وهي فترة طويلة نسبيا ان لم يكن الخبر مدونا • وثانيا ، ذلك التصادف الغريب بين مرور الصميل وقراءة هذه الآية بالذات •

من ناحية أخرى هناك من العوامل ما يدفع الى قبول هذا النص منها مثلا أن ابن القوطية على الرغم من أصله الأسباني ، إلا أنه لا يتطرق أى شك في إيمانه ، ولقد احتل مكانه بارزة على عهد عبد الرحمن الناصر بل كان أفضل الأندلسيين علما باللغة العربية وذلك بشهادة أبى على القالى^(٣٩) ، كما أن الفترة التي عاش فيها ، عصر عبد الرحمن الناصر لم تكن تسمح له بإيراد شيء ضد العرب ، ان لم يكن له أصل من الحقيقة ، علاوة على ذلك فقد قبلها وسجلها كافة المؤرخين سواء من العرب أم من غيرهم •

واذا قبلنا هذه الرواية ، مثلما قبلها الجميع ، فاننى أستشف منها معانى كثيرة منها : وجود مكان لتعليم الأطفال ، وأن هذا المكان يمكن المرور عليه ، ورؤيته ، وسماع ما يدور فيه • ومنها أيضا أن المسؤولين كانوا يتفقدون هذه الأماكن التعليمية ليطلعوا على ما يقوم به المؤدب ، ومنها ما هو أكثر احتمالا ، وهو قيام هؤلاء المسؤولين بمحاولة فرض منهج تعليمي محدد يتماشى وسياسة هؤلاء الحكام •

٢ — ملاحظة أخرى ينقلها إلينا ابن القوطية أيضا ، تبدو أكثر وضوحا ودلالة ، عند حديثه عن القاضي أمية بن عيسى ، أحد وزراء الأمير محمد الذى حكم خلال الفترة من عام ٢٣٨ الى ٢٧٣ هـ (١٨٥٢-١٨٦١م) ، يقول : لقد خطر يوما بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة^(٤٠) ، ورهائن بنى قيس ينشدون شعر عنتره^(٤١) ، فقال لبعض الأعوان : اثبتنى بالمؤدب ، فلما نزل الى فراش المدينة ، وأتاه المؤدب ، قال له :

(٢٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان — ج ٤ ، ص ٤ .
(٣٠) عن دار الرهائن وباب القنطرة ، أنظر غارثيا غومث : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، الأندلس — العدد ٣٠ — ١٩٦٥ ، و ٣٤٦ .

لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك ، تعتمد الى شياطين شجى ، بهم الخلفاء
فترويهم الشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ، كف عن هذا ،
ولا تروهم الا خمریات الحسين بن هانى وشبهها من الأهزال (٣٢) •

وفى هذا النص نجد أيضا أن معلما تعينه الدولة ، ويهتم — حتى
ولو بطريقة غير مباشرة — بوضع منهج خاص يتلاءم وظروفهم
الخاصة •

٣ — قبول المذهب المالكي كمذهب رسمى للدولة ، مما صبغ
التعليم كله خلال كافة مراحل بصبغة هذا المذهب ، وإذا كان الخلاف
بين الباحثين والمؤرخين حول اسم أول أمير أندلسى ، قام بفرض هذا
المذهب ، وإذا كانوا قد انقسموا فى أقوالهم بأنه الأمير هشام الأول
أو الحكيم الربيعي ، أو أنه عبد الرحمن الأوسط ، فليس ذلك مما يعنينى
كثيرا ، لكن المهم أن هذا المذهب قد عرف فى الأندلس ، على أنه المذهب
الرسمى الوحيد (٣٣) ، وأنه لقي مساندة واضحة من الأمراء ، وهى
بالتالى مساندة لنوع معين من التعليم فى بلادهم ، وقصرهم الوظائف
العامة على من يتبع ذلك النوع من التعليم ، وما هو أكثر دلالة قيامهم
بمحاربة ومطاردة كل من يخالف هذا المذهب ، مثلما هو الحال فى
مطاردتهم لكل المذاهب الدينية الأخرى كالشيعة والمعتزلة والخوارج
... الخ ، وكذلك مقاومتهم الشديدة والقاسية أحيانا لمن يتعاطى
الفلسفة ، مثلما حدث مع ابن مسرة القرطبي ، وليس الأمر كما يحاول أن
يصوره بعض الباحثين ، على أنه استرضاء للعامة ، وخضوع للفقهاء ،
لأننا نرى أن الخلفاء يتدخلون لحماية بعض العلماء على الرغم من
معارضة الفقهاء لهم ، مثلما حدث مع بقى بن مخلد ومحمد بن عبد
السلام الأخشنى وغيرهم •

(٣٢) ابن قرطبة : نفس المصدر ، ص ٩٤ •

(٣٣) بن عبود (محمد) : التاريخ السياسى والاجتماعى لاشبيلية
على عهد بنى عباد (نظام اشبيلية القضائى) — رسالة دكتوراه —

٤ — شهد العصر المرابطي والموحدي تدخلا سافرا لفرض مناهج تعليمية معينة ، تتناسب والعقيدة التي تقوم عليها الدولة ، فبينما نجد أن المرابطين يهتمون بأهل الفقه والدين ، حتى بلغ الفقهاء في أيامهم مبلغا عظيما ، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ، ويصف المراكشي هذه الحالة بقوله : فعظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثر لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم^(٣٤) ، نجد أن الموحدين يميلون إلى المذهب الظاهري ، « ويأمرون بقطع علم الفروع ، وأن الأمير أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » ، « تقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة » ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة في الصلاة ، وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعها ، فكان يمليه على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع ، في جميع المغرب ، وحفظه الناس ، من العوام والخواص ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنوي ، من الكسا والأموال . وكان قصده في الجملة ، هو محو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وجعل الناس على الظاهر من القرآن والحديث^(٣٥) ، ويؤكد ابن فرحون ذلك حين يترجم لمحمد بن أبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأشبيلي (المتوفى ٥٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) فيقول بأنه « شيخ المالكية ، وكان من كبار المتعصبين للمذهب ، فأوذى من جهة بنى عبد المؤمن ، ولما أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر ، صنف كتاب « المعلى في الرد على المظلي » لابن حزم »^(٣٦) .

وبينما نجد أن المرابطين يطاربون محاربة شديدة كل من له صلة

(٣٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٣ .
 عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٧١ .
 (٣٥) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٠٠ —

بعلم الكلام ، وأن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ — ٥٣٧ / ١١٠٧ — ١١٤٣ م) قد « استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله وكان يكتب عنه في كل وقت للبلاد بالفتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي — رحمه الله — المغرب ، أمر أمير المسلمين بحرقها ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك » (٣٧) ، نجد أن الفلسفة تزدهر ، على عهد الموحدين ، وأنه قد ظهر على أيامهم عدد من الفلاسفة ، مثل أبي بكر محمد بن طفيل (المتوفى ٥٨١ / ١١٨٥ م) وأبي الوليد محمد بن رشد (المتوفى ٥٨٥ / ١١٨٩ م) ، ولقد كان أمير المؤمنين أبو يعقوب (٨٥٨ — ٥٨٠ / ١١٦٣ — ١١٨٤ م) شديد الشغف بابن طفيل التي درجة أن ابن طفيل كان يقيم في القصر أياما ليلا ونهارا لا يظهر ، ويقول المراكشي : ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار ، وينبئه عليهم ، ويحضره على أكرامهم ، والتنبؤ بهم ، وهو الذي نبئه على أبي الوليد محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ، ونبه قدره عندهم (٣٨) .

ثانيا — التدخل في شئون المعلمين :

في هذا المجال ، أخذ تدخل الدولة عدة أشكال منها : —
١ — نقل المعلمين من القرى والمدن الإقليمية إلى العاصمة لكي يقوموا بالتدريس بها ، وبين أيدينا حالات كثيرة جدا ، لا أجد داعيا لذكرها لتوقى الاطالة — ومن أمثلتهم ، على سبيل المثال :

محمد بن مروان بن زريق من أهل بطليوس كان « شيخا عاقلا حليما وسيما ، وكان تاجرا ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، رحمه الله ،

(٣٧) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٥ .

ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٤ — ١٥ .

(٣٨) انظر اهتمام هذا الخليفة الموحدي بالفلسفة في :

المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٧ — ٣٥٤ .

• وكتب عنه « (٦) »

محمد بن فرج بن سيعون النحلي (٥٣٦٧ / ٩٧٧م) ، من أهل بجاية استقدمه الحكم المستنصر الى قرطبة فسمع منه غير واحد (٦) •

وهبة بن مسرة بن مفرح الحجارى (توفي ٥٣٤٦ / ٩٥٧م) ، استقدم الى قرطبة بكتبه ، وأخرجت اليه أصول بن وضاح التى سمع فيها فسمعت عليه وسمع منه علم كثير ثم انصرف الى بلده (٦) •

واستمرت حركة نقل المعلمين من القرى الى العاصمة ، على مدار فترة الوجود الاسلامى فى الأندلس ، ونجد أمثلة كثيرة خلال العصر الناصرى بغرناطة وخاصة فترة الأمير محمد الفقيه ثم عهد أبى الحجاج يوسف وابنه محمد الغنى بالله ، وتكفى هنا الإشارة الى :

محمد بن ابراهيم بن محمد الأوسى (٥٧١٥ / ١٣١٥م) ، من أهل مرسية ، أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر ، من مدينة بجاية ، فانتفع الناس به (٦) •

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى القيحاظى (المتوفى ٥٧٣٠ / ١٣٣٠م) كان أوحد زمانه علما وتضائقا وتواضعا وتفننا ، ورد غرناطة مستدعى عام ٥٧١٢ / ١٣١٢م ، وقعد بمسجدها الأعظم ، يقرئ فنونا من العلم ، من قراءات وفقه وعربية وأدب (٦) •

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بمجهود كبير فى البحث عن العلماء

(٣٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٥٤ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٤١) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ٣٥ .

جذوة المقتبس ، ص ٣٣٨ .

(٤٢) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٤٣) المقرئ : نفح الطيب — ج ٨ ، ص ٢٢ .

والتنبيه عليهم ونقلهم الى غرناطة (٤٤) ، يقول ابن الخطيب عند ترجمته
لأبى جعفر أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن صفوان القيسى :

« الى أن نظرت في أمور الملك ، فانتشلت من مهواه ، ودلت البر
على مثواه ، وأسئنت له الجراية ، ونشرت من تعظيمه الراية » (٤٥) .

ويقول عند ترجمته لمحمد بن الولي الرعيني (المتوفى ٥٧٥٠ هـ /
١٣٤٩ م) ، « بأنه طلب للتصدير للاقراء فأبى لشدة انقباضه فنبهت
بالباب السلطاني على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك في شهر شعبان
من عام وفاته » (٤٦) .

ويقول ابن الخطيب في رسالة على لسان سلطانه انه كان « يندب
الناس الى تعليم القرآن لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم » (٤٧) .

ومما يدل على أن الاقراء في الجامع كان يتم بمشاوره الخليفة ،
ان لم يكن بأمر مباشر منه ما يرويه القاضي عياض ، نقلا عن ابن عبد
البر ، في ترجمته لأحمد بن خالد (المتوفى ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) ، من أنه كان
يقعد للناس في مجلسه حيث انتهى به المجلس ولا يبتسم « وعزم عليه
أخيرا في الانتقال الى الجامع بأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بد ،
وعمارته ، بنشر العلم ، بعد موت محمد بن لبابة (٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) ،
فأجاب الى ذلك بعد اباية شديدة » (٤٨) .

وما يروى عن سعيد بن عمير بن عبد الرحمن (المتوفى ٣٠١ هـ /
٩١٣ م) من أنه كان يسكن بلاط مغيث ، فنقله الأمير عبدالله الى المدينة

(٤٤) انظر : الاحاطة — ج ٢ ، ص ٢٧ و ص ٣٣ — ٣٥ .

(٤٥) ابن الخطيب : الكتبية الكائنة ، ص ٢١٦ .

(٤٦) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٣٣ — ٣٥ .

(٤٧) المقرئ : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ١١٠ .

(٤٨) اليعصبى : ترتيب المدارك — ج ٥ ، ص ١٧٧ .

الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١١٣ .

بغرب الجامع (٤٩) •

٢ — أجر المعلمين ، وفي هذا المجال فان الصورة قد أخذت أشكالا متعددة ، فبينما كان عبد الرحمن الثالث يمنح جوائز للمعلمين ، نجد أن المستنصر بالله قد أوقف حوانيت السراجين للانفاق على معلمى الكتاتيب التى أنشأها بقرطبة ، ولدينا نص صريح على دفع مرتبات للمدرسين أورده الضبى فى كتابه بغية الملتبس عند ترجمته ليحيى بن بقى المعروف بالسلاوى (توفى بمرسية سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م) ، حيث يقول عنه :

« الواعظ ، الفقيه ، عارف بالتفسير ، أديب ، طبيب ... أقام بمرسية أعواما جمّة يعظ الناس ، ولم يكن يأخذ شيئا من أحد ، كان الأمير بمرسية محمد بن سعد (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) قد جعل له مرتبا ثم قطع عنه ، فاشتغل بالطب ، وظهر فيه ، فكان يعين نفسه مما يعود عليه منه ، ولا يسأل أحدا شيئا » (٥٠) •

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال ما يقال عن الأمير المرابطى يوسف بن تاشفين من أنه « كان يسير فى أعماله فيتفقد أحوال رعيته فى كل سنة ، وكان محبا للفقهاء والعلماء والصلحاء ، مقربا لهم ، صادرا عن رأيهم مكرما لهم ، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال حياته » (٥١) •

أما عن عبد المؤمن بن على — أول خليفة موحدى — فثقل كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم ، محسنا اليهم ، يستدعيهم من البلاد الى السكون عنده ، والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التثويه بهم ، والاعظام لهم » (٥٢) •

-
- (٤٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ١٦٣ •
الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢١٣ •
(٥٠) الضبى : بغية الملتبس ، ص ٤٩٨ •
(٥١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٣٨ •
(٥٢) الأراكشى : المعجب ، ص ٢٩٣ •

° وهناك مظهر آخر من مظاهر حصول المعلمين على الأجر ، ألا وهي تعيينهم في وظائف معينة ، وأكثر هذه الوظائف كانت العمل في أحد المساجد إما خطيباً أو مقرئاً أو أماماً ، واننى على يقين من أن اسناد هذه الوظائف كان يهدف في الدرجة الأولى ، الى اعطائه الفرصة للقيام بالتعليم في هذا المكان ، علاوة على أن كثيرا من وظائف الدولة كانت تسند الى العلماء والفقهاء وغيرهم من رجال العلم ، ونستدل على ذلك بما تنقله لنا كتب التراجم — مثلا :

خلف بن رزق الأموى المقرئ ، من أهل قرطبة (المتوفى ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) ، كان امام مسجد الزجاجين بقرطبة ، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وكان يقرئ القرآن ، ويعلم العربية ، وكان حسن التلقين ، جيد التعليم (٥٣) .

ابراهيم بن محمد بن على ، أصله من جزيرة طريف ، ونشأ بقرطبة ولى الخطابة والامامة بجامعها سنة (٥١٦ هـ / ١٣١٧ م) ، وجمع بين القراءة والتدريس فكان مقرئاً للقرآن ، مبرزاً في تجويده ، مدرسا للعربية والفقه ، أخذاً في الأدب ، متكلماً في التفسير ، ظريف الخط (٥٤) .

وهناك من النصوص الكثيرة ما يؤكد أن اسناد مثل هذه الوظائف كان يرجع الى شخصيات رئيسية في الدولة ، ان لم يكن الى الخليفة نفسه — يقول ابن الأبار نقلا عن القاضي نذير بن وهب بن نذير الفهري ، أنه : كان بشنتمرية (٥٥) ، معلم كتاب يؤدبهم ، ويؤم في مسجدين : أحدهما يصلى فيه نهارا والثانى ليلا ، فكتب الى الحاجب أبى مروان

(٥٣) ابن بشكوال : الصلاة ، ص ١٦٩ .

(٥٤) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٣٧٤ .

(٥٥) أورد الأستاذ عنان بأنها شنتمرية الشرق أو شنتمرية بنى رزين انظر ص ٧ ، فى كتابه « طبوغرافية عربية أسبانية » ، وانظر تعليق حسين مؤنس ، على ابن الأبار : الحلة السراء — ج ٢ ، ص ١٠٩ .

عبد الملك (٤٩٦هـ / ١١٠٣م) (٥٦) يسأله التقديم في المسجد الجامع للصلاة في الدولة مع سائر الأئمة ، فوقع له في مكتوبه :

أطبق تأديبا وعقد امامة

في مسجدين وجامع أنسك

أثبت على احدى المراتب لا ترد

فمن الزيادة يتقى النقصان (٥٧)

بالإضافة الى هذه المظاهر كلها من تدخل في شئون المعلمين فإن كتب التاريخ قد حفظت لنا نصا قيما جدا يبين لنا تدخل الأمراء في بعض النواحي الشخصية جدا من حياة المعلمين ، ومن أمثلتها ما يحكى عن حبيب بن دحون (توفي في سنة ٣٠٠هـ / ٨١٥ - ١٦٠م) ، من أنه كان فقيها فاضلا ، قدم الأندلس بعلم كثير ، فذهب الى نشره ، فكان يتحلق اليه في المسجد الجامع بقرطبة ، وهو يلبس الوشى الهاشمي (٥٨) ، وما شاكله ، فتكاثر الناس عليه ، فكره الأمير عبد الرحمن ذلك ، وأوصى اليه بترك التحلق (٥٩) .

ثالثا - الإشراف على اماكن التعليم وعلى انتظامه :

في هذا المجال أيضا تعددت مظاهر تدخل الدولة في التعليم ويمكن حصرها في عدة نقاط منها :

١ - زيارة الأماكن التعليمية ، ولقد سبقت الإشارة الى زيارة الصميل لمؤدب يعلم التصبيان ، وزيارة القاضي أمية بن عيسى لدار

(٥٦) أنظر عن أبي مروان : عبد الله جمال ، تعليقات رسالته للدكتوراه ، التعليق رقم ١٢٩ ، ص ٤٠ .

(٥٧) ابن الأبار : الخلة السراء - ج ٢ ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٥٨) يقول الدكتور محمود على مكى ، أنه كان نوعا من الخز الثمين .

(٥٩) ابن حيان : المتعصب (تحقيق مكى) ، ص ٩٤ - ٩٦ .

الرهائن في ساعة من ساعات تعليم هؤلاء الصبيان ولدينا زيارات أخرى كثيرة قام بها رجال مسئولون في الدولة للمعلمين أثناء قيامهم بالتعليم، فقد قام الوزير الشهير هاشم بن عبد العزيز بزيارة الفقيه وهب ابن عبد الأعلى في مجلس علمه (٦٠) ، والخليفة الحكم المستنصر بالله قد قام بزيارة الفقيه أبي الحسن الأنطاكي ، وعين له الأنطاكي بعض من يقرأ القرآن أثناء هذه الزيارة (٦١) . وعلى عهد الموحدين كان الخليفة يحضر مجالس التعليم بنفسه ، ويقوم بتشجيع الحاضرين ومساعدتهم (٦٢) .

يضاف الى ذلك المناظرات العلمية ، والمجالس التي كان يعقدها الخلفاء والأمراء ، ولسوف أتناول دور هذه في العملية التعليمية في مجال منفصل .

٢ — دور القضاة في التدخل في بعض مظاهر العملية التعليمية ، فهناك شبه اجماع من جميع من تناولوا العملية التعليمية في الأندلس ، أو كتبوا عنها بعض الفصول ، على أن « الكتاتيب » ، أو ان شئت ، المدارس الأولية — كانت خاضعة نظريا لاشراف المحتسب (٦٣) .

وان كان ما أثار انتباهي هو الدور الذي كان يلعبه القضاة حيث توقفت طويلا أمام ظاهرة تردد أسمائهم مرتبطة ببعض المسائل الخاصة بالتعليم ، وتدخلهم في بعض شئونها ، والمشكلة بالنسبة لي ، التي صعب على حلها أو الوصول الى رأى نهائى فيها هي ، هل كان القضاة يقومون

(٦٠) ابن الأبار : تكملة الصلة — ج ٢ ، ص ٤٢٠ ، مدريد ١٨٨٠ .

(٦١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٦٢) انظر القصة الطويلة الواردة في المعجب ، ص ٣٦٩ ، مع هلال

ابن سعد بن مردنيش .

(٦٣) مكى (الطاهر أحمد) : دراسات عن ابن حزم وكتابه « طوق

الحمامة » ، ص ٥٢ .

موسى القبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربى ،

ص ٩٧ ، ٢٧ .

انظر : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .

ببعض هذه التصرفات بصفة شخصية أم بصفتهم الوظيفية ؟ ، فالقاضي أمية بن عيسى هو الذى تدخل لدى معظم الرهائن ، ليوصيه بعدم تعليمهم شعر عنتره ، وأن يعلمهم أشعار الحسن بن هانى ، وصاحب السوق على عهد الأمير محمد هو الذى تولى أيضا محاسبة الفقيه محمد بن عبدالله الخشنى ، وصاحب المدينة على عهد عبد الرحمن الناصر هو الذى طارد فرقة ابن مسرة ، وصاحب المدينة هو الذى طرد ابن حزم ومسعود بن مفلت ، ومنعهم من التدريس فى الجامع ، والقاضى ابن ذكوان على عهد المنصور بن أبى عامر هو الذى نوه بعلى بن أبى طالب (المتوفى ٥٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) ، وأجلسه فى الجامع ، فنشر علمه وعلا ذكره ، ورحل الناس اليه من كل قطر وولى الخطبة والشورى والصلاة الى أن قعد عنها (٦٤) ، والمعلم أبو جعفر الحميرى المؤدب (المتوفى ٥٦١٠هـ / ١٢٢٢م) ، حينما هجاه أحد طلبته شعرا . « أنهى خبره الى القاضى أبى الوليد بن رشد ، فأوجعه ضربا » (٦٥) ، ومحمد بن عياض بن محمد بن عياض (٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) « كان محبا للعلم مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ، ليجبب اليهم العلم والتمسك به » (٦٦) ، وما هو أكثر من ذلك أن عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى ، كان فى آخر أمره قد عزم على الحج ثانى مرة ، فأرسل اليه القاضى زيد بن الحشا ، وقال له : « قد قمت بالفرض ، فهذه المرة الثانية هى نافلة ، والذى أنت فى الآن أوكد فممنعه من الخروج حرصا على وجوده فى طليطلة معلما ومهذبا للناس » (٦٧) .

رابعاً — استقبال المعلمين المشرقين فى الأندلس :

فى هذا المجال فإن هناك اجماعا تقريبا ، على دور الدولة والخلفاء ،

(٦٤) ابن فرحون : الديباج المذهب — ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
(٦٥) المراكشى : المعجب ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، والقديمة ، ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .

(٦٦) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٦٧) أرسلان (شكيب) : الحلل السندسية — ج ٢ ، ص ١٥ .

في الترحيب بالعلماء المشاركة الذين هاجروا الى الأندلس ، ولقد استمرت هذه الحركة ، منذ بداية الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، والى قرب سقوط غرناطة ، ولقد قام هؤلاء العلماء بالتعليم في المساجد الجامعة في قرطبة والزهراء والزاهرة ، وغيرها من مساجد الأندلس ، وتلقوا من الخلفاء والأمراء أكبر رعاية ممكنة ، ولعب المستنصر بالله في هذا المجال دورا كبيرا •

وفي مقابل وصول العلماء المشاركة الى الأندلس ، فان سماح حكام الأندلس برحلات الأندلسيين الى المشرق على الرغم من العداء السياسي الكبير الموجود بين الأمويين هنا والعباسيين هناك ، يعتبر دليلا آخر من دلائل التدخل غير المباشر في العملية التعليمية ، لأن السماح بالرحلة واکرام العلماء بعد العودة ، واسناد الوظائف اليهم ، قد شجع من هذه الرحلات ، وسمح بنقل علوم وكتب المشاركة الى الأندلس بأسرع ما يكون •

خامسا — بناء الأماكن التعليمية :

.. احتل بناء المساجد المقام الأول في هذا المجال ، وليس من شك في أن بناء المساجد لم يكن يهدف في الدرجة الأولى الى ايجاد مكان للتعليم ، بقدر ما هو مكان للعبادة ، لكن المسجد كان من جانب آخر ، أكبر مؤسسة تعليمية في الإسلام ، وسوف أتناول دور المسجد تفصيلا في مجال آخر ، ويهمني التأكيد على أن قيام الحكام في الأندلس ببناء المساجد والتشجيع على بنائها ، قد دفع بالتعليم في هذه المنطقة ، خطوات واسعة الى الأمام •

ولم يقتصر بناء الأماكن التعليمية على المساجد فحسب ، بل قام الحكم المستنصر ببناء سبعة وعشرين مكتبا لتعليم الأطفال ، وجعل الموحدون عرائش بجوار القصر يقيم بها الأشياخ والكتبة ، وبنيت المدارس ، وسوف أتناول المدرسة في الأندلس ضمن باب المؤسسات التعليمية •

وأختتم هذا الحديث عن دلائل تدخل الدولة في التعليم ، بالاشارة الى مسألة دواوين العطاء ، التي كان يسجل فيها القادمون الى الأندلس مثلما حدث مع محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله (المتوفى ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) ، الذي وصل الى الأندلس سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) ، فأمر المستنصر بالله بانزاله ، وتوسع له في العطاء ، وأثبتته في ديوان قریش^(٦٨) ، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم ، وصل الى الأندلس ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م فأكرمه أمير المؤمنين ، وأمر بأجراء النزل عليه^(٦٩) ، ومحمد بن العباس بن يحيى (المتوفى ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ م) ، قدم الأندلس على أمير المؤمنين المستنصر بالله ، فكان يجرى عليه النزل مع الأضياف^(٧٠) .

وأنتنى آمل في دراسة خاصة عن نواحي التوزيع المعتمدة في هذه الدواوين ، تكشف بوضوح أكثر ، عن دور هذه الدواوين ، في تقديم العطاء للمعلمين وغيرهم .

(٦٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٦٩) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

(٧٠) نفس المصدر ، ص ١١٤ — ١١٥ .

الباب الثاني

المراحل التعليمية في الأندلس

مقدمة :

مراحل التعليم ومؤسساته في الأندلس لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في العالم الاسلامي بأكمله .

ويقصد بالمراحل التعليمية، الفترات التي يمر بها الطفل منذ صغره، وحتى ينتهي من التعليم المتوسط ، ويلتحق بالتعليم العالي ، أو يترك التعليم ، الى عمل ما ، ويحددها المفكر المصري أحمد أمين بقوله : « أن التعليم كان مرحلة تبتدىء بالكتاب أو بالمعلمين الخاصين ، وتنتهى بأن تكون حلقة في مسجد » (١) .

ولقد تعارف الناس على تقسيم التعليم في العالم الاسلامي الى مراحل ثلاث ، دون أن يعنى ذلك الفصل الواضح والمحدد بين كل مرحلة أخرى ، والتقسيم هنا يقوم أولا على أساس السن والمكان والمادة التعليمية .

فالمرحلة الأولى هي التي يحفظ فيها الطفل القرآن الكريم ويتعلم القراءة والكتابة ، وبعض العلوم الأخرى . ولقد تباين ذلك من منطقة الى أخرى في العالم الاسلامي من حيث التركيز على مادة أو اهمال أخرى . وكما قلت ، فان التعليم في العالم الاسلامي كله متشابه ولكنه يختلف من مكان الى آخر حسب بعض الظروف التاريخية أو الشروط الجغرافية أو الأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

أما المرحلة الثانية ، فان الطفل كان يتلقى فيها تعليما أوسع وأشمل . وأكثر تركيزا حيث أصبح في امكانه تلقى شروح القرآن وتفسيراته ، وقراءاته ، وكذا الحديث والآراء الفقهية ، وما الى ذلك

من علوم الدين ، أو العلوم الانسانية عامة ، كما أنه يمكن له أن يبدأ
في دراسة العلوم العقلية •

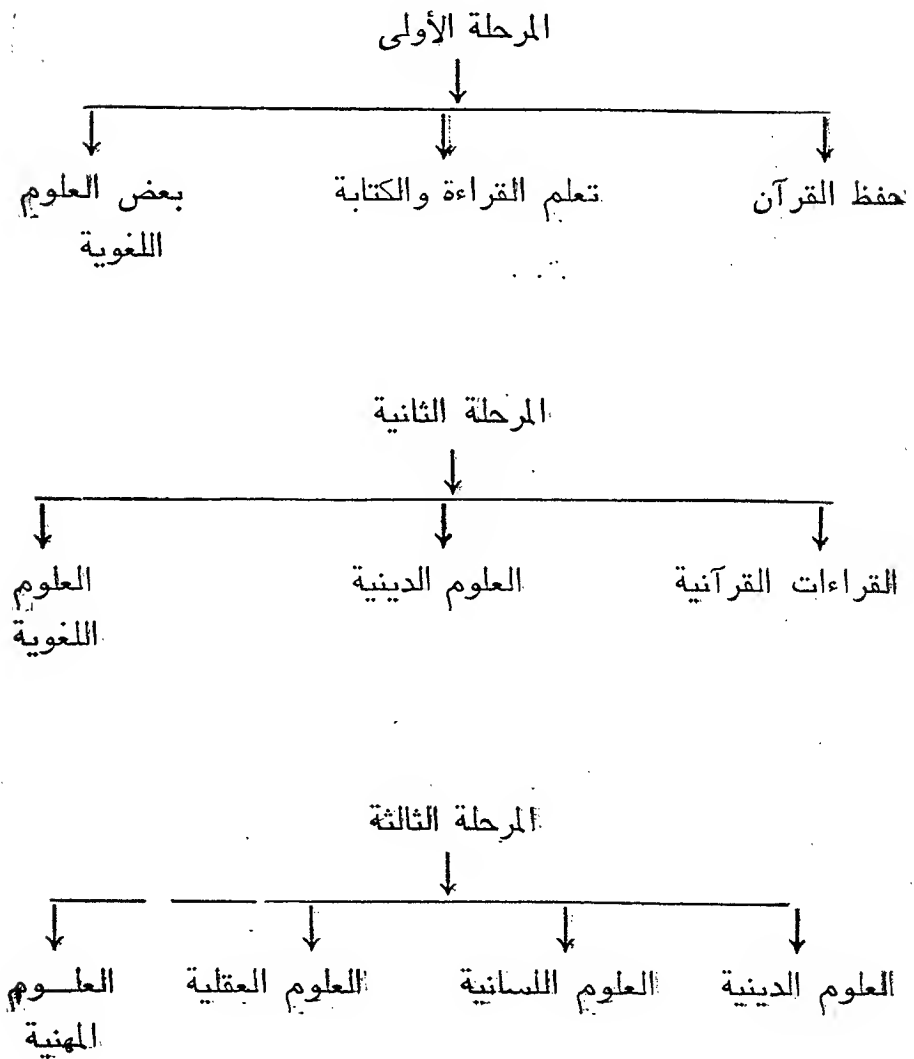
وفي المرحلة الثالثة ، يقوم بالرحلة والانتقال من مكان الى
مكان ، بغرض التركيز ، والتخصص ما أمكن ، في ناحية أو في عدة نواح
من العلوم ، التي سبق وبدأ تعلمها في المرحلة الثانية •

ويمكن تقسيم المراحل التعليمية أيضا الى ثلاث من ناحية مكان
التعليم ، فالمرحلة الأولى يتعلمها الطفل في البيت أو في المكتب ، والثانية
أما في المسجد أو في بيت المعلم ، أما الثالثة فلقد كانت تتم في المسجد وفي
المنزل وفي المدرسة — أو في أى مكان عام أو خاص ، يمكن فيه
الحديث مع الأستاذ المعلم •

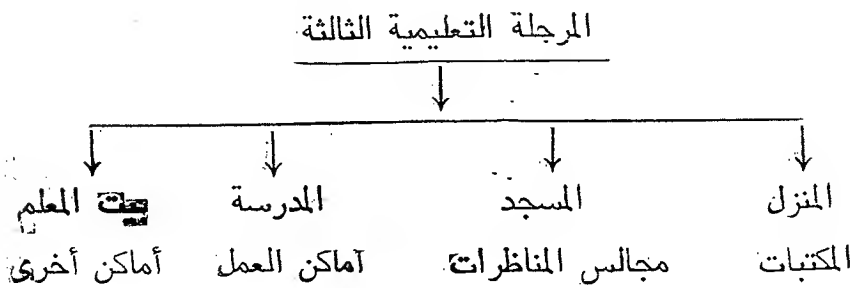
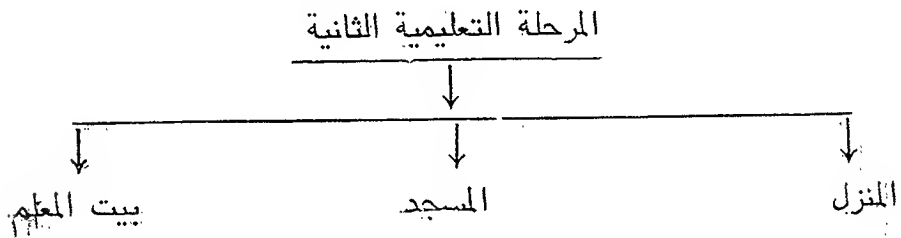
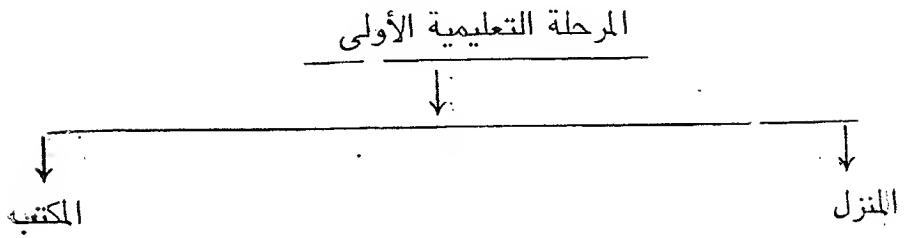
ولكى لا يكون الحديث مكررا فاننى سأتناول كل مرحلة تناولا
كاملا ، أقصد بذلك أنه عند الحديث عن المرحلة الأولى أو الثانية
أو الثالثة فاننى سأتناول كل الجوانب المتعلقة بهذه المرحلة — المكان —
المحتوى الدراسى — المعلم — التلميذ — العلاقة بين المعلم والتلميذ —
الجزاء ، سواء كان مكافأة أو عقابا — أجر التعليم — العلاقة بين
الأسرة والمعلم ، الى آخر هذه المظاهر •

وأود الإشارة منذ البداية الى أن ذلك التقسيم المرحلى ، ليس
الا بغرض التسهيل الدراسى فقط ، لأنه من الصعب جدا وضع حواجز
فاصلة تماما بين مرحلة تعليمية وأخرى ، أو بين تعليم مادة وتعليم
مادة أخرى •

المراحل التعليمية حسب المنهج التعليمي



المراحل التعليمية حسب مكان الدراسة



الفصل الرابع

المرحلة التعليمية الأولى

أقصد بذلك نوع التعليم ، الذى يتلقاه الطفل فى سننى عمره الأولى — أى تلك الفترة التى تبدأ بمحاولة الوالدين أو المعلم ، سواء فى البيت أم خارجه ، تعليم الصغير القراءة والكتابة ، أو تلقينه الآيات القرآنية ، حتى ينتقل بعد ذلك الى مجالس المعلمين والمؤدبين فى المساجد أو فى غيرها من أماكن التعليم .

المكان :

نحسب ما بينت فى الجدول السابق ، فان المرحلة الأولى يتم تلقاها فى كل من المنزل والكتاب ، وتتناول دور كل منهما فيما يلى :

دور المنزل :

لاشك أن المنزل يلعب الدور الأساسى فى التكوين العقلى للطفل ، وأنه يترك بصمته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على تربية الأبناء ، والوالدان والأقربون بحكم ثقافتهم وعلمهم يتركون فى نفوس أبنائهم حب العلم عامة وحب مادة ما أو مواد يعمل بها الوالد أو الأقربون . ولم تهمل كتب التراجم الإشارة الى تأثير البيت فى عدد كبير من الشخصيات العلمية والأدبية الأندلسية حيث يشار اليهم بأنهم من بيت علم فليل عن أحمد بن محمد بن على — قاضى الجماعة بقرطبة — توفى ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، أنه أخذ عن أبيه وتفقه عنده ، وهو من بيئة علم ودين (١) . وأحمد بن محمد بن أحمد

ابن مخلد المتوفى ٥٣٢هـ / ١١٣٧م ، سمع من أبيه بعض ما عنده ، وهو من بيت علم ونباهة وفضل وصيانة (٢) . أما خليل بن اسماعيل بن يعيد الملك المتوفى ٥٥٧هـ فهو من بيت علم ودين وفقه ، سواء في ذلك رجالهم ونسأؤهم وخدمهم (٣) .

ولاشك أن الوالدين أو أهل المنزل قد حاولوا دائما ، منذ الأعوام الأولى لطفهم ، تعليمه بعض الآيات القرآنية أو القراءة والكتابة أو الأعداد ، وذلك قبل ذهابه الى المكتب ، أو قبل أن يبدأ معه معلمه تعليمه ، سواء في منزل الصبي ، أو في مكان تعليم المعلم .

ولقد لعب الوالد دورا رئيسيا في هذه الناحية ، وواصل دوره ، بعد ذلك مع ابنه ، في مراحل تعليمه التالية ، حتى أننا يمكن لنا دون أدنى تردد — اعتبار الوالد المعلم الأول في حياة طفله ، سواء بطريقة مباشرة ، أى بأن يتولى بنفسه تعليم صغيره أو بطريقة غير مباشرة كأن يحثه على التعليم ، ويساعده على ذلك . فأحمد بن يحيى ابن أحمد المعروف بابن الحذاء (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) ، روى عن أبيه أكثر رواياته ، وندبه صغيرا الى طلب العلم والسماع من الشيوخ الجلاء في وقته ، فحصل له بذلك سماع عال ، أدرك به درجة أبيه « (٤) » .

ويقول ابن الأبار عن نفسه ، أنه قرأ القرآن على والده ، وسمع منه أخبارا وأشعارا ، وأنه استظهر عليه مرارا أيام أخذه على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظه « (٥) » .

(٢) ابن يشكوال : الصلاة — ج ١ ، ص ٧٩ .

(٣) السيوطي : نعي الوعاة — ج ١ ، ص ٥٦١ .

(٤) ابن يشكوال : الصلاة — ج ١ ، ص ٦٢ .

(٥) ابن الأبار : الحلة السراء — ج ١ ، ص ١٥ (من مقدمة

وقد اتخذ المنزل أحيانا مكانا لتعليم الأطفال ، وإن كانت الاشارات الى ذلك ليست كثيرة ، ولكن يقال عن حزم المعلم ، أنه كان هو وابنه محمد وابنته ، تجمعهم في تعليمهم ، دار واحدة (٦) .

الى جانب ذلك يتحمل المنزل مسئوليات أخرى في متابعة الطفل عند ذهابه للمكتب ، وفي تطور تعليمه ، ودفع أجر التعليم وتحديد الفترة التي يجب أن يستمر فيها الطفل في المكتب والسن التي توجب عليه الانتقال الى حلقات المدرسين بالمساجد أو غيرها ، ثم يواصل المنزل بعد ذلك دوره ، في المراحل التالية من تعليم الطفل ، وسأشير الى ذلك في حينه .

المكتب :

تطلق هذه الكلمة على المكان الذي يتعلم فيه الصغار ، وقد تطلق عليه كلمة « كتاب » (٧) والجمع مكاتب أو كتاتيب . والمعلم الذي يتولى التعليم فيه ، يسمى أحيانا « بالمكتب » (٨) أو « الرجل » (٩) . أما كلمة « المعلم » ، فهي الأعم والأكثر استعمالا . ويرى الدكتور أحمد شلبي ، أن المكتب لا يرجع الى فترة تاريخية مبكرة جدا من تاريخ الاسلام ، مخالفا في ذلك ما قاله جولد زيهر Gold Ziher في دائرة معارف الأديان والأخلاق (١٠) ، مؤكدا أن ظهور المكتب في الاسلام كان في نهاية القرن الأول أو مطلع القرن الثاني من الهجرة ، وأنه حتى في هذا التاريخ ، كان « حديث الوجود وقليل الانتشار » (١١) .

(٦) ابن الأبار : تكملة الصلة — ج ١ ، ص ٣٤ .

(٧) أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، ص ٤٤ .

(٨) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٣٣ — ٣٥ .

(٩) أي الذي يصنع من الطفل رجلا .

أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٤٩ .

(10) Encyclopaedia of Religions and Ethies, Vol. v. p. 199.

(١١) أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٥٣ .

ولقد قام الدكتور شلبي بدراسة تاريخية مطولة عن المكاتب أو الكتاتيب في الاسلام ، بين فيها أن أرض الجزيرة العربية وبلاد الشام قد شهدت نوعين من المكاتب ، الأول منهما خاص بتعليم القراءة والكتابة ، وأرجع ذلك النوع الى ما قبل الاسلام ، وأن الذين تولوا التعليم فيه ، خاصة في الفترة الاسلامية الأولى ، كانوا من غير المسلمين (١٢) ، أما الثاني فهو كتاب « لتعليم القرآن ومبادئ الدين الاسلامي » (١٣) ، وهذا النوع جاء متأخرا على ما يرى ، واعتبره تطورا لما كان يحدث من تعليم أبناء الملوك والعظماء في قصور ذويهم ، وتعليم الأولاد بمعرفة أهلهم (١٤) .

المكتب في الأندلس :

ظهر المكتب في الأندلس في فترة مبكرة من بعد الفتح العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ولقد سبق لي أن بينت في رسالتي الصغرى (١٥) أنه من الطبيعي أن التعليم في الأندلس بدأ بالكبار سنا بقصد تعليمهم الدين الجديد واللغة العربية ، كما قلت . بأنه كان من الطبيعي أن تظهر المكاتب الخاصة بتعليم الأطفال بسرعة ، لأنه اذا كان رجال الجيش قد تزوجوا من نساء أهل البلاد كما فعل عبد العزيز بن موسى بن نصير بزواجه من أرملة آخر ملوك القوط ، وأن هذا الاختلاط قد أثر على الأجيال الجديدة . واذا ما كانت السن المعقولة لبدء التعليم ، هي ما بين الخامسة الى السابعة ، فان ذلك يقودنا حتما الى القول بأن الاتجاه لتعليم الصبيان في الأندلس ، قد بدأ خلال العقد الأول من الفتح ، لا أكثر .

واذا افترضنا أن بعض العائلات العربية قد عبرت الى الأندلس بعد اتمام عملية الفتح السريعة ، وأن هذه العائلات قد اصطحبت

(١٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٤٩ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ٥٢ .

(١٥) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس منذ الفتح حتى الخلافة ، ص ٤٧ من النص العربي .

معها نساءها وأولادها فمن الجائز القول بأن الكتاتيب قد بدأت في الأندلس في فترة مبكرة عما ذكرنا ، وعلى كل حال فإنها لم تتأخر عن السنوات العشر الأولى — والاشارة الأولى ، التي وردت عن تأديب الصبيان أوردها لنا ابن القوطية ، في كتابه عن افتتاح الأندلس ، حيث ذكر أن الصميل قد تناقش مع مؤدب للأطفال حين خطر به يوما ، ومن هذا النقاش نستنتج وجود مكان لتأديب الأطفال ، يمكن المرور عليه ورؤيته ، وسماع ما يدور فيه (١٦) . ولقد وقع ذلك بالتأكيد قبل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٧ م ، أى قبل تولى عبد الرحمن الداخل الامارة الأندلسية .

كما أن الزبيدي في كتابه طبقات النحويين ، ينقل لنا نصا قيما عن الغازي بن قيس المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، يمكن لنا أن نستنتج منه ، أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل كان الغازي يمارس التأديب ، بل ان مهنة التأديب كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس ، وأن هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب أن يتقاضوا في مقابلها أتعابا ، ويتجمعون للدفاع عنها ، يقول النص بأن الغازي بن قيس « كان ملتزما بالتأديب في قرطبة أيام دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨ / ١٧٢ — ٧٥٦ / ٧٨٨ م) » وذكر محمد بن عمر بن لبابة (٩١٦ / ٣٠٤) أن رجلا حاكم بعض المؤدبين في الحذقة (أى فيما يجب أن يدفعه مقابلا للحذقة) ، فمنعها المؤدب فناظره في ذلك ، وتعصب له المؤدبون بقرطبة وأشفقوا أن ينفتح عليهم في ذلك باب منع ، فأتوا غازي ابن قيس فقالوا : ياسيدنا — تعريضا له بالتأديب — عرض عرض لنا كيت وكيت ، فقال : يغرمها صاغرا قميئا ، وقضى لهم بذلك ، اذ هو مما جرى عليه الناس » (١٧) .

كما أن لدينا نصا آخر عن معلم صبيان قاد ثورة ضد عبد الرحمن

(١٦) انظر النص والتعليق في صفحة ١٩٥ من الكتاب .

(١٧) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

الداخل وكان يسمى «شقيا» وتم القضاء عليه عام ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م^(١٨)، ولعل في هذا ما يمكن أن يلقي ظلالا ولو باهتة على رأى الدكتور أحمد شلبى فى مسألة تأخر ظهور المكتب فى العالم الاسلامى ، الى أوائل القرن الثانى من الهجرة ، لأنها اذا كانت مؤكدة فى الأندلس بعد حوالى ٤٠ سنة ومحتملة قبل ذلك بكثير ، فليس من المحتمل أنها قد تأخرت فى بلاد المشرق الى أكثر من مائة عام . ومما يؤكد ظهور المكتب الخاص بتعليم القرآن فى السنوات الأولى من عمر الاسلام ما جاء عند ابن سحنون والقابسى ، من أنه سئل أنس (القرن الأول من الهجرة/ السابع الميلادى) كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، رضوان الله عليهم - قال أنس : كان المؤدب له أنجائه ، وكل صبى يجىء كله يوم بنوبته بماء طاهر فيصبه ، فيمحون به ألواحهم . قال أنس : ثم يحفرون له حفرة فى الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف (١٩) .

وعلى العموم فليس من غرض هذا البحث التأريخ للمكتب فى الاسلام ، بل فى أسبانيا الاسلامية فقط ، حيث نعود فنؤكد رأينا ، من أنه من المحتمل أنه لم يتأخر فى الظهور عن السنوات العشر الأولى ، وأنه أصبح مؤكدا خلال الأربعين سنة الأولى .

نقطة أخرى ، لم أجد فى كافة المصادر الأندلسية ما يمكن أن يدل على وجود النوع الأول الذى أشار اليه الدكتور شلبى ، وانما هناك نوع واحد لا غير ، يتعلم فيه الأولاد القراءة والكتابة ، وبقية العلوم ، كما سنبينها فيما بعد .

أماكن وجود المكتب :

المكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال ، وقد يكون غرفة فى منزل ، أو حانوتا يكترى ، أو فناء ، ولم يكن له مكان معين يقام

(١٨) مجهول : أخبار مجموعة (ط . مدريد) ، ص ١٧ .

ابن حيان : المقتبس (تحقيق مكى) ، ص ٢٦٦ .

(١٩) القابسى : أحوال المتعلمين ، ص ٣١٦ ، وآداب المعلمين ،

فيه ، ولقد كان عادة يقام بالقرب من المسجد وربما في داخله ، ولقد نهى بعض المرين عن إقامة المكتب داخل المسجد ، وذلك بسبب ما يسببه الصبيان من القذارة وامتنالا لتحديث الرسول « صلى الله عليه وسلم » القائل : جنبوا صبيانكم المساجد (٢٠) ، وأجمع على ذلك رجال الحسبة ، فجعلوا من واجب المحتسب أن « ينهى عن الخط للصبيان والمجانين في وسط المساجد ، لأن الرسول ، أمر بتتزيه المساجد عن الصبيان والمجانين ، ولأنهم يسودون حيطانها ، وينجسون أرضها ، وما فيها من الحصر والفرش ، اذ أنهم لا يحترزون من البول ، وسائر النجاسات ، واذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يتخذ المؤدبون أمكنة ، يعلمون فيها صبيانهم ، ويراعى فيها أن تكون على الدروب وأطراف الأسواق » (٢١) .

أما ابن عبدون الأشبيلي ، فيقول : المساجد هي بيوت الله ومواضع الذكر ، ومواضع العبادة ، مشهورة بالطهارة ، ويجب أن لا يؤدب فيها الصبيان ، فانهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم فان كان ولا بد ففي السقائف (٢٢) .

أما السقطي فيرى أن معلمى الصبيان يجب أن يكونوا بالشوارع العامة بالناس ، وأصحاب الحوانيت (٢٣) .

ورغم هذه التوصيات الواضحة ، فاننا نرى أن المعلمين والمؤدبين في الأندلس لم يلتزموا بها التزاما كبيرا ، حيث نجدهم قد اتخذوا من المساجد مكانا لتعليم الأحداث ، ولدى ملاحظتان واضحتان على ذلك ، أولاهما : قال عثمان بن محمد ، أخبرنى أبى قال : شهدت مجلس عمرو ابن عبد الله (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) يوما من الأيام

(٢٠) ابن ماجة ، سنن « مساجد » ، ص ٥ .

(٢١) ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢٢) ابن عبدون : الحسبة ، ص ٣١٤ .

(٢٣) السقطي : الحسبة ، ص ٦٨ .

فى المسجد المجاور لداره ، فرأيتـه جالسا ، يحكم بين الناس ... وهو جالس فى ركن المسجد مع من جلس اليه من أهل الحوائج والخصومات وفى الركن الثانى الذى يقابله مؤمن بن سعيد وقد جلس مع من جلس من الأحداث حيث قذف طفل آخر بالحذاء ، وسقط الحذاء فى مجلس القاضى — مما يدل على قرب المسافة بين المجلسين — وكيف أن القاضى لم يغضب ، وإنما قال : لقد آذانا الصبيان الذين تسللوا واحدا بعد الآخر خارج المسجد (٢٤) .

أما الملاحظة الثانية فتتحدث عن الأديب الأندلسى الشهير ، أحمد ابن محمد بن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد (توفى ٣٢٨/٩٣٩م) قائلة بأنه وقف يوما تحت دوش لبعض الرؤساء ، وقد سمع غناء حسنا فرش بالماء ولم يعرف من هو . فمال الى مسجد قريب من المكان ، واستدعى بعض ألواح الصبيان ، وكتب :

يا من يضمن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا البخل فى أحد (٢٥)

ولعل السبب فى استخدام المساجد كمكان لتعليم الأطفال يرجع الى أن كثيرا من خدمة المساجد كانوا يحترفون هذه المهنة ، مما جعل من السهل عليهم ممارسة العملين فى وقت واحد ، حيث نجد أن أحمد ابن خلف الأموى (٤٩٩/١١٠٥ م) ، من أهل قرطبة « كان معلم كتاب ، وصاحب صلاة » (٢٦) .

(٢٤) الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ، ص ١٠٤ ، ص ٦٧ ، ط ، القاهرة (٥).

Ribera, J. : Historia de los Jueces de Corboda, pp. 445-447.

(٢٥) الحميدى : الجذوة ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الضبى : بغية الملتبس ، ص ١٤٩ .

لم نترجم الشعر لأنه لا محل له .

(٢٦) ابن بشكوان : الصلة — ج ١ ، ص ٧٥ .

كما وجدت المكاتب فى المنازل حيث نجد أن ابن حزم المعلم قد استخدم داره مكانا للتأديب ، وساعده فى ذلك ابنه وابنته (٢٧) .

وحيثما أنشأ الحكم المستنصر سبعة وعشرين مكتبا فى مدينة قرطبة جعل ثلاثة بجوار المسجد الجامع ، والباقى فى أحياء المدينة (٢٨) .

وهناك من كان يتخذ من دكانه مكانا يقرئ فيه الأولاد فيحكى عن ابراهيم بن مبشر بن شريف البكرى (المتوفى فى ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) ، أنه كان يقرئ فى دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة وينقط المصاحف ويعلم المبتدئين (٢٩) .

أما من ناحية الانتشار ، فمن الطبيعى أن المكتب قد وجد فى كافة الأحياء بالمدن ، وفى القرى (٣٠) ويرى الدكتور شلبى أن عدد المكاتب وعدد معلمى الأطفال قد زاد فى القرن الثانى الهجرى ، وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب ، بل ربما وجد فيها أكثر من كتاب ، وقد ذكر ابن حوقل أنه عد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلرم فى صقلية (٣١) .

وفى الأندلس ، انتشرت هذه المكاتب انتشارا واسعا ، بدليل كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين ضمن كتب التراجم الأندلسية ، ولا ييسعنا هنا أن نذكر أسماء هؤلاء ، لأن ذلك معناه أن ننقل مئات الصفحات من هذه الكتب الى هذه الرسالة ، وتكفى الإشارة الى أنه فى موقعة قنتش (٣٢) سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، أصيب من المؤدبين خاصة ، ما نيف على ستين ،

-
- (٢٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس — ج ١ ، ص ٢٥ .
 ابن الأبار : التكملة — ج ١ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .
 (٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب (ط بيروت) ص ٢٤٠ — ٢٤١ .
 (٢٩) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٨ .
 (٣٠) انظر الاهوانى : فى التربية الاسلامية ، ص ٦٤ .
 (٣١) أحمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٥٤ — ٥٥ .
 (٣٢) ابن الأبار : الحلة السيرة — ج ٢ ، ص ٦ ، التعليق

عريت سقائفهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم لعدمهم (٣٣) .

سن الذهاب الى المكتب :

ان تحديد سنة واحدة معينة لذهاب الأطفال الى المكتب ، عملية صعبة جدا . انها نفس المشكلة ، التي يواجهها أبناؤنا اليوم ، عند تحديد سن ذهابهم الى المدرسة الأولية ، فلقد كان الآباء على ذلك العهد ، مثلما هو الحال مع آباء اليوم ، يحرصون على أن يبدأ أولادهم التعليم في سن مبكرة ما أمكن ذلك .

والآراء التربوية الحاثثة على بدء التعليم في الصغر كثيرة ومعقولة ، فيقول الشاعر :

علم بنيك صغارا قبل كبرتهم

اذ ليس ينفع بعد الكبرة الأدب

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت

ولن تلين اذا قومتها الخشب (٣٤)

ويرى ابن خلدون أهمية تعليم الصغر فيقول : وسبب ذلك أن تعليم الصبي في الصغر أشد رسوخا ، وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب الأساس للملكات ، وعلى حساب الأساس وأساليبه ، يكون حال ما ينبني عليه (٣٥) .

كما أوصى ابن الجزار ، توفي ٥٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م ، بضرورة التأديب في الصغر ، لأن الصغير أساس قيادة ، وأحسن مواتاة ، وقال : لقد أمرنا أن يؤدب الصبيان وهم صغار ، لأنهم ليس لهم عادات تصرفهم لما

(٣٣) ابن بسام : الذخيرة — ج ١ ، ص ٢٤ (تحقيق احسان عباس) .

(٣٤) المغراوي : جامع جوامع الاختصار والتبيان ، ص ٤١ .

(٣٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

يؤمرون به من المذاهب الجميلة ، والأفعال الحميدة ، والطرائق المثلى ،
اذ لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يراد بهم من
ذلك ، فمن عود ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة ،
في الصغر ، حاز بذلك الفضيلة ، ونال المحبة والكرامة ، وبلغ غاية
السعادة ، ومن ترك فعل ذلك ، وتخلّى عن العناية به ، أداه ذلك الى
عظيم النقص والخساسة ، ولعله يعرف فضيلة ذلك في وقت ،
لا يمكنه تلافيه (٣٦) •

ويقول الدكتور الأهوانى : « ان الواقع أنه لم يكن هناك سن
معينة يبدأ عندها الطفل في تلقى العلم ، وانما كان الأمر متروكا لتقدير
آباء الصبيان ، فاذا وجدوا الطفل بدأ في التمييز والادراك ، دفعوا به
الى الكتاب » (٣٧) •

ويرى أبو بكر بن العربى الأندلسى (٥٤٣/١١٤٨م) أن « للقوم
في التعليم سيرة بديعة ، وهو أن الصغير منهم اذا عقل ، بعثوه الى
المكتب » (٣٨) •

ولقد اهتم كثير من الأندلسيين بأن يبدأ أولادهم التعليم في مرحلة
مبكرة ، مما كان سببا في نبوغهم في سن مبكرة ووصولهم الى درجة عالية
من العلم ، ولقد سبقت الاشارة الى أحمد بن يحيى بن أحمد الذى ندبه
والده صغيرا ، لطلب العلم ، والسماع من الشيوخ الجال في وقته ،
فأدرك بذلك سماعا عاليا أدرك به درجة أبيه (٣٩) •

كما أن لدينا اشارات أخرى على بدء المرحلة التعليمية الثانية
في سن مبكرة جدا ، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن هؤلاء الأطفال قد بدءوا

(٣٦) ابن الجزار : سياسة الصبيان ، ص ١٣٤ — ١٣٨ .
(٣٧) أحمد غؤاد الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ٦٠ .
(٣٨) ابن العربى : احكام القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .
(٣٩) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٢ .
(م ١٥ — تاريخ التعليم في الأندلس)

مرحلة دراستهم الأولى في سن مبكرة ، فيقال مثلا ان ابن مريوال بن جراح بن حاتم المتوفى ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، بدأ بالسماع ، وعمره لا يتجاوز احدى عشرة سنة (٤٠) .

وسليمان بن حسان ، المعروف بابن جلجل ، صاحب كتاب طبقات الأطباء ، سمع الحديث بقرطبة سنة ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م ، وهو ابن عشرين بمسجد أبي علاقة وبجامعها وبالزهاء (٤١) .

وكذلك يقال عن أبي عبد الله محمد بن طاهر القيسي التدميري انه « طلب العلم في حدثان سنه » (٤٢) .

وعن المنصور بن أبي عامر « أنه طلب العلم في حديثه » (٤٣) .

وأميل شخصيا الى تحديد سن الذهاب الى المكتب في الأندلس بالعام السادس من العمر حتى بين أبناء الامراء أنفسهم ، ولقد وردت أكثر من اشارة ، الى تحديد السن في هذه المرحلة ، فيقال عن عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر أنه ولد له ولد عاش الى أن دخل الكتاب ، وظهرت منه نجابة ، فأول لوح كتبه بعث به الى أخيه الحكم المستنصر ، وكتب اليه من شعره هذه الأبيات :

هاك يامولاي خطا

مطه في اللوح مطا

ابن سبع في سنه

لم يطق للوح ضبطا

(٤٠) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٤١) المراكشي : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٤٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٤ .

(٤٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٨٣ .

دمت يامولاي حتى

يولد ابنك سبطا (٤٤)

وهناك أيضا ملاحظة أخرى ، واضحة الدلالة ، ينقلها لنا ابن عذارى ، يقول : « قال ابن جرير : كنت قاعدا يوما مع المنصور اذ طلع ابنه عبد الرحمن ، وهو يومئذ ابن سبع سنين ، خارجا الى المكتب » (٤٥) .

أما المدة التي يقضيها الطفل في المكتب ، فهي أيضا تختلف حسب قدرة الطفل على التعلم ، وامكانياته في الانتقال الى المرحلة التعليمية التالية ، ولذلك من الصعب أن نحدد سنا معينة يترك الطفل فيها المكتب ، ويتوجه الى الدراسة على الأساتذة في الأماكن الأخرى . ويمكن أن نقول : ان الطفل كان يستمر في المكتب حتى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة تقريبا ، لأن القابلي يوصي معلم الأطفال قائلا : « وانه لينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض اذا كان فيهم من يخشى فساد ، يناهز الاحتلام » (٤٦) .

هذا ولقد سبق أن أشرت الى بعض الأطفال الذين أنهوا دراستهم في المكتب ، وبدعوا في التردد على حلقات المعلمين ، في الحادية عشرة أو العاشرة ، لكن الغالب أن يتردد الطفل الى هذه المرحلة التعليمية فيما بعد الرابعة عشرة .

فيقال عن عبد الجبار بن فتح بن منتصر البلوى المتوفى ٢٥٨ هـ /

٨٧١م « انه طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة » (٤٧) .

(٤٤) الحميدى : الجنوة ، ص ٢٧٠ .

الضبي : البغية ، ص ٣٧٢ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٤٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

(٤٦) الاهوانى : التربية الاسلامية ، ص ١٣٠ .

(٤٧) ابن القرض : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

ويقول الدكتور هيكل عن ابن حزم انه « بعد الخامسة عشرة تقريباً ، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم ، وهى مرحلة الخروج الى الحياة ، والتحصيل والدرس ، والتعلم خارج البيت » (٤٨) .

المنهج التعليمى فى المرحلة الاولى :

يقول المؤرخ المصرى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، أن التربية فى العصور الوسطى — فى الشرق والغرب — كانت تربية دينية ، ترمى قبل كل شئ الى تهذيب النفس والروح ، ورياضتها ، وكانت خاضعة كل الخضوع للسلطة والتحكم وكانت قائمة على النقل لا العقل ، والتعليم فيها شكلى محض ، يعنى كل العناية بالألفاظ ويهمل الروح واللب .

وفى موضع آخر يقول : ان التعليم الدينى كان يرمى فى الشرق والغرب ، فى الاسلام والمسيحية على السواء ، الى تهذيب روحانى ، أى الى تربية دينية أخلاقية تعد الفرد لا لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحياة ، والذى يعيش فيه هذا الفرد ، بل لعالم آخر لا يصل اليه الا بعد أن تخلص روحه من أدرانها . لم يكن هذا التعليم يهتم بأعداد الفرد بما ينظم العلاقة بينه وبين أفراد المجتمع الذى يعيش فيه أو بما يكسبه قوة ومهارة فى معالجة أسباب المعاش ، بقدر ما كان يهتم بعلاقة الفرد بخالقه كما كانت تتصورها عقلية العصور الوسطى (٤٩) .

والحقيقة أن تقديم الحركة التعليمية فى العصور الوسطى بأنها دينية محضة ، فيه ظلم كبير ، وحتى يمكن لنا أن نتبين بوضوح المنهج

(٤٨) هيكل : الأدب الأندلسى ، ص ٣٥٧ .

(٤٩) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ،

التعليمى فى المراحل التعليمية بصفة عامة ، والمرحلة الأولى بصفة خاصة ، فمن الضرورى أن نتفهم الغايات التى كان يقصدها هذا التعليم ، أقصد بذلك ، لكى نعرف ماذا نتعلم ؟ — علينا أن نعرف ماذا نعلم ؟ ثم يأتى بعد ذلك كيف نعلم ؟ ويكون الترتيب كالتالى :

لماذا نعلم — ماذا نعلم — كيف نعلم ؟

بالنسبة للزرنوجى المتوفى ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م هو : أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضاء الله تعالى ، والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين ، وإبقاء الاسلام ، فإن بقاء الاسلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل ، قال محمد ابن الحسن رحمه الله : لو كان الناس كلهم عبيدى لأعتقتهم ، وتبرأت عن ولائهم ، وذلك لأن من وجد لذة العلم والعمل به ، قلما يرغب فيما عند الناس .

وينبغى لطالب العلم ألا يذل نفسه ، بالطمع فى غير مطمع ، ويتحرر عما فيه مذلة العلم وأهله ، ويكون متواضعا (٥٠) .

والبدر الغزى يرى أن يقصد وجه الله بأشغاله وألا يريد بعلمه غير الله (٥١) .

أما ابن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م ، فهو يركز فضيلة العلم والعلماء فيمن يقصدون به وجه الله الكريم (٥٢) .

وهناك آراء أخرى كثيرة تركز على أن التعليم قد أخذ وجهة دينية بحتة ، ألا وهى الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى ، والاذعان

(٥٠) الزرنوجى : تعليم المتعلم ، ص ١٢ .

(٥١) الغزى : المعيد فى آداب المفيد والمستفيد ، ص ٢٢ .

(٥٢) ابن جماعة : تذكرة الباحث فى العلم ، ص ١٣ .

لتعاليم رسوله عليه السلام والغاية الأصيلة هي رضا الله .. والذي يعلم ولده فيحسن تعليمه ، ويؤدبه فيحسن تأديبه ، فقد عمل في ولده عملا حسنا ، يرجى له من تضعيف الأجر فيه ، كما قال الله تعالى : (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) (٥٣) * ومن هنا نتبين بوضوح ، أن الهدف الديني في التربية ، كان هو المهيمن والسيطر ، سيطرة شاملة على التربية ، في العالم الاسلامي (٥٤) *

ولكن لم يكن الهدف الديني للتعليم هو الهدف النهائي والوحيد ، ولكن كان للتعليم أيضا هدفه الدنيوي ، فقد كان العلم هو الوسيلة الوحيدة لتغيير المستوى الاجتماعي ، وكان كل من يستطيع أن يتعلم ، يستطيع أن يصل الى أعلى المراتب السياسية والاجتماعية في المجتمع ، ومن هنا كان العلم هدفا ووسيلة في حد ذاته ، وكان للعلم فوائده الدنيوية التي لا شك فيها ، والمناظرة التي حدثت بين ابن حزم وأبي الوليد الباجي في غرض تعلم كل منهما يمكن أن تبين لنا بوضوح ، أنه لدى كل من العالمين الكبيرين ، كان الغرض الدنيوي واضحا ودافعا لما حصلاه من علم ، فأبو الوليد الباجي يقول لابن حزم :

أنا أبعد منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه ، فتسهر في مشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر في قنديل بאת السوق *

فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك انما طلبت العلم وأنت في هذه الحال وجاء تبديلها بمثل حالي ، وانما طلبته في حال ما تعلمه ، وما ذكرته ، علم لا أرجو به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة (٥٥) *

(٥٣) احمد فؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ، ص ١٢٠ .

(٥٤) الحون : أهداف التربية في العصر العباسي ، ص ٥٦ .

(٥٥) المقاب : نفع الطالب ، ص ٤٢ - ٤١٢ .

ولقد تشابك الغرضان تشابكا كبيرا ، حتى أصبح من الصعب الفصل بينهما ، ويمكن القول بأن الهدف الأول كان اجباريا ، بينما الهدف الثانى كان اختياريا ، ولذلك فإن القابسى (٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) يضع منهجه التعليمى فى قسمين : اجبارى ويشمل علوم القرآن ، الصلاة ، الدعاء ، بعض النحو والعربية والقراءة والكتابة ، وعلوم اختيارية هى الحساب ، جميع النحو ، العربية ، الشعر ، أيام العرب ٠٠٠٠ الخ ، ولقد كان هذا هو المنهج السائد فى كل من القرنين الثالث والرابع .

ومن الغايات الدنيوية التى يحققها الوالد من تعليم ابنه ، أن يكون سعيدا ، أو كما قال القابسى : فمن رغب الى ربه أن يجعل له من ذريته قرة عين ، لم ييخل على ولده بما ينفق عليه فى تعليم القرآن (٥٦) .

وهناك من يرى أن يضع هدفا ثالثا من أهداف التربية عند المسلمين ، ألا وهو هدف اللذة الروحية من العلم ، وهو الهدف الذى يدفع صاحبه الى التعلم والبحث ، لا لشيء سوى البحث والتعلم لذاتهما مكتفيا بلذة البحث عن الحقيقة والتفتيش عن دقائق المعرفة ، ولقد تعرض كثيرون من مؤرخى التربية الاسلامية الى هذه النقطة ، وتكفى الاشارة الى أن الغزالى كان يرى « العلم فضيلة فى ذاته ، على الاطلاق » (٥٧) .

ولعل من المفيد هنا ، أن أعرض لرأى الدكتور محمد أسعد طلس القائل « والرأى عندنا أنه لا توجد أغراض للتربية عند العرب على الاطلاق ، وانما يجب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذى يلائم المذهب ، فطريقة التعليم مستمدة من مذهب صاحبها » (٥٨) .

(٥٦) الاهوانى : التربية الاسلامية ، ص ١٢٩ .

(٥٧) الغزالى : الاحياء ، ج ١ ، ص ١٠١ .

فتحية حسن : التربية عند الغزالى ، ص ١٧ .

١٢٣

لقد عرض الدكتور طلس لآراء القابسي ، وآراء الدكتور الأهواني وأساء فهم آرائهما حين عرضها قائلاً : « أما القول بأن التعليم انما كان له هدف واحد ، كما ذهب اليه القابسي والأهواني ، فهو قول المتزمت البالغ » (٥٩) •

فلم يقل القابسي اطلاقاً بهدف واحد للتعليم ، والأهواني لم يقل ذلك أيضاً ، ولقد سبقت الإشارة ، الى أن القابسي قد وضع غرضاً أصلياً ، هو تعلم الدين ، وجعل ذلك في مرتبة اجبارية ، وجعل أيضاً للتعليم أغراضاً معيشية يقرها ويسمح بها ، وجعل تعليم ذلك من المسائل الاختيارية •

وبالنسبة للرأي القائل ، بأن الغرض من التعليم انما هو على حسب المذهب ، فهو قول بين السقوط بنفسه ، فالمذاهب الاسلامية على اختلافها وتنوعها كانت تعمل على اعداد الفرد لشيئين :

أولهما : ارضاء الله سبحانه وتعالى ، وتنفيذ ارادته •

ثانياً : اعداد الانسان لحياة سليمة وصالحة ، وتقول الدكتورة فتحية سليمان : ان أهم ما يسترعى الانتباه في دراسة الغزالي من الناحية التربوية هو شدة اهتمامه بالعلم والتعليم وقوة عقيدته في أن التعليم الصحيح هو السبيل الى القرب من الله ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وبهذا رفع الغزالي من مكانة المعلم ، ووضع ثقته في المعلم الصالح ، الذي اعتبره خير مرشد ومهذب ، ولا يقتصر الأمر عند الغزالي على التعلم فحسب ، ولكنه يشترط العمل بما تعلم الانسان ، وأن يعلمه لغيره ، فمن علم وعمل بما علم ، فهو الذي يدعى عظيمًا في ملكوت السموات ، فانه كالشمس ، تضيء لغيرها ، وهي مضيئة بنفسها (٦٠) •

نعم يمكن القول بأن الغاية من التعليم قد اختلفت في تفصيلاتها من معلم الى آخر ، نتيجة وجهة نظره الدينية ، أو مذهبه التعليمي ، أو الاقليم الذى نشأ فيه ، أو للظروف السياسية والاقتصادية المحيطة به ، ولكن يبقى بعد ذلك أهداف علمية للجميع : التعليم من أجل الكمال الانسانى الذى غايته ارضاء الله ، التعليم من أجل الكمال الانسانى الذى غايته السعادة فى الدنيا •

كان ذلك الغاية من التعليم فى الاسلام بصورة عامة ، وأسبانيا الإسلامية قد شكلت جزءا من هذا المجتمع ، وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا نعلم ؟ •

السياسة التعليمية عند أبى الوليد الباجى هى : حفظ القرآن الكريم ، وحفظ الحديث النبوى الشريف ، والتعرف على ما كان منه صحيحا ، وما كان غير صحيح ، ودراسة علم أصول الفقه الذى هو أصل لمعرفة القرآن ، ومعرفة الحديث ، ويجب على الطالب أن يتدرب تدريبا سليما على معرفة طرق النظر ، وتصحیح الأدلة ، وإقامة البرهان (٦١) •

ومن هنا كان تعليم القرآن الكريم وتحفيظه هو الهدف السائد فى هذه المرحلة فى كافة أنحاء البلاد الإسلامية • ويصف ابن خلدون ذلك بقوله :

واعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما ينبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده ، من آيات القرآن ، وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذى يبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات (٦٢) •

(٦١) جودة عبد الرحمن : وصية القاضى أبو الوليد الباجى ،

ومن ناحية أخرى يقرر المستعرب الأسباني الكبير عند حديثه عن تعليم ابن حزم بأن : الفقه والسنة النبوية كانا الأساس النظري للثقافة الإسلامية بأجمعها (٦٣) .

هذا هو الأساس العام فيما يجب أن يتعلمه الأطفال ولكن تختلف طرائق تعليم القرآن للولدان باختلاف الأقاليم والشعوب باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات (٦٤) .

ولقد عقد ابن خلدون فصلاً في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه فقال :

« اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث » وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات . وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه .

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان ، الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب ، إلى أن يحذف فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة • وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره • فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم •

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم • فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب • ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة ، لو كان فيها سند لتعليم العلوم • لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الأول ، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم •

وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ، ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان آياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك • وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الأندلس ، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصراني على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك •

بهم عنايتهم منها • والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشببية ولا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده ، كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان • وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الاجادة • ومن أراد تعلم الخط ، فعلى قدر ما ييسر له بعد ذلك ، من الهمة في طلبه ، ويبتغيه من أهل صنعتته •

فأما أهل افريقية والمغرب ، فأفادهم الاقتصار على القرآن المقصور عن ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة ، لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة في غير أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي ، وحظه الجمود في العبارات ، وقلة التصرف في الكلام ، وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب ، لما يخلطون في تعليمهم القرآن ، بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه ، فيقتدرون على شئ من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، الا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة ، لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتى في فصله •

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي ، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا » (٦٥) •

ويفهم من كلام ابن خلدون أن الأندلسيين اهتموا أساسا بتعليم القرآن لأولادهم ، شأنهم في ذلك شأن بلاد المغرب الاسلامى كلها •

والدلائل كثيرة على قيام أهل الأندلس بتعليم القرآن لأولادهم في المكتب ، منها قول ابن العربي : « وصار الصبي اذا عقل ، وسلكوا به أمثل طريقة لهم ، علموه كتاب الله تعالى » (٦٦) . ومن وصية ابن هود ، الذي حكم بشرق الأندلس من ٦٢٥ الى ٦٣٥ هـ / ١٢٢٨ الى ١٢٣٧ م ، الى أخيه يقول : « ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى ، فان تعليمه للصغار يطفىء غضب الرب » (٦٧) . وابن الخطيب يقول عن سلطان غرناطة بأنه كان « يندب الناس لتعليم القرآن لصبيانهم فذلك أصل أديانهم » (٦٨) .

ومن ناحية أخرى اهتم الأندلسيون بأن يخلطوا في تعليمهم القرآن بعض المواد الأخرى مثل رواية الشعر ، وبعض العربية ، وأعطوا اهتماما خاصا بتعليم القراءة والكتابة ، وتحسين الخط حتى تميز صنف خطهم الأندلسي ، ينقل هنرى بريس عن ابن خلدون وتتميز ملك الأندلس بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط ، فتميز خطهم الأندلسي ، كما هو معروف الرسم لهذا العهد (٦٩) .

كما أشار ابن خلدون الى أهمية قيام الأندلسيين بتعليم أولادهم الشعر والعربية في تكوين ملكة اللغة العربية ، وتفوقهم في الخط والأدب فقال :

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي ، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث ، الذي هو أصل العلوم وأساسها ، فكانوا لذلك أهل

(٦٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٢١ « نقلا عن كتاب العاصم من العواصم » .

(٦٧) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٩ .

(٦٨) المقرئ : النفح ، ج ٩ ، ص ١١٠ .

خط ، وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا (٧٠) .

ولكن العالم الأثبيلى الكبير أبو بكر بن العربى لم يكن راضيا عن هذا المحتوى أو بمعنى أصح على أن يكون القرآن الكريم هو أول ما يعلم للأطفال ، ولذلك أختتم حديثى عن محتوى التعليم فى المكتب بذكر رأى هذا المفكر التربوى الأثبيلى ، كما يلخصه الأستاذ الطالبى ، باعتباره واحدا من أشهر المتحدثين فى مجال التربية فى الأندلس :

« ان لابن العربى نظرات ناقدة فى مجال التربية ، وفى طرق التعليم ، حصل ذلك عن طريق رحلاته ، وعن طريق خبرته بالطرق التربوية المستعملة فى أنحاء العالم الاسلامى ، مشرقه ومغربيه » .

وقد عرض القاضى للطرق التعليمية فى المغرب العربى ، ونقدها نقدا لاذعا ، وكذلك للطريقة الأندلسية ، فانه لم يقبل أن يبدأ الأمر بتعليم الأطفال للقرآن « ياغفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ولا يفهم ، وينصب فى أمر ، ويرى أنه على فرض أن الصبى استطاع أن يفهم بعض الألفاظ المستعملة عنده ، فى حياته اليومية ، كجاء ، وقام ، وقعد فانه لا يستطيع أن يؤلف بينها ، ولا أن يفهم ما تدل عليه من المعانى ، اذا انتظمت فى تركيب » (٧١) .

طريقة أبى بكر بن العربى فى التربية :

عمل أبو بكر بن العربى على وضع طريقة جديدة للتعليم ، بين هذه الطريقة فى عدة من مصنفاته ، شرحها فى « كتاب التعليم » الذى جعله جزءا من كتابه « قانون التأويل » ولم يصلنا هذا الجزء مع

(٧٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٢ .
(٧١) عمار الطالبى : آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ، ص ٢٣٤ — الجزائر .

ابن خلدون : المقدمة — ج ٣ ، ص ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ .

الأسف الشديد ، وان كانت بعض فقراته منشورة في عدة مؤلفات أخرى .

وبينها أيضا في كتابه « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة » على ما قال به ابن خلدون ، وفي كتابه « سراج المريدين » ، وفي مؤلفه « العواصم من القواصم » .

ومن هذا كله يتبين اهتمام الفقيه الأندلسي بالتعليم وأهميته ، وما يمكن أن نصل اليه حين يوضع البرنامج التحسن للتربية . ويرى أبو بكر بن العربي ، أنه في عصور الاسلام الأولى لم يكن العرب في حاجة الى تعلم اللغة العربية لأنهم في ذلك الوقت كانوا يتكلمونها بطريقة سليمة ، خالية من الأخطاء اللغوية ، وخالية من الكلمات الأجنبية ، وبعد ذلك حينما اختلط العرب بشعوب أخرى ذات لغة وثقافة مختلفة ، تطرق الفساد الى الألسن ، ونفذ اللحن الى اللغة ، فعميت الحقائق عن بعض القلوب ، وغمضت فأصبح من الضروري أن يكون تعليم اللغة هو الأساس ، وذلك عن طريق الاهتمام بتعليم الألفاظ ومعانيها ، وأساليب تكوين الجملة ، وطرق دلالتها على ما تردد التعبير عنه ، لقد أحس أبو بكر بن العربي ، بضرورة العودة الى لغة القرآن ، الى اللغة العربية الفصحى ، حيث قال : ينبغي أن ينشأ الطفل على تعلم العربية ومقاطع الكلام ، ويحفظ أشعار العرب ، وأمثالها .

ثم ينتقل ابن العربي بعد ذلك الى شرح قيمة تعليم الحساب وأهميته لأن الحساب فيه فائدة نظرية ، هي شحذ الذهن ، وتمارين الفهم ، وفائدة عملية ، ترجع الى منفعته في القوانين الفقهية في قسمة التركات والمساحات ، وما اليها من مسائل في الحياة العملية (٧٢) .

(٧٢) أشار عمار الطالبي في كتابه عن آراء أبي بكر بن العربي الكلامية الى طريقته في التربية بتفصيل واسع ويمكن الاطلاع عليها في الصفحات من ٢٢٩ الى ٢٤٠ .

فاذا تعلم الطفل شيئاً من ذلك انتقل الى تعلم الشعر — وكل ذلك لكي يمهّد له دراسة القرآن ، لأنه اذا أخذ الطفل حظه من هذه الوسائل اللغوية والحسابية ، ودرس خلال ذلك شيئاً من مفصل القرآن ، واشتد ساعده في هذه العلوم التي تعتبر مقدمة لدراسة القرآن انتقل الى دراسة القرآن نفسه ، حيث أن اللغة ، والشعر ، ومعرفة الكتابة ، بمثابة وسائل ميسرة ، لتعليم القرآن ، وفهمه (٧٣) .

لقد أشار ابن خلدون الى هذه الطريقة في التعليم ، شرحها وعرضها ، وأعجب بها ، ولكنه أكد استحالة تطبيقها لأن الظروف لا تساعد على ذلك ، مؤكداً أن قوة العادة وشدة التأثير الديني ، تدفع بالناس الى ما هم عليه — يقول :

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته (٧٤) ، الى طريقة غريبة في وجه التعليم ، وأعاد في ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس (٧٥) ، قال : لأن الشعر ديوان العرب ، ويدعو الى تقديمه ، وتعليم العربية في التعليم ضرورة لفساد اللغة ، ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن عليه حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل الى درس القرآن ، فانه يتييسر عليه بهذه المقدمة . ثم قال : « ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب في أمر غيره أهم عليه » ، ثم قال « ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه » .

(٧٣) عمار الطالبي : آراء أبو بكر بن العربي ، ص ٢٣٣ — وانظر تعليق هنري بريس على هذه الطريقة في كتابه « الشعر الأندلسي » ، ص ٣٣ .

(٧٤) يقصد كتاب ترتيب الرحلة لابن عربي .
(٧٥) يلاحظ هنا بأن مذهب أهل الأندلس لم يكن تقديم العربية والشعر والا لما هاجم أبو بكر هذه الطريقة ، وانما كانوا يعلمون هذه العلوم في نفس الوقت مع القرآن .
انظر أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٤ .

ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علما الا أن يكون المتعلم قابلا
لذلك ، بجودة الفهم والنشاط :

« هذا ما أشار اليه القاضى أبو بكر رحمه الله ، وهو لعمري
مذهب حسن ، الا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال ،
ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك
والثواب ، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات ، والقواطع
عن العلم ، فيفوته القرآن ، لأنه ما دام في الحجر ، انقاد للحكم ،
فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة القهر ، فربما عصفت به رياح
الشبيبة ، فألقته بساحل البطالة ، فيغتمون في زمان الحجر ، وربقة
الحكم ، تحصيل القرآن ، لئلا يذهب خلوا منه •

ولو حصل التيقن باستمراره في طلب العلم ، وقبوله التعليم
لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أولى مما أخذ به أهل المغرب
والشرق ، ولكن الله يحكم ما يشاء ، لا معقب لحكمه » (٧٦) •

طريقة التعليم في المكتب :

من الطبيعى أن تكون الأيام الأولى للطفل صعبة ، وكان على
المعلم وأهل الطفل العمل على تعويده على المناخ الجديد •

كان من العادة أن يذهب الطفل الى الكتاب مبكرا ، حيث يظل
هناك الى منتصف النهار ، ويعود الطفل الى منزله للغذاء والراحة
قليلا ، بعد ذلك يتجه الى الكتاب مرة ثانية لكي يبدأ الدراسة فترة
ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل فينصرف الى منزله على
أن يعود في صباح اليوم التالى •

ويرتكز ذلك على ما أوثر عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ،

(٧٦) ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ، ص ١٢٤٢ — ١٢٤٣ •

(م ١٦ — تاريخ التعليم في الاندلس)

حين أمر عابد بن عبد الله الخزاعي ، بأن يلزم تعليم الصبيان « بعد صلاة الصبح الى الضحى الأعلى ، ثم من الظهر الى صلاة العصر ، ويسرحهم بقية النهار ، ولا يلزمه الله بشرط أو عادة ، قلت : كعادة أهل البادية في اقراءهم السور ليلا » (٧٧) .

وأيام التعليم خمسة أيام : السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء وصبيحة الخميس ، « وكان للأطفال نصف يوم الخميس ، وطول يوم الجمعة عطلة للراحة ، وبالإضافة الى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض أيام المناسبات العامة » (٧٨) .

وهناك رأى آخر فى مسألة الوقت ، يسوقه المؤرخ التونسى ، المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، فى مقدمته لكتاب « آداب المعلمين » ، قائلاً : أما أوقات التعليم — فيما مضى — فليس لدينا ما ينبىء على تعيين ابتدائها صباحاً ، ولا وقت انتهائها مساءً وغاية ما نعلمه فى خصوصها ، ما روى عن أحد مشاهير علماء القيروان ، قال الونشريسي : « وسئل أبو طيب عبد المنعم بن خلدون الكندى (توفى بالقيروان ، ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) (٧٩) ، هل يجلس المعلم من الصبح الى المغرب ، أو عند طلوع الشمس الى الاسفار ، فأجاب : أما وقت جلوس المعلم وقيامه ، فبحسب العرف ، وما تعاهده أهل التعليم فى كل بلد » (٨٠) .

وهناك من المؤرخين ، من يرفض رفضاً قاطعاً هذه الاستثناءات . ويميل كافة مؤرخى التربية الاسلامية الى أن فترات التعليم كانت تمارس ، على وجه الخصوص فى المرحلة الأولى ، على مدار النهار

(٧٧) المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٥١ .

(٧٨) أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ص ٧٠ .

(٧٩) الونشريسي : المعيار ، ج ٨ ، ص ١٥٢ .

(٨٠) حسن حسنى عبد الوهاب : آداب المعلمين (المقدمة) ، ص ٤٦ .

وامتداده من انصباح الى العصر ، راجع فى ذلك ما كتبه الدكتور
الأهوانى (٨١) .

وطريقة التعليم فى الكتاب تتلخص فى أن المعلم يقوم بقراءة آية
من آيات القرآن ، ثم يقوم الطفل بترديدها حتى يحفظها ، ثم ينتقل الى
آية أخرى وهكذا ، وهناك بعض المعلمين ممن كانوا يلجأون الى تعليم
الأطفال السور القرآنية القصيرة أولا ، وبعضهم كان يبدأ حسب ترتيب
المصحف فيقول ابن مرشد :

« أول ما يبدأ به المؤدب فى تعليمه الصبى ، تحذيقه كتابة الحرف ،
وقراءتها حتى يآلف ذلك ، ثم يشرع فى تحفيظه السور القصار
من القرآن » (٨٢) .

وعندما ينتقل الصبى من جزء الى آخر ، كان عليه أن يقرأ على
معلمه ما قد سبق وتعلمه ، وهكذا يمضى الصبى من جزء الى جزء
آخر حتى يتم حفظ القرآن ، ويمكن لنا أن نتبين فى هذه المسألة
خطوتين رئيسيتين :

أولاهما : التلقين ، وهو الجزء الجديد ، ويقرأه الأستاذ للطفل الذى
يقوم بالترديد خلف المعلم ، وحتى اذا كان الطفل قد وصل الى مرحلة
تسمح له بالقراءة ، حتى يعرف الطفل القراءة السليمة ، وهنا أود أن
أشير الى أن المغراوى يرى أن العرف كان قد جرى فى الأندلس بالقراءة
فى المصحف لا فى الألواح ، ولا فرق بينهما (٨٣) .

ثانيا : الاستظهار ، وهو مراجعة ما كان الطفل قد درسه من قبل ،

(٨١) أحمد مؤاد الأهوانى : التربية الإسلامية ، ص ١٧٦
(القاهرة — ١٩٥٥) .

(٨٢) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٨ .

وذلك بأن يخصص المعلم للطفل وقتا يستمتع منه فيه الى جزء مما قد حفظه الصبى ، واذا أخطأ الطفل كثيرا في حفظه فان عليه أن يدرس ثم يعود للقراءة ، فى اليوم التالى •

ولقد كان معلم الكتاب مسئولا عن تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ولذلك كان على الأطفال أن يحملوا معهم ألواحهم ومحابرهم ، ولقد كانت تلك الألواح تصنع من الحجر أو الخشب ، وكان من السهل محوها بالماء أو بقطعة من القماش ، ويصف ذلك البروفيسور خوليان ريبيرا فيقول : « استعمل الأطفال ألواحا قوية من الخشب ، كانوا يكتبون عليها بأقلمة من القصب ، يغمسونها فى الحبر ، وعند الانتهاء من تمرين ما ، فانهم يقومون بمحوها بقطعة من القماش مبللة ، ثم يعاودون الكتابة » (٨٤) •

ومما يثير الدهشة ، أن يقول الدكتور أسعد طلس : « وطريقة التعليم فى الكتاب ، هى أن يقرأ المعلم آية من القرآن ، ثم يرددها الطفل حتى يحفظها ، فينتقل الى آية أخرى سواها ، أو يكتب الآيات المطلوبة فى لوح » (٨٥) •

وأن يقول الدكتور الأهوانى « على أن أهم ما يدرس للصبى هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجماعية ، اذ يبدأ المعلم أو العريف بآية يرددها الصبيان من بعده ، ولكل صبى لوح يكتب فيه ، يثبت فيه ما يريد أن يحفظه ، ثم يمحوه ليكتب شيئا جديدا » (٨٦) •

(84) Ribera, J. : Ha de la Ensenanza entre los Musulmanes espanoles, p. 34.

Galino, Angeles : Ha de la Educacion Eded Antigua y medieval, p. 463.

(٨٥) أسعد طلس : المصدر المذكور ، ص ٧٨

(٨٦) الأهوانى : التربية فى الاسلام ، ص ٥٣ •

ان وجه الغرابة هنا هو متى تعلم الصبى القراءة والكتابة حتى يستطيع أن يسجل ما يملى عليه •

ان الدكتور الأهوانى عند تقسيمه لليوم المدرسى يقول :

وتوزيع العلوم على اليوم المدرسى كالنظام الآتى :

أ — يدرس الصبيان القرآن من أول النهار فى وقت مبكر حتى الضحى •

ب — يتعلمون الكتابة من الضحى الى الظهر ... الخ (٨٧) •

ونفس التقسيم تقريبا ، يضعه الدكتور طلّس فيقول : « كان من العادة أن يذهب الطفل الى الكتاب مبكرا ، فيبدأ يومه بحفظ حزب من القرآن الكريم ، وبعد أن يحفظه يبدأ بالنسخ والكتابة والتمرن على تجويد الحفظ الى وقت الظهر ، ثم يعود الى بيته للغداء ، أو يتعدى فى الكتاب ، ثم يبدأ عمله ثانيا بعد صلاة الظهر حتى فترة العصر يقرأ ويكتب ، الى حين الانصراف الى أهله بعد العصر .. » (٨٨) •

ومن دراسة هذا التقسيم يتبين استحالة أن يكتب الطفل ، وخاصة فى الأعوام الأولى ، ما يتلى عليه من آيات القرآن ، بسبب الصعوبة فى تعلم القراءة والكتابة •

ويمكن لنا أن نتصور حلا للمشكلة ، بأنه خلال الأعوام الأولى ، يعتمد المعلم على التلقين والتحفيز ، فى الوقت الذى يعمل فيه على تعليم الطفل القراءة والكتابة ، الى أن يصل الى مستوى يسمح له بكتابة ما يملى عليه مباشرة ، ليتولى حفظه بعد ذلك ، أو أن يتمكن من القراءة فى المصحف • هذا ولقد نص ابن سحنون على أن من واجبات المعلم « أن يجعل للأولاد وقتا يعلمهم فيه الكتب » (٨٩) ، ويفضل ابن سحنون أن

(٨٧) الأهوانى : نفس المصدر ، ص ١٧٦ •

(٨٨) طلّس : المصدر المذكور ، ص ٧٨ •

يكون ذلك الوقت من الضحى الى وقت الظهر تقريبا فيقول : « وليجعل الكتب من الضحى الى وقت الانقلاب » (٩٠) .

ويذهب الدكتور أحمد شلبى الى رأى آخر يقسم تلك المرحلة من التعليم الى قسمين ، أو يفرق في الكتاب بين نوعين : نوع أولى لتعليم القراءة والكتابة فقط ، ثم ينتقل منه الطفل بعد ذلك الى تعلم القرآن وباقى العلوم فى مكتب آخر ، وأورد طائفة كبيرة من الآراء التى يستند عليها ، وان كان من الواضح أن ذلك النوع من المكاتب ، ان كان قد وجد ، كان فى المشرق فقط ، حيث لم يأت الدكتور شلبى بأى نص ، يمكن أن يستدل منه على وجود نوعين من المكاتب فى الأندلس (٩١) .

أما بالنسبة للأندلس ، فأعتقد بوجود نوع واحد من المكاتب يتم فيه تعليم القراءة والكتابة ، والقرآن ، وبعض العلوم الأخرى كما سبق أن أوضحت وعلى ما يبينه صراحة ابن خلدون (٩٢) .

بعض النواحي التربوية فى المرحلة الأولى :

يرى ابن عبدون أن التعليم تصناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف ، فانه كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ، ويقبل التعليم (٩٣) .

ولقد أعطى المعلم سلطة واسعة ، ان لم تكن مطلقة على الأولاد ، رفعتة الى مكانة الوالد بالنسبة لهم ، فعلاوة على مسئولياته التعليمية ، فهو مسئول أيضا عن النواحي التربوية ، وأهم ما يجب أن يكون موضع اهتمام المعلم : تعليم الأولاد الصلاة ، وطاعة الوالدين ، والبعد عن

(٩٠) ابن سحنون : نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(٩١) أحمد شلبى : التربية الإسلامية ، ص ٤٤ — ٥٨ .

(٩٢) أنظر مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ١٢٤٠ — ١٢٤١ .

(٩٣) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون .

الأخلاق الفاسدة ، وله انحق في عقاب الأولاد بالضرب لحملهم على هذه الأخلاق الحميدة ، وهنا شروط كثيرة تمنع أن يسرف المعلم في عقاب الأولاد لأن ذلك مضر بالمتعلمين ، ويقول ابن خلدون في ذلك :

« ان ارهاف الحد في العقوبة ، مضر بالتعليم ، سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه الى الكسل ، وخمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار ميالا على غيره في ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيته ، فارتكس ، وعاد أسفل السافلين » (٩٤) .

ويرى السقطي أن لا يضرب الصبي الا تحت قدميه ، ثلاثا ، أو خمسة (٩٥) .

ولقد تحرز الربون الاسلاميون كثيرا من اعطاء سلطة الضرب الشديد الى المعلمين ، وذلك لأهميتها في نفسية الطفل ، فابن سحنون يقول : لا بأس أن نضربهم على منافعهم ، ولا يجاوز بالأدب ثلاثا ، الا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك اذا آذى أحدا ، ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، ولا يجاوز بالأدب عشرة ، وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثا (٩٦) .

(٩٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٤ .

(٩٥) السقطي : آداب الحسبة ، ص ٦٨ .

(٩٦) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٨٩ .

أما العقبانى ، فيرى ألا يزيد المكتب على ثلاثة ، فإن زاد على ثلاثة ، اقتضى منه (٩٧) .

وابن مرشد يقول : ولا يضرب صبيا بعصا غليظة ، تكسر العظم ، ولا رقيقة تؤلم الجسم ، بل تكون وسطا ، ويتخذ مجلدا عريض السير ، ويعتمد فى ضربه على الأفخاذ والالية ، وأسفل الرجلين ، لأن هذه المواضع لا يخشى من الضرب فيها مرض ولا غائلة (٩٨) .

ولقد منع ضرب الصبى على ظهره أو على بطنه ، ويضرب فقط أسفل قدميه (٩٩) ، كما حددت المجالات التى يعاقب فيها الصبى ومنها : الهرب ، وعدم الحفظ ، اساءة الأدب والفحش فى الكلام ، والقيام بالألعاب المحرمة كاللعب بالقمار ، وبصفة عامة القيام بأفعال شائنة ، وأكثر الأدوات استخدمها لضرب الأولاد ، وأشدها قسوة ، كانت الفلقة ، وأن اقتصر استعمالها على الأمور الكبيرة (١٠٠) .

كما أن على المعلم أن يراعى حاجات الطفل الأساسية ، كأن يسمح له بالانصراف لقضاء حاجته ، ولا يؤخره فيورثه بعض الآلام أو بعض الأمراض فى جهازه البولى (١٠١) .

كما كان على المعلم أن يراعى وقت غداثهم وراحته (١٠٢) ، ولم يكن مسموحا له باستخدامهم فى حوائجه وأشغاله ، التى فيها غارة على آباءهم كحمل الحجارة أو نقل الزبل أو غير ذلك (١٠٣) .

(٩٧) العقبانى : تحفة الناظر ، ص ٣٢٦ .

(٩٨) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٨ .

(٩٩) المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .

(١٠٠)

(100) Canard, M. : Falaqa (Arabica, 1954) ,

p. 331.

Ribera, J. : Ha de la ensenaza..., pp. 35,36.

(١٠١) المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .

(١٠٢) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٦٨ .

(١٠٣) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٨ .

وحيث أن المكتب كان يضم أولادا من سن متباينة فقد سمح للمعلم باستعمال بعضهم في تعليم البعض الآخر ، كأن يقوم طفل بامر طفل آخر ، ولكنه لم يكن يسمح لطفل بعقاب طفل آخر ، حيث يقول ابن سحنون بأن « لا يولى أحدا من الصبيان ضرب غيره ، ولا يجعل لهم عريفا منهم ، الا أن أن يكون الصبي قد ختم وعرف القرآن » (١٠٤) .

ولقد فصل المغراوى في رسالته تفصيلا مطولا عددا كبيرا من آراء المربين المسلمين في مسألة العقاب ، ولا أجد داعيا لذكرها هنا ، لعدم التطويل (١٠٥) .

ونقطة أخرى مهمة جدا في الناحية التربوية ، ويجب أن يراعيها المعلم في المكتب ، ألا وهى العدل بين الصبيان ، واجب عليه : العدل بينهم في جلوسهم وكتبهم وتجويدهم ، وعرضهم ، وتقليب ألواحهم وضبطها ، واصلاحها (١٠٦) .

المعلمون :

يرى البروفيسور خوليان ريبيرا أن التعليم في العالم الاسلامى « قد بدأ بأكبر الشخصيات الاسلامية ، وأكثرهم نبلا وجاها ، ثم مضى يهبط على مدار الزمن ، حتى استقر فى أيدي أكثر أفراد المجتمع وضاعة وسفالة ، والنسب فى ذلك : أنه فى الأعوام الأولى من عمر الاسلام وحسب مايقول ابن خلدون ، كان التعليم يتركز فى الرواية الى الآخرين ، الأوامر والنواهى التى سمعت من فم المشرع ، وكذلك ايصال مبادئه ، وبصورة مجانية محضة . ولقد كان عظماء الرجال ومشايخ القبائل ، ممن

(١٠٤) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٩٨ .

المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٣ .

(١٠٥) انظر : المغراوى فى جامع جوامع الاختصار — الصفحات من

قاتلوا من أجل نشر الدين الذي أوحى به الله الى نبيه ، هم الذين قاموا بتعليم القرآن ، الذي كانت تعاليمه ، هي الأساس القوى لأخلاقهم وسلوكهم . ولقد قاموا بهذه الطريقة أو بهذا المجهود دون أن يتوقفوا لحظة أمام أى شك قد يثور في نفوسهم منبعا للاحساس الشخصي أو الكبرياء ، والدليل أمامهم أن النبي عليه السلام — عند وداعه لوفود القبائل العربية ، أصحبهم بمجموعة من أكابر صحابته ، وكلف هؤلاء بتعليم هذه الشعوب الدين الذي حملة الى الانسانية ، ولقد عهد بهذه المهمة الى عشرة من أكابر صحابته ، وبعد ذلك الى أناس ممن كانوا أقل مكانة .

ولكن عندما انتشر الاسلام بين أمم كثيرة ، وكان من الواجب أن يستخرج من الكتاب الشريف أقصى ما يمكن لحل المشكلات التي تبدت أمام المحاكم والقضاء ، تطلب هذا الأمر تعليما مستمرا وثابتا مما جعل من المهنة عملا يمكن الارتقاء منه ، ورؤساء القبائل اضطروا ، لاهتمامهم بالمحافظة على السلطة داخل الامبراطورية وعلى سيطرتهم التحكيمية ، الى أن يهجروا العلوم الى هؤلاء الراغبين في التخصص فيها ، منتقلة بذلك الى أيدي ليس لها مكانة كبيرة وموضع احتقار النبلاء وكبار الشخصيات . وهذه الآراء ، التي عرضها أكبر مؤرخى الاسلام نفاذ بصر ، يمكن تطبيقها على أسبانيا ، مع بعض التحفظات » (١٠٧) .

ثم يمضى المستعرب الأسباني متكلما عن أسبانيا ، شارحا كيف بدأ التعليم فيها على يد كبار الناس مجانا ، ثم تحول الى مهنة يرتزق منها ، قائلا أن ذلك قد يرجع تقريبا الى عهد الحكم المستنصر بالله (١٠٨) .

والحقيقة أن معلمى المرحلة الأولية ، قد تعرضوا لانتقادات كثيرة

(157) Ribera, J. : Ha de la ensenanza los musulmanes espandes, pp. 30,31.

(108) Ribesa, J. ; Op. Cit., pp. 31,32.

بسبب بعض التصرفات السيئة ، التي ارتكبها بعد الدخلاء على المهنة وحيث أن تعليم الأولاد القرآن ، والقراءة والكتابة ، قد بدأ لكثير من الناس أنه عمل سهل ، فلقد اندس عدد كبير من المعلمين في هذه المهنة متخذين منها حرفة ، وهؤلاء تسببوا في عدد كبير من الحماقات ، التي اتخذت موضوعا أدبيا طريفا ، وخاصة في المشرق •

لكن دراسة مكانة معلمى الكتاب في الأندلس ، من خلال التراجم الجمة والوافرة التي احتفظت لنا بها كتب التراث الأندلسي تسمح لنا بأن نرسم صورة حقيقية للمعلمين ، بعيدا عن ترهات الأدباء ، أو قصائد الشعراء •

وقبل أن ننتقل الى الجانب التاريخي ، أود الإشارة الى أن المعلمين في الأندلس لم يسلّموا من بعض الاتهامات الأدبية ، مثل تلك التي صلبها عليهم الوزير أبو عامر بن شهيد ، ونقلها الينا ابن بسام ، حيث يقول : « وقوم من المعلمين بقرطبتنا » ، ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة.. لا منفذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان » •

وفي مجال آخر يقول :

« ومن دليل تقصير عصابة المعلمين ، أنهم لا يقدرّون أن يجعلوا ما يحملونه من المعرفة تصنيفا ، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفا وانما تفسو بها أنفاسهم ففسوا ، بين تلاميذهم » •

والنص يحتوى على سباب واحتقار كبير لأجد داعيا لذكره هنا ، ولكن كما قلت ، المسألة هنا موضوع أدبي لا يمكن التعويل عليه كثيرا في النواحي التاريخية (١٠٩) •

ولست أعنى بذلك أن كافة معلمى المرحلة الأولى فى الأندلس كانوا أبرياء تماما ، من التهم الموجهة الى معلمى الأطفال فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، ولكن أريد أن أقول ان أخبارهم السيئة ، على الأقل لم تنتشر على الملأ بتلك الصورة المظلمة ، التى يقدمها الجاحظ مثلا عن معلمى الكتاب فى المشرق .

وفى الأندلس نرى ابن عبدون الأشبيلى ، ينفذ بعض المعلمين ، لكن بصورة مهذبة ورقيقة فيقول :

« ويجب أن لا يكون المؤدب غزبا ولا شابا بل يكون شيخا خيرا دينيا عفيفا ورعا قليل الكلام والشهوة التى استماع ما لا يعنيه ، وأن لا يحضر الجنائز البعيدة ، ولا يكثر من البطالة ، ولا يهمل الصبيان ولا يزول عنهم الا لأخذ الغدا والوضوء ، ويكون راتبا فى مكانه محافظا على حوائج صبيانه ، ويجب للحاكم والقاضى ، اذا رأوا مؤدبا يكثر من الاقبال اليهما فى الشهادات ، أن يسألاه عن الحضار ، فان كان صاحب محضره فلا تقبل شهادته لأنه انما يطلب الظهور ، وأن يتسم باسم العدالة ، ليرتضى أو تودع عنده الودائع ، وينال رفعة الذكر والشهرة فى الخير ، وهو عنهما بعيد فان لم تكن عنده محضرة وعرف خيره ، وسمع القاضى حسن الثناء عليه قبله ، وانى لأعرف منهم جماعة بالوصف الذى وصفت ، فيا أسفا عليهم ، مساكين » (١١) .

هناك أيضا بعض الانتقادات الأخرى التى وجهت الى هؤلاء المعلمين تتناول بعض تصرفاتهم الشخصية أو أساليبهم التعليمية .

وعلى الرغم من هذا كله ، فلقد تمتع المعلمون ، ومن بينهم معلمو الكتاتيب ، بمكانة اجتماعية طيبة ، وتمتع بعضهم بمكانة اجتماعية عالية جدا .

وأول مظاهر التقدير في الأندلس لهؤلاء ، أن لقب « معلم كتاب » أطلق عليهم ، وتصدر أول ترجماتهم ، وبيان فضائلهم ، وذلك دليل على مكانة هؤلاء ، يقول ابن الفرضي أن :

محمد بن عبد الله بن محمد البهراني المؤدب (توفي ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) من أهل قرطبة ، كان معلم هجاء ، وكان خير الرواية ، حدث وكتب عنه غير واحد من أصحابنا (١١١) .

وحبيب بن أحمد بن إبراهيم المتوفى ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م ، أنه كان معلم كتاب ، وحدث عنه أحمد بن عون وغيره (١١٢) .

ويشير ابن الخطيب إلى أحمد بن عبد الملك العدوي قائلًا : « وهو اليوم من معلمى الكتاب » (١١٣) .

وهناك مئات التراجم التي تتحدث عن المعلمين والمؤدبين في الأندلس ، ذاكرة فضائلهم وعلمهم وشيوخهم وتلاميذهم ، ولا أجد داعيًا لذكرها هنا (١١٤) .

علاوة على ذلك فإن المستوى الثقافى لمعلمى الكتاب في الأندلس ، كان مرتفعًا نسبيًا ، ويفسر ذلك كثرة الترجمات الواردة عنهم ، بل إن بعضهم قد ترك آثارًا ثقافية كبيرة ، فيقال عن عمر بن عبادل الرعيني ، من أهل « رية » أنه سكن قرطبة ، وكان يكنى أبا جعفر جعفر (توفي ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) ، كان معلم كتاب ، وكان رجلًا صالحًا زاهدًا ورعا ، حدث عنه القاضي يونس ، في غير موضع من تصانيفه (١١٥) .

(١١١) ابن القرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

(١١٢) ابن القرضي : علماء الأندلس ، ص ١٠٧ .

(١١٣) ابن الخطيب : الكنتية الكامنة ، ص ٢٧٨ .

(١١٤) أنظر على سبيل المثال في كتاب علماء الأندلس فقط الصفحات

٩ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٧٦ ،

٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ (طبعة كوديرا) .

(١١٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .

أما محمد بن حمد — المعروف بالأشبيلي — من أهل قرطبة (المتوفى ٣٢٥هـ/٩٣٦م) ، فقد كان معلماً كتاب ، روى عن محمد بن وضاح وغيره ، وكان يجتمع إليه أهل النحبة والمعلمون ، ويقرءون عليه ، وكان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد ، ويأخذ جوايزه (١١٦) .

ومن هذه الملاحظة يمكن أن نستخلص نتيجتين هامتين :

أولها : أن بعض معلمى الكتاب كانت تصل به ثقافته وعلومه الى درجة تجعله يعطى من وقته لارشاد زملائه المعلمين وتوجيههم أو تثقيفهم فى القراءات وغيرها ، كما أن المعلمين من ناحيتهم كانوا يسعون الى تحسين مستواهم الثقافى دون خجل ، ويجلسون الى واحد منهم يدرسون على يديه .

والثانية : الاهتمام الذى قدمه بنو أمية فى الأندلس للتعليم الأولى وللمعلمين ، وذلك بالسماح لهم ، بأن يستقبلوا فى مجالسهم وتقديم الجوائز لهم ، مما يعتبر دليلاً على قيمة المعلم ومكانته الاجتماعية .

دليل آخر على أن مهنة تعليم الأطفال لم تكن فى يد أكثر طبقات المجتمع سفالة ، بل العكس من ذلك مارسها رجال من الطبقة العالية جداً ، هو أن الوليد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الناصر خرج من الأندلس ، واشتغل فى برقة بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن (١١٧) .

ومن ناحية أخرى فإن الخليفة المعطى ، خليفة ميورقة ، انتهاز فرصة غياب مجاهد العامرى ، فى سردانية فى عام ٤٠٦هـ / ١٠١٥م ، وحاول

(١١٦) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١١٧) المقبرى : النفح ، ج ٣ ، ص ٤١٢ .

الاستثناء بملكه ، ولكن شعيب ميورقة لم يؤيده ، وعلم مجاهد بهذا كله ، فأمر حين عودته بعزله وارسله الى بجاية حيث استقر بها معلما لصبيان البربر (١١٨) .

كما أن مهنة تأديب الصغار يمكن أن تكون سلما يرتفع بصاحبه الى مكانة عالية ، فمحمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي ، قدم قرطبة ، فلزم التأديب في داره ، ثم انتقل الى أحد الحديريين ، ثم استخدمه عبد الرحمن الناصر ، لتأديب المغيرة (١١٩) .

وأخيرا فان الأدب الأندلسي لم ينس أن يبجل هذه المهنة والقائمين بها ، فلقد كتب صاحب الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الى صديقه أبى عبد الله اليتيم رسالة نقتطف منها :

« وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين الى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وان لاحظ اللاحظ ، ما قال الجاحظ ، فاعتراض لايرد ، وقياس لايطرد ، حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب ، معاهدة الاحسان ومشاهدة الصور الحسن ، رعيانا أن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وأنى لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدرة ، متقطب الأسرة ، متمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو الى مكتبه كالأمير في موكب ، حتى اذا استقل في فرشه ، واستوى على عرشه ، وترنم بتلاوة قالوته وورشه ، أظهر للخلق احتقارا ، وأزرى بالجبال وقارا ، ورفعت اليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم

(١١٨) العبادي : الصقالبة في اسبانيا ، ص ٢٦ .

(١١٩) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٣٦ — ٣٤٠ .

— Al — Abbadi : Los esclavos en Espana, p. 26. El texto ara be, p. 26.

والمظلوم ، فتقول كبرى في ايوانه ، والرشيدي في أوانه ، أو الحجاج
بين أعوانه » (١٢٠) •

أجرة التعليم :

مسألة الأجر على التعليم من المسائل المعقدة ، على الأقل من
الناحية النظرية ، حيث أن الرسول عليه السلام قد قام بتعليم الناس
القرآن ، دون أن يسأل أحدا أجرا ، وتابعه على ذلك الصحابة ، وعدد
كبير من التابعين ومن جاء بعدهم ، وهناك الكثير من الأحاديث الخاتمة
على التعليم مجانا وخاصة القرآن الكريم ، وضم إلى القرآن أحاديث
رسول الله ، وذهبت طوائف كثيرة من العلماء والفقهاء ، إلى أنه لا يجوز
قبول الأجر على تعليم القرآن والحديث •

وتطورت الأمور وامتدت لتشتمل على الدراسات الدينية عامة
وقال الناس ان التعليم يجب أن يكون مجانا ، والأجر الوحيد المقبول
على ذلك هو جزاء الله سبحانه وتعالى في الآخرة ، وسار على هذا
المنوال ، عدد كبير من معلمى المسلمين ، سواء الأغنياء منهم والفقراء •

ومن ناحية أخرى ، فاننا نجد أن عددا كبيرا أيضا من الفقهاء
ومن بينهم الأندلسيون ، يباركون أخذ الأجر ، معلمين ذلك بأن من
الضرورى أن يوجد من يقوم بتعليم أبناء المسلمين ، وأنه لابد لضمان
ذلك من دفع أجر على التعليم ، ويرى الدكتور أحمد شلبي أن فكرة
اعطاء المرتبات لمن يخدمون العلم ، ويسهمون في رفع المستوى الثقافي ،
قد بدأت في عهد مبكر ، قد ترجع إلى عهد أبي بكر ، حين جلس بعض
الناس في المساجد ليسمعوا الناس بعض الأشياء التي لم يكن المقصود
منها خدمة العلم ولا وجه الله ، ثم لاستعانة المسلمين بغير المسلمين ،
للقيام ببعض الأعمال الخاصة مثل الترجمة وغيرها ، وأن هذه الفكرة
تطورت مع الزمن ، ونسى الناس الحقائق الأولى الخاصة بالتعليم

مجانا ، خدمة لله ، وأصبح دفع المرتبات للمدرسين شيئا عاديا ، أيا كان الموضوع الذى يدرسونه ، وأيا كان الدين الذى يعتنقونه (١٢١) .

ودراسة الكتب التى تناولت تاريخ التربية الاسلامية ، تعطينا فكرة واضحة جدا عن أن المستوى الاقتصادي لمعلمي الكتاب في المشرق كان مستوى متواضعا ، ان لم يكن فقيرا ، ويورد الدكتور شلبى أمثلة كثيرة تدل على ذلك ، حتى في صقلية فانه يورد ما ينعيه ابن حوقل على معلمى الكتاتيب في صقلية رضاهم بشظف العيش ، وقلة الدخل ، اذ ما كان يتجاوز ايراد الواحد منهم ، عشرة دنائير في العام ، بل ربما لا يصل ايرداه الى هذا الحد (١٢٢) .

أما في الأندلس ، فلقد أفتى الفقهاء بجواز الأجر على تعليم القرآن ، وخاصة ابن حبيب ، وابن حبيب هو فقيه الأندلس ، ولآرائه التشريعية مكانة خاصة ، ولقد برر قبول الأجر على العكس مما عمل به المصاحبة الأولون قائلا : وتأويل النهى أن ذلك كان في مبتدأ الاسلام وحين كان القرآن قليلا في صدور الرجال ، غير فاش ولا مستفيض في الناس وكان الأخذ على تعليمه يومئذ وفي تلك الحال ، انما كان ثمنا للقرآن أما بعد أن صار فاشيا في الناس ، فقد أثبتوه في المصاحف ، وصارت المصاحف وما فيها مباحة للجاهل والعالم ، وللقارىء وغير القارىء ، غير محجوبة ولا ممنوعة ، ولا مطلوبة لقوم دون قوم ، ولا مخصوص بها قوم دون غيرهم ، فانها الاجارة على تعليمه اجارة البدن المشتغل بذلك ، وليس ثمنا للقرآن (١٢٣) .

وكذلك ، نستدل على أن الأندلسيين قد قباوا بالأجر ، من مجموعة الوثائق والعقود والآراء التشريعية الصادرة عن ابن حبيب وغيره من

(١٢١) احمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٢٣٦ .
(١٢٢) احمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٢٣٩ ، نقلا عن : ابن حوقل : صورة الأرض ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
(١٢٣) احمد فؤاد الاهوانى : التربية الاسلامية ، ص ٢١٨ .

فقهاء الأندلس ، تلك الوثائق المستخرجة من بعض كتب الفقه ، التي نشرها البروفيسور الأسباني خوليان ريبيرا ، ضمن كتابه عن تاريخ التعليم بين الأسبان المسلمين ، ونعيد نشرها ضمن هذه الرسالة بعد أن اطلعنا على الاصل المخطوط لها بمدرسة اندراسات العربية بمدريد ، بفضل تعاون أندكتور فرناندو دى لاجرانخا « مدير المدرسة » .

لكن على الرغم من كثرة البحث والتنقيب في المصادر التاريخية الأندلسية ، فاننى لم أتمكن من العثور على البيانات الكافية التي تمكنني من الحكم على المستوى الاقتصادي لمعلمي الكتاب في الأندلس بدقة وافية ، وعلى العموم ، اذا كانت كتب الأدب أو التاريخ قد قدمت صورة مظلمة عن حياة معلمي الكتاب في المشرق وفي صقلية ، فاننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم في الأندلس ، لأن مصادرنا الأندلسية ، سواء الأدبية والتاريخية منها ، لم تشر الى مثل هذه الأحوال السيئة ، بل ان ما يمكن أن توحى به ، قد يكون العكس من ذلك تماما .

في الأندلس لم تغفل كتب التراجم والتاريخ أخبار معلمي الكتاب بل ذكرت أسماء الكثيرين منهم ، مصحوبة بأطيب الألقاب والصفات العالمية ، وسبق لي الإشارة الى بعض هذه الأسماء (١٢٤) بل اننى أشرت الى قيام بعض الشخصيات النبيلة بتعليم الأطفال مثلما قام به الخليفة المعطى .

أما من ناحية الأجر فقد بدأ المعلمون في قبوله في فترة مبكرة من تاريخ أسبانيا الإسلامية ، وأول المعلومات التي بين أيدينا في هذا الشأن هي التي أوردها الزبيدي ، عند حديثه عن الغازي بن قيس ، الذي كان ملتزما بالتأديب بقرطبة أيام دخول عيد الرحمن الداخل الذي حكم في الأندلس عام ١٣٨ هـ / ٧٥٧ م ، فيقول : ذكر محمد بن عمر بن لبابة المتوفى ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، أن رجلا حاور بعض المؤدبين في الحفظة

(والحذقة هي ما يدفع للمعلم عند تعليم الصبي القرآن) فمنعها المؤدب ، فناظره في ذلك ، وتعصب له المؤدبون بقرطبة ، وأشفقوا أن ينفتح عليهم في ذلك باب منع ، فأتوا غازي بن قيس ، فقالوا : ياسيدنا — تعرضا له بالتأديب — عرض غرض لنا كيت وكيت ، فقال : يغرمها صاغرا قميئا ، وقضى لهم بذلك ، اذ هو مما جرى عليه أمر الناس (١٢٥) .

وعبارة « اذ هو مما جرى عليه أمر الناس » تدل على أن دفع الأجر للمعلمين كان جاريا في الأندلس حتى قبل هذا التاريخ .

ومن ناحية أخرى ، لم أجد من البيانات ما أستطيع أن أحدد به بالضبط ما كان يدفع من أجر للمعلم ، ولكن الشائع هو أن ذلك كان يختلف من معلم الى آخر ومن صبي الى آخر حسب المكانة الاقتصادية لوالد الطفل وشهرة المعلم ، ويقول المستعرب الأسباني في ذلك الأمر :

والمعلم ، من الممكن أن يكون أى شخص يزغب في التخصص في المهنة ، يتفق مباشرة مع الوالد أو الصبي على المادة التي سيعلمها للطفل ، والوقت وطريقة التعليم وشروط الدفع ... الخ ، حيث أن العقد بينهما عقد حر وخاص .

وبصورة عامة — يواصل المستشرق الأسباني — فان العقد كان يبرم لمدة عام مع الوضع في الاعتبار مصلحة الطرفين ، أما المرتب وطريقة الدفع ، فلقد كانت العادة أن يكون جزء منهما نقدا ، وهذا يدفع شهريا والبعض عينا أى من الحبوب ، والعادة أنها كانت تتراوح بين كيلتين أو ثلاث من القمح ، ونصف مكيال من الزيت ، وفي مقابل ذلك ، يعد المعلم ، ببذل كل طاقته في تعليم الطفل .

ولقد كان الشائع جدا تقديم الهدايا للمعلم في العيدين ،

أو اجباريا • والحقيقة أنهم لم يكونوا يشترطون ذلك أو يطلبونه ، حقا مسلما •

وفي أحيان أخرى ، بدلا من أن يتعاقد مع المعلم لمدة عام ، أو لعدة شهور ، فإنه كان يتعاقد على كمية محددة أو جزء محدد ، يتم تعليمه ، وهذا كان يحمل المعلم ، على أن يعلم الطفل مادة ، أو جزءا من مادة ما ، وفي هذه الحالة يجب التأكيد على أهلية الطفل للتعليم حتى لا يخدع في الثمن وبالتالي يتحصن الوالد ضد شكايات المعلم مستقبلا والتي قد يقدمها ، متعللا بعدم قدرة الطفل على التعلم (١٢٦) •

لكن هناك طريقة أخرى كان يتم بها دفع مرتبات معلمى الكتاب في الأندلس ، وإن كنا نجهل كذلك الكمية أو النوعية التي كان يتم بها الدفع ، أقصد بذلك المرتبات التي كانت تدفع لمعلمى الكتاتيب ، من الأراضى أو العقارات المحبوسة على هذا السبيل ، فإذا كان الحكم المستنصر بالله قد أوقف حوانيت السراجين لدفع مرتبات معلمى الـ ٢٧ مكتبا التي أنشأها في قرطبة ، فلا بد وأن هناك كثيرا من الأغنياء قد قاموا هم أيضا بتقليد الحكم في ذلك ، وأنهم تولوا دفع مرتبات المعلمين (١٢٧) •

وفي مقابل الأجر الذى كان يتقاضاه المعلم كان عليه أن يستأجر الكتاب ، وأن يتحمل كل تكاليف المكان •

هذا ولقد أفتى الفقهاء بجواز الشركة في الكتاب ، بل فضلوا ذلك ، لأنه في حالة مرض واحد منهما يمكن للثانى أن يحل محله ، وهناك

(126) Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes Espanoles, pp. 34 , 35.

(١٢٧) انظر :

Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes espanoles, p. 32.

من فضل الشركة على أن يكون أحد المعلمين للقرآن ، والآخر للغة العربية ، وفي حالة المشاركة حدد الفقهاء نصيب كل منهما من الدخل ، أما حسب عمله ، أو حسب علمه .

تعليم البنات في المكتب :

بالنسبة لتعليم البنات في المكتب في الأندلس لم أجد من النصوص ما يؤكد ذهاب البنت إلى المكتب ، والآراء الفقهية التي نقلت إلينا عن ابن سحنون والقيسي لا ترى أن تذهب البنت إلى المكتب ، على أن النهي عن تعليم البنت في الكتاب لا يعنى أنها لم تكن تتعلم ، فقد ألزم القايسي بضرورة تعليمها ، لضرورة معرفتها الدين والعبادات وقد جرت العادة على تعليم البنات داخل الدور .

واننا لتجد أسماء كثيرة لنساء أندلسيات ، تلمع بعد ذلك في مجالس العلم وفي مجالات الأدب والشعر مما يدل على انتشار التعليم بينهن في الصغر .

لكن ما هو مؤكد لدينا هو قيام عدد من النساء الأندلسيات بممارسة مهنة التعليم ، ومنهن أئمة حزم المعلم ، التي كانت تؤدب مع والدها وأخيها في دار واحدة (١٢٨) .

وكذلك ذكرت لنا « معلمة » أخرى اسمها « فخر » ولم يشر إلى أكثر من أنها كانت معلمة ، وقال الرازي أنها توفيت سنة ٣١٧ هـ / (١٢٩) .

والعلمة الثالثة اسمها غالبية بنت محمد ، المعلمة الأندلسية — على
حد ما يسميها ابن بشكوال (١٣٠) •

أما الدور الأكبر للنساء في هذه المرحلة ، فقد مارسنه في بيوت
الأمراء والأغنياء على ما سبق أن وضحت ، في تعليم الخاصة •

الفصل الخامس

المرحلة التعليمية الثانية

تختلف هذه المرحلة من التعليم الاسلامى فى العصور الوسطى عن المرحلة التعليمية الثانية ، المتبعة حاليا فى مراحل التعليم بالعالم الاسلامى المعاصر ، كما أنها بالطبع تختلف عن المفهوم الغربى للمرحلة الثانية ، وان تشابهت مع هذه المرحلة فى بعض اللامح •

تشابه المرحلة التعليمية الثانية فى العصور الوسطى مثيلاتها فى العصر الحديث فى أنها تتجه الى طلبة فى سن المراهقة ومراحل الشباب الأولى ، وتتشابه معها فى أن الطالب يخرج من بيته متجها الى المكان الذى يتلقى فيه التعليم — لكنها تختلف عن هذه المراحل فى كونها ليست مرحلة ثانوية تعد الطالب للحياة الجامعية ، على ما هو الحال فى المراحل الثانوية الحالية ، لكنها تعد مرحلة ثانوية وختامية فى ذات الوقت ، حيث يستكمل الطالب خلالها تكوينه الثقافى وينتجه بعدها الى العمل ، فهى فى حالات الغالبية الشائعة من الطلاب تعتبر مرحلة نهائية ، وان كانت فى حياة الكثيرين ، مرحلة يمكن أن تتبعها مراحل التخصص الدقيق ، أى ما يمكن أن يطلق عليه اسم المرحلة التعليمية الثالثة •

اماكن التعليم فى هذه المرحلة

(١) المنزل :

واصل المنزل دوره فى هذه المرحلة ، مثلما مارسه فى المرحلة التعليمية الأولى ، لكن دور المنزل هنا كان أكثر تأثيرا ، حيث قام كثير من الآباء بالتدريس لأبنائهم • بل ان بعض التلاميذ قد اكتفوا فقط بما علمه لهم الآباء ، مرتفعين بذلك الى درجة علمية كبيرة ، ومن الطلبة الذين تعلموا على آباءهم نذكر ، على سبيل المثال لا الحصر •

عبد الواحد بن محمد بن دينار ، من أهل قرطبة ، توفي ٢٨٢ هـ /
٨٩٥ م ، سمع من أبيه ومن أخيه ، ورحل معهما ، وبلغ مبلغ أكابر
أهله في العلم (١) .

وأحمد بن مسعود بن مفرج ، المتوفى ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، روى
عن أبيه وتفقّه عنده (٢) .

أحمد بن محمد بن علي بن محمد ، المتوفى ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ،
أخذ عن أبيه ، وتفقّه عنده (٣) .

وممن اقتصر على السماع عن والده ، ومع ذلك حاز شهرة
واسعة وصل إلى أن يكون قاضي قرطبة ، الفقيه أحمد بن بقي
ابن مخلد الذي يقول عنه ابنه الفرضي : كان قاضي قرطبة ، لا أعلمه .
سمع من غير أبيه ، وكان زاهدا فاضلا . توفي ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م (٤) .

وكذلك يقول ابن الفرضي عن محمد بن محمد بن عبد السلام
ابن ثعلبة الخشني من أهل قرطبة ، المتوفى ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، أنه
سمع من أبيه أكثر علمه ولا أعلمه روى عن غيره ، وكان مشاورا
في الأحكام ، وانفرد عن أبيه برواية كتب لم يروها غيره (٥) .

أما عن استخدام المنزل كمكان للتدريس خلال هذه المرحلة ،
فلقد كان شائعا أن يتخذ بعض المعلمين مكانا منفصلا في منزلهم
لاستعماله مقرا لتعليمهم ، فلقد ذكر بعض طلبة ابن وضاح المتوفى
٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، أنهم كانوا في السماع عنده في غرفة له فدخل عليه
رجل وأخبره بوفاة ابنه ، فلم يكثر له ، وأقبل على ما كان فيه

(١) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٨١ .

(٤) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٥) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

• مَنْ امسك كتابه ، وأمر القارئ أن يتمادى في قراءته (٦) .

وحكى بعض أصحاب الفقيه أبى اسحق بن ابراهيم بن محمد ابن باز المعروف بابن الفزاز ، من أهل قرطبة ، المتوفى ٢٤٧ هـ / ٨٨٧ م ، قال : كنا نسمع عنده في غرفة له اذ صعدت امرأة عجوز تسأله أن يعينها في فداء ولد مأسور لها ببلد العدو (ثم يواصل حكاية القصة الى أن يصل الى قوله) وبعد شهر ونحن قعود في تلك الغرفة اذ صعدت العجوز ومعهما فتى وقالت هذا ابني (٧) .

أما ابن خير الأشبيلي ، فلقد ذكر أنه قرأ الملخص لمسند موطأ مالك بن أنس ، لأبى الحسن على بن محمد بن خلف القابسي الفقيه رحمه الله — قرأه عليه في منزله ، وكذلك حدثه به الشيخ الفقيه القاضي محمد بن عبد الحق بن عطية المحاربي — قرأه عليه في منزله بالمرية في ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م (٨) .

وأنه قرأ كتاب «النقض» على نفس الفقيه بمنزله في المرية (٩) ، كما أنه قرأ كتاب « تفسير غريب الموطأ » لأحمد بن عمران بن سلامة على الشيخ أبى الحسن يونس بن محمد بن مغيث — قرأه عليه في منزله (١٠) .

ويبدو أن مسألة اتخاذ مكان في سطح المنزل للتعليم كان شائعا أيضا في شمال أفريقية — يحكى ابن فرحون عن حاتم بن محمد ابن عبد الرحمن التميمي القرطبي المتوفى ٤٦٩ هـ / ١١٠٢ م ، قوله :

(٦) ابن عاصم : جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى — المخطوط رقم ٢٦٤٨ ، ص ١٧٨ ، وانظر : عياض : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٠ .
(٧) ابن عاصم : المخطوط المذكور ، ص ٢٣٩ ، وانظر أيضا : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .

(٨) ابن خير : الفهرسة ، ص ٩٠ .

(٩) ابن خير : نفس المصدر ، ص ٩١ .

(١٠) ابن خير : نفس المصدر ، ص ٩١ .

كنا عند أبى الحسن القابسى نحو ثمانين رجلا من طلبة العلم ، وكنا فى عليّة له (والعليّة هى المصرية أو المشرية ، وهى غرفة عليا تطل على الشارع بحيث تبرز عن جدران البيت) ، فصعد الينا الشيخ يوما وقد شق عليه الصعود ، فقام قائما ، وتنفس الصعداء ، وقال ، والله لقد قطعتم أبهرى (١١) •

(ب) المسجد :

يعتبر المسجد أهم مؤسسة تعليمية اسلامية على الاطلاق ودراسة هذه المؤسسة فى أى منطقة من العالم الاسلامى ، هى دراسة المكان الرئيسى للحياة الثقافية الاسلامية فى أى فترة من فترات تاريخها ، والمسجد هو أقدم مؤسسة تعليمية اسلامية ، فلقد أسس الرسول المساجد ، بعد هجرته مباشرة ، وتابعه الناس بعد ذلك • ولعل السبب الرئيسى فى اتخاذ المسجد مركزا ثقافيا يرجع الى أن الدراسات الاسلامية فى تلك الفترة المبكرة كانت دراسات دينية تتضمن تعليم الدين الجديد وتفسيره وشرحه ، وتوضح أسسه وأحكامه ، وتلك العلوم ترتبط بالمساجد أوثق ارتباطا ، بل لعلها جزء من العبادة ، ومن هنا كان من السهل على المسلم التوجه الى المسجد ليتفقه فى الدين وأداء الفروض الدينية •

والحقيقة أن المسجد قد لعب دورا أكبر بكثير جدا من كونه مجرد بناء ، لأداء فروض الدين ، وأكبر من كونه مركزا للتعليم ، فهو علاوة على ذلك كان مقر القضاء ، وموطن بيت المال ، وساحة الاجتماعات العامة ... الخ (١٢) •

ويرى الدكتور شلبى أن الذى دعا المسلمين الى التفكير بإنشاء المسجد هو احساسهم بأن البيوت الخاصة تضيق باجتماعاتهم

(١١) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ١ ، ص ١٥٧ — ١٦٠ •

ابن فرحون : الديباج ، ص ٣٤٥ •

(١٢) محمود (عبد الحليم) : المسجد واثره فى المجتمع الاسلامى •

ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا — فيما يبدو — أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » اشارة الى أنه لا يحتاج الداخل فيه الى استئناس ولا استئذان (١٣) .

وهناك من يرى أن المسلمين قد أسسوا المساجد تقليدا لليهود والنصارى الذين كانت لهم بيوع وكنائس يتعبدون فيها ، لكن الأكثر صوابا هو أن العرب في بنائهم المسجد ، لم يفعلوا أكثر من مواصلة تقليد عريق لهم في شبه الجزيرة يتمثل في اللقاءات والعبادات التي مارسوها قبل الاسلام ، في البيت الحرام أو الكعبة المكرمة التي أسسها أبو الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام (١٤) ، ولقد صلى المسلمون في الكعبة قبل هجرتهم من مكة الى المدينة بالرغم من عداوة قريش لهم ، وايدائها اياهم .

وأول مسجد بنى في الاسلام هو مسجد « قباء » ويقال أن الرسول قد أسسه أثناء هجرته من مكة الى المدينة ، وهناك من يقول أن بعض المسلمين الذين سبقوا الرسول في الهجرة هم الذين تولوا تأسيسه ، وعندما وصل الرسول — عليه السلام — الى المدينة كان أول عمل قام به هو بناء مسجده الذي عمل فيه بنفسه وكانت حلقات الغلم تعقد في مسجد قباء ، كما كان من عادة الرسول أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم (١٥) .

وكثر بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسع الاسلام وأصبحت العادة أن يبنى مسجد أو أكثر في كل مكان فتحه المسلمون أو في كل قرية أو مدينة أسسوها — روى أنه لما فتحت البلدان ، كتب عمر الى أبى موسى وهو على البصرة يأمره بأن يتخذ مسجدا للجماعة ، وأن يتخذ مساجد للقبائل فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد

(١٣) أحمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ١٠٢ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢ .

(١٥) شلبى : التربية الاسلامية ، ص ١٠٤ .

الجماعة ، وكتب الى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ،
وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك (١٦) .

أما في الأندلس ، فإنه يقال ان أول مسجد تم بناؤه بها هو
« مسجد الرايات » الذى أسسه موسى بن نصير فى الجزيرة الخضراء
ويقول الادريسي « الجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس
فى صدر الاسلام وذلك فى سنة ٩٠ من الهجرة (٧٠٩ م) — افتتحها
موسى بن نصير (١٧) من قبل الروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله
ابن ونمو الزناتى (طارق بن زياد) ومعه قبائل البربر ، فكانت هذه
الجزيرة أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت ، وبها على باب البحر
مسجد يسمى « بمسجد الرايات » ، ويقال انه هناك ، اجتمعت رايات
القوم للرأى (١٨) .

أما فى باقى مدن أسبانيا الأخرى التى فتحها المسلمون ، فلقب
قاموا فى البداية ، وبسبب ظروف الحرب ، بمشاركة المسيحيين
كنائسهم ، واتخاذ جزء من هذه الكنائس مكانا للعبادة ، مثلما
حدث فى قرطبة ، حيث شارك المسلمون النصارى فى كنيستهم الكبرى ،
المعروفة باسم « شنت بيجنت » ، وأقاموا فى شطرنهم مسجدا ركز
قبلته حنش الصنعانى التابعى (١٩) .

هذا ولقد انتشرت المساجد فى الأندلس انتشارا كبيرا جدا
فقام الخلفاء والأمراء ببناء المساجد الجامعة فى كل مدينة وفى كل
قرية ، كما قام الأغنياء والعلماء والفقهاء ببناء مساجد خاصة بهم
ومن الصعب جدا حصر العدد الذى وصلت اليه المساجد فى الأندلس ،

(١٦) نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

(١٧) أخطأ الادريسي فى تحديد التاريخ ، ولعله خطأ من الناسخ ،
اذ من المعروف أن عبور موسى الى الأندلس كان فى عام ٩٣هـ / ٧١٢م .

(١٨) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١٩) عبد العزيز سالم : العمارة الدينية بالأندلس ، دائرة معارف
الشعب ، رقم ٢ ، ص ١٠٧ .

ولكن يكفى القاء نظرة واحدة على « قائمة أسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب « الصلة » لابن بشكوال (٢٠) ، لنرى أن المؤلف أشار الى المسجد الجامع في قرطبة ٧٣ مرة والى جامع الزهراء ١١ مرة ، وأن الكتاب قد تضمن أسماء ٧٥ مسجدا خاصا أقامها الأفراد أو بنتها العائلات (٢١) . وإذا علمنا أن فتح بن ابراهيم الأموى المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م قد بنى بطليطلة مسجدين ، أحدهما بالجبل البارد والثانى بالدباغين (٢٢) ، وإذا علمنا أن بمنطقة قرطبة فقط كان يأتى لصلاة الجمعة مع عبد الرحمن الثالث أكثر من ٣٠٠ فقيه ، يضع كل منهم القالص على رأسه (ولا يضع القالص الا من حفظ الموطأ أو المدونة) من القرى القريبة لى يحيطوا بالخليفة علما بما يحدث فى قراهم (٢٣) ، أمكن لنا أن نتصور الرقم الكبير ، لعدد المساجد فى الأندلس . ويذكر أحد المؤرخين أنه كان بقرطبة فقط ١٣٨٧٠ مسجدا ، وأن ربض شقندة فقط ، كان به ٨٠٠ مسجد (٢٤) ، وعلى الرغم من اتفاقى مع الدكتور حسين مؤنس على أن ذلك وهم من المؤلف وأن المؤلفين القدامى كانوا يبالغون فى الأرقام كثيرا ، الا أن ذلك الرقم يعكس حقيقة هامة وواقعية ألا وهى كثرة انتشار المساجد ووغرتها فى قرطبة . كما أن هذه الأرقام تمثل بالنسبة لهؤلاء المؤلفين على الأقل رقما مثاليا .

ولقد قصبدت من التركيز على كثرة المساجد فى الأندلس ، أن أبين كثرة انتشار مراكز التعليم فى الأندلس ، فلقد كان كل مسجد

(٢٠) رودلف سنجر : قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة فى كتاب « الصلة » لابن بشكوال — مجلة المعهد المصرى رقم ١٥ — عام ١٩٧٠ م .

(٢١) أنظر صفحات المقال المذكور ، ص ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٢٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٥٨ (طبعة احسان عباس) .

(٢٤) حسين مؤنس : وصفت جديد لقرطبة ، ص ١٦٦ .

منها مركزا للتعليم ، واذا وضعنا في الاعتبار أن المساجد الجامعة كان يدرس بها أكثر من معلم واحد ، بدليل أن الدور كان يقسم في المسجد الجامع بين الفقهاء ، كما كان هناك أكثر من مجلس للمعلمين في أنحاء المسجد المختلفة — أمكن لنا أن نقول بكل اطمئنان ، ان عدد المجالس التعليمية ، وبالتالي حلقات المعلمين قد زادت كثيرا عن عدد المساجد التي كانت قائمة في الأندلس .

وحيث أنه من الصعب حصر كل المعلمين الذين تولوا التدريس في مساجدهم الخاصة أو كل المعلمين الذين جلسوا للتعليم في مسجد واحد في وقت واحد أو في أوقات متقاربة ، فأننى أقدم هنا بعض الأمثلة على سبيل المثال — لا الحصر :

مفرج بن يونس بن مفرج بن مخمود ، المكنى ، سكن قرطبة وكان يعلم بمسجد سرور (٢٥) .

محمد بن يوسف بن محمد الأموى المتوفى ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م كان من أهل الضبط ، والانتقان ، والمعرفة بما يقرأ ، وكان معه نصيب وافر من علم العربية ، وعلم العروض والحساب ، وأقرأ الناس بقرطبة في مسجده ثم خرج عنها في الفتنة واستوطن الثغر ، وأقرأ الناس به دهرا ، ثم انصرف الى قرطبة (٢٦) .

على بن أحمد بن أبى بكر الكتانى القرطبى كان مقرئا للقرآن العظيم ، كثير الاعتناء برواياته ، مجودا متقنا ، التزم الامامة بمسجده والاقراء فيه ٦٦ سنة الى أن توفى ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م (٢٧) .

(٢٥) شكيب أرسلان : الحلال السندسية ، ج ١ ، ص ٧٢ ، بالنسبة لمسجد سرور . وانظر مقالة قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة ، في كتاب « الصلة » لابن بشكوال ، مجلة المعهد المصرى بمدير ، رقم ١٥ ، (١٩٧٠) ، ص ١٧٦ .

(٢٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

أما في المسجد الجامع بقرطبة فأشير الى :

عبد الله بن عمر بن أبا ، من أهل قرطبة ، كان متقدما في الفتيا ، متحلقا في المسجد الجامع بقرطبة مع أبي زيد عبد الرحمن ابن ابراهيم ، كان نظره في القدر والعلم ، وكان موصوفا بالفضل (٢٨) .

محمد بن يحيى بن خليل اللخمي ، من أهل قرطبة ، توفي ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، كان حافظا للمسائل ، معتيا في السوق بالرأى ، وكان يفتي في قرطبة ، ويجتمع اليه في المسجد الجامع للمناظرة (٢٩) .

عبد الله بن محمد المقرئ ، من أهل قرطبة ، توفي ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ، كان يقرئ على باب المسجد الجامع بقرطبة (٣٠) .

سليمان بن عبد الرحمن بن سليمان ، المتوفى ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م قرأ القرآن على الأنطاكي وأتقنه ، كان يقرأ عليه على باب المسجد الجامع ، وكان أحد أئمة المسجد الجامع ، وأحد المؤذنين فيه (٣١) .

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي ، من أهل قرطبة المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، رحل الناس اليه من جميع كور الأندلس ، واختلفت اليه في سماع الموطأ عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وكانت الدولة فيه في أيام الجمع بالغدوات ، فتم سماعه منه ، وسمعت منه كتاب التفسير لعبد الله بن نافع ، ولم أشهد في قرطبة مجلسا أكثر بشرا من مجلسنا في الموطأ الا ما كان من بعض مجالس يحيى بن مالك ابن عايد (٣٢) .

(٢٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٢٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

(٣٠) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

يحيى بن مالك بن عايد « من أهل طرطوشة » (٣٠٠ — ٣٧٥ هـ / ٩١٢ — ٩٨٥ م) ، قدم طالبا سنة تسعة عشر (٣١٩ هـ / ٩٣١ م) ورحل الى المشرق سنة ٤٧ / ٣٤٨ هـ (٩٥٨ م) ، وحج سنة ٤٨ ، حدثني أنه سمع ببغداد من ٧٠٠ رجل ونيف وجمع علما عظيماء لم يجمعه أحد قبله من أصحابه الرحل الى المشرق ، وتردد بالمشرق نحو من اثنتين وعشرين سنة ، وكتب عن طبقات المحدثين وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق ، وقدم الأندلس في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات من طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملأ في المسجد الجامع في كل يوم جمعة (٣٢) .

وتشير هاتان الملاحظتان سؤالاً هاما ، وهو أنه اذا كان كل من هذين الأستاذين قد خصص وقتا معيناً لتدريسه ، أو لتدريس كتاب ما ، فهل وجدت هيئة حكومية أو أهلية للقيام بهذا التنظيم ؟ ان الأهمية التي كان يتمتع بها مسجد قرطبة ، وكثرة العلماء الراغبين في ممارسة التعليم في هذا المكان العظيم ، توحى بضرورة وجود سلطة ما تعمل على السماح لمعلم ما بالقيام بالتدريس في هذا المكان ، كما تعمل على تنظيم هذه المسألة بصورة لا تسمح بالتعارض فيما بينها .

واذا كانت هاتان الملاحظتان اللتان أوردتهما ابن الفرضي عن أستاذه يحيى بن عبد الله ويحيى بن مالك تبين لنا أن الأستاذ قد خصص وقتا من كل أسبوع لتدريس كتاب معين ، أقصد بذلك تخصيص صباح الجمعة لتدريس كتاب الموطأ أو أنه قد خصص وقتا لتدريسه، مثل تخصيص يوم الجمعة لأملائه فان الملاحظة التالية التي أورها عن سعيد بن كرسلين ، المتوفى في حدود عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، تبين لنا أنه كانت هناك مواضع مخصصة لتدريس معلم ما ، فيقول :

كان شيخاً فقيهاً ، وكانت فيه دجاجة ، سمع بقرطبة من ابن وضاح وابن باز وغيرهما ، وكان يتحلق في المسجد الجامع بموضعه ويقرأ عليه (٣٤) .

ويؤكد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك ، ما جاء في ترجمة عيسى ابن عبد الرحمن بن عقاب الغافقي ، من أنه كان مقرئاً مجوداً ، قرأ القرآن طويلاً بجامع قرطبة ، وأتى يوماً الى مضطبة اقراءه ، فأخذ يتنفل ، فلما رفع رأسه من سجوده وأراد النهوض الى القيام ، عثر في ثوبه فسقط على الأرض ميتاً (٣٥) .

ملاحظة أخرى يمكن تبينها من دراسة المساجد الجامعة في مدن الأندلس ، ألا وهي ضرورة وجود كبار الشيوخ المعلمين لتولي التدريس بالمسجد ، وأنه اذا ما خلا هذا المكان بسبب الموت أو الهجرة أو الانتقال الى بلدة أخرى ، فان أهل المدينة أو الدولة كانوا يسعون لاحضار معلم آخر لكي يحتل نفس المكان .

فيقال مثلاً عن أحمد بن خالد (المتوفى ٣٢٢هـ / ٩٣٣م) ، انه عزم عليه في الانتقال الى الجامع بأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بدا ، وعمارته بنشر العلم ، بعد موت محمد بن لبابة ، فأجاب الى ذلك بعد اباية شديدة (٣٦) . وكان أبو محمد بن أبي طالب المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م قد دخل قرطبة أيام المظفر بن أبي عامر ولا يؤبه بذكره الى أن نوه بمكانه ابن ذكوان القاضى ، وأجلسه في الجامع فنتشر علمه (٣٧) .

(٣٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٣٥) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص ٥٠٠ .

(٣٦) اليعصبى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٧٧ .
(٣٧) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .
اليعصبى : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٧٣٧ .
ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

عمر بن عبد الغنى المتوفى ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م — وكان قد استدعاه أهل مالقة بعد ارتحال السهيلي — وقيل بعد موته — للتدريس بها والاقراء مكانه ، فأجابهم الى ذلك ، واستقر بها الى أن توفى (٣٨) .

أما محمد بن يحيى بن على بن مفرج الأنصارى المالقى المتوفى ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م ، فقد جلس للناس بالجامع الكبير بعد أبى عبد الله الطخالى (٣٩) .

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى (٦٥٠ — ٧٢٠ هـ / ١٢٥٢ — ١٣٢٠ م) ، أوجد زمانه علماء وتواضعا وتفننا ، ورد على غرناطة مستدعى عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنونا من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب (٤٠) .

وبالإضافة الى ذلك ، يقال عن أحمد بن ابراهيم بن الزبير ، المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م ، أنه أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة وغرناطة وغيرهما ، كان كثير الانصاف ، ناصحا فى الاقراء ، خرج من مالقة ومن طلبته أربعون يقرءون كتاب سيبويه ، ثم عرض له أن السلطان تغير عليه فجعل سجنه داره ، وأذن له فى حضور الجمعة ، فلما مات شيوخ غرناطة وشعر البلد من عالم رضى عليه وقعد بالجامع يفيد الناس (٤١) .

نقطة أخرى مهمة جدا غيما يتعلق بدور المسجد فى الحياة التعليمية فى الأندلس ، فعلاوة على كونه مقرا لممارسة التعليم فان دراسة عشرات من تراجم علماء الأندلس يمكن أن توحى لنا بأن بعض هذه الملاحظات واضحة جدا ، فى أن المعلم كان يسكن المسجد ،

(٣٨) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثانى ،

ص ٤٥٣ .

(٣٩) السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(٤٠) المقري : نفح الطيب ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(٤١) السيوطى ، بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

وبعضها يشير الى الاقامة بحومة المسجد ، فان ذلك يبين أنه كانت تلحق بالمسجد بعض الحجرات لاقامة هؤلاء بها ، وخاصة اذا كانوا ممن يعملون في خدمة هذا المسجد ، أو أن هناك بعض الدور والمنازل التي كانت تحبس على المسجد لتخصيصها لذلك الغرض .

فيقال عن أحمد بن خالد ، فقيه الأندلس وعالمها ، انه قد وضع كتابا في حق العلماء قبول جوائز السلطان ، حمله على وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه في قبول جوائز عبد الرحمن الناصر اذ نقله الى المدينة بقرطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع ، وقربه ، وأجرى عليه الرزق ، من الطعام والادام والناض (٤٢) .

على بن معاذ بن سمعان الرعيني ، بجاني ، كان لغويا نسابا استقدمه الحكم المستنصر بالله ليقتبس من علمه ، وكان عنده جميع كتب عبد الملك بن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد سلمة نحو من سنة ثم عاد الى بجانة مسكنه (٤٣) .

خلف بن على بن ناصر بن منصور ، المتوفى ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، قدم الأندلس من سبتة ، وقدم قرطبة وسكن مسجد متعة ، وتبعد فيه ، وسمع منه جماعة من علماء قرطبة وغيرها (٤٤) .

خلف المقرئ ، من ساكني طليبة ، توفي بعد عام ٤٠٨هـ / ١٠١٧م ، كان يسكن المسجد ، ويقرأ عليه ، وكان يحاول عجن خبزه بيده (٤٥) .

أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي ، المتوفى

(٤٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٥٩ .

(٤٣) الكراكتي : الذيل والتكملة ، القسم الخامس ، الجزء الأول ،

ص ٤١٠ .

(٤٤) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٤٥) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

٥٣٩٥/١٠٠٤م ، أتى مع أبيه الى قرطبة وهو ابن ثمانى سنين ، وكان سكناه بمسجد سرور واسماعه فى مسجد شريح (٤٦) .

أما من الناحية التشريعية فقد كان من المستحب أن يبنى بجوار المسجد بعض السقائف لكى يتمكن الغرباء من المبيت بها ، وأحيانا تمارس فيها النواحي التعليمية ، وفى ذلك يقول ابن عبدون :

ولو قدر على بناء سقائف لمبيت الغرباء حوله لكان من الفخر للرئيس ولأهل البلاد بذلك .

يجب أن يجلس القاضى فى السقائف رجلا فقيها خيرا يعلم الناس مسائل الدين ، ويعظهم ، ويعلمهم الخير ، ويسهم له القاضى فى الوصايا اذا وقعت أو الصدقات نصيبا ، ويكون مأجورا ، ولا يترك أحدا يأكل فيه ولا ينام ، ولا يجهر بصوت الا بالقرآن ، ولا يدخله أحد بسلاح ، فانه لم يأت لحرب ، وانما يأتى متذلا خاشعا راجيا ثواب الله . لا يترك أحد يقرأ فى البلاطات الا القرآن والسنة ، وغير ذلك من العلوم فى السقائف (٤٧) .

أما مسألة بناء المساجد والمحافظة عليها ، فانها انقسمت الى قسمين ، الأول منهما هو المساجد الجامعة ، أو المساجد التى أسستها الدولة ، فليس من شك فى قيام حكام الأندلس ببناء المساجد فى جميع البلدان والقرى الأندلسية — بدأ هذا مع بداية الحكم الاسلامى فى أسبانيا وظل حتى نهاية هذا الحكم ، ولم تغفل المصادر الحديث عن نشاط الحكام فى هذا المجال ، فلقد أفاضت الحديث عن مساهمة أمراء بنى أمية فى تأسيس المساجد فى كافة بلاد الأندلس وخاصة دورهم فى التوسيعات التى طرأت على المسجد الجامع بقرطبة حتى أصبح أكبر مسجد فى غرب العالم الاسلامى .

فيقال مثلا عن عبد المؤمن بن علي ، الخليفة الموحدى ، أنه عندما دخلت سنة خمسين وخمسائة (١١٥٥) أمر بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده (٤٨) .

والانفاق على هذه المساجد والمحافظة عليها كان يتم اما من بيت مال المسلمين مباشرة أو من الأحباس الموقوفة على هذه المساجد ، ولم أتمكن من العثور على الوثائق الكافية المتعلقة بالوقف أو ما خصص منها لبعض المساجد المعينة ، فيقال مثلا عن فرج بن حديدة ، بطليوسي ، المتوفى عام ١٠٨٧/٥٤٨٠ م ، أنه كان عالما بالقراءات ، متصدرا للاقراء بها ، جرى بيته وبين أمير بلده ، المظفر أبي بكر محمد بن عبد الله ابن مسلمة بن الأقطس ما أوجب انتقاله الى أشبيلية فقدمها في امارة المعتضد بن عباد ، ووافى حينئذ اكمال أمه السيدة بناء مسجدها المنسوب اليها ، فأجلسه المعتضد للاقراء به ، بعد أن أجرى عليه راتبا ونفقة من الأحباس ، فلزم الاقراء به الى أن توفى (٤٩) .

ولقد كان كثير من الأهالي يحبسون كثيرا من أراضيهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد مثلما فعل عبد الملك بن حبيب السلمى (٥٢٣٨ / ٨٥٢ م) ، الذى كان له أرض وزيتون بقرية بيرة (٥٠) ، وهى احدى قرى طوق غرناطة ، وكان بها مسجد قراءته ، وحبس جميع ذلك على مسجد قرطبة (٥١) .

أما فرج بن أبي الحكم المتوفى ٥٤٤٨/١٠٥٦ م فقد حبس داره على طلبه السنة (٥٢) .

(٤٨) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ .

(٤٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثانى ،

ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

(٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

(٥١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٤٨ — ٥٥٣ .

(٥٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

من ناحية أخرى فإن اسم « صاحب الأقباس » قد ظهر في أكثر من ترجمة ، مما يشير الى كثرة هذه الأقباس الى درجة تحتم اعتبارها مهمة يعهد بالاشراف اليها كما هو الحال في التنظيمات الادارية الأخرى فيقال عن محمد بن عمرو بن العاصي المتوفى ٥٤٠٠ / ١٠٠٩م ، أنه انصرف الى الأندلس وشهر بالعلم ، وكان موسراً وتولى الأقباس بقرطبة (٥٣) .

محمد بن سليمان بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٥ / ١١٣٠م ، وهو من تلاميذ أبي بكر ، ابن صاحب الأقباس (٥٤) .

ويشير ابن الخطيب عند حديثه عن القرى المحيطة بغرناطة والأملاك التي تتبعها فيقول :

وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها ، في الأزمنة ، في العام بتقريب ، ومعظمها السقى الغبيط الممين ، العالى ، مايتا ألف ثنتان وستون ألفا ، يضاف الى ذلك مراجع الأملاك السلطانية ، ومواضع أقباس المساجد ، وسبل الخير ما ينيف على ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط ، خمسمائة ألف وستون ألفا ، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الجبوب للجانب السلطاني ، ثلاثمائة ألف قدح ويزيد ويشتمل سورها وما وراءه من الأرجاء الطاحنة بالماء ، على ما ينيف على مائة وثلاثين رحي (٥٥) .

ولعل السبب في اختفاء هذه الوثائق ، هو الظروف الخاصة التي عاشتها الأندلس ، وتكفى نظرة واحدة على البيانات

(٥٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

(٥٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ .

(٥٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

Villanueva, Mo. : **Habices de las mezquitas de la ciudad de Granada y sus Alquilerias**. Madrid, — 1961.

Y véase también su obra : **Casas, mezquitas y Teindas de los Habices de las Iglesias de Granada**. Madrid, 1966.

الوافرة التي بقيت لنا عن مملكة غرناطة ، وهى الفترة الأخيرة والواضحة أيضا لتعطى فكرة واضحة جدا عن الأحباس التى خصصت للخدمات العامة وخاصة للمساجد ، ولست أجد داعيا للحديث عن الأحباس فى هذه المملكة حيث قامت الأستاذة « كارمن بيا نوييا » بدراسة واسعة واسعة مستوعبة (٥٦) .

أما عن المساجد الخاصة فلقد تولى أصحابها الانفاق عليها ثم أنها تمتعت بنصيب من دخل الأحباس .

وبالإضافة الى المنزل والمسجد ، قام بعض العلماء بالتدريس لطلبتهم خلال قيامه بأعماله الخاصة ، وربما قام الطلبة بمساعدته فى عمله خلال ذلك — قال الفقيه محمد بن عمر بن لبابة : كنت يوما عند أبى وهب عبد الأعلى فى حبابه بقرب مقبرة قريش ، وكان يعتمرها بيده فى نفر من الطلبة تسمع عليه اذ حضر غداؤه ، فيقدمه الينا لنأكل منه (٥٧) .

وهناك من الأماكن الأخرى ما ساهم فى الحركة التعليمية ، ومن هذه الأماكن الرباطات التى كانت تتخذ للبعد عن العمران وللدفاع عن الحدود ، وقد مورست خلالها حياة كاملة بكل مظاهرها ، وانتشرت الرباطات بصورة كبيرة على عهد مملكة غرناطة ، ربما بسبب تقدم حركة الاسترداد مما أدى الى زيادة الرغبة فى العزلة والزهد ، وربما بسبب انتشار المبادئ الصوفية ، ولقد اتخذ التعليم فى هذه

(56) Villanueva, Mo. : Habices de las mezquitas de la Ciudad de Granada y sus Alquerias. Ma. 1961.

وانظر ايضا كتاب المؤلف :

Villanueva, Mo : Casas, mezquitas y tiendas de las Iglesias de Granada. Ma. 1966.

(٥٧) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

Villanueva, Mo. : Rabitas Granadinas. pp. 79—86.

الأماكن صبغة معينة تميل الى الدراسات الدينية عامة ، والصوفية خاصة (٥٨) .

المنهج الدراسي

لم يكن لهذه المرحلة التعليمية منهج محدد ، يمكن أن يسير عليه الطالب ، لكنها تميزت باتاحة الفرصة أمام الدارسين لكي ينهلوا من عدد واسع من المواد التعليمية ، ودراسة كتب التراجم تبين لنا أن المواد التعليمية التي كانت معروضة أمام الطلاب لتعلمها قد اتسعت لتشمل كل مناحي الثقافة المعروفة في ذلك الوقت . وإذا كان الطفل في المرحلة التعليمية الأولى قد وجد منهجا محددا يتمثل في حفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ومعرفة شيء من اللغة العربية والشعر العربي الجاهلي ، فإنه بعد الانتهاء من هذه المرحلة لم يجد نفسه مقيدا بتعلم مواد معينة ، بقدر ما وجد أمامه الفرصة لكي يكون ثقافته ويواصل تعليمه في النواحي التي توافق ميوله وقدراته العقلية . وإذا كان الطفل في المرحلة الأولى ، قد وجد نفسه مرتبطا بالكتب يغدو اليه يوميا ملتزما بساعات الحضور والانصراف فإنه في هذه المرحلة قد تخلص من تلك القيود ، ووجد أمامه حلقات المعلمين في المساجد وفي غيرها يختار من بينها الأستاذ الذي يميل اليه والمادة التي يهواها والوقت الذي يناسبه ، ولست أقصد بذلك أن الحرية كانت مطلقة ، لا ، لأنه كان هناك أيضا من القيود الاجتماعية والأخلاقية ما يحد كثيرا من هذه الحرية ، ويعمل على عدم إساءة استعمالها ، ويمكن لنا أن نجتمع العلوم والمواد التي كانت تدرس في هذه المرحلة في المجموعات التالية :

١ — العلوم الدينية ، وتشتمل على دراسة القرآن والحديث ، وما نجم عنهما من علوم مثل التفسير ، والقراءات ، والفقه ، والكلام .. الخ .

٢ — العلوم اللسانية ، وهى العلوم المتصلة باللغة العربية مثل النحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب ، وغير ذلك •

٣ — العلوم العقلية : وتتضمن الفلسفة والهندسة والرياضيات والفلك والتنجيم والموسيقى والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ والجغرافيا ... الخ •

١ — العلوم الدينية

تركزت الدراسات الدينية فى الأندلس ، كما كانت فى بقية أنحاء العالم الاسلامى فى دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما أساس الثقافة الاسلامية عامة • والحقيقة أن الدراسات القرآنية ودراسات الحديث الشريف قد منحت العقل الاسلامى فرصة واسعة لابداع علوم جديدة متعلقة بها ، ولخلق مجالات واسعة للتفكير نفسه ، فمن الدراسات القرآنية ما هو متعلق بالقرآن نفسه ومنها ما نجم عن هذه الدراسات •

فمن الدراسات المتعلقة بالقرآن ذاته ما لخصه السيوطى المتوفى ٩١١هـ / ١٥٠٥م فى كتابه الاتقان فى علوم القرآن على النحو التالى :

- معرفة سبب النزول •
- معرفة المناسبة بين الايات •
- الفواصل •
- معرفة الوجوه والنظائر •
- علم التشابه •
- علم المبهات •
- أسرار الفواتح •
- خواتم السور •

- المكي والمدنى •
- أول ما نزل •
- على كم لغة نزل •
- كيفية انزاله •
- بيان جمعه ومن حفظه من الصحابة •
- معرفة تقسيمه •
- معرفة أسمائه •
- معرفة ما وقع فيه من غير لغة الحجاز •
- معرفة ما فيه من غير لغة العرب •
- معرفة غريبه •
- معرفة التصريف •
- معرفة الأحكام •
- معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح •
- معرفة اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص •
- معرفة توجيه القرآن •
- معرفة الوقف •
- علم رسوم الخط •
- معرفة فضائله •
- معرفة خواصه •
- هل في القرآن شيء أفضل من شيء •
- في آداب تلاوته •
- في أنه هل يجوز في التصانيف والرسائل والخطب واستعمال
بعض آيات القرآن •
- معرفة الأمثال الكامنة فيه •
- معرفة أحكامه •

- معرفة جدله •
- معرفة ناسخه من منسوخه •
- معرفة موهم المختلف •
- معرفة المحكم من المتشابه •
- في حكم الآيات المتشابهات الواردة في الصفات •
- معرفة اعجازه •
- معرفة وجوب متواتره •
- في بيان معاضدة السنة والكتاب •
- معرفة تفسيره •
- معرفة وجوه المخاطبات •
- بيان حقيقته ومجازه •
- في الكنايات والتعريض •
- في أقسام معنى الكلام •
- في ذكر ما تيسر من أساليب القرآن •
- في معرفة الأدوات •

ويعلق السيوطي على هذا بقوله : واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع الا ولو أراد الانسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره (٥٩) •

أما المواد الدراسية التي نجمت عن الدراسات القرآنية فهي كثيرة أيضا ، ولكن أهمها تركز في التفسير والقراءات والفقه • وأوجز هنا معنى كل علم من هذه العلوم ومكانته ضمن التعليم الديني في الأندلس وما ترتب عنه من العلوم الأخرى •

علم التفسير :

وجدت مدرستان من مدارس التفسير فى الاسلام ، الأولى منهما هى مدرسة التفسير بالمأثور ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير النقلى ، الذى يستمد أصوله مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكبار صحابته ، والثانية هى مدرسة التفسير بالرأى ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير العقلى أو الفلسفى ، وكانت تستمد أصولها من الفكر العقلى المتحرر ، وأصحاب هذه المدرسة جلهم من المعتزلة (٦٠) .

والمدرسة التى سادت فى الأندلس هى المدرسة الأولى مع التذكير بوجود بعض بذور المدرسة الثانية ، وأشهر مفسريها ابن عباس وهو أول من وضع تفسيراً للقرآن الكريم ، مرتباً حسب السور والآيات — والسدى المتوفى ١٢٧هـ / ٤٧٦م ، وقد اعتمد تماماً على ابن عباس — ومقاتل بن سليمان الأسدى المتوفى ١٥٠هـ / ٧٦٧م ، ثم تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، ويقع فى ثلاثين مجلداً حسب طبعة القاهرة ١٩٠٤م .

وأشهر المفسرين فى الأندلس ، بقى بن مخلد المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ، ويقول ابن حزم عنه ما يلى :

وفى تفسير القرآن كتاب أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد فهو الكتاب الذى أقطع قطعاً ، لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الاسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره (٦١) .

ويذهب ابن حزم لأبعد من هذا حيث يقرر أن قواعد ابن مخلد صارت أسساً للإسلام وأنه أصبح صاحب مذهب خاص لا يقلد فيه

(٦٠) عبد الشافى غنيم : الحضارة العربية (مجموعة محاضرات بكلية التربية عام ١٩٧٠) .

(٦١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٦٢ .

أحدا « صارت تأليف هذا الامام الفاضل قواعد الاسلام ،
لا نظير لها ، وكان متميزا لا يقلد أحدا ، وكان ذا خاصة من أحمد
ابن حنبل رضى الله عنه » (٦٢) •

وأبو محمد مكي بن أبى طالب المتوفى ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، الذى
كتب تفسيره المسمى « الهداية » وهو من عشرة أسفار ، ويعرف أيضا
باسم تفسير القرطبي (٦٣) •

ثم هناك محمد بن عطية الغرناطى (من القرن السادس الهجرى ،
الثانى عشر الميلادى) ، صاحب التفسير الكبير ، الذى ينشر حاليا
بالمغرب ، ويقول عنه ابن سعيد ما يلى :

ولأبى محمد بن عطية الغرناطى فى تفسير القرآن الكتاب الكبير
الذى اشتهر وطار فى المغرب والشرق ، وصاحبه من فضلاء المائة
السادسة (٦٤) •

علم القراءات القرآنية :

لقد وجه اهتمام الأندلسيين الأكبر فى مجال الدراسات الدينية الى
حفظ القرآن الكريم وقراءاته ، ولقد كان من العادة أن يعين
الأمرء فى المساجد بعض القراء لكى يقوموا بقراءة القرآن فيها ،
ومن يقرأ لهم القرآن فى منازلهم ، وخاصة فى شهر رمضان •
والموحدون قد أخذوا الناس بقراءة حزب من القرآن يوميا ،
بعد صلاة الصبح ، كما أنه أكد على العوام ومن فى الديار بحفظ
أم القرآن وما تيسر منه ، وألزم نوابه أن يقدموا علماء أمناء من
قبلهم ليعلموا الناس ما ذكر (٦٥) •

(٦٢) انظر نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٥٢ — ١٧٧ وكذلك :

l'Espagne musulmane. pp. 53—103.

Pellat, Ch. Ibn Hazm bibliographe et apologiste de

(٦٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ •

(٦٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ •

(٦٥) النبوة : العلم والآداب ، ص ٢٧ ، ٢٨ •

وعلم القراءات من أهم العلوم القرآنية على الإطلاق ، ويرى بعض العلماء أنه فرع من فروع علم التفسير ، بل هو الأساس لذلك العلم لأن التفسير لا يتم الا بصحة القراءة ، كما أن التفسير يتأثر بأسلوب النطق ، وطريقة الرسم ، أى طريقة الكتابة ، وعلى هذا يكون علم القراءات هو المرحلة الأولى ، أو المدخل الصحيح لعلم التفسير ، ولذلك كان اهتمام الأندلسيين بهذا العلم كبيرا لدرجة أنه لم تخل مدينة أو بلدة أو مسجد من مقرئ يقوم بالقراءة الصحيحة للقرآن . ويقول ابن خلدون عن ذلك العلم ما يلي :

« القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الأمة ، الا أن الصحابة روه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها ، وتنوّل ذلك واشتهر ، الى أن استقرت منها سبع طرق معينة ، تواتر نقلها أيضا بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من النجم الغفير ، فصارت القراءات السبع أصولا للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع ، الا أنها عند أئمة القراءة ، لا تقوى قوتها في النقل » (٦٦) .

ولا يتسع المجال هنا لخصر قراء الأندلس على مدى القرون الطويلة ، ولكن تكفى الإشارة الى أن كتاب « معرفة القراء الكبار » ، الذى تناول أكبر طبقات القراء في العالم الاسلامى قد ضم من الأندلسيين ١٢٧ قارئاً مشهوراً ، وأشار فقط الى بعض المقرئين في مدن الأندلس المختلفة ، فمن قراء قرطبة مثلاً :

عبد الله بن محمد القضاعى الأندلسى ، نزيل بجاية ثم نزيل مالقة ثم نزيل قرطبة ، قدمها باستقدام الحكم المستنصر أمير المؤمنين بالأندلس ، في حدود خمسين وثلاثمائة (٩٦١م) — قال أبو عمر

الداني ، فأقرأ الناس بها بحرف ورش ، وكان ينحو في قراءته ،
نحو مذهب القرويين والمصريين ، وتوفي عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م (٦٧) .

محمد بن يوسف بن محمد أبو عبد الله الأموي ، كان من أهل
الضبط والافتقان ، والمعرفة بما يقري ، عن نصيب وافر من العربية
وعلم الفرائض والحساب .

أقرأ الناس بقرطبة في مسجده بعد سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، ثم
نزع في الفتنة ، وسكن النضر ، وأقرأ الناس به دهرا ، ثم رد إلى
قرطبة ، وبها توفي في عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م (٦٨) .

علي بن عبيد الله بن فرج الطليطلي المتوفى ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ،
أقرأ الناس دهرا ، وكان ثقة عارفا بالفن ، صالحا واعظا ، قدم
قرطبة ، وتصدر بجامعها للاقراء ، فأقرأ الناس نحو شهرين ،
ثم توفي (٦٩) .

محمد بن خير بن عمر الأشبيلي المتوفى ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، كان
مكثرا للغاية ، تصدر بأشبيلية للاقراء والتسميع ، وكان قائما على
الصناعتين مبرزا فيهما ، نحويا لغويا ثقة (٧٠) .

يوسف بن عبد الرحمن أبو الحجاج الأشبيلي المقرئ ، توفي في
حدود ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، تصدر للاقراء بأشبيلية وانفرد بعلم
الاسناد (٧١) .

محمد بن خلف بن عبد الله بن صاف الأشبيلي المتوفى ٥٨٥ هـ /
١١٨٩ م ، أحد الحذاق ، وأقرأ الناس نحو من خمسين سنة (٧٢) .

(٦٧) الذهبي : معرفة القراء ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٦٨) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣١١ .

(٦٩) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٧٠) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٧١) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .

(٧٢) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٤٢ .

عبد الملك بن مسلمة الأموي الدمشقي ، المتوفى عام ٥٤٠ هـ /
١١٤٥ م ، أحد الحذاق ، وتصدر زمانا ببلنسية للاقراء والنحو (٧٣) .

محمد بن أيوب بن محمد بن وهب البلنسي المتوفى ٦٠٨ هـ /
١٢١١ م ، لم يكن له في زمانه بشرق الأندلس نظير ، كان من الراسخين
في العلم ، وصدر في المشاورين من الفقهاء ، قد برع في علم القراءات
والعربية والفقه والفتيا ... الخ .

أقرأ القراءات ، ودرس الفقه ، وعلم النحو ، ورحل الطلبة
اليه (٧٤) .

محمد بن سعيد بن محمد المراوي المرسى ، تو في عام ٦٠٦ هـ /
١٢٠٩ م ، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل ، وقال عنه
ابن الأبار : كان خيرا فاضلا ، أخذ الناس عنه كثيرا (٧٥) .

محمد بن ابراهيم بن الياس المعروف بابن شعيب اللخمي ، تصدر
بجامع المرية لاقراء القرآن والعربية والآداب (٧٦) .

على بن عبد الرحمن بن أحمد الشاطبي المقرئ المتوفى ٤٩٦ هـ /
١١٠٢ م ، أقرأ الناس دهرا ، وكان ثقة فيما رواه وتوفى بشاطبة (٧٧) .

محمد بن عبد الرحمن بن عبادة الجياني المتوفى عام ٥٦٤ هـ /
١١٦٨ م ، أقرأ الناس بحيان وشاطبة ، قال ابن الأبار : كان مقريا
ماهرا (٧٨) .

محمد بن عبد الله بن مالك الطائي ، من أهل جيان ، وتوفى
عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، أقرأ القراءات والنحو بحيان وغرناطة (٧٩) .

(٧٣) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٢٧ .

(٧٤) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٤ .

(٧٥) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٣ .

(٧٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٥٩ .

(٧٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٧٨) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٢٦ .

(٧٩) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٢٦ .

محمد بن علي بن عبد الرحمن الأندلسي البياسي ، المتوفى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ولي قضاء بياسة وخطابتها ، وتصدر للاقراء والتحديث وكان حاذقا بالصناعة مجودا ماهرا (٨٠) .

كما تصدر للاقراء بمالقة أحمد بن محمد بن عبد الله بن العباس ، المتوفى عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م (٨١) .

أحمد بن علي بن أحمد بن زرقون المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، تصدر للاقراء بالجزيرة الخضراء (٨٢) .

ولقد ازدهرت القراءات كثيرا في شرق الأندلس على أيام ملوك الطوائف ، ويحدثنا ابن خلدون عن ذلك قائلا :

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها ، الى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصارت صناعة مخصوصة وعلما مفردا ، وتناقله الناس بالشرق والأندلس ، جيلا بعد جيل ، الى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين ، وكان معتنيا بهذا الفن من فنون القرآن ، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر ، واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته ، فكان سهمه في ذلك وافرا ، واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها ، وبما كان له من العناية بسائر العلوم وبالقراءات خصوصا ، فظهر لعهد أبو عمرو الداني وبلغ العناية فيها ، وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها ، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له . ثم ظهر من بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال ، أبو القاسم بن غيرة من أهل شاطبة ، فعمد الى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف

(٨٠) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٦٧ .

(٨١) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٤٤ .

(٨٢) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٠٩ .

(أ ب ج د) ، ترتبها أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها ، فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس (٨٣) .

ولقد كان من الواجب أن يتمتع المقرئ بصفات خلقية عالية ، ومستوى علمي مرتفع ، حتى يثق به الناس وينصتوا اليه ، ولقد حفلت كتب التراجم بالثناء على المقرئين في الأندلس ، ورفعت بعضهم الى مراكز الصدارة والمشيخة فيقال مثلا عن أبي عمر الطلمنكي المتوفى ٥٣٦٢هـ / ٩٧٢م ، انه كان رأسا في علم القرآن ، قراءاته وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه ... الخ (٨٤) .

أما عن سليمان أبي القاسم المقرئ ، المتوفى ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م ، فقد كان من جلة المقرئين وفضلائهم وأخبارهم ، عالما بالقراءات وطرقها حسن الضبط ثقة دينا (٨٥) .

على بن خلف بن ذى النون الأشبيلي ثم القرطبي ، شيخ القراء بقرطبة ، توفي ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، كان من جلة المقرئين وعلمائهم ، ثقة شهر بالخير والزهد والتقل والصلاح (٨٦) .

خلف بن ابراهيم بن خلف بن سعيد القرطبي المتوفى ٥١١ هـ / ١١٧ م ، كان مدار الاقراء عليه بقرطبة ، وكان ثقة صدوقا ، بليغ الموعظة فصيح اللسان ، حسن البيان ، جميل المنظر والملبس (٨٧) .

(٨٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٤ ، ٩٩٥ .

(٨٤) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٠٩ .

(٨٥) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٨٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٨٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٧ .

الحسين بن محمد الحسين بن علي بن غريب الطرطوشي المتوفى
٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م — كان رأسا في الاقراء ذا حلقة عظيمة ،
وذا صلاح وتلطف ولين (٨٨) .

الحسين بن يوسف بن أحمد بن يوسف المتوفى ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ،
انتهت اليه أستاذية الاقراء ، لانتقائه وتحقيقه ، وتجويده ،
وعلو أستاذه وتفنيته ، وذكائه وكان ضريرا (٨٩) .

ولكى نتبين الحساسية التي كان يعامل بها الأندلسيون أستاذة
الاقراء ، وعدم تساهلهم معهم حين يجول في صدورهم بعض الشك
نحوهم ، نرى ما يقوله ابن الأبار ، عن محمد بن أحمد بن مسعود
الشاطبي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م ، بأنه لم يأخذ عنه لتسمحه
في الاقراء ، والاسماع ، سمح الله له . ويضيف ابن الأبار ، قائلا :
رأيت ما يدل على ذلك بخطه ، أن بعض القراء قرأ عليه في ليلة واحدة
ختمه برواية نافع (٩٠) .

ويقول ابن بشكوال عن محمد بن المفرج بن ابراهيم البطليوسى
المتوفى ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م ، انه كان يكذب فيما ذكره (حين دون أستاذته) ،
وقد وقف على ذلك كله أصحابنا ، وأنكروا ما ذكروا .
ويضيف أنه وقعت له بعض القراءات عن طريق هذا لكن
باسناد واه (٩١) .

وعن منصور بن الخير أبو علي المالقي المثوفى ٢٥٦ هـ / ١١٣٢ م ،
يقول ابن بشكوال ، سمعت بعض شيوخنا يضعفه ، وتوفى بمالقة
وقرأ عليه خلق (٩٢) .

(٨٨) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٤٢ .

(٨٩) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٧٨ .

(٩٠) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٤٨٨ . نقلا عن ابن الأبار .

(٩١) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .

(٩٢) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

ولقد ألف الأندلسيون في هذا العلم كثيرا ، وأشير الى بعض مؤلفيهم للدلالة فقط :

العاص بن خلف بن محمد الأشبيلي ، المتوفى ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ،
صنف كتاب التذكرة في القراءات السبع وكتاب التهذيب (٩٣) .

أحمد بن محمد بن سعيد بن حرب ، توفي في حدود ٥٤٠ هـ /
١١٤٥ م ، صنف كتاب التقريب في القراءات السبع ، وتصدر للقراء
بأشبيلية (٩٤) .

محمد بن محمد بن عبد الله بن معاذ الأشبيلي ، المتوفى عام
٥٥٣ هـ / ١١٣٨ م ، كان اماما في صناعة الاقراء ، مشاركاً في العربية
له كتاب في القراءات سماه كتاب « الايماء » (٩٥) .

أحمد بن محمد القيسي القرطبي ، تصدر للقراء والعربية ،
واختصر كتاب التبصرة لمكي في القراءات ، وتوفى سنة
٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م (٩٦) .

وأخيتهم بالعالم الأندلسي الكبير ، محمد بن يوسف بن علي بن حيان
أثير الدين أبو حيان الأندلسي الجياني الغرناطي المتوفى بالقاهرة
٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ، الذي كانت له اليد الطولى في الفقه والآثار
والقراءات واللغات ، وله مصنفات في القراءات والنحو ، وهو مفخرة
أهل مصرنا في وقتنا في العلم (٩٧) .

لقد نبغ الأندلسيون كثيرا في هذا العلم ، حتى أننا نجد أسماءهم
تلمع في كثير من مناطق العالم الاسلامي ، ومن ضمنها مدنه الزاهرة
مثل بغداد أو القاهرة فيقال عن اليسع بن عيسى بن حزم أبو يحيى

(٩٣) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٩٤) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٩٧ .

(٩٥) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٢٥ .

(٩٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٥١٣ .

(٩٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٥١٣ .

الخافقى الأندلسى الجيانى ، المتوفى ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، بأنه رحل
فسكن الاسكندرية ، وأقرأ بها ثم رحل الى مصر ، فاشتمل عليه
الملك الناصر صلاح الدين ، ورتب له معلوما وافرا . وكان صلاح الدين
يكرمه ، ويشفعه فى مطالب الناس ، لأنه كان أول من خطب على منابر
العبيدية عند نقل الدعوة العباسية ، تجاسر على ذلك حين تهيئه
سواه (٩٨) . وفى ذلك الخبر أهمية كبرى ، لظهاره حرص الأندلسيين
على السنة ، وسعيهم الى نشرها ، ومقاومتهم للأفكار الشيعية .

القاسم بن فيرة بن خلف الشاطبى الضير ، المتوفى ٥٩٠ هـ /
١١٩٣ م ، استوطن مصر واشتهر اسمه ، وبعد صيته ، وقصده الطلبة
من كل النواحي ، وكان اماما علامة ، ذكيا كثير الفنون منقطع
القرين ، رأسا فى القراءات ، حافظا للحديث ، بصيرا بالعربية .

تصدر للاقراء بمصر ، فعظم شأنه ، وبعد صيته ، وانتهت اليه
الرياسة فى الاقراء ، وتصدر للاقراء بالمدرسة الفاضلية (٩٩) .

القاسم بن أحمد بن الموفق المرسى المتوفى ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ،
فلقد أقرأ بالتربة العادلية بالقاهرة (١٠٠) .

على بن أحمد بن جبير القرطبى المتوفى ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م ،
أقام تسعة أشهر يقرى ببيت المقدس (١٠١) .

عتبة بن عبد الملك بن عاصم الأندلسى ، نزيل بغداد ، توفى
٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، كان موصوفا بالدين والصلاح ، ومعرفة
القراءات ، عالى الاسناد ، عديم النظر (١٠٢) .

-
- (٩٨) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٣٧ .
(٩٩) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
(١٠٠) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٥١٦ .
(١٠١) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٣٨ .
(١٠٢) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٢٩ .

الحسين بن عبد العزيز البلنسى ، المتوفى ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ،
كان يكتب المصاحف ، سكن تونس وأقرأ القراءات (١٠٣) .

ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الأندلسى الأشبلى المتوفى
عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، كان اماما مجودا فى معرفة وجوه القراءات
وعلاها ، كثير الترحال والتنقل ، أقرأ بالموصل والشام (١٠٤) .

ولعله تجدر الإشارة الى ما يقال عن المقرئ البلنسى على
ابن محمد بن على بن هذيل المتوفى ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ، من أنه كانت
له ضيعة يخرج لتفقدما فتصحبه الطلبة ، فمن قارئ ومن سامع ،
وهو منشرح لذلك ، طويل الاحتمال على غرط ملازمتهم له ليلا ونهارا ،
انتهت له رئاسة الاقراء عامة عمره ، لعلو روايته وامامته فى التجويد
والاقتان (١٠٥) .

الفقه :

يتحدث ابن خلدون عن علم الفقه قائلا : الفقه معرفة أحكام
الله تعالى فى أفعال المكلفين ، بالوجوب والحظر والندب ، والكراهة
والإباحة ، وهى متلقاه من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة
من الأدلة ، فإذا استخرج الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ،
وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ،
ولابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص وهى بلغة
العرب ، وفى اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم
معروف ، وأيضا السنة مختلفة الطرق فى الثبوت وتتعارض فى الأكثر
أحكامها ، فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضا ، والأدلة من غير
النصوص مختلف فيها . وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفى بها
النصوص ، وما كان منها غير ظاهر فى النصوص فيحمل على منصوص

(١٠٣) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٩٥ .

(١٠٤) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٥٢٢ .

(١٠٥) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤١٧ .

• لمشابهة بينهما ، وهذه كلها ماثرات للخلاف ضرورية الوقوع ، ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم •

ثم أن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه ، وسائر دلالاته ، بما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منه من عليتهم ، وكانوا يسمون لذلك القراء أى الذين يقرءون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم ، لغرابته يومئذ ، وبقي الأمر كذلك صدر الملة •

ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلم ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء ، وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز ، وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه ، فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه ، فلذلك قيل أهل الرأى ، ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة ، وأما أهل الحجاز ، فرأسهم مالك بن أنس والشافعى من بعده (١٠٦) •

ويرجع المستشرق الأسباني أنخيل غونثالث بالنسيا ظهور الفقه الى اتساع الاسلام وانتشاره من أسبانيا الى سمرقند واحتياج المسلمين الى معالجة قضايا شعوب ذات أصول متباينة ، وظهور قضايا لم يتعرض لها القرآن ولم ترد في السنة ، ومن هنا كان لجوء المسلمين الى الرأى والى القياس والى الاجماع ، قائلا ان أول المذاهب الفقهية ولد مع أبى حنيفة المتوفى عام ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ويصفه بأنه كان تحريرا فلسفيا وأنه أخضع نصوص القرآن للمنطق والحدس

العقلى مائلا الى الاستحسان (١٠٧) .

ثم جاءت مدرسة مالك بن أنس المتوفى ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ، وهى مدرسة جمعت بين التقليد عند الأوزاعى المتوفى ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م ، وحرية الرأى ، عند أبى حنيفة معطيا الأهمية الأولى للقرآن والحديث (١٠٨) .

ثم ظهرت الشافعية التى توفى مؤسسها ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، ثم بعدها مدرسة أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م (١٠٩) .

وحيث أنه ليس من غرضنا التأريخ للمذاهب الفقهية ، فلننتقل الى الأندلس التى ساد فيها المذهب المالكى ، وسبق لنا الإشارة الى انتشار هذا المذهب فى الأندلس عند حديثنا عن عصر الأمير هشام فى فصل « الدولة والتعليم » (١١٠) .

عكف الأندلسيون على دراسة المذهب المالكى ، وانتشرت بينهم كتبه ومؤلفاته وخاصة موطأ مالك الذى أدخله الغازى بن قيس المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٤ م (١١١) ، فيقال مثلا عن عبد الملك بن حبيب المتوفى ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، أنه كان يخرج من الجامع ، وخلفه نحو من ثلاثمائة ، بين طالب حديث وفرائض وفقه وأعراب ، وقد رتب الدول عليه كل يوم ٣٠ دولة ، لا يقرأ عليه فيها شيئا الا كتبه وموطأ مالك (١١٢) .

(107) Gonzàlez Palencia : Ha de la literatura, p. 271.

(108) Gonzàlez Palencia : op. cit., p. 271.

(١٠٩) سعيد غراب : المذهب المالكى عنصر ائتلاف فى المغرب الاسلامى ، ص ٢٣٧ .

(١١٠) راجع فى انتشار المذهب المالكى فى الأندلس المصادر التى أوردتها عند تناولى لهذا الموضوع .

وانظر : الملاحظات القيمة التى أوردها الأستاذ سعد غراب فى مقالته عن المذهب المالكى عنصر ائتلاف ، ص ٢٤٥ — ٢٤٩ .

(١١١) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

السيوطى : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(١١٢) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ .

وَألف الأندلسيون كتباً كثيرة جداً في الفقه المالكي أهمها الواضحة لابن حبيب ، ثم المستخرجة أو العتبية ، للعتبي المتوفى ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ، ومن المستحيل حصر المؤلفات الأندلسية في هذا المجال أو حصر أشهر علماء الأندلس المالكيين (١١٣) .

ومن دلائل اهتمام الأندلسيين بالفقه المالكي ، أنهم كانوا أحرص عليه من علماء أى اقليم اسلامى آخر ، ويمكن لنا أن نتبين ذلك اذا وضعنا فى الاعتبار تلك الترجمة الصغيرة التى أوردتها الغبريني فى دراسته لمدونة سحنون ، فنجد أن سلسلة الرواية من سحنون الى الغبريني تمر عبر ثمانية أساتذة كلهم ، ما عدا الأخير ، من الأندلسيين وهم كالتالى :

١ — عبد السلام بن سعيد التنوخى (سحنون)

١٦٠ — ٢٤٠ هـ / ٧٧٦ — ٨٥٤ م .

٢ — محمد بن وضاح

١٩٩ — ٢٨٦ هـ / ٨١٥ — ٨٩٩ م .

٣ — محمد بن عبد الله بن أبى دليم

توفى ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م .

٤ — عبد الوارث بن سفيان

٣١٧ — ٣٩٥ هـ / ٩٢٩ — ١٠٠٤ م .

٥ — أبو عمر أحمد بن محمد بن الحذاء

٣٨٠ — ٤٦٧ هـ / ٩٩٠ — ١٠٧٤ م .

٦ — يونس بن الصفار

٤٤٧ — ٥٣٢ هـ / ١٠٥٥ — ١١٣٧ م .

- ٧ — محمد بن عبيد الله الحجرى
٥٠١ — ٥٩١ هـ / ١١١١ — ١١٩٥ م .
- ٨ — أبو بكر محمد بن محرز
٥٦٩ — ٦٥٥ هـ / ١١٧٣ — ١٢٥٥ م .
- ٩ — عبد العزيز بن عمر القيسى (أفريقى)
٦٠٢ — ٦٨٦ هـ / ١٢٠٥ — ١٢٨٧ م .
- ١٠ — أبو العباسى الغيرينى (أفريقى)
٦٤٤ — ٧١٤ هـ / ١٢٦٦ — ١٣١٥ م (١١٤) .

ولقد اعتمد الأندلسيون فى أول الأمر على دراسة المصادر الرئيسية فى الفقه ، وخاصة موطأ مالك ، ومدونة سحنون ، والواضحة لابن حبيب ، والعنينة للعتبى . . . الخ ، ولقد سبق لى أن أشرت الى أنه فى صلاة الجمعة كان يأتى الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ثلاثمائة فقيه مقلص من قرى قرطبة لأداء صلاة الجمعة ولم يكن يلبس القالص من الفقهاء الا من كان يحفظ موطأ مالك (١١٥) ، ثم بعد ذلك انتقلوا الى الشروح والمختصرات ، وانخفض بذلك مستواهم العلمى ، ولعل ذلك هو السبب ، فى أن الطرطوشى (٤٥١ — ٥٢٥ هـ / ١٠٥٩ — ١١٣٠) اتهمهم بالجهل حين طلب منه تلميذه أبو بكر ابن العربى أن يرحل الى الأندلس ، فأجابه لا أحب أن أدخل بلدا غلب عليه كثرة الجهل ، وقلة العقل (١١٦) . ولقد أورد لنا المقرئ نصا ، يصف فيه هذه الحالة ، على النحو التالى :

(١١٤) أعد هذا التسلسل الأستاذ الدكتور خوسيه ماري فورنياس ، الأستاذ بجامعة غرناطة ، ضمن بحث لم ينشر بعد عن انتشار المدونة فى الأندلس ، وألقى البحث فى الملتقى الأسباني التونسى الرابع الذى عقد بجزيرة ميورقة فى المدة من ٣٠ أكتوبر الى ٦ نوفمبر ١٩٧٩ م . وانظر الغيرينى : عنوان الدراية ، ص ٣٧٥ .

(١١٥) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٥٨ (طبعة احسان عباس) .

(١١٦) الطالبى : آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ، ص ٥٨ .

فلقد تركوا كتب البراذعى على نبلها ، ولم يستعمل منها على كره من كثير منهم غير « التهذيب » الذى هو المدونة اليوم لشهرة مسائله وموافقته فى أكثر ما خلف فيه المدونة لأبى محمد (سحنون) ، ثم كل أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات ، وشق الشروح والأصول الكبار ، فاقترضوا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه وأفنو أعمارهم ، فى فهم رموزه ، وحل لغوزه (١١٧) .

وظلت دراسات المذهب المالكى فى الأندلس حتى نهاية الدولة الإسلامية ، وبرز خلال هذه الفترة عدد جم من كبار الفقهاء والعلمين ، ويقول ابن الخطيب ضمن حديثه عن مملكة غرناطة ، ان « مذاهبهم على مذهب مالك بن أنس ، امام دار الهجرة ، جارية » (١١٨) .

ويقول المقرئ عن أهل الأندلس ، انهم « لا مذهب لهم الا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحضر من ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنوييهه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (١١٩) .

ولقد شهدت أسبانيا الإسلامية المذاهب الفقهية الأخرى بكافة مدارسها ، ولقد كانت قبل انتشار المالكية (١٢٠) ، مقرا لمذهب الأوزاعى . وعاصر الفكر المالكى الشافعى أيضا ، ولقد ظهر هذا الفكر فى الأندلس مبكرا جدا ، ثم انها ازدهرت بها أحيانا دراسات المذهب الظاهرى الذى كان من أبرز رجاله فى الأندلس القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة على عهد عبد الرحمن الناصر ،

(١١٧) المقرئ : النفع ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ (تحقيق احسان عباس) .

(١١٨) ابن الخطيب : الاطاعة ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

(١١٩) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(120) González Palencia : Ha. de la literatura, A.E., 6,7.

وابن حزم الظاهري على عهد ملوك الطوائف ، أما الفكر الشيعي فقد وجد له منفذا أيضا على الأرض الأسبانية ، وأشير في هذا المجال الى دراسة الدكتور محمود على مكى (١٢١) ، حيث أنه ليس من هدفنا هنا ، التأريخ للمذاهب التشريعية أو الفقهية في الأندلس .

علم الحديث :

يعتبر علم الحديث المصدر الثانى من مصادر التشريع الاسلامى وهو الى جانب ذلك يعتبر أحد أعمدة الحياة الفكرية الاسلامية ، وأحد مناهل الثقافة الاسلامية عامة ، فلقد أدى الاهتمام بعلم الحديث الى تعدد أساتذته ومدارسه في مختلف مراكز الحياة الفكرية في العراق ، كالكوكة والبصرة ، وفي الشام كصور وأنطاكية وصيدا وبغداد ودمشق وحمص ، وفي مصر كالفسطاط والاسكندرية ، وفي أفريقية كالقيروان وتونس وفاس ، وفي الأندلس كقرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية ، وفي صقلية كبالرموا وسراقوسة وغير ذلك من منارات الحياة الفكرية العربية .

والحديث هو كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قول أو فعل أو تقرير شيء رآه ، وهو يأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم ، وذلك أن كثيرا من الآيات القرآنية جاءت مجملة أو مطلقة أو عامة ، فجاء قول الرسول أو عمله فبينها أو قيدها أو خصصها .

وكان الصحابة المعاشرون للنبي يسمعون منه ويشاهدون فعله ، ثم يروون ما يرون وما يسمعون ، ثم جاء التابعون من بعدهم فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ونقلوا عنهم كل هذا . ومن هذا كله نشأ علم الحديث . ويرى أستاذى الدكتور عبد الشافي غنيم ، أنه اذا كان القرآن الكريم قد نجا من كل ادخال أو تغيير ، الا أن

الحديث كان على العكس من ذلك حيث تعرض لكثير من عوامل الصناعة والخلق والاضافة مما جعل عملية التعرف على الصحيح من المدسوس عملا لا يطيقه الا الراسخون في العلم ، المتصلعون في النقد ، العارفون بتاريخ السير والأحداث والقدرة على تقييم المحدثين من النساء والرجال ، ويرجع السبب في تعرض الحديث للكثير من الادخال والزيف الى العوامل التالية :

١ — تأخر تدوين الحديث ، حيث أنه لم يدون الا في القرن الثاني من الهجرة •

٢ — الخصومات السياسية التي نشأت في الدولة الاسلامية ومحاوله كل طرف الحصول على نص من الحديث يؤيد موقفه •

٣ — الاسرائيليات ، ولقد لعب اليهود دورا بارزا في هذا المجال وذلك لتحقيق أغراضهم الخاصة •

٤ — الخلافات الكلامية والفقهية •

٥ — محاولات استرضاء أولى الأمر (١٢٢) •

ويرى صاحب كتاب « خلاصة تهذيب تهذيب الكمال » أنه في أواخر عصر التابعين ، حين انتشر العلماء في الأمصار ، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ، دونت الأحاديث ممزوجة بأقوال الصحابة والتابعين (١٢٣) •

ونتيجة لذلك كله فان العلوم المتشعبة عن الحديث كانت أيضا كثيرة جدا • وأستخلص مما كتبه ابن خلدون عن هذه العلوم ، الدراسات التالية :

(١٢٢) عبد الشافي غنيم : محاضرات في الحضارة العربية (الحديث) •

- الناسخ والمنسوخ ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها (١٢٤) .
 - النظر في الأسانيد
 - معرفة شروط السند
 - معرفة رواية الحديث
- مراتب الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك
- الألفاظ ، الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع
- والشاذ والغريب
- الخلافت بين أئمة الشأن
- الوفاق بين أئمة الشأن ، وغير ذلك من الألقاب
- كيف أخذ الرواة بعضهم عن بعض : قراءة أو كتابة أو مناولة
- أو اجازة ، وتفاوت رتبها
- أحوال النقلة ... الخ (١٢٥) .

ولقد وضع المسلمون شروطا كثيرة لمن يقومون برواية الحديث ،
أو الاشتغال بعلومه ، ووضعوا في ذلك المؤلفات الكثيرة (١٢٦) .

ومن ناحية أخرى ، فإن علم الحديث تمد وضع الأساس ، أو أنه
كان السبب الرئيسي في حركة الرحلات التي تميزت بها الحياة العلمية
في العصور الوسطى ، حيث أن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بعد ذلك
كانوا قد تشتتوا في الأمصار ، كل منهم يحمل في صدره ما قد وعاه
عن قبله ، وحين اتجهت جهود المسلمين لتدوين الحديث ، كان من

(١٢٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ .
(١٢٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ — ١٠١١ .
(١٢٦) اليعقوبي : الإلماع في معرفة الرواية وتقييد السماع .
البغدادى : الكفاية في علم الرواية .
ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة .
الزمخشري : الفائق في غريب الحديث .
ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .
صحيح الصالح : علوم الحديث ومصطلحه .

الضرورىّ التنقل من مكان الى آخر للقاء هؤلاء الذين يحفظون الأحاديث ويقومون بتدوينها عنهم •

ويرى الدكتور صبحى الصالح أن هذه الرحلات قد وثقت الأواصر بين بلدان العالم الاسلامى ، وأن ذلك أمر واضح تفرضه طبائع الأشياء ، وما كانت النتيجة لتتم على غير هذه الصورة ، لأن طواف الكثير منهم بالأقاليم ربط بين المشرق والمغرب ، وألغى السدود والحدود ، وجعل هذا العالم الاسلامى أشبه بالمدينة الواحدة (١٢٧) •

بذل المسلمون جهودا جبارة فى سنيل تدوين الحديث وتنقيحه وكتبوا فى ذلك مؤلفات لا تحصى ، لكن أشهر الكتب التى وضعت فى ذلك المجال هى المؤلفات الست التى تعتبر من أهم المصادر الموثوق بها فى دراسات الحديث النبوى وهى :

- ١ — صحيح البخارى ، وقام بوضعه محمد بن اسماعيل البخارى ، واشتمل كتابه على سبعة آلاف ومائتى حديث •
- ٢ — صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج القشيرى •
- ٣ — سنن أبى داود السجستانى •
- ٤ — جامع التفسير لأبى عيسى محمد الزندى •
- ٥ — تفسير النسائى •
- ٦ — سنن ابن ماجه •

وأخيرا علينا أن لا ننسى أن علم الحديث هو الذى خلق فكرة الاجازة ، وذلك لتشدهم فى عملية النقل والرواية •

هذا ولقد بدأت دراسات الحديث فى الأندلس منذ عهد مبكر جدا حيث أنهم قد عرفوا قيمة هذه المادة العلمية واعترفوا بحقها يقول ابن عبد البر القرطبى المتوفى ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م :

ان أول ما نظر فيه الطالب ، وعنى به العالم ، بعد كتاب الله عز وجل ، سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي النبئة لمراد الله عز وجل من مجملات كتابه والدالة على حدوده والمفسرة له والهادية الى الصراط المستقيم (١٢٨) •

وليس من السهل الاشارة الى أشهر المحدثين الأندلسيين ونكتفى ببعضهم فقط :

بقى بن مخلد المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ، وهو الذى ملأ الأندلس حديثاً ورواية ، ولقد ووجه بمقاومة شديدة من علماء الأندلس حيث أنكروا عليه ما أدخله الأندلس من كتب الاختلاف وغرايب الحديث ، وأغروا به السلطان ، وأخافوه به ، ثم أن الله بمنه وفضله أظهره عليهم ، وعصمه منهم ، فنشر حديثه وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ انتشر الحديث فى الأندلس • ثم تلاه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١٢٩) ، ورغم تلك الأهمية الكبرى التى لبقى بن مخلد فى دراسات الحديث وانتشاره فى الأندلس الا أن المستشرق الأسباني أنخيل غونثالث بالنسيا لم يذكره عند حديثه عن أئمة المحدثين فى الأندلس (١٣٠) • هذا ولقد وصل ببقى بن مخلد الى درجة عالية من الشهرة وسعة العلم ، حتى كان يقال فى المشرق : وهل احتاج بلد فيه ببقى بن مخلد ، أن يأتى الى هنا منه أحد ؟ وحملت تصانيفه فى الحديث الى المشرق فاعترف بفضلها وقيمتها (١٣١) •

محمد بن وضاح المتوفى ٢٨٧هـ / ٩٠٠م ، الذى رحل الى المشرق مرتين ، ولقى من العلماء ١٧٥ رجلاً ، وكان عالماً بالحديث ، بصيراً

(١٢٨) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ص ٢ .

(١٢٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٩١ — ٩٣ .

الأوسى : فصول فى الأدب الأندلسى ، ص ٤٦ .

(130) Gonzalez Palencia, A. : *Ha. de la Literatura*, p. 263

(١٣١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٩٢ .

بطرقه ، متكلماً على علله ، وبه ويبقى بن مخلد صارت الأندلس
دار حديث (١٣٢) .

قاسم بن أصبغ (٢٤٤ - ٣٤٠ هـ / ٨٦١ - ٩٥١ م (١٣٣) .
محمد بن عبد السلام الخشني (٢١٨ - ٥٢٨٦ هـ / ٨٣٣ -
١١٩٩ م) ، الذي عاد الى الأندلس بكثير من الكتب الجديدة ، كان
معظمها في علم الحديث . يقول عنه السيوطي : انه أدخل الأندلس
كثيراً من حديث الأئمة (١٣٤) .

ومن محدثي الأندلس المشهورين ابن القوطية المتوفى سنة
٥٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م (١٣٥) .

ويعد ابن عبد البر القرطبي المتوفى ٥٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م من أكبر
المحدثين في غرب الاسلام حسب شهادة ابن بشكوال وعلى الرغم من
أنه لم يرحل الى المشرق ، الا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون ضليعا في
الفقه والأنساب والأخبار (١٣٦) ، ومن أشهر مؤلفاته في هذا المجال
« الاستيعاب » و « التمهيد » (١٣٧) .

هذا ولقد أورد المستشرق الأسباني انخيل غوثالث بالنسيا لائحة
بأسماء أشهر المحدثين في الأندلس (١٣٨) .

-
- (١٣٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٥ - ١٧ .
(١٣٣) ابن ماكولا : الاكمال ، ج ١ ، ص ٤٤١ .
(١٣٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٤ .
السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
الأوسى : فصول الأدب الأندلسي ، ص ٤٦ .
(١٣٥) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٦ .
González, P. A. : Historia de la Literatura, 263.

(136) Gonzalez, P., A. : op. cit., p. 264.

- (١٣٧) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .
ابن عبد البر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد .
(138) Gonzalez Palencia, A. : Ha da la literatura, 263 , 264.

وترجمة حسين مؤنس ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

علم الكلام :

يحدد ابن خلدون هذا العلم فيقول : انه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنة (١٣٩) ، أما كيف وجد هذا العلم وكيف خلق فيقول :

اعلم أن الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها اليه ، وأفرده به كما قدمناه ، وعرفنا أن في هذا الايمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا ، ولم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود ، اذ ذاك متعذر على ادراكنا ، ومن فوق طورنا ، فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين ، والا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ، ثم تنزيهه عن صفات النقص والا شابه المخلوقين ثم توحيدہ بالايجاد والا لم يتم الخلق للتمانع ، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الايجاد والخلق ، والا لم يتخصص شئ من المخلوقات ، ومقدر لكل كائن والا فالارادة حادثة ، وأنه يعيدنا بعد الموت ، تكميلا لعنايته بالايجاد الأول ، ولو كان للفناء الصرف كان عبثا ، فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ، ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة ، وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الايتاء بذلك ، وبيان الطريقين ، وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب •

هذه أمهات العقائد الايمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة ، وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد اليها العلماء ، وحققها الأئمة •

الا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر ماثرا من الآي المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل

زيادة الى النقل فحدث بذلك علم الكلام (١٤٠) •

وفي القرون الأولى من الاسلام ، قام السلف بقراءة آيات القرآن ، وآمنوا بها كما هي ، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث أو تأويل ولكن عندما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء ، حدثت بدعة المعتزلة ، وقالوا بخلق القرآن ، وناظروا في كل شيء ، وخالفوا الأوائل ، وساندتهم بعض الخلفاء العباسيين في المشرق ، وحدثت فتن كثيرة ، كما سالت دماء غزيرة في هذا المجال •

وتولى الأشعرية الرد على المعتزلة حتى تمكنوا من القضاء عليهم تماما •

في أسبانيا الاسلامية ، تسربت آراء المعتزلة ، وظهر ابن مسرة القرطبي الذي ترك مدرسة كاملة (١٤١) • وقد سبق لى الحديث عن موقف الدولة من هذه الأفكار ، في الفصول السابقة ، وأود أن أؤكد هنا أن الدراسات الكلامية لم تنتشر في الأندلس انتشار غيرها من العلوم ، وأورد هنا هذه القصة التي تعبر تعبيراً صادقاً عن موقف أهل الأندلس ، من علم الكلام :

أحمد بن محمد بن سعدى أبو عمر ، فقيه فاضل محدث رحل قبل الأربعمائة بمدة فلقى أبا محمد بن أبي زيد القيرواني وأبا بكر محمد بن عبد الله الأبهري بالعراق وغيرهما ، ورجع الى الأندلس وحدث • قال عبد الله بن الوليد : سمعت أبا محمد عبد الله ابن أبي زيد يسأل أبا عمر أحمد بن محمد بن سعدى المالكي عند وصوله الى القيروان من ديار المشرق — وكان أبو عمر دخل بغداد

(١٤٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ،

والترجمة ، ص ٨٤١ ، ٨٤٢ •

(141) Asin Palacios, : Ibn Masarra y su Escuela.

في حياة أبي بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري ، فقال له يوما : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ فقال بلى ، حضرتهم مرتين ثم تركت مجالستهم ولم أعد إليها فقال له أبو محمد : ولم ؟ قال : أما أول مجلس حضرته فرأيتهم مجلسا قد جمع الفرق كلها المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من المجوس والذهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر أجناس الكفر ، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ، ويجادل عنه ، فإذا جاء رئيس من أى فرقة كان ، قامت الجماعة إليه قياما على أقدامهم حتى يجلس فيجلسون بجلوسه ، فإذا تمضى المجلس بأهله ، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه ، قال قائل من الكفار : قد اجتمعتم للمناظرة ، فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم ولا بقول نبيهم فانما لا نصدق ذلك ولا نقر به ، وانما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس ، فيقولون نعم لك ذلك •

قال أبو عمر : فلما سمعت ذلك لم أعد الى ذلك المجلس ، ثم قيل لى ثم مجلس آخر للكلام ، فذهبت اليه فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم ، سواء ، فقطعت مجالس أهل الكلام فلم أعد إليها ، فقال أبو محمد بن أبي زيد : ورضى المسلمون بهذا من القول والفعل ؟ قال أبو عمر : هذا الذى شاهدت منهم ، اجعل أبو محمد يتعجب من ذلك وقال : ذهبت العلماء ، وذهب الاسلام وحقوقه ، وكيف ينيح المسلمون المناظرة بين المسلمين وبين الكفار ، وهذا لا يجوز أن يفعل لأهل البدع الذين هم مسلمون ويقررون بالاسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وانما يدعى من كان على بدعة من منتحلي الكلام الى الرجوع الى السنة والجماعة ، فان رجع قبل منه ، وان أبى ضربه عنقه ، وأما الكفار فانما يدعون الى الاسلام ، فان قبلوا كف عنهم وان أبوا وبذلوا الجزية في موضع يجوز قبولها ، كف عنهم ، وقبل منهم • وأما أن يناظروا على ألا يحتج عليهم بكتابنا ولا بنبينا ، فهذا

أخبرني غير واحد من أشياخي ، منهم القاضي أبو القاسم
عبد الرحمن بن محمد والزاهد أبو محمد بن عبيد الله والأديب
الحافظ أبو جعفر أحمد بن أحمد الأزدي وغيرهم عن أبي موهب عن
أبي عمر بن عبد البر أنه قال :

أجمع أهل الفقه والآثار ، في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل
بدع وزين ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء ، وإنما العلماء
أهل الأثر والتفقه فيه ويتفاضلون في الاتفاق والميز والفهم .

وقال أبو عمر في كتاب « بيان العلم » (١٤٢) : له : أهل الأهواء
عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل
الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري ، ولا تقبل له شهادة
في الإسلام ويفجر ويؤدب على بدعته ، فإن تمادى عليها استتيب
منها . قال أبو عمر ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه
إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله أو صح عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أو اجتمعت عليه الأمة (١٤٣) .

وليست هذه كل العلوم الدينية التي كانت تدرس خلال هذه
الفترة وإنما هناك علوم أخرى كثيرة ، قد تكون بالنسبة للعصر الحالي
غير ملائمة مثل معجزات بعض آيات القرآن ، أو غير ذلك .

٢ — العلوم اللسانية

أقصد بالعلوم اللسانية العلوم الضرورية التي تساعد على تفهم
اللغة العربية تفهما جيدا ، والحديث بها بطريقة صحيحة ، واجادة
التعبير بها نثرا أو شعرا ، وأركان هذه العلوم أربعة : اللغة
والنحو والبيان والأدب .

(١٤٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله .

(١٤٣) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

الضبي : بقية الملتقى ، ص ١٥٥ — ١٥٧ .

Vernet, J. : La cultura hispanoarabe, pp. 16—17.

ولقد حظيت هذه المواد بعناية الأندلسيين كثيرا وخاصة الحكام والأمراء الذين ركزوا اختيارهم لمناصب الكتاب والوزارة وتولى المناصب عامة من بين البارزين في هذه العلوم .

ولعل هذا يرجع الى المجهود الذى كان من الواجب بذله لتعريب جموع سكان شبه الجزيرة ، واذا كانت مجموعة المواد الدينية قد وجدت اهتماما بغرض المحافظة على الدين ونشره ، فلا شك أن العلوم اللسانية قد حازت من النجاح فى الانتشار بين المسيحيين الأسبان ، أكثر من العلوم الدينية ، والدليل على ذلك أن المستعربين الذين حافظوا على دينهم الأصلى ، كانوا يتكلمون العربية بفصاحة وطلاقة ، ألفوا مؤلفاتهم بالعربية ، ونظموا الشعر بها ، وأصبحت هى لغة الحياة والعائلة بالنسبة لهم .

وقد يكون لذلك عوامله الأخرى المتمثلة فى تعريب الدواوين والرسائل والمعاملات التجارية ، مما أجبر السكان جميعا على اختلاف أديانهم على تعلم العربية . ولعل شكوى القديس « ألفارو » القرطبى الخاصة بأن أبناء ملته يعشقون العربية ويتكلمون بها أكثر من اللاتينية تقدم دليلا واضحا على الجهود التى بذلت خلال عهد الامارة لتعريب اللسان فى أسبانيا الاسلامية .

اللفظة :

موضوع هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية ، ويجنح الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الاندثار وما قد يترتب على ذلك من الجهل بالقرآن والحديث ، فقام كثير من أئمة اللسان ببذل جهود كثيرة فى سبيل تأليف واملاء الدواوين .

وكان سابق الحلبة فى ذلك الخليل بن أحمد ، الذى كتب كتاب « العين » ، فحصر فيه حروف المعجم كلها من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى ، وهو غاية ما ينتهى اليه التركيب فى اللسان

العربي^(١٤٤) ، ولقد دخل هذا الكتاب الى الأندلس على يد ثابت ابن عبد العزيز السرقسطي وابنه قاسم المتوفى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م^(١٤٥) .

ولقد بدأت الدراسات اللغوية في الأندلس مبكرة جدا ، وقام علماءه بالرحلة الى المشرق للدراسة واحضار الكتب الرئيسية من هناك فنجد أن عبد الرحمن بن موسى الهواري ، أول من جمع الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس ، ورحل في خلافة الامام عبد الرحمن ابن معاوية ، فلقى مالكا ونظراءه من الأئمة ، ولقى الأصمعي وأبا زيد الأنصاري ونظراءهما ، وداخل الأعراب في مجالها^(١٤٦) .

أما محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس القرطبي ، المتوفى ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، فقد أدخل الأندلس علما كثيرا من الشعر والعربية والخبر وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة^(١٤٧) .

وتطورت هذه المادة تطورا كبيرا مع قدوم علماء من المشاركة وعودة من رحل من الأندلسيين ، ولقد كان مستوى أسبانيا الاسلامية اللغوى طيبا ، عند قدوم أبي على القالى^(١٤٨) ، قام بتدريس الحديث واللغة العربية وآدابها ، وأملى كتابه المشهور « الأملى » ورفع مستوى أسبانيا الاسلامية من الناحية اللغوية الى أقصى حد ممكن ، ويحكى عن أبي على القالى أنه خلال رحلته الى الأندلس قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات في الغباوة وقلة الفهم ،

(١٤٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٥٨ ، الترجمة ،

ص ١٠١٩ .

(١٤٥) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٠٩ .

ابن فرحون : الديباج ، ص ٢٢٢ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(١٤٦) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣٤ (طبعة كوديرا) .

الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٥ .

السيوطي : البغية ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(١٤٧) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(148) Riu, Manuel : Lecciones de Ho. Medieval, p. 196.

بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، حتى كأن منازلهم على الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة ، قال أبو علي : قلت أن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم ، بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم ، فسأحتاج الى ترجمان بهذه الأوطان . قال ابن بسام : فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم (١٤٩) .

وحيثما وصل أبو علي الى الأندلس وجد بها من يستحق تقديره واحترامه مثل محمد بن القوطية ، وينقل المقرئ عن ابن خلكان أنه كان يجتمع به ، وكان يبالي في تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن : من أنبل من رأيته ببلدنا هذا في اللغة ؟ فقال : محمد بن القوطية (١٥٠) .

ويتحدث الدكتور نعمة رحيم عن المستوى اللغوي للأندلس مبينا أنها قد ازدهرت تماما وخاصة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) محددا ملامح ازدهارها كالتالي :

١ — ظهور العالم اللغوي المتخصص ، ونبوغه الى درجة يماثل بها علماء المشرق ، مثل أبي بكر بن الزبيدي ، وتلامذة القالي .

٢ — استغناء الطلاب الأندلسيين عن الرحلة الى المشرق ، لأن الأندلس أصبحت بيئة ثقافية ، ومركزا من مراكز العلم .

٣ — نشاط حركة التأليف (١٥١) .

ويعتبر أبو بكر الزبيدي قمة تطور هذا الفن في الأندلس ومن بعده ابن سيده المتوفى ٩٩٣ م (١٥٢) ، دون أن يعنى ذلك عدم

(١٤٩) ابن بسام : الذخيرة ، ج ١ ، ص ١٥ (تحقيق احسان عباس) .

(١٥٠) المقرئ : النفح ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

(١٥١) السزاوي : أبو بكر الزبيدي الأندلسي ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(١٥٢) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣٨١ .

ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٠ .

وجود قمم شامخة في هذا العلم على مدار التاريخ الأندلسي بكامله ، ولقد اعترف ابن خلدون بمكانة أهل الأندلس في صناعة العربية بالذات ، وأرجع ذلك الى نظام التعليم الأندلسي الذي كان يعطى اللغة العربية المكانة الأولى من اهتماماته ، يقول ابن خلدون عند حديثه عن الفرق بين ملكة اللسان ، وصناعة العربية : « وأهل صناعة العربية بالأندلس ، ومعلموها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها عن سواهم ، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم ، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم ، فتقطع النفس لها ، وتستعد الى تحصيلها وقبولها » (١٥٣) .

ولقد بقى فن العربية مزدهرا في الأندلس ، رغم انحطاط بعض العلوم الأخرى الى نهاية الحكم الاسلامي هناك ، ونعتمد أيضا على شهادة ابن خلدون حيث يقول : وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مؤين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والأدب ، اقتصروا عليه ، وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فأنحفظ بحفظه (١٥٤) .

النحو :

يتحدث ابن خلدون عن الأسباب التي أدت الى وضع قواعد اللغة العربية فيحددها على الشكل التالي :

اعلم أن اللغة : التعارف ، وهي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانی ، ناشئة عن القصد لا فائدة الكلام ، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان ، وهو في كل أمة يحسب اصطلاحاتهم ، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن

(١٥٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٧٨ (الترجمة

الاسبانية ، ص ١٠٤٤) .

(١٥٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٨ (الترجمة

الاسبانية ، ص ٧٧٧) .

الملكات وأوضحها ابانة عن القاصد ، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى ، مثل الحركات التى تعين الفاعل من المفعول من المجرور ، أعنى المضاف ، ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال الى الذوات ، من غير تكلف ألفاظ أخرى .

فلما جاء الاسلام ، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالقات التى كانت للمتعبين من العجم ، والسمع أبو الملكات اللسانية ففسرت بما ألقى اليها مما يغيرها لجنوحها اليه باعتياد السمع . وخشى أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا . ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة ، مطردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشياء ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والفعل منصوب ، والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميتها اعرابا وتسمية الموجب لذلك عاملا ، وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو . وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلى من بنى كنانة (١٥٥) .

وأشهر من كتب فى هذا العلم الكسائى المتوفى ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م . وسيبويه والزجاجى ٣٣٧ هـ / ٩٤٩ م .

وفى أسبانيا الاسلامية ، كان لايد من بذل جهود مضاعفة وذلك لغلبة العنصر العجمى والبربرى ضمن سكانها ، فحملت اليها كتب المشاركة فى النحو ، ويقال ان جودى بن عثمان ١٩٨ هـ / ٨١٣ م .

(١٥٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ .
والترجمة الأسبانية ، ص ١٠١٥ — ١٠١٧ .

هو أول من أدخل كتاب الكسائي (١٥٦) ، كذلك أحضرت الى الأندلس كتب سيوييه والزجاجي وغيرهما من المشارقة ، وبدأ الأندلسيون أنفسهم في التأليف في هذا الفرع من العلوم ، ويذكر الزبيدي أن لجودي بن عثمان تأليف في النحو (١٥٧) ، وتأتى بعد ذلك مؤلفات أبى على القالى في النحو ومن بعده الزبيدي (١٥٨) .

ويبدو أن الأندلسيين قد استغرقوا وقتا طويلا ، حتى أمكنهم الوصول الى نوع من الاستقرار في تدريس هذه المادة ، وأنهم كانوا يخلطون بينها وبين علم اللغة حتى عاد محمد بن يحيى الرباحي ، المتوفى ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، من المشرق ، وعلمهم الطرق المشرقية السهلة في تعليم العربية ، يقول الزبيدي :

ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم من غنى بالنحو كبير علم ، حتى ورد أبو عبد الله محمد بن يحيى الرباحي عليهم ، وذلك أن المؤدبين انما كانوا يعانون اقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون في امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا أبنية ، ولا يجيبون في شيء منها حتى نهج لهم سبيل النظر ، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في المشرق ، من استقصاء الفن بوجوهه ، واستيفائه على حدوده وأنهم بذلك استحقوا اسم الرياسة (١٥٩) .

وتطورت الدراسات النحوية في الأندلس تطورا عظيما ، ويصفهم المقرئ قائلا : والنحو عندهم في نهاية علو الطبقة ، حتى أنهم في هذا

• (١٥٦) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .

• السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

• (١٥٧) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .

(158) Gonzalez Palencia : Ho. de la Literatura A.E.,

p. 136.

• (١٥٩) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

العصر فيه كأصحاب الخليل وسيبويه لا يزداد مع قدم الزمان
الا جودة ، وهم كثيرو البحث فيه ، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ،
وكل عالم في أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو - بحيث لا تخفى
عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا بسالم من
الازدراء (١٦٠) .

وظهر من بينهم أساتذة متخصصون في تدريس النحو مثل أحمد
ابن محمد بن هاشم القيسى المتوفى ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م ، الذى مال الى
النحو فغلب عليه وأدب به (١٦١) .

ومهاب بن أدريس العدوى ، المتوفى ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، الذى كان
عالما بالفرائض والحساب والاعراب ، وكان معلما بالفنيين جميعا (١٦٢) .

ويبدو أن الأندلسيين كانوا يكتفون بتعليم أولادهم في المراحل
المتوسطة بعض كتب النحو البسيطة أو المختصرة ، بينما يتركون كتب
كبار النحاة الى مرحلة متقدمة ، فيقول ابن حزم القرطبي عند حديثه
عن ما يجب أن يدرس من النحو ، أن أقل ما يجزىء منه « كتاب
الواضح » ، للزبيدي (٣١٦ - ٣٧٩ هـ / ٩٢٨ - ٩٨٩ م) ، أو ما نحا
نحوه « كالموجز » ، لابن السرج (المتوفى ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م) ، وما أشبه
هذه الأوضاع الحقيقية وأما التعمق في علم النحو ففضول لا منفعة
بها ، بل هى مشغلة عن الأوكد (١٦٣) .

(١٦٠) المقرئ : النفح ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١٦١) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(١٦٢) ابن الفرغى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(١٦٣) ابن حزم : مراتب العلوم (ص ٥٦) ، من كتاب الفكر
التربوى عند العرب) .

Asin Palacios : Un Codice enexplorado del Cordobes

Ibn Hazm, pp. 46, 56.

Muinis H. : Clasificacion de las cieneias segun Ibn Hazm.

من ناحية أخرى فإن كتاب سيبويه كان أساسيا في علم العربية في القرنين السابع والثامن ، حيث كان الناس يتساعلون : هل يقرأ كتاب « سيبويه » فإن قيل لا ، فيقولون لا يعرف شيئا (١٦٤) •

ويقول السيوطي : ان أحمد بن إبراهيم بن الزبير المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م ، أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة ، وأنه عندما خرج من مالقة ، وترك هناك من طلبته أربعين يقرعون كتاب سيبويه (١٦٥) •

ويصف المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا دراسة علم النحو في أسبانيا الاسلامية على النحو التالي :

لقد أعطى المسلمون الأسبان أهمية كبرى لدراسات النحو ولم يقنعوا الا بدراسة المؤلفات الأساسية ، وكان العالم منهم الذي لا يتعمق في النحو حتى أعماق أعماقه ويتفهم كل شواذه وغرائبه ، لا يحظى باحترام كبير ، ومن أراد أن يسلم من المزالق والسقطات فلا بد وأن يدرس كتب المتخصصين المشاركة الضخمة ، وخاصة كتاب سيبويه الذي كان موضع الإعجاب الكبير •

والحقيقة أن الناس في الأندلس كانوا يقومون بهذه الدراسات ، بصورة تفوق كثيرا غيرهم في المناطق الاسلامية الأخرى ، ويرجع ذلك الى أنهم كانوا يبدعون تعليم أطفالهم ببعض عناصر النحو الأولية الى جانب بعض النصوص الشعرية والأدبية • ولقد كان ذلك يساعدهم على التأهيل في الدراسات التي يتلقونها في المراحل التالية ، أي أنهم كانوا يحوزون منذ بداية عمرهم التعليمي ملكة عملية في اللغة ، ولم يكن يجرى مثل هذا في المغرب أو حتى في تونس ، حيث كان تدريس هذه المادة ، ينحو الى الناحية النظرية المحضة (١٦٦) •

• (١٦٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٣٣١

• (١٦٥) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٩٢

(166) Ribera, J. : Ho. da la Ensenanza entre los M. E.

وليس معنى ذلك كله أن الأندلسيين كانوا في حياتهم العادية يتحدثون العربية الفصحى ، وإنما كانت تجرى بينهم الى جانب معرفتهم اللغة الرومانشية التي كانوا يجيدونها اعادة تامة ، حتى الخلفاء منهم (١٦٧) ، كلغة عامية . ويصف لنا المقرئ هذه الحالة فيقول: « مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبينى (عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي النحوى ، المعروف بالشلوبينى) ، المشار اليه في علم النحو في عصرنا ، الذى غربت تصانيفه وشرقت ، وهو يقرئ دروسه لضحك ملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب ، وأخذ يجرى على قوانين النحو ، استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات والرسائل (١٦٨) .

علم البيان :

يرى ابن خلدون أن « هذا العلم حادث فى الملة ، بعد علم العربية واللغة ، وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ، ويقصد بها الدلالة عليه من المعانى .

ولأن هذا العلم يقوم بالبحث عن هذه الدلالات ، التى للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف ، الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات ، والأحوال التى تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة . والصنف الثانى ، يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظى وملزومة ، وهى الاستعارة والكناية ، ويسمى علم البيان ، وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق ، اما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بابهام معنى

(١٦٧) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

هيكل : الأدب الأندلسى ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(١٦٨) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمى عندهم علم
البيديع ، وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين ، اسم
البيان (١٦٩) .

الأدب :

ازدهر الأدب في الأندلس بصورة لم يصل إليها أى نوع آخر من
العلوم ، ويقول ابن خلدون عن هذا العلم : انه « لا موضوع له ينظر في
أثبات عوارضه أو نفيها ، وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته
وهى بالاجادة فى فن النظم والمنثور على أساليب العرب
ومناحيهم » (١٧٠) .

ولقد ظل أهل الأندلس حتى عصر ابن خلدون على الأقل ، يقولون
أن « أصول علم الأدب وأركانه أربعة هى : أدب الكاتب لابن قتيبة ،
والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبى على القالى »
وان الأندلسيين كانوا يطلبون أعمال الأدباء المشرقيين وأشعارهم
بمجرد ظهورها هناك وقصة ارسال أبى الفرج الأصفهاني نسخة من
كتاب الأغاني الى الحكم المستنصر بالله بمجرد ظهوره معروفة ،
وقد نقل ابن الأشج عن المتنبي ديوانه ، وقرأه فى قرطبة على طلابه
وعشاقه ، كما نقل ديوان أبى تمام بمجهود شاعر أندلسى هو مؤمن
ابن سعيد ، عن أبى تمام نفسه ، وكان الطلاب يقرعونه عليه فى
قرطبة (١٧١) .

وينقسم الأدب الى قسمين رئيسيين هما : الأدب النثرى والشعر ،
وكلاهما قد ازدهر فى الأندلس بصورة كبيرة ، ووجد فى كل فن منهما

(١٦٩) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٣ - ١٢٦٧ ،
والترجمة ، ص ١٠٢٤ - ١٠٢٦ .

(١٧٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٨ ، والترجمة ،
ص ١٠٢٨ .

(١٧١) انظر مقدمة كتاب رايات البرزين لابن سعيد التى كتبها
الحكمور النعمان عند المتعالم القاضى ، ص ٩ .

المتخصصون. المضالعون وبعض المعلمين الذين يتولون التدريس في كل فرع منهما على حدة ، وبعض المعلمين الذين يتولون تدريس الفنين معا ، فيقال عن عباس بن ناصح الثقفي (أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) ، قاضى الجزيرة الخضراء ، أنه كان يفد على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها (١٧٢) .

أما الشيخ أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا المعروفة بالاقليلى من أهل قرطبة المتوفى ٤٤١هـ / ١٠٤٦م ، فقد كان من أئمة النحو واللغة ، وله معرفة تامة بالكلام على معانى الشعر ، وشرح ديوان المتنبى شرحا جيدا ، وهو مشهور .

وكان متصدرا بالأندلس ، لاقراء الأدب وولى الوزارة للمكتفى بالله (محمد بن عبد الرحمن الذى حكم من ٤١٤ - ٤١٦هـ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥م) ، وكان حافظا للأشعار ، ذاكرة للأخبار ، وأيام الناس (١٧٣) .

وأحمد بن محمد بن يحيى الحميرى المتوفى عام ٦١٠هـ / ١٢١٣م كان آخر من انتهى اليه علم الأدب فى الأندلس (١٧٤) .

أما على بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصارى ، المتوفى عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ، فقد كان متحققا بالنحو ، ذكيا ، بارع الخط والأدب ، درس العربية والأدب زمانا (١٧٥) .

والحقيقة أن فن النثر قد ارتقى فى الأندلس فى القرن السادس والسابع (الثالث عشر والرابع عشر) ارتقاء كبيرا ، ولست أجد دليلا على هذا أكثر من الإشارة الى الرسائل النثرية التى تبودلت

(١٧٢) المقرئ : النفج ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(١٧٣) ابن حيان : المتين ، ص ٦١ - ٦٣ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٧٤) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٣٠٠ .

(١٧٥) المراكشى : عبد الملك : الذيق والتكملة ، السفر الخامس ،

القسم الأول ، ص ٢٣٢ .

بين عبد الله بن الجنان ، وعلئ بن محمد بن على ، أبو الحسن الرعيني (٥٩٢ — ٦٦٦ هـ / ١١٩٥ — ١٢٦٧ م) ، فلقد ورد الى الأندلس الأديب أبو عبد الله بن عابد ، وتولى الكتابة فكتب اليه عبد الله ابن الجنان رسالة طويلة في حوالى صفحتين ونصف ، التزم فيها حرف « العين » في كل كلمة من كلماتها سواء في النثر أو النظم ، ولما عجز عبد الله بن عابد عن الرد عليها ، رد الشيخ أبو الحسن الرعيني برسالة من أربع صفحات كاملة ، التزم فيها حرف العين في كل كلمة من كلمات الرسالة نظماً أو نثراً . فكتب اليه أبو عبد الله بن الجنان رسالة أخرى ملتزماً حرف العين في كل كلمة منها نثراً أو نظماً في ست صفحات ونصف ، فرد الشيخ الرعيني ملتزماً حرف العين في كل كلمة بقصيدة من ٢٣ بيتاً وخمس صفحات ونصف صفحة نثراً (١٧٦) .

ولقد أثارت هذه الرسائل حركة بين الأدباء في الأندلس ، فكتب أبو المطرف بن عميرة (٥٨٠ — ٦٥٨ هـ / ١١٨٧ — ١٢٦٠ م) (١٧٧) ، رسالة التزم فيها حرف النون ، وهو الحرف المشترك في اسمي عبد الله بن الجنان وأبي الحسن الرعيني ، في كل كلمة من كلماتها نثراً ونظماً ، من ثلاث صفحات ونصف (١٨ سطراً ، في كل سطر ١٠ كلمات) (١٧٨) .

أما من ناحية الشعر ، فهناك مؤلفات لا تحصى ولا تعد حول الأدب الأندلسي ، نتناول بالتفصيل مكانة الأندلس الشعرية (١٧٩) ، ويرى الدكتور حكمت على الأوسى ، أن الشعراء الأندلسيين كانوا يصدر عن سليقة وطبع ، كما أن الجو كان يساعد من له طبع وقابلية

(١٧٦) المراكشي : نفس المصدر ، ص ٣٢٣ — ٣٤٨ .
(١٧٧) ترجمة أبو المطرف بن عميرة منتشرة في كل كتب التراجم والآداب الأندلسية ، انظر د. حكمت الأوسى في كتابه الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٣٩ ، حيث أشار الى عدد كبير من المصادر .
(١٧٨) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الجزء الأول ، ص ٣٤٨ — ٣٥٠ .

(179) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles. pp. 67—84.

ولقد كان تعليم الشعر يتم عفوا أثناء تدريس العلوم الأخرى
فحين يلاحظ الأستاذ موهبة تلميذه الشعرية ، فإنه يعمل على تنميتها
وصقلها حتى يمكن له أن يصل الى مكانة جيدة في الشعر فيحكي لنا
أن عباس بن ناصح الثقفي ، قاضى الجزيرة الخضراء ، كان يفد على
قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها ، ومرت عليهم قصيدته التى أولها :

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم
إذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم
حتى انتهى القارىء الى قوله :

تجاف عن الدنيا فما لمعجز
ولا عاجز الا الذى خط بالقلم

فقال له الغزال (المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) (١٨٧) ، وكان فى
الحلقة ، وهو اذ ذاك حدث نظام ، متأدب ذكى القريحة : أيها الشيخ ،
وما الذى يصنع مفعل مع فاعل ؟ ، فقال له الشيخ : كيف تقول أنت ؟
فقال : كنت أقول : فليس لعاجز ولا حازم . فقال له عباس : والله
يا بنى لقد طلبها عمك فما وجدها (١٨٨) .

كما أن هناك قصة أخرى حدثت للقاضى منذر بن سعيد مع أستاذه
أبى جعفر أحمد بن محمد بن النحاس النحوى ، وذلك أنه حضر مجلسه
فى الاملاء ، فأملى الشيخ قول الشاعر :

خليلى هل بالشام عين حزينة
تبكى على ليلى لعلى أعينها
قد أسلمها الباكون الا حمامة
مطبوقة باتت وبات قرينها

(187) Garcia Gomez, E , La Poesia Arabigo-Andaluza,
p. 33.

على الأوسى : حكمت : فصول من الادب الاندلسى ، ص ٩٦ ، ٩٧ .
(١٨٨) المقرئ : النسخ ، ٣ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

فقال منذر : أيها الشيخ ، أعزك الله ، بأتا يصنعان ماذا ؟
فقال أبو جعفر : فكيف تقول أنت ؟ فقال منذر : بانت وبان قرينها ،
فاستبان أبو جعفر ما قال ، وقال له : ارتفع ، ولم يزل يرفعه ، حتى
أدناه منه ، وكان يعرف ذلك له بعد ذلك ويكرمه (١٨٩) •

وأبو جعفر الحميري ، السابق الإشارة إليه ، كان يشجع تلميذه
« أبو يوسف » ، على قول الشعر ، ويقيم المنافسة بينه وبين ابنه ،
ليساعد الاثنين على صياغة الشعر ، ويقول التلميذ ، لقد كنت أنشده
من شعري على ركائته وكثرة تكلفه ، وبعده عن الجودة أبياتا لا أعدها
شيئا ، يحملني على انشاده اياها ، فرط استدعائه ذلك مني ، فيلهج بها
ويشتد استحسانا لها ، وربما درسها وحفظها (١٩٠) •

ويرى المستشرق الأسباني أنخيل غونثا ليث بالنتيا أن صاعد
الطبقى قد أدخل الى الأندلس طريقة جديدة في درس الشعر الجاهلي
تتلخص في أن يقرأ الطالب القصيدة ، ثم يسأله أستاذه عن معاني
الألفاظ فيقوم بالشرح معتمدا على قائمة من المعاني يكون قد
استخرجها من المعاجم العربية (١٩١) •

أما الدكتور جودت الركابي فيرى أن الشاعر ، حتى يصبح شاعرا
كان لابد وأن يتمتع بثقافة أدبية عالية (١٩٢) •

ولقد تفوق الأندلسيون في الشعر التعليمي فوضعوا منظومات
علمية في التاريخ والنحو وغيره ، ومن ذلك أرجوزة ابن عبد ربه في
التاريخ وأرجوزته في علم العروض التي يبتدئها بقوله :

(١٨٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ •

(١٩٠) أنظر هذه القصة الطويلة في المعجب للمراكشي •

ص ٤٢٩ — ٤٣٤ •

(١٩١) بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ،

ص ٦٦ •

بالحمد نبدأ وبه التمام
وباسمه يفتح الكلام
وكذلك الأرجوزة التي صدرها الشيخ يوسف بن محمد البلوى
لكتابه « ألف باء » :

جعلت ما أولف فيه وأبنى
لعبد الرحيم ابنى
ليقرأه بعد موتى
وينظر الى منه بعد فوتى (١٩٣)

٣ — العلوم العقلية

لا شك أن تعبير العلوم العقلية لا يدل دلالة واضحة على مجموعة العلوم التي نتناولها في هذا المجال ، لأنه ما من مادة علمية الا وكان للعقل فيها نصيب ، قل هذا النصيب أو أكثر . لكن العرب استخدموا هذا التعبير للفرقة بين العلوم اللسانية والدينية من جهة ، وباقي العلوم الأخرى من جهة ثانية .

وفي الأندلس ، حظيت العلوم العقلية بمكانة طيبة ، لكنها لم تضارع ما وصلت اليه مجموعات العلوم السابقتان ، مثلما يقول المبتشرق الأسباني خوان بيرنيت : بأن التعليم في العالم الاسلامى كان موجها في المقام الأول ، لاعداد الفرد للحياة الآخرة (١٩٤) . هذا ولقد اعترف كثير من العلماء بالمكانة العلمية لاسبانيا الاسلامية ، وتأثيرها القوي على الحياة في أوروبا الغربية ، أكتفى هنا بإيراد ثلاث شهادات لثلاثة من رجال الفكر الأسبان :

(١٩٣) البلوى : ألف — باء — طبعة القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

حاجى خليفة : كشف الظنون ، ص ١٥٠ .

(195) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 97.

يقول خوان بيرنيت :

ان كميات هائلة من مترجمات اللغة العربية الى اللاتينية ، والتي تم القيام بها في أسبانيا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، قد أعيد طبعها مرات على مدار القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وعن طريق هذه الأعمال المترجمة كون العلماء ورجال الدراسات الانسانية صورة فذة ورائعة عن الحالة العلمية التي كانت تتمتع بها أسبانيا الاسلامية لدرجة أنهم قد نسبوا كل الأعمال المترجمة عن العرب ، بما في ذلك أعمال ابن سينا الذي لم يطأ قدمه أرض شبه الجزيرة ، الى أسبانيا الاسلامية ، ولذلك لم يكن من الغريب أن لا يتردد ، ولو للحظة واحدة ، مؤرخ العلم الذائع الصيت « سارتون » ، في اعتبار أسبانيا الاسلامية أعظم مركز ثقافي وحضاري في عالم العصور الوسطى (١٩٥) .

ويقول الدكتور غرنثاليس براتس عند دخوله الأكاديمية الملكية الطبية الأسبانية « هذا الأندلس ، مركز ومنار ، كان يوما مشرقا وزاهيا ، كان مطمح الأطماع ، ومحط الأبصار النهضة الراقية في التعلم ، لأي فرع من فروع المعرفة ، في ذلك العصر الذي اتسم بالفخار ، وبالجهد المضنية » (١٩٦) .

أما البروفيسور سانثيت بيريت ، فانه يعطى أهمية كبرى لوجود العرب في أسبانيا عند تأريخه للعلوم عند العرب ، قائلا :

ان للوجود العربي في أسبانيا أهمية كبرى ، فعلى الرغم من أن اقليم شمال شبه الجزيرة الايبيرية قد شهد صراعا بينهم وبين

(195) Vernet, J. : Ho. de la ciencia, espanola, p. 58.

Sarton : Introduction to the history of science.

Millas Valliorosa : Estudios sobre la historia de la ciencia espanola.

(196) Gonzalez Prats, . : Las Alturas en las ciencias médicas en el Reino de al - Andalus, p. 20.

القشتاليين وأهل نبرة وأشتوريه والأراغونيين ، الا أن كل الأقسام الجنوبية قد عاشت عدة قرون تحت تنظيم سياسى محكم وثقافة عربية ارتقت بصورة مذهشة (١٩٧) .

ودراسة ما تقدمه لنا كتب التراجم الأندلسية الخاصة بالمشتغلين فى مجال العلوم العقلية تطلعنا على موسوعية أصحابها ، حيث نجد أن كلا منهم عالم متخصص فى أكثر من مادة واحدة ، ويمكننا من أجل التسهيل الدراسى لا أكثر ، أن نقسم العلوم العقلية الى أربع مجموعات رئيسية :

- ١ — المجموعة الطبية ، وتضم : الطب والصيدلة وعلم النبات .
- ٢ — العلوم البحتة ، وتضم الرياضيات والطبيعة والكيمياء والفلك .
- ٣ — العلوم الفلسفية ، وتضم : الفلسفة والمنطق .
- ٤ — العلوم الاجتماعية : الجغرافيا والتاريخ والتراجم .. الخ .

(١) المجموعة الطبية

١ — علم الطب والصيدلة :

اعتنى المسلمون بالطب عناية كبيرة منذ بداية الاسلام ومما يشهد لهذه الصناعة بعلو الشأن ، ورفعته المكان ، قوله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان » (١٩٨) .

ولقد عول الأنجليسيون فى الطب على كتاب مترجم من كتب النصرى ، يقال له « الاپريشم » « Aphorismi » ومعناه المجموع

(197) Sanchez Pérez, J. : La ciencia árabe en la Edad Media- p. 11.

Mielo, Aldo : Panorama general de la Ha. de las ciencias II, 48, (Traducciib (Traduccion Espanola).

Millas Vallicrosa : Estudios sobre la Ha. de la ciencia espanola.

أو الجامع (١٩٩) •

ثم تطور العلم على يد أطباء أندلسيين عادوا من المشرق مثل الحراني الأندلسي ، الذي عاد في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ / ٨٥٧ — ٨٨٦ م) ، ويقول عنه صاعد الطبقي : كانت عنده مجريات حسان في الطب ، واشتهر بقرطبة (٢٠٠) •

ولقد شارك في هذه المهنة في الأندلس كثير من الأطباء النصارى واليهود مثل ابن ملوكة النصراني ، كان في أواخر أيام الأمير عبد الله ، وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وكان يصنع بيده ، ويفصد العروق ، وكان على باب داره ثلاثون كرسيًا لقعود الناس (٢٠١) •

ويحيى بن اسحق ، أحد وزراء الناصر ، ألف في الطب كشافا ، يشتمل على خمسة أسفار ، ذهب فيه مذهب الروم (٢٠٢) ، ولقد كان والده من قبله ، على أيام الأمير عبد الله (وكانت سكناه بقرب مسجد طاهر ، مسيحي النجلة ، وكان صانعا بيده ، مجربا) (٢٠٣) •

ومن أشهر الأطباء اليهود في تلك الفترة حسداى بن شبروط ، وكان وزيرا وسفيرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر (٢٠٤) •

ويعتبر عصر عبد الرحمن الناصر ، العصر الذهبي للطب في الأندلس ، حيث (تتابعت الخيرات على أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم ، وقامت لهم ، وظهر الناس ممن كان في

(١٩٩) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٢

(٢٠٠) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٤ ، ٩٥ •

صاعد الطبقي : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ •

القنطري : أخبار العلماء بأخبار الحكماء •

(٢٠١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٧ •

(٢٠٢) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ •

(٢٠٣) ابن جلجل : نفس المصدر ، ص ٩٧ ، ٩٨ •

(204) Vernet. J. : Historia de la ciencia española, p. 59.

صدر دولته من الأطباء المشهورين (٢٠٥) .

وعلى عهد الحكم المستنصر أقيمت خزانة الطب ، أقامها الطبيب أحمد بن يونس (وهو طبيب رحل إلى المشرق في عام ٥٣٣٠ / ٩٤١ م) ، الذي أقام ببغداد هو وأخوه عمر عشرة أعوام ، وتأدبا بالطب ، وخرجا الرؤساء ، مع ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ، الذي قرأ عليه كتب جالينوس عرضا . وقد خرجا ابن وصيف في علل العين ، وعادا إلى الأندلس في عام ٥٣٥١ / ٩٦٢ م ، ودخلا في دولة المستنصر ، وغزوا معه غزاته إلى شنت استبين وانصرف وألحقهما لخدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء ، واستخلصهما لنفسه دون غيرهم ممن كان في ذلك الوقت من الأطباء ، ثم مات عمر وبقي أحمد ، فأسكنه المستنصر في قصره بمدينة الزهراء ، وقد تولى إقامة خزانة بالقصر للطب . ولم يكن قط مثلها ، رتب لها اثني عشر صبيا صقلييا ، طباطين للأشربة ، صانعين للمعجنات ، واستأذن أمير المؤمنين في أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فأباح له ذلك (٢٠٦) .

ووجد على عهد الناصر والمستنصر ، ديوان للأطباء ، تسجل فيه أسماءهم . وليس لدى تفصيلات عن هذا الديوان ، ولكن ابن جلجل يقول عند ترجمته لأحمد بن حكم بن حفصون ، أنه خدم بالطب طول أيام جعفر بن عثمان المصطفى ، فلما مات جعفر ، أسقط من ديوان المتطببين أو الأطباء ، وبقي مخمولا أخريات أيامه (٢٠٧) .

وازدهر الطب والصيدلة أيضا على عهدي الموحدين والنصرين ، وكان مادة تدرس ، يقال عن محمد بن ابراهيم بن محمد الأوسي المتوفى ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ، أنه أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر من مدينة بجاية

(٢٠٥) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢٠٦) ابن جلجل : نفس المصدر ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢٠٧) ابن جلجل : نفس المصدر ، ص ١١٠ .

فانتفع الناس به (٢٠٨) .

أما عبد الله بن أحمد بن ضياء الدين الأندلسي الملقب المعروف بابن البيطار (٥٧٥-٦٤٦هـ / ١١٧٩-١٢٤٨م) ، فإنه حينما رحل الى مصر ، كان هناك « رئيس العشابين » ولقد طاف تقريبا بكل البلاد الاسلامية ، وله مؤلفات في الطب (٢٠٩) .

ويبدو أن المهنة قد دخلها كثيرون من غير المؤهلين ، مما دفع الى وضع شروط وقواعد قاسية للمشتغلين بالطب (٢١٠) .

أما تعلم الطب فلقد كان يتم في الدرجة الأولى بين عائلات معينة احتفظت بسر المهنة بين أفرادها ، الذي لم يكونوا يقدمونه لغيرهم ، مثل أبي بكر سليمان ، الذي عالج أمير المؤمنين ، الناصر لدين الله من الرمد ، وطلب منه نسخه بعد ذلك ، فأبى أن يملئها (٢١١) .

وكذلك الحراني الذي ورد من المشرق في أيام الأمير محمد ، أدخل الأندلس معجونا ، كان يبيع منه السقية بخمسين دينارا ، وحاول أطباء قرطبة معرفة السر منه ، حتى وصلوا الى شراء شربة من الدواء وتحليلها (٢١٢) .

وعلى بن هلال بن علي بن حسن البلبسى ، المتوفى ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ، كان عدديا ماهرا مهندسا حاذقا ، طبيا بارعا فائقا ، متعرضا لذلك ، مقصودا فيه ولم يزل معظم عمره شديد الضنانة لما كان عنده من المعارف ، شرس الخلق عند التعليم ، متعززا على المتعلمين ، لا يتتلمذ له أحد ، عز أو هان ، الا واقفا أسفل دكانه ، الذي تصدى فيه للفتاوى

(٢٠٨) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٠٩) مطلب : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢١٠) العقباني : تحفة الناظر ، ص ٢٥٨ .

(٢١١) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ١٠٢ .

(٢١٢) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الطبية ، ثم سمح بآخره لبعض الطلبة وأسعفهم بالجلوس لأقراءهم في مسجد يقرب من موضعه ، فاغتنم ذلك منه وأخذ في تلك الحال (٢١٣) .

ولكن مع ذلك كان الطب يعلم ، وذلك بقراءة الكتب وصحبة الأطباء ، حيث يحكى أن أبا بكر بن زهر قد أتى اليه اثنان من الطلبة ، ليشتغلا عليه بصناعة الطب ، ترددوا عليه ولازماء مدة ، وقرأ عليه شيئاً من كتب الطب (٢١٤) .

٢ — علم النبات :

يرتبط هذا العلم بعلم الطب والصيدلة ، من ناحية أنه يمددهما بالمادة العشبية اللازمة لاستخراج الدواء ، ولقد وصل هذا العلم في الأندلس الى مكانة طيبة ، وأشهر رجاله هم :

أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بابن وافد ، المتوفى في عام ٤٦٧ هـ / ١٠٤٧ م ، كان طبيباً وله في الطب كتاب الأدوية المفردة وكذلك له كتاب في الفلاحة ، وهو الذى تولى غرس حديقة المأمون بن ذى النون ، بطليطلة (٢١٥) .

حسن بن أحمد بن عمر بن مفرج بن هاشم البكرى الاشبونى ، المتوفى ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ، ويعرف بالزرقالة ، فاق أهل عصره في تمييز النبات والعشب (٢١٦) .

أحمد بن محمد المعروف بابن العشاب ، المتوفى ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ،

(٢١٣) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم الأول ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .
(٢١٤) محمد المنونى : العلوم والآداب على عهد الموحدين ، ص ٢٦ .
(٢١٥) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٣٦ .
Vernet, J. : La Cultura hispanoarabe, 39—40 y 254.
Vernet : Historia de la Ciencia Espanola, p. 63.

(٢١٦) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٢١ (الترجمة ٤٧) .

كان حسن العلاج في طبعه ، وكان امام أهل المغرب قاطبة في معرفة النبات وتمييز الأعشاب وتحليلها ، وعلم منافعها ومضارها رحل في سبيل ذلك الى جبل غرناطة وغيره من بلاد الأندلس ، وعان في وجهته الشرقية كثيرا مما لا يكون بالمغرب منه ، وغاوض هنالك كل من أمكنه ممن يشهد له بالفضل في معرفته ، ولم يزل باحثا عن حقائقه ، كاشفا عن غوامضه حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدم في الملة الاسلامية ، فصار أوجد عصره في ذلك ، فردا لا يجاريه أحد فيه باجماع من أهل ذلك الشأن .

وكان له دكان متسع يقعد فيه لبيع الحشائش الطبية والنفع بها (٢١٧) .

ويقال عنه أيضا ، انه جال في الأندلس ، ومغرب العدو ، واستوعب المشهور من أفريقية ومصر والشام والحجاز والعراق ، حتى صار أوجد عصره في ذلك ، لا يجازيه فيه أحد من أهل هذا الشأن (٢١٨) .

(ب) العلوم البحتة

تنقسم العلوم البحتة بدورها الى قسمين رئيسيين ، الأول منهما يتناول العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والفلك ، والثاني يتناول الكيمياء والطبيعة .

(أ) وجدت المجموعة الأولى من هذه العلوم مبكرة في الأندلس ، ولم تواجه أية مشاكل في دراستها أو تدريسها ، وذلك لارتباطها بالعلوم الدينية وتطبيق الشريعة ، مثل تقسيم الموارث ومعرفة اتجاه القبلة ، وكذلك فان هذه العلوم كانت مهمة أيضا لحل بعض مشاكل الحياة الدنيوية ، يقول أبو عمران الميورقي في قصيدة له :

(٢١٧) الأراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الأول ، ص ٥١٢ ، ٥١٣ .

ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٢١١ — ٢١٤ .

(٢١٨) أحمد شوكت الشطبي : حول علم النبات عند العرب ،

لولا الحساب وعلم كل فريضة
لم يعرف التحليل والتحريم^(٢١٩)

ويرى مؤرخ العلوم الأسباني خوان بيرنيت ، أنه على الرغم من أن العلوم البحتة كانت قليلة نسبيا في العالم الاسلامي بسبب اتجاه حركته التعليمية الى اعداد الفرد لحياة الآخرة ، ومن هنا كان تطور هذه العلوم بطيئا في فترات الضغط الديني ، والذي لم يكن يسمح الا بالشروح الضرورية لحل المشكلات المعقدة ، الناجمة عن تطبيق الشرائع القرآنية في حالات تقسيم الميراث وعليه يمكن القول بأن نظام الأرقام قد انتشر دون صعوبة تذكر في المشرق في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، منتقلا بأسرع ما يمكن الى الأندلس ، ومنها بسرعة كبيرة الى الأراضى المسيحية ، فان مجموعة الرياضيات التجارية والهندسة المساحية لما يجدا الا صعوبات تافهة على طريق تطورها ، وذلك لأهمية الأولى في الحياة اليومية ، والثانية ، الى جانب علم النجوم ، شكلت الأساس للتوجيه الشرعى للمساجد ووضع الجداول الشمسية^(٢٢٠) .

ويرى صاعد الطبقي أن منتصف القرن الثالث من الهجرة (التاسع الميلادي) هو بداية نهضة هذه العلوم في الأندلس وبالتحديد على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وأول من يشير اليه صاعد ، ممن برزوا خلال هذا القرن هو أبو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسى ، المتوفى ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م^(٢٢١) .

أما عصر الخلافة في الأندلس فلقد شهد تطورا ضخما في هذه

(٢١٩) ابن القاضى : درة الحجال ، ص ٢٣٨ .
(220) Vernet, J. : Los Musulmanes espanoles, pp. 97, 98.
Millas Vallicroca : Estudios sobrelah delaciencia, p. 23.

(٢٢١) صاعد الطبقي : طبقات الأمم ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

العلوم ، ولعب الحكم المستنصر دورا بارزا في تشجيعها (٢٢٢) .

وأبرز الشخصيات في هذا المجال هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطي ، المتوفى ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، فهو كما يقول عنه صاعد الطبقي ، كان امام الرياضيين في الأندلس في وقته ، وأنجب تلاميذ جلة (٢٢٣) ، وترك في الأندلس ما يمكن أن نسميه بمدرسة المجريطي الرياضية (٢٢٤) .

ولقد كان لتعليم الحساب جوانب تربوية مهمة جدا ، منها مثلا تعليم التفكير ، والتأني ، والصدق ، ولقد أعجب أبو بكر بن العربي بطريقة تعليم الحساب التي كان يتبعها المعلمون في مكة المكرمة حيث يقول : كنت أحضر عند الحاسب بتلك الديار المكرمة ، وهو يجعل الأعداد على المتعلمين الحاسبين وأفواههم مملوءة بالماء ، حتى اذا انتهى القاؤه ، وقال ما يريد ، رمى كل واحد بما في فمه ، وقال ما معه ، وذلك ليعودهم خزل اللسان عن تحصيل المفهوم عن المسموع (٢٢٥) .

والظاهرة التي نتجلى لنا من دراسة عشرات من تراجم معلمي الرياضيات بالأندلس ، أن الغالبية العظمى منهم كانوا يتداولون علم النجوم ، وأنهم كانوا يتعاطون أيضا الطب والفلسفة — فمثلا :

أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خالدون ، المتوفى في ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، من أشرف أهل أشبيلية في علوم الفلسفة ، مشهورا بعلم الهندسة والنجوم والطب (٢٢٦) .

(٢٢٢) نفس المصدر ، ص ٨٨ .

(٢٢٣) صاعد الطبقي : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

القنطري : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٣٢٦ .

(224) Burckhardt : La Civilizacion hispanoárabe, p. 213.

(٢٢٥) ابن العربي : أحكام القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .

(٢٢٦) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

أبو بكر عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى ، أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، درس الهندسة والطب فى المشرق ، وعاد الى الأندلس ، مستوطنا مدينة سرقسطة ، وهو الذى أدخل الى الأندلس رسائل اخوان الصفا ، لا نعلم أحدا أدخلها الى الأندلس قبله (٢٢٧) .

أبو جعفر أحمد بن خميس ، من أهل طليطلة ، توفى ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ م ، وأحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب ، برع فى ذلك ، وقعد لتعليمها زمانا طويلا (٢٢٨) .

ومن هؤلاء من مال أكثر ، الى دراسة علم الأفلاك وهيئاتها ، وحركات الكواكب وأرصاها ، مثل محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن البرغوث المتوفى عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ (٢٢٩) .

وفى علم الفلك يحسن أن نشير الى العالم الكبير ابراهيم ابن حبيب أبو اسحق ، المعروف بولد الزرقىال الأندلسى (ت ٤٩٣ — ١١٠٠) ، يقول عنه القفطى ، أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب ، وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ، وله صفيحة « الزرقىال » المشهورة فى أيدي أهل هذا النوع التى جمعت من علم الحركات الفلكية كل بديع مع اختصارها ، ولما وردت على علماء هذا الشأن بأرض المشرق حاروا فيها وعجزوا عن فهمها الا بعد التوفيق (٢٣٠) ، ويقول عنه صاعد الطبقي : أنه أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب ، وهيئة الأفلاك ، وحساب حركاتها (٢٣١) . ويصفه أحد مؤرخى

(٢٢٧) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٣٣ .

(٢٢٨) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٩ .

شكيب أرسلان : الحلل السندسية — ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢٢٩) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٥ .

(٢٣٠) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٥٧ .

(٢٣١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٠ .

محمد عبد اللطيف مطلب : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

العلوم الأسبان بأنه أكبر شخصية علمية عربية تركت تأثيرا على العلوم الأوروبية اللاتينية (٢٣٢) .

(ب) أما عن مجموعة العلوم الخاصة بالكيمياء والطبيعة فلقد انتشرت أيضا في الأندلس ، ولكن بصورة أقل ، وتحدثنا المصادر عن عباس بن فرناس الذى سبقت الإشارة اليه عند الحديث عن الدولة والتعليم ، أنه كان أول من تعاطاها هناك ، كما أن الذخيرة لابن بسام تحتفظ لنا بنص يفهم منه وجود معمل كيميائى يشرف عليه الوزير خالد بن يزيد المخزومى (٢٣٣) .

(ج) العلوم الفلسفية

من الصعب القول بأن العلوم الفلسفية كانت ضمن المواد المعروضة للاختيار أمام الطلبة الأندلسيين ، حيث أن الفلسفة قد عانت كثيرا من الاضطهاد من علماء المالكية ، ولكن ذلك لا يعنى اختفاءها ، بل على العكس ، فاننى أرى أن الاضطهاد الذى صبه المالكيون في الأندلس على الفلسفة قد جعل الاقبال عليها سرا أمرا شائعا ، وأدى الى انتشارها على مستوى واسع . ويجب التفريق في البداية بين علم المنطق وعلم الفلسفة ، حيث واجه الأول منهما مقاومة أقل مما واجه الثانى ، ووجد معلمون يقومون بتدريس المنطق عبر فترات طويلة من التاريخ الأندلسى .

أما الفلسفة فلقد شهدت فترات ازدهار وفترات اضطهاد ازدهرت على عهد الحكم المستنصر ، ثم تعرضت لاضطهاد على يد المنصور بن أبى عامر ، وعادت الى الازدهار على عصر الطوائف

(232) Millas Vallicrosa : Estydios sobre Alzarquil, p. 1.

Vernet, J. : La Cultura hispanoàrabe, pp. 40, 41 y 138.

Vernet, J. : Ho. de la Ciencia Espanola, pp. 64, 65.

Burckhardt : la civilization hispano àrabe, p. 213.

(٢٣٣) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ،

ص ١٨٣ — ١٨٧ .

ثم خمدت على عهد المرابطين ، وعاشت أزهى أيامها على الأرض
الأندلسية ، على عهد الموحدين •

ولقد أنجبت الأندلس المسلمة عددا كبيرا نسبيا من رجال
الفكر الفلسفى ، أهمهم : ابن حزم القرطبى (٩٩٤ هـ - ١٠٦٤ م) ،
وأبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة المتوفى
٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م ، وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (١١٠٠ -
١١٨٥ م) ، ثم ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م) •

ويرى الدكتور جودة عبد الرحمن فى مقدمته لوصية القاضى
أبى الوليد الباجى أنه يمكن القول بأن الفلسفة قد عاشت فى الأندلس
على الرغم من فرض الحصار الشديد عليها ، وأنها قد ظهرت أحيانا
فى ثوبها الجميل وأخذت حصتها من التطور والازدهار ، وذلك حينما
كان يقدر لها التأييد من ملك أو أمير ، وأحيانا أخرى تنكمش بعيدة
عن قصور الخلفاء وبيوت الوزراء (٣٣٤) •

وليس هنا المجال للتأريخ للفلسفة فى الأندلس ، ولذلك أفضل
الإشارة الى بعض المراجع التى يمكن الاطلاع عليها (٣٣٥) •

د - العلوم الاجتماعية

تطورت العلوم الاجتماعية فى الأندلس المسلمة تطورا كبيرا ،
ساعد على ذلك أن ذلك الفرع خاصة ضمن العلوم العقلية ، يتصل
اتصالا وثيقا بالعلوم الدينية ، فالتاريخ مثلا يرتبط مباشرة بكتابة
السيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين ، والعلماء ، أما الجغرافية
فلقد دعا الى الاهتمام بها ، اتساع الدولة الاسلامية ، وضرورة تحديد
الطرق والاتجاهات • وحيث أن الأندلس كانت تنفع فى أقصى الغرب ،

(٢٣٤) عبد الرحمن : جودة : وصية القاضى أبى الوليد الباجى ،
ص ٢١ •

(٢٢٥) محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام فى المشرق
والمغرب •

أو في أقصى الشمال الغربى من هذه الأمة الاسلامية ، وقيام
الأندلسيين بالرحلات الى المشرق سواء للحج أو للدراسة ، قد أعطاهم
الفرصة للاهتمام بعلم الجغرافيا • أما التراجم والسير فانها أيضا
تتصل اتصالا وثيقا بالعلوم الدينية ، وبدأت بالاهتمام بالسيرة النبوية
وسيرة الصحابة ومن جاء بعدهم ، ثم ظهرت المدارس الفكرية ، وكتابة
سير رجالها وتراجمهم •

وقد اتخذت كتابة التاريخ في الأندلس اتجاهين عامين ، أولهما كتابة
تاريخ الأندلس في مجمله أو كتابة عصر معين أو تاريخ دولة ما من
دوله ، ثم الكتابات المتخصصة عن شتى نواحي الأندلس وبلادها
أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء ... الخ •

ومن الصعب جدا الالمام بكل المؤرخين الأندلسيين ، أو من كتبوا
كتبا تاريخية ، كما أنه أكثر صعوبة الاحاطة بكل المؤلفات ذات الصبغة
التاريخية — وسأشير فقط الى أهم المؤرخين الأندلسيين :

عبد الله بن حبيب ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، هو أول مؤرخ أندلسى ،
حاول أن يكتب تاريخا عاما للعالم ، وذلك قبل أن يكتب الطبرى
تاريخه بحوالى قرن من الزمان (٢٣٦) •

أحمد بن محمد الرازى ، المتوفى ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، ويعتبر
أحمد بن محمد الرازى — على ما يقول الدكتور حسين مؤنس —
أبا الجغرافيا والتاريخ في الأندلس في آن واحد • ولقد أخذ اهتمامه
بالتاريخ عن والده محمد بن موسى ، المتوفى ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وعن
أستاذه قاسم بن أصبغ الببائى •

(٢٣٦) المقرئ : النفح — ج ٢ ، ص ٢١٥ •
وانظر المقدمة التى كتبها الدكتور محمود على مكى لتحقيقه للسفر
الثانى من مقتبس ابن حيان ، ومقالته عن ابن حبيب فى :
Makki, M. A : Egipto y los. origenes de la historiografia

وكان أحمد هذا ميلا بطبعه الى التعرف على أحوال الدنيا
والبشر وانصرف الى الجغرافيا والتاريخ انصرافا تاما ، أرسى به أسس
هذين العلمين في بلاده (٣٣٧) .

ويقول عنه ابنه عيسى ، وهو مؤرخ كبير أيضا :

توفي الجد في ألبيرة عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وابنه أحمد والذي
يوميئذ طفل ابن ثلاثة أعوام ، فأقره أهله بالأندلس ، ونشأ فيها ،
فطلب العلم ومال الى الأدب ، فغلبه عليه حب الخبر والتفتير عنه ،
ولم يكن من شأن أهل الأندلس ، فالتقطه عن لحقه من مشيختهم ،
ورواتهم ، ودونه ، ووضع قواعد التاريخ بالأندلس ، مبتدئا ، فأزلفه
السلطان واعتلت به منزلة ولده من بعده ، وأكسبوا أهل الأندلس علما
لم يكونوا يحسنونه (٣٣٨) .

ولاشك أن الرازي هو أول من كتب تاريخا موضوعيا للأندلس
المسلمة ، وعليه اعتمد كثير من المؤرخين والمؤلفين ، لكن الأعمال
الأصلية للرازي فقدت ، ولم تصلنا منها الا شذرات مترجمة الى
البرتغالية والأسبانية ، وما حفظ ضمن نقول المؤلفين الآخرين .

محمد بن القوطية المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، الذي كان حافظا
لأخبار الأندلس ، ملما برواية سيرة أمرائها (٣٣٩) ، لقد ترك لنا كتابا
عن افتتاح الأندلس (٣٤٠) .

(٢٢٧) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،

ص ٥٦

(٢٣٨) ابن حيان : المقتبس (طبعة مكي) ، ص ٢٦٩ .

Levi Provencal : Ho de la Espana Musulmana, 11.76.

(٢٣٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ٧٦ .

(240) Ribera, J. : Ho de la conquista de Espana de Ibn al
Qutiyya de Cordoba.

ابن حيان القرطبي ، المتوفى ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، « الذي يتفق الكثيرون على أنه من أعظم مؤرخي الاسلام ، وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس بل والغرب كله — الاسلامى والمسيحي منه على السواء — طوال العصور الوسطى » (٢٤١) .

أهم مؤلفات ابن حيان كتاباه : المقتبس والمتين . والمقتبس يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى فى سنة ٩١ هـ / ٧١١ م ، حتى عصر المؤلف تقريبا ، ولقد أشار اليه ابن حزم ضمن رسالته فى فصل الأندلس قائلا :

« ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس تأليف أبى مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، أجل كتاب ألف فى هذا المعنى » (٢٤٢) .

ويتألف المقتبس لابن حيان من عشرة أسفار ووصلت اليها بعض قطعه ، علاوة على النصوص التى نقلها منه المؤرخون الذين جاءوا بعده والقطع التى وصلت من المقتبس هى :

— قطعة كبيرة فى حدود ١٨٨ ورقة ، تتناول عصر الأمير الحكم ابن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٧ — ٨٢١ م) وشطرا كبيرا من امارة عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٢ هـ / ٨٢١ — ٨٤٦ م) ، وكانت فى حوزة المستشرق الفرنسى ليفى بروغنسال ثم فقدت منه فى عام ١٩٥٧ ولم تظهر بعد (٢٤٣) .

(٢٤١) محمود على مكى : مقدمته للجزء الثانى من مقتبس ابن حيان ، ص ٧ و ص ١٦٤ .
جمال الدين : عبد الله : ابن حيان الأندلسى — أبو مروان بن حيان ، أمير مؤرخى الأندلس — مجلة أوراق — العدد الثانى ١٩٧٩ ، الصفحات من ١٤ الى ٢٧ .

(٢٤٢) المقرئ النفع — ج ٤ ، ص ١٦٧ .

(٢٤٣) محمود مكى : مقدمته للسفر الثانى من المقتبس ،

— قطعة ثانية تتناول السنوات الأخيرة من عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد ، وتشتمل على خمس وتسعين ورقة قام بنشرها الدكتور محمود على مكي في بيروت عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

— قطعة تتناول عصر الأمير عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م) . وتبلغ حوالى مائه وسبع ورقات ، نشرها الأب ميلتشور أنطونيا بباريس عام ١٩٣٧ .

— الجزء الخاص بالسنوات الثلاثين الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث ، قام بنشره الدكتور بدرو شالميتا وآخرون تحت عنوان الجزء الخامس من مقتبس ابن حيان ، وذلك بالمعهد الأسباني العربى للثقافة بمدريد عام ١٩٧٨ .

— جزء آخر صغير يتناول خمس سنوات من عهد الحكم المستنصر بالله من ٣٦٠ — ٣٦٤ هـ / ٩٧٠ — ٩٧٤ م ، قام بنشره باللغة العربية في بيروت عام ١٩٦٥ ، الدكتور عبد الرحمن الحجى ، ثم قام الدكتور غارثيا غوميث بنشر ترجمة باللغة الأسبانية في عام ١٩٦٧ بناء على مخطوط الأكاديمية الملكية للتاريخ تحت عنوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba al Hakam 11
por Isha b. Ahmad al Razi.

أما عن كتاب المتين لابن حيان فلم يصلنا منه أية قطعة متكاملة ، لكن كتاب الذخيرة لابن بسام ، قد احتفظ بنصوص كثيرة قيمة ، كانت موضوعا لرسالة دكتوراه ، قام بها الباحث المصرى الدكتور

(٢٤٤) انظر ايضا :

Levi Provencal : Textos Inéditos del Muqtabas de Ibn

Hayyan sobre los orígenes del Reino de Pamplona.

Chalmere, O. : Historiografía Medieval Hispano-Arabe.

Chalmere, O. : Treinta años de nuestra historia hispana del Muqtabas de Ibn Hayyan.

عبد الله جمال الدين حيث جمع النصوص وترجمها الى الأسبانية^(٢٤٥) .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ، المعروف بابن الأبار
(٥٩٥ — ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ — ١٢٦٠ م) ^(٢٤٦) ، وهو من كبار مؤرخي
القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، وأهم مؤلفاته التي
خلفها : الحلة السيرة ^(٢٤٧) .

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلماني ، المعروف
بابن الخطيب ، المولود في لوثة في الخامسة والعشرين من رجب عام
٧١٣ هـ ، ١٦ نوفمبر ١٣١٣ م ، والمقتول في عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

كان القرن الثامن الهجري في مملكة غرناطة ، بالنسبة لمجال الفكر
والأدب قرن النضج والازدهار ، وفيه ظهرت مجموعة من كبار المفكرين
والشعراء والكتاب مثل ابن خاتمة الانصاري ^(٢٤٨) ،
وأبو الحسن بن الجياب ^(٢٤٩) ، وابن جزى ^(٢٥٠) ، ولسان الدين
ابن الخطيب ، وابن زمرك ^(٢٥١) ، وأبو سعيد بن لب ^(٢٥٢) .

ولقد كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت ضمن هذا العدد
الضخم من العلماء والأدباء والمفكرين ، كما أنه كان شخصية

(٢٤٥) ابن حيان : المتين ، تحقيق عبد الله جمال الدين .

(٢٤٦) أنظر في ترجمات ابن الأبار :

الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣٠٩ — ٣١٣ (الترجمة ٩٥) .

(٢٤٧) انظر الكتاب والمقدمة التي أعدها الدكتور حسين مؤنس

لطبعته في القاهرة ١٩٦٣ ، وكذلك رسالة الدكتوراه التي قدمها الدكتور

عبد الله الطباع بجامعة مدريد عن هذا الكتاب .

(248) Gibert, C. : el Diwan de Ibn Jatima de Almeria.

ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٢٣٩ — ٢٥٣ .

(٢٤٩) المقرئ : نفع الطيب — ٧ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٤ .

(٢٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢٥١) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٢ ، ص ٣٠٠ — ٣١٥ .

(٢٥٢) ابن الخطيب : أوصاف الناس في التواريخ ، ص ٣٢ .

موسوعية ، برزت مواهبه في كل مجالات المعرفة ، وكان كما يصفه الأستاذ محمد عبد الله عنان أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى (٢٥٣) .

ولقد ترك لنا ابن الخطيب مجموعة كبيرة من الكتب أهمها الاحاطة في أخبار غرناطة الذي انتهى من تحقيقه ونشره في ٤ أجزاء المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان (٢٥٤) ، كما أنها كانت في جزء منها موضوعا للدكتوراه ، قدمه الباحث الكويتى يوسف الحشاش ، بجامعة مدريد المركزية (٢٥٥) .

وأكتفى في هذا المادة ، بالإشارة الى الدراسة القيمة التى نشرها الأستاذ بونس بوجسى (٢٥٦) ، مع التأكيد بأن التاريخ كان مادة تدرس وتقرأ كتبه ، أشار الى ذلك ابن خير فى فهرسته ، مستعرضا الكتب التاريخية التى درسها على أساتذته (٢٥٧) .

ولقد تطور علم الجغرافيا أيضا فى الأندلس المسلمة ، بدرجة عظيمة ربما بسبب الموقع الجغرافى ، وربما بسبب المستوى الثقافى المرتفع الذى عاشته الأندلس ، ولذلك فلدينا من الجغرافيين الأندلسيين مجموعة كبيرة أشهرهم :

أحمد بن أنس العذرى ، ولد فى المرية عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م ، وتوفى فى بلنسية ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، ترجم له الكثيرون من رجال التراجم الأندلسيين ، وألف مجموعة كبيرة من الكتب ، ووصلنا بعض

(٢٥٣) عنان : مقدمة الاحاطة — ج ١ ، ص ١٨ .

(٢٥٤) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد

عبد الله عنان — القاهرة — ١٩٧٣ — ١٩٧٧ م .

(٢٥٥) يوسف الحشاش : المحدثون فى الاحاطة ، رسالة دكتوراه ،

جامعة مدريد المركزية — قسم اللغات السامية ، ١٩٧٩ م .

(256) Pons Boigues : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géógrafos arábigo espanoles.

(٢٥٧) ابن خير : الفهرسة ، ص ٤٧٨ .

أجزاء من كتابه عن جغرافية الأندلس قام بنشرها وتحقيقها العالم
المصرى الكبير الدكتور عبد العزيز الأهوانى (٢٥٨) .

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ، المعروف بأبى عبيد البكرى
المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، الذى ألف مجموعة كبيرة من المؤلفات ،
يهمنا منها فى هذا المجال ، كتاب « المسالك والممالك » الذى قام بتحليل
أهميته ومادته الجغرافية الدكتور حسين مؤنس ، ونشر فى بيروت
عام ١٩٦٨ م (٢٥٩) .

عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، المتوفى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م ،
وتتضح لنا أهمية هذا الجغرافى الكبير ، اذا علمنا أنه يندر أن تجد
مؤلفا أندلسيا كتب بعده دون أن يشير اليه مما يدل على أن كتابه كان
مرجعا وحجة ، وأنه أضاف الى المكتبة الأندلسية شيئا جديدا (٢٦٠) .

أما قمة الجغرافية فى الأندلس ، بل قمة الجغرافيا فى الإسلام ،
فهو الشريف الأشريسى (٤٩٣ — ٥٦٠ هـ / ١١٠٠ — ١١٦٤ م) ، الذى
ألف كتابه العظيم فى الجغرافيا ، المسمى « نزهة المشتاق » (٢٦١) ،
وأحيل الى الدراسة القيمة التى قام بها المؤرخ المصرى الدكتور حسين
مؤنس فى كتابه عن تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس (٢٦٢) .

مادة أخرى تطورت فى الأندلس المسلمة تطورا كبيرا — أقصد بذلك

(٢٥٨) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٢٧ — ١٢٩ .
العزرى : نصوص عن الأندلس ، تحقيق الدكتور عبد العزيز
الأهوانى .

مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ٨١ — ٩٦ .
(٢٥٩) البكرى : المسالك والممالك ، تحقيق الحجى — بيروت —
١٩٦٨ .

مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٠٨ — ١٤٨ .
(٢٦٠) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٤٩ — ١٦٤ .
(٢٦١) الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .
(٢٦٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ،
ص ١٦٥ — ٢٨٠ .

علم التراجم ، حيث ترك لنا المؤلفون الأندلسيون سلسلة متواصلة
الحلقات من كتب التراجم ، التي تناولت تاريخ حياة علماء الأندلس
وأدبائه وشعرائه ومؤرخيه وجغرافيينه وفلاسفته ... الخ .

ويقول الدكتور عبد العزيز الأهواني عن هذا العلم ، انه نشأ
في أول أمره متصلاً بعلم الحديث أو علم الرواية ، وكان هدفه الأول
علم معرفة رجال الأسانيد ، وحالهم من الثقة أو عدم الثقة ، وما يتصل
بأسانيدهم وبلادهم ورحلاتهم ، ومن لقوه وأخذوا عنه ليعرف من ذلك
الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الزائفة التي دخل أسانيدها
الخلل (٢٦٣) .

وهناك كتب عامة في هذا المجال ، أهمها :

تاريخ علماء الأندلس ، لمحمد بن حارث بن أسد الخشني المتوفى
بقرطبة عام ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، ويضم تراجم الأندلسيين حتى القرن
الرابع الهجري وما زال مخطوطاً حتى الآن بالخزانة الملكية بالرباط (٢٦٤) .

تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي
المتوفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وهو من أشهر كتب التراجم الأندلسية ،
وطبع عدة مرات ، وأحصى فيه حوالي ١٧٦٦ عالماً من علماء
الأندلس (٢٦٥) .

جذوة المقتبس لمحمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى ، المتوفى
٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، وهو أيضاً قد طبع عدة مرات ، وجاء به
٩٨٧ ترجمة (٢٦٦) .

(٢٦٣) عبد العزيز الأهواني : صلة الصلة لابن الزبير والذيل
والتكملة لابن عبد الملك ، ص ١٤ (مجلة المعهد المصرى للدراسات
الاسلامية - العدد الثالث - المجلد الأول ، ١٩٥٥ م .
(٢٦٤) الفاسى : عبد الرحمن : منتخبات من نواذر المخطوطات
بالخزانة الملكية ، ص ١٣٦ .
(٢٦٥) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس .
(٢٦٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت -
القاهرة .

الصلة لخلف بن عبد الملك بن بشكوال ، المتوفى ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ،
وتوجد له عدة طبعاث أيضا ، وبه حوالى ١٤٤٠ اسما (٢٦٧) .

كتاب تكملة الصلة لابن الأبار ، المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وهو
أيضا مطبوع ، وأورد فيه ابن الأبار حوالى ٢٥٠٠ اسما (٢٦٨) .

كتاب الذيل والتكملة لمحمد بن محمد بن عبد الملك المراكشى
المتوفى ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، ويوجد من هذا الكتاب الضخم مجموعة
من الأجزاء قام بتحقيقها الدكتور احسان عباس والدكتور محمد
ابن شريفة وأورد به أكثر من ٣٠٠٠ ترجمة (٢٦٩) .

صلة الصلة لابن الزبير (٢٧٠) ، ولقد نشر بعض أجزاءه والباقي
ما زال مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وتوجد صورة منه فى جامعة
غرناطة .

ثم تأتى بعد ذلك مؤلفات ابن الخطيب وهى تغطى تراجم علماء
القرن الثامن حتى وفاة ابن الخطيب فى عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م (٢٧١) .

وهناك كتب تراجم خاصة اهتم بها الأندلسيون ، وتناولوا فيها
فئات معينة من العلماء مثل طبقات الأطباء لابن جليل (٢٧٢) ، وكتاب
ترتيب المدارك للقاضى عياض الذى تناول فيه علماء المالكية فى
الأندلس (٢٧٣) .

(٢٦٧) ابن بشكوال : الصلة .

(٢٦٨) ابن الأبار : التكملة .

(٢٦٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، لكتابى الموصول والصلة .

(٢٧٠) ابن الزبير : صلة الصلة .

(٢٧١) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة .

ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة .

(٢٧٢) ابن جليل : طبقات الأطباء .

(٢٧٣) اليعصبى : ترتيب المدارك .

وأختتم هذا العرض المختصر للعلوم التي كان يمكن للدارس تناولها في المرحلة التعليمية الثانية ، مشيراً إلى أن هناك الكثير من المواد الأخرى التي لم أرغب في التطرق إليها ، مثل علم الأنساب^(٢٧٤) ، والبرامج والفهرسات التي كانت متداولة بين أيدي الدارسين على مدار التاريخ الأندلسي ويكفي القاء نظرة على فهرسة ابن خير أو على برنامج التجيبي^(٢٧٥) ، أو برمجة الرعيني^(٢٧٦) ، لنحاط علماً بضخامة عدد الكتب وتنوع المواد التي كان يسعى الطلاب لدراستها في الأندلس .

طرق التعليم في المرحلة الثانية

تمايزت طرق التعليم في هذه المرحلة ، من معلم إلى آخر ، حسب مستوى التلميذ ، وحسب المادة التي تدرس ، ولكن من الممكن اجمالها في الطرق التالية :

١ - الإقراء :

وهو أشهر طرق التعليم في هذه المرحلة ، ويتلخص في أن يمسك المعلم كتاباً ويقرأ منه ، ويقوم الطلبة بكتابة نسخهم ، أو أن يقوم طالب من المجموعة بالقراءة في حضرة الأستاذ ويقوم الطلبة الآخرون بالكتابة ، ويعمل الأستاذ على تصحيح القراءة وتقديم النطق السليم للكلمات والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء ... الخ . وهذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في تعليم القراءات القرآنية ، كما أنها تستخدم عامة في العلوم الدينية واللسانية ، مع بعض الطرق الأخرى . يقول ابن بشكوال مثلاً عن أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجي المتوفى في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، أنه أقرأ الناس مدة طويلة ،

(٢٧٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب — وانظر أيضاً مقالة :
Teres, E. : Linajes - arabes en al - Andalus.

(٢٧٥) كان موضوعاً لرسالة دكتوراه السيدة أنا راموسى ، جامعة

الأوتونوما — مدريد .

(٢٧٦) قام بتحقيقه ونشره الدكتور ابراهيم شبوح ، ونشر بدمشق

عام ١٩٦٢ .

وعمر وأسن وجالسته وأنا صغير السن (٢٧٧) .

عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الأشبيلي، المعروف بابن الخراط ، المتوفى ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م ، كان فقيها محدثا ، وكان رحمه الله متواضعا ، وكان اذا صلى الصبح في الجامع ، أقرأ حتى الضحى ، ثم يعود بعد ذلك الى منزله ليشتغل بالتأليف ، وكان لا يدخل بجاية أحد من الطلبة الا سأل عنه ، ومشى اليه ، وآنسه بما يقدر عليه (٢٧٨) . ويقول الضبى عن نفس الأستاذ ، ان له تواليف حسانا ، قرأت عليه بعضها (٢٧٩) .

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى عيسى المتوفى ٤٢٩ هـ / ١٣٠٧ م ، كان أحد الأئمة في علم القرآن العظيم ، قراءاته واعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه ، سكن قرطبة وأقرأ الناس بها محتسبا (٢٨٠) .

ويحكى أبو الحسن بن مغيث عن أستاذه أحمد بن عبد الله التميمي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، أنه كان يختلف عليه ، ليقرأ عليه كتب الأدب بالمسجد الجامع ، حيث كان له موضع مخصص لاقرائه (٢٨١) .

٢ — الاملاء :

وهى طريقة مشابهة للاقراء ، لكنها تميل أكثر الى القول من الذاكرة حيث يملى المعلم على طلبته ما يعرفه من علوم ، فمثلا ، يحيى بن ملك بن عايد بن كيسان ، المتوفى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، عاد من رحلته في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع منه ضروب من الناس

(٢٧٧) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٤ .

(٢٧٨) الضبى : بغية اللتمس ، ص ٣٩١ .

(٢٧٩) الضبى : بغية اللتمس ، ص ٣٩١ .

(٢٨٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢٨١) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

وطبقات طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملأ في المسجد الجامع ، في كل يوم جمعة (٢٨٢) .

ويمكن لنا تبين الطريقتين ، الاقراء والاملاء ، من الترجمة التي أوردها ابن بشكوال لأحمد بن عبد الله بن طريف ، المتوفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، حيث يقول : قرأت على أبي مروان الطنبلي قال : قرأت على أبي الحسن علي بن عمر الحراني بمصر ، قال : أملى علينا حمزة ابن محمد الكناني (٢٨٣) .

٣ - المناظرة أو الحوار :

وهي طريقة تبدأ فيها المسألة ، بطرح سؤال من الطالب على الأستاذ ، ثم يبدأ الأستاذ في الإجابة على السؤال مبينا كل جوانبه ونواحيه ، وخفاياه وما يترتب عليه . أو أن الأستاذ نفسه يفترض السؤال كما لو كان موجهاً اليه ، ثم يبدأ هو في الإجابة على هذا السؤال ، ولدينا كثير من التراجم التي اعتمد فيها الأساتذة على طريقة المناظرة في تعليمهم فيقال مثلاً عن أحمد بن محمد بن رزق الأموي ، المتوفى ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، انه كان مدار طلبه الفقه في قرطبة في المناظرة والمدارسة ، والتفقه عنده (٢٨٤) .

أحمد بن محمد بن عمر التميمي ، من أهل المرية ، توفي ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، ناظر عند الفقيهين ابن رشد وابن العواد (٢٨٥) .

وهناك طرق أخرى كثيرة ، يمكن لنا أن نستخرجها من كتب التراجم ، وهي :

الأخذ عن ، الرواية عن ، الملاقاة ، السماع ، الجلوس الى الدرس على ، الاختلاف الى الشيوخ . . . الخ .

(٢٨٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٢٨٣) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢٨٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

ومن أهم سمات التعليم في هذه المرحلة ملازمة الشيوخ ومصاحبتهم وكلما طالت المدة كلما كان ذلك في صالح التلميذ حتى أن بعض هؤلاء لكثرة ملازمة شيوخهم ، يصبحون متخصصين في نفس مواد هؤلاء الشيوخ فنجد أن علي بن أحمد بن أبي قوة المتوفى ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ، قد لازم أستاذه أبا القاسم بن حبيش عشرين سنة كاملة (٢٨٦) .

عثمان بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم العبدري المتوفى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م ، لازم شيخه عبد الرحمن بن يوسف بن الحسن خمسة عشر عاما (٢٨٧) .

ويقال عن أحمد بن محمد بن أحمد بن بقي بن مخلد المتوفى ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ، أنه صحب أبا عبد الله محمد بن مفرج الفقيه ، وانتفع بصحبته (٢٨٨) .

أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمي ، المتوفى ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، صحب أبا علي حسين بن محمد الغساني ، واختص به ، وأخذ منه معظم ما عنده (٢٨٩) .

أحمد بن صارم النحوي الباجي ، عني بكتب الأدب واللغة ، أخذ ذلك عن أبي نصر هارون بن موسى المجريطي ، وقيد عنه واختص به (٢٩٠) .

أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد ، قاضي قرطبة ، المتوفى ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، أخذ عن أبيه ولازمه طويلا (٢٩١) .

(٢٨٦) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — الجزء الأول ، ص ١٥٤ .

- (٢٨٧) المراكشي : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .
- (٢٨٨) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٩ .
- (٢٨٩) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٠ .
- (٢٩٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٥١ .
- (٢٩١) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٥١ .

ويقوم الطالب بدراسة مادة ما أو أكثر على أستاذ معين ثم ينتقل إلى أستاذ آخر ليسمع منه مادة أخرى أو عدة مواد ، وفي كل مادة يقوم الطالب بدراسة كتاب معين أو عدة كتب وقد يقرأ على أستاذه كتابا واحدا فقط أو يقرأ عدة كتب ، فلقد قرأ ابن خیر على معلمه أبی الحسن بن شریح أكثر من اثني عشر كتابا في علم القراءات (٢٩٢) • كما أنه سمع من أستاذه عيسى بن أبی البحر الزهری أكثر من عشرة كتب في القراءات واللغة •

والحفظ هو الأساس في العملية التعليمية ، حيث يجب أن يحفظ الطالب الكتاب الذي يقرؤه ، كما أنه من الضروري أن يكون الأستاذ حافظا لمادته وخاصة في مجال العلوم الدينية والعلوم اللسانية والتكرار هو أفضل وسيلة لكي يتمكن الطالب من حفظ دروسه ، فإذا كان محمد بن يحيى بن هاشم يحفظ الموطأ والبخاري ويقرأ من حفظه كتاب البخاري على الناس (٢٩٣) فإن عبد الله بن محمد بن عيسى كان يختم كتاب سيوييه كل خمسة عشر يوما (٢٩٤) •

والأستاذ العالم ، سعد بن أحمد بن ليون التجيبي (من رجال القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي) يقول :

من لم يكن علمه في صدره نشبت

يداه عن السؤالات التي ترد

العلم ما أنت في الحمام تحضره

وما سوى ذلك التكليف والكمد (٢٩٥)

كما يقول محمد بن عبد الرحيم الغرناطي :

تكتب العلم وتلقى في سلف

ثم لا تحفظ ؟ لا تفلاح قط

(٢٩٢) أنظر الفهرسة — الصفحات ٢٣ — ٢٦ و ص ٣١ •

(٢٩٣) أرسلان : الحل السندسية — ج ٢ ، ص ١٢٨ •

(٢٩٤) السيوطي : بغية الوعاة — ج ٢ ، ص ٥٩ •

انما يفلح من يحفظه
بعد فهم وتوق من غلط
ويقول :

العلم في القلب ليس العلم في الكتب
فلا تكن مغرما باللهو واللعب (٢٩٦)
وتتجلى أهمية الحفظ ، في حالات احراق الكتب الأصلية أو ضياعها ،
ولقد صور لنا هذه الأهمية المفكر القرطبي العظيم ابن حزم
حين يقول :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل ان أنزل ويدفن فى قبرى
دعونى من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
والا فعودوا فى المكاتب بدأة
فكم دون ما تبغون الله من ستر (٢٩٧)

أوقات التعليم

ليس هناك وقت محدد بالضبط لحضور الدروس فى هذه المرحلة ،
حيث يرتبط ذلك غالبا بوقت الأستاذ ، وغالبا ما يكون الصباح هو أكثر
الأوقات ملائمة لكى يقوم المعلم بالقاء دروسه ، فمثلا عبد الحق بن
عبد الرحمن المشار اليه من قبل ، كان اذا صلى الصبح فى الجامع

(٢٩٦) المقري : نفح الطيب — ج ٣ ، ص ٦٠٥ .
(297) Gozalbez Busto : El Libro y las Bibliotecas en
la Espana Musulmana, p. 24.
Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 81.

أقرأ حتى الضحى (٢٩٨) .

كما أن هناك قصة أوردها الضبى ضمن حديثه عن أحمد بن خلف ابن عيشون المتوفى ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م ، مفادها أن هذا حينما أراد القراءة على الشيخ محمد بن شريح ، وطلب منه أن يعين له وقتا للقراءة ، قال له ابن شريح : « اذا سمعت أول الأذان فأنتنى — أى أنه خصص له وقت الفجر ليقرأ عليه » (٢٩٩) .

وليس معنى ذلك الاختصار على الفترة الصباحية فحسب لأن بعض المعلمين كان يجعل وقت اقراءه بعد صلاة العصر ، وقبل صلاة المغرب (٣٠٠) . ولكن بما أن الطالب يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة في ذات الوقت ويذهب الى أكثر من معلم في نفس اليوم ، فان الوقت للمدراسى كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله .

ويحرص الطلبة على الوصول الى مكان أستاذهم مبكرين فنجد أن عبد الله بن حمود بن مذحج الزبيدى ، المتوفى ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، ينام في مزود دابة أستاذه ليكون أول وارد عليه في الصباح (٣٠١) .

وهناك بعض الحالات الخاصة ، لا يتقيد فيها بوقت معين ، وخاصة عند حضور أحد الغرباء الى المدينة ، فعند مرور أبى على الصدفى بسبقة الى الأندلس في عام ٤٩٠ هـ / ١١٠١ م ، قرىء عليه اذ ذاك جامع الترمذى ولازم الناس سماعه بالجامع ليلا ونهارا ، وكانوا يبيتون بالمقصورة ، حتى كمل في مدة يسيرة ، لفرط استعجاله (٣٠٢) .

-
- (٢٩٨) الضبى : بغية الملتبس ، ص ٣٧٨ .
(٢٩٩) الضبى : بغية الملتبس ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .
(٣٠٠) المقرئ : أزهار الرياض — ج ٢ ، ص ٢٨٥ .
(٣٠١) المراكشى : الذيل والتكملة — القسم الرابع ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .
المقرئ : النفح — ج ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .
(٣٠٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ .
(م ٢٣ — تاريخ التعليم)

حلقات التعليم

كان المعلم يجلس الى جوار عمود من أعمدة المسجد ، أو في صدر المكان الذي اتخذته لتعليم طلبته ، ويطلق على المكان اسم المعلم الذي يشغله ، وخاصة اذا ما استمر فيه مدة طويلة . وبعد وفاة المعلم ، يقوم بشغل المكان ابنه ، أو أحد طلبته النباه . ولدينا بعض البيانات التي تنص على أن الابن يخلف أباه في حلقاته ، منها :

أن أبا القاسم بن الامام القاضي أبي الوليد الباجي المتوفى ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م ، قد سكن سرقسطة وغيرها ، وروى عن أبيه معظم علمه ، وخلفه في حلقاته بعد وفاته (٣٠٣) .

عياش بن محمد بن عبد الرحمن الأشبيلي ، المتوفى ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، كان قد أحكم القراءة على أبيه ، وتصدر للاقراء بعده ، وخلفه في حلقاته (٣٠٤) .

سعد بن محمد بن عبد الرحمن بياسى ، أخذ عن أبيه وغيره ، وتصدر بعد أبيه للاقراء (٣٠٥) .

غالب بن عبد الله بن أبي اليمن ، المتوفى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أقرأ بمجلس أبيه في حياته ، وبعد وفاته ، وأسمع الحديث ، ودرس العربية ، والآداب (٣٠٦) .

عصام بن أحمد بن محمد بن ابراهيم ، قرطبي ، توفي ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ، كان باهرا في علوم اللسان ، رشحه أبوه للاقراء

(٣٠٣) القرى : النفح — ج ٣ ، ص ٤٠١ .
(٣٠٤) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم الثاني ، ص ٤٨٨ .
الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٥٥ .
(٣٠٥) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الرابع ، ص ٤٣ .
(٣٠٦) المراكشي : نفس المصدر — السفر الخامس — القسم الثاني ، ص ٥١٩ .

بمجلسه فأقرأ فيه مدة (٣٠٧) .

أحمد بن محمد بن عبد الله المعافى ، توفي بعد عام ٤٨٧ هـ /
١٠٩٤ م ، تصدر لتدريس ما كان عنده من فنون المعارف بعد جده (٣٠٨) .

ومن ناحية أخرى فقد يقوم الأستاذ باختيار أحد طلبته ليتولى
التدريس في مكانه بعد وفاته ، مثلما حدث مع على بن حسين بن ابراهيم
ابن يحيى ، المتوفى ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، حيث كتب بموضع أبى عبد الله
ابن عبدون بعد وفاته بتنبيهه عليه وشهادته له بالانتقان (٣٠٩) .

ولقد وجدت المجالس في الأندلس منذ فترة مبكرة ، ومن المحتمل
استخدام الكراسى لجلوس المدرس ، حيث نجد أن محمد بن الحسن
الزبيدي المتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، يكتب رسالة شعرية الى أبى مسلم
ابن فهد ، يبين له فيها أن الفتى إنما هو بعقله وليس بثيابه ، وأن طول
الجلوس على الكرسي لا قيمة له إذا لم يكن الانسان عالما (٣١٠) .

وكان من العادة أن يكون في الحلقة معيد أو قارئ يقوم
أما بشرح بعض ما غمض من كلام الأستاذ أو أن يتولى قراءة النص
الذى سيتولى الأستاذ شرحه وتفسيره ، فيقال عن أحمد بن طلحة
الأشبيلي ، المتوفى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أنه أخذ عن أخيه وكان
معيدا في حلقاته (٣١١) .

(٣٠٧) المراكشى : نفس المصدر — القسم الأول ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٣٠٨) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .
(٣٠٩) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم الأول ،
ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣١٠) الحميدى : الجذوة ، ص ٤٣ . والأبيات هي :
أبا مسلم ان الفتى بجنانه
ومقوله لا بالمرابك واللبس
وليس ثياب المرء تغنى قلامة
إذا كان مقصورا على قصر النفس
وليس يفيد العلم والحلم والحجا
أبا مسلم طول القعود على الكرسي
(٣١١) السيوطى : بغية الوعاة — ج ١ ، ص ٣١٣ .

ومن المحتمل أيضا أنه كان يعهد للمعيد بحفظ النظام في الحلقة وخاصة أثناء غياب الأستاذ ، يقول ابن بشكوال عن أحمد بن أفلح ابن حبيب بن عبد الملك الأموي أنه شاهد حين سماعه من وهب ابن مسرة في المسجد الجامع ، وقوع لغط وكلام في المسجد بين أصحابه ، وارتفاع الصوت بينهم ، وكان أحدهم يعرف بالبشرلى ، فأنكر عليهم ذلك بعض القومة ، حتى أخذ عليهم الدرة ، وكان أبو بكر بن هذيل الشاعر الأديب بالحضرة فقال في ذلك على البديهة :

ان وهب بن مسرة

بين أهل العلم درة

كان في مجلسه لليو

م على العلم معرة

إذا على القيم رأ

س البشرلى بدرة (٣١٢)

أما عن عدد الطلبة في كل حلقة فلم يكن هناك تحديد لذلك واختلف الرقم حسب سمعة الأستاذ ، وحسب المادة التي يقوم بتدريسها وحسب المكان الذي توجد به الحلقة ، فعبد الملك بن زيادة الله الضبى (توفي ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) حينما رجع الى قرطبة ، وجلس ليروي ما احتقبه من العلوم ، اجتمع اليه في المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة قال :

أثى إذا حضرتى ألف محبرة

يكتبن حدثنى طورا وأخبرتى

نادت بمفخرتى الأعلام معلنة

هذى المفاخر لا قبعان من لبن (٣١٣)

(٣١٢) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ١٦ ، ١٧ .
(٣١٣) الحميدى : الجذوة ، ص ٣٦٥ . ابن بشكوال : الصلة - ج ٢ ، ص ٢٦٢ .
ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب - ج ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .
المقرى : نفح الطيب - ج ٩ ، ٢٥٩ .

ولقد وضعت قواعد أخلاقية وأصول يجب أن يتبعها الطلبة في هذه المجالس ، وتحدث عن ذلك العالم الأندلسي الكبير ابن حزم القرطبي في كتابه (الأخلاق والسير) ، حيث خصص فصلا في حضور مجالس العلم ، أورد بعضه فيما يلي :

— اذا حضرت مجلس علم ، فلا يكن حضورك الا حضورا مستريدا علما وأجرا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها ، فهذه أفعال الأرذال ، الذين لا يفلحون في العلم أبدا .
فاذا حضرتها على هذه النية ، فقد حصلت خيرا على كل حال ، فان لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك •

— فاذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها ، هي :

اما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلّة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس •
— فان لم تفعل فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع محاسن وعلى خامسة ، وهي استزادة العلم •

وصفة سؤال المتعلم هو أن يسأل عما لا يدري / لا عما يدري •
فان السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى الى اكتساب العداوات ، وهو يعد عين الفضول • فيجب عليك أن لا تكون فضوليا ، فانها صفة سوء •

فان أجابك الذي سألت بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام ، فان لم يجبك بما فيه كفاية ، أو أجابك بما لم تفهم فقل له : « لم أفهم » ، واسترده ، فان لم يزدك بيانا وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه والا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريده من الزيادة •

— والوجه الثالث ، ان تراجع مراجعة العالم ، وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بينا ، فان لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك الا تكرار قولك ، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة ، فأمسك ، لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا تعلم ، بل على الغيظ لك ولخصمك والعداوة التي ربما أدت الى المضرات •

— وإياك وسؤال المعنت ومراجعة المكابر الذى يطلب الغلبة بغير علم فهما خلقا سوء ، دليان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقوة السخف ، حسبنا الله ونعم الوكيل •

— وإذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام فى كتاب فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المبالغة قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع •

وأىضا فلا تقبل عليه اقبال المصدق به المستحسن اياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع فتظلم — فى كلا الوجهين — نفسك ، وتبعد عن ادراك الحقيقة ، ولكن اقبال من يريد حظ نفسه فى فهم ما سمع ورأى بالتزويد به علما ، وقبوله ان كان حسنا ، أو رده ان كان خطأ ، فمضمون لك ، اذا فعلت ذلك ، الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم •

— من اكتفى بقليله عن كثير ما عندك فقد ساواك فى الغنى ولو أنك قارون ، حتى اذا تصاون فى الكسب عما تشيره أنت اليه ، فقد حصل أغنى منك بكثير •

— ومن ترفع عما تخضع اليه من أمور الدنيا فهو أعز منك بكثير •

— فرض على الناس تعلم الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين جميعا ، فقد استوفى الفضلين معا ، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن فى التعلم وأساء فى ترك العمل به ، فخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به ، وهذا الذى لا خير فيه ،

أمثل حالة وأقل ذمًا من آخر ينهى عن تعلم الخير ويصد عنه (٣١٤) .

المعلمون في المرحلة الثانية

تبين دراسة كتب التراجم أن معلمى المرحلة الثانية ، كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى عال ، وبمعرفة موسوعية ، قاموا بتحصيلها عن طريق الدراسة التى تلقوها في بلادهم ، أو كتبوها من خلال رحلاتهم الى البلاد الأخرى ، وتشهد بذلك الألقاب الكثيرة التى أطلقت عليهم والتى تبين فى ذات الوقت مستواهم الثقافى ، ومن الألقاب التى كانت تطلق على هؤلاء ما يلى :

- كان له حظ ..
- كان من أهل المعرفة ..
- أو عنده اهتمام ..
- أو عنده مشاركة فى أشياء من العلم ..
- كانت عنده عناية ..
- كان كثير السماع ..
- له مشاركة فى الحديث ..
- نفذ فى القراءات ..
- بز أهل زمانه ..
- فاق فى ..
- أعلم الناس ..
- أفهم الناس ..
- كان من أهل الأدب ..
- كان من أهل العلم ..
- كان فى حفظه آية من آيات الله ..

- كان بحرا من بحور العلم ..
- كان لا نظير له في العلم ..
- ثقة ..
- حاذقا ..
- محدثا ..
- مقريا ..
- حافظا ..
- عارفا ..
- متفنانا ..
- فقيها .. الخ •

ولعل لقب الفقيه كان أسمى هذه الألقاب ، ولم يكن هينا أن يطلق على أحد ، فالشيخ محمد بن عبد الله المتوفى ٣٧٢هـ / ٩٨٢م ، كان لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيها حتى يكتهل ، ويكمل سنه ، ويقوى نظره ، ويبرع في حفظ الرأي ، ورواية الحديث ، ويتميز فيه ، ويعرف طبقات رجاله ، ويحكم عقد الوثائق ، ويعرف عللها ، ويطلع الاختلاف ، ويعرف مذاهب العلماء والتفسير ، ومعاني القرآن ، فحينئذ يستحق أن يسمى « فقيها » والا فاسم الطالب أليق به الى أن يلحق بهذه الدرجة (٣١٥) •

ولذلك كان من الضروري لمن ينتصب للتدريس في هذه المرحلة أن يكون عالما بمادته ، معتمدا على أصول وروايات صحيحة ، والا تعرض للنقد الشديد ، فيقال مثلا عن أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني (توفي ٥٠٨هـ / ١١٤م) ، انه لم يكن عنده كبير علم ، أكثر من روايته عن هؤلاء الجهلة ، ولا كانت عنده أيضا أصول يلجأ إليها أو يعول عليها (٣١٦) •

أحمد بن عبد الله بن طريف ، من أهل قرطبة ، توفي
٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، كان كثير السماع من الشيوخ والاختلاف اليهم ،
ولم تكن له أصول (٣١٧) .

وابن الفرضي يؤكد كذب كل من الفقيه عثمان بن محمد بن يوسف
قائلا عنه : كان كذابا ، أخبرني بذلك من أثق به ممن وقف على كذبه ،
وما كان يستأهل أن يحدث عنه (٣١٨) . وكذلك الفقيه محمد بن عيسى
ابن رفاعة الخولاني المتوفى ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م ، قائلا عنه أنه شهر
بالكذب (٣١٩) .

كما أن هؤلاء المعلمين أيضا كانوا موضع النقد في أساليبهم
التعليمية فهناك من حمدت طرائقه في التعليم ، وهناك من كان شديد
الضجر عند تتبع البحث والمساءلة ، حتى أنه كان يترك الحلقة وينصرف ،
مثلا كان يحدث مع علي بن محمد بن علي بن خروف المتوفى
٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م (٣٢٠) ، ومن كان عسر الأخذ نكد الخلق ، مثل أحمد
ابن عبد الله بن المطرز ، المتوفى ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م (٣٢١) .

أما من الناحية الاجتماعية ، فلقد تمتع هؤلاء بمستوى طيب
سواء بين الناس أو بين الحكام وساعدتهم علمهم على الانتساب الى
طبقة اجتماعية متميزة ، هي طبقة الفقهاء ، التي أصبح لها وزنها وقيمتها
في نظر الدولة والمجتمع من القرن الثاني من الهجرة / الثامن الميلادي .

ولقد كان اختيار معظم القائمين على الأمور العامة من رجال
العلم وهؤلاء بدورهم حاولوا أن لا تشغلهم الوظيفة عن أعباء القيام

(٣١٧) ابن بشكوال : نفس المصدر - ج ١ ، ص ٨٠ .
(٣١٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس - ج ١ ، ص ٣٠٦ .
(٣١٩) ابن الفرضي : نفس المصدر - ج ٢ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٣٢٠) الأراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - ج ١ ،
ص ٣٢٢ .
(٣٢١) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٧٨ .

بمهمة التدريس فأصبح من السهل أن ترى وزيرا أو غيره من رجال المناصب العليا يمارسون التدريس ، بل من الممكن القول بأن جميع من شغلوا وظائف عامة كان لهم دور في نشر العلم والتعليم •

أجر المعلمين في المرحلة الثانية

من الناحية الاقتصادية تشير كل الدلائل ، الى أن دخل هؤلاء المعلمين كان مرتفعا •

وفي تناولنا لمسألة أجر التعليم ، يمكن لنا أن نقسم المعلمين الى ثلاث فئات :

(أ) فئة تتقاضى أجرها من الجراية التي كانت تجريها عليهم الدولة أو من الأجر الذي يدفع من الأعباس •

والجراية نظام عمل به على مدار فترة طويلة من التاريخ الأندلسي ووجدت دواوين العطاء منذ عهد مبكر ، ولقد سبق لى أن أوردت الكثير من الأمثلة على ذلك عند تناولى الفصل الخاص بالدولة والتعليم ، وبعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم •

(ب) فئة أخرى ، تتقاضى أجرها من الطلبة أنفسهم ، بناء على عقد يعقد بين المعلم ووالد التلميذ أو وليه ، وفي آخر هذا الفصل أورد صيغة من صيغ العقود المعمول بها حينذاك منذ القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، ولقد كان العمل في مهنة التدريس مربحا جدا يدل على ذلك ما ورد فى ترجمة على بن يوسف بن محمد ابن أحمد ، وهو داني ، سكن مرسية ، توفي فى ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، كان نجارا ، فلما كف بصره ، انقطع الى طلب العلم فبرز فى النحو ، ونال من الاقراء وتعليم العربية مالا جسيما (٣٢٢) •

أما الشيخ أبو علي الشلوبين ، فقد قام بالتدريس في أشبيلية مدة تزيد على ستين عاما ، وكان اكتسابه من الطلبة أكثر من ٤ آلاف درهم في الشهر (٣٢٣) .

الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر السبتى ، المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م : كان في أول أمره يسكن في الفندق ويعلم الحساب والنحو ، ويأخذ الأجرة على ذلك (٣٢٤) .

(ج) ومجموعة ثالثة كانت تتقاضى أتعابها من الوظائف التي تسند إليها ، مثل الامامة أو الصلاة أو الأذان في المساجد ، أو وظائف الدولة الأخرى مثل الشورى أو الفتوى .

وهناك مجموعة من المدرسين ، كانت تقوم بالتدريس مجانا على أساس أنه عمل خيرى ، ولقد وردت عبارة « أقرأ الناس محتسبا » في كثير من تراجم علماء الأندلس ، وأكتفى في هذا المجال بالاشارة الى كل من :

أبى علي الغسانى (من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) ، الذى حينما دفع اليه تلميذه محمد بن عبد الرحمن جملة من المال في مقابل اقراءه ، أخذه ووضع على رأسه وقال : لا آخذ على هذا شيئا أبدا ، ولو أخذت من أحد لأخذت منك (٣٢٥) .

عتيق بن علي بن خلف ، المتوفى ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، كان لا يبتغى على اقراءه أجرا الا من الله تعالى (٣٢٦) .

(٣٢٣) المراكشى : نفس المصدر — السيفر الخامس — الجزء الثانى ، ص ٤٦١ — ٤٦٣ .

(٣٢٤) القرى : نفح الطيب — ج ١٠ ، ص ١٣٥ .

التبكتى : نيل الابتهاج ، ص ٦١ .

(٣٢٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٧ .

Ribera, J. : He de la Ensenanza entre los Espnoles Musulmanes, p. 72.

(٣٢٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم

ملابس المعلمين

يقول المقرئ أن أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائما ، ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

ويقول أيضا :

وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمام ، لاسيما في شرق الأندلس ، فان أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا اليه الا وهو بعمامة ... والذؤابة لا يرخيها الا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وانما يسدلونها من تحت الأذن الصغرى (٣٢٧) .

ويؤكد ابن الخطيب أن العمام تقل في أهل هذه الخضرة (غرناطة) ، الا ما شاء ، في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم (٣٢٨) .

ولم يكن للمعلمين زى خاص بهم ، ولكنهم كانوا يعتنون بملابسهم وخاصة حين قيامهم بالتعليم ، فعبد الملك بن حبيب كان يلبس الخز والسعيدى ، وانما كان يفعل ذلك اجلالا للعلم وتوقيرا (٣٢٩) .

وحبيب بن الوليد ، كانت له حلقة في جامع قرطبة يسمع الناس فيها ، وهو يلبس الوشى الهشامى (٣٣٠) .

خلف بن ابراهيم بن خلف ، توفي ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، كان جميل

(٣٢٧) المقرئ : نفح الطيب — ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٣٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ١٣٦ .

(٣٢٩) اليعصبى : ترتيب المدارك — ج ٤ ، ص ١٢٤ .

Ribera, J. Ho. de la Ensenanza entre p. 70.

(٣٣٠) ابن حيان : المقتبس ، طبعة مكى ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

ابن الأبار : التكملة — ج ١ ، ص ٣٢ .

• المنظر والثياب (٣٣١)

قاسم بن فيرة ، المتوفى ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م ، كان لا يجلس للاقراء
الا على طهارة ، وفي هيئة حسنة (٣٣٢) •

والشيخ على بن أحمد بن على ، المتوفى ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، كان أكثر
لباسه جبة صوف لا شعار لها (٣٣٣) •

أما الشيخ محمد بن فرحون (توفى ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م) ، فكان
يلزم الطيلسان على العمامة ، ولا يلبس الثياب المصقولة (٣٣٤) •

واعتناء المعلم بنظافته وثيابه أمر واجب نصت عليه كافة الكتب
التي تحدثت عن العلماء والعلمين ، فانه اذا عزم على مجلس التدريس
تطهر من الحدث والخبث ، وتنظف ، وتطيب ، ولبس أحسن ثيابه ،
اللائقة بين أهل زمانه ، قاصدا بذلك تعظيم العلم (٣٣٥) •

العلاقة بين المعلم والطالب

اختلف أسلوب العلاقات بين المعلم والتلميذ في هذه المرحلة عن
سابققتها ، فهنا قد أصبح التلميذ واعيا ، ويمكنه أن يعرف مسؤولياته ،
ولذلك فقد اختلف أسلوب العقاب نوعا ما ، وتحول الى أساليب أخرى ،
كالنصح والارشاد • وأقصى ما يمكن أن يصل في العقوبة ، هو حرمانه
من حضور دروسه فترة معينة ، أو منعه من الدراسة عليه •

ولقد كان على الأستاذ تحمل المسؤولية كاملة في ذلك فينبغي
عليه « أن يعتنى بمصالح الطالب ، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده
من الحنو والشفقة والاحسان اليه ، والصبر على جفاء ربما وقع منه ،

(٣٣١) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٧٧ •

(٣٣٢) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ •

(٣٣٣) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم

الاول ، ص ١٧٠ ، ١٧١ •

(٣٣٤) التنبكى : نيل الابتهاج ، ص ٣٠ •

(٣٣٥) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٣١ •

ونقص لا يكاد يخلو الانسان منه ، وسورة غضب في بعض الأحيان ،
فيوقف على ذلك بنصح وتلطف لا بتعنيف وتعسف قاصدا بذلك حسن
تربيته ، وتحسين خلقه ، واصلاح شأنه » (٣٣٦) •

ويشير ابن خلدون الى ذلك قائلا : فينبغي للمعلم في متعلمه
والوالد في ولده ، أن لا يستبد عليهم في التأديب (٣٣٧) •

كما أن على المعلم أن يحرص على تعليم التلميذ ، « وتفهمه
ببذل جهده ، وتقريب المعنى له من غير اكثار لا يحتمله الذهن ، أو بسط
لا يضبطه حفظه » (٣٣٨) •

كذلك عليه أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده
في مودة أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة
أو تحصيل أو ديانة فان ذلك ربما يوحش الصدر ، وينفر القلب ،
ولقد أصر ابن خلدون على أنه من الواجب في التعليم ، أن لا يخلط على
المتعلم علمان معا ، حتى لا يسبب ذلك انشغال بال التلميذ وعدم
اجادته لأحدهما ، وطالب « بأن يتفرع الفكر لتعلم ما هو بسبيله ،
مقتصر عليه ، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله (٣٣٩) •

ولقد طلب من المعلم اختيار التلميذ قبل أن يبدأ معه ، وأن يعرف
مستواه ، فإذا وجد من الصعوبة على الطالب أن يواصل دراسة
كتاب ما ، أشار عليه بأن يقرأ كتابا أسهل حتى يدرب ذهنه ، وبعد ذلك
يعود الى نقله الى كتاب آخر وهكذا ، كما أنه بعد الانتهاء من الدرس
فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة يمتحن بها فهمهم وضبطهم
لما شرح (٣٤٠) •

• (٣٣٦) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

• (٣٣٧) ابن خلدون : المقدمة — ج ٤ ، ص ١٢٤٤ .

• (٣٣٨) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .

• (٣٣٩) ابن خلدون : المقدمة — ج ٤ ، ص ١٢٣٥ .

• (٣٤٠) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .

وإذا كان المعلم قد طوّل بكل ذلك ، فلقد طوّل الطالب أيضا بأشياء كثيرة حتى يمكن له أن يتعلّم وأن يصبح يوما ما معلما ، فكان ينبغي على طالب العلم أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى من حتى لا يشغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل الى بلد آخر من غير ضرورة ، فان ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ، ويضيع الأوقات ويؤذى المعلم (٣٤١) .

كذلك يوصي الطالب ، بألا يذم ما جهل منه ، فهو دليل على نقصه ، وقوله بغير معرفة ، وألا يعجب بما علم فيطمس فضيلة علمه (٣٤٢) ، والاشارات الى هذه التوصيات كثيرة جدا ، وتكفي الاشارة الى كتاب الغزالي « أيها الولد » أو ملخص في التربية الاسلامية « لآسين بلاثيوس » (٣٤٣) .

ولقد نمت العلاقة بين المعلم والتلميذ ، الى درجة أنه كان يسمح للمعلم بأن يصطحب طلبته للتنزه في أيام العصور ، وهناك في هذه المواضع الجميلة يمنحهم من الحرية ما لا ينعمون به أثناء الدرس (٣٤٤) .

كما أن الطلبة تعلقوا بأساتذتهم ، وأحبوهم حبا شديدا لدرجة أنه بموت الأستاذ ، يقوم الطلبة بمراقبة نعشه وقراءة القرآن على قبره ، مثلما حدث عند وفاة محمد بن أحمد بن عبيد الله المعروف بابن العطار المتوفى في عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، حيث كان الجمع في جنازته عظيما ، وانتاب قبره طلاب العلم أياما ختم قراؤها فيها بحضرته القرآن عدة ختمات (٣٤٥) .

(٣٤١) الزرنوجي : تعليم المتعلم ، ص ١٨ .
(٣٤٢) الفارابي : احصاء العلوم ، ص ١٠٧ .
(٣٤٣) الغزالي : أيها الولد ، طبعة بيروت ، ١٩٥١ .
Asin Palacios : Un Compendio de Pedagogia musulmana.

(٣٤٤) أنظر ترجمة محمد بن حسين في بغية الملتبس ، ص ٦٠٥٩ .

(٣٤٥) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

تعليم النساء في المرحلة الثانية

لا نتحدث المصادر كثيرا عن طريقة تعليم النساء ، ولكن بعض الفقرات الواردة في بعض ترجمات شهيرات النساء الأندلسيات أو في ترجمات بعض العلماء يمكن أن تلقى ضوءا على هذه المسألة ، وتبين لنا أن البنات كن يتلقين العلم على أيدي بعض المعلمين الرجال أو النساء وأن النساء كن يذهبن الى المسجد للتعلم ، فيقال عن محمد ابن علي بن محمد الفخار المتوفى ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ، انه استوطن مالقة ، وتصدر للاقراء بها فكان يدرس من صلاة الصبح الى الزوال ، ويقرأ القرآن ، ويفتى النساء بالمسجد الى ما بعد العصر (٣٤٦) .

محمد بن أحمد بن أبي القاسم الأنصارى ، المتوفى ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، ثابر على الاكتاب ، وتأديب النساء (٣٤٧) .

عثمان بن سعيد بن عثمان المقرئ ، توفي ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، أقرأ بالمرية مدة وكانت ريحانة تقرأ عليه القرآن بها ، كانت تقعد خلف ستر ، فتقرأ ، ويشير لها بقضيب بيده الى المواقف ، فأكملت السبع عليه ، وطلبته بالاجازة ، فامتنع ، ولكنه كتبها لها فيما بعد (٣٤٨) .

كما أن نزهون بنت القليعي كانت تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى (٣٤٩) .

ويقول القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله عن أستاذه الوليد ابن بكر بن مخلد ، المتوفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م ، انه كان « مؤدبى ،

(٣٤٦) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٩١ — ٩٥ .
السيوطى : بغية الوعاة — ج ١ ، ص ١٨٧ .
(٣٤٧) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم الثانى ، ص ٥٨٩ .
(٣٤٨) الضبى : بغية المتلمس ، ص ٣٩٩ .
(٣٤٩) ابن سعيد : رايات البرزين ، ص ٩١ .
ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٣٢٤ .
المقرئ : نفح الطيب — ج ٦ ، ص ٣٣ .

ومؤدب أخى ، وابنة أخى » (٣٥٠) •

أما عن دور المرأة كمعلمة للنساء ، فيمكن أن نشير الى مريم بنت يعقوب الشلبى ، فقد كانت أديبة شاعرة ، وكانت تعلم النساء الأدب (٣٥١) •

وكذلك حفصة الركونية ، توفيت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، كانت أستاذة وقتها وانتهت الى أن علمت النساء فى دار المنصور (٣٥٢) •

وكذلك كانت ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله ، أستاذة مهجة بنت التيانى القرطبية (٣٥٣) •

ومن ناحية أخرى ، فقد حفظ لنا التاريخ بعض الملاحظات التى تبين أن بعض الأندلسيات لعبن دورا هاما فى الحياة العلمية وقمن بنقل علومهن الى الرجال ، وأكتفى بالاشارة الى أمة الرحمن بن عبد القاهر العيسى (٣٥٤) — راضية ، مولاة الامام عبد الرحمن الناصر (٣٥٥) — واشراق السويديّة العروضية ، توفيت بداية ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وكانت تسكن بلنسية ، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة ، وفاقته فى كثير مما أخذت عنه ، وأتقنت العروض •

قال أبو داود سليمان بن نجاح : أخذت عنها العروض ، وقرأت عليها النوادر لأبى على القالى ، والكامل للمبرد ، وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا وتتكلم عنهما (٣٥٦) •

-
- (٣٥٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٤٢ •
(٣٥١) ابن بشكوال : نفس المصدر — ج ٢ ، ص ٦٩٤ •
الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٨٨ •
المقرئ : نفح الطيب — ج ٦ ، ص ٢٣ •
(٣٥٢) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ •
(٣٥٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب — ج ١ ، ص ١٤٣ •
(٣٥٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٤ •
(٣٥٥) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ٦٩٤ •
(٣٥٦) السيوطى : بغية الوعاة — ج ١ ، ص ٤٥٨ •
عجيل حسن : الحياة العلمية ، ص ٤٥٢ •
(م ٢٤ — تاريخ التعليم)

الفصل السادس

المرحلة التعليمية الثالثة

أكدت أكثر من مرة أن تقسيم التعليم في هذا العصر ، الى مراحل محددة ليس الا لغرض الدراسة فحسب ، لأن الطالب بعد الانتهاء من الكتاب ، كان يبدأ مرحلة متصلة من سماع الشيوخ ، والانتقال من معلم الى آخر ومن كتاب الى آخر ، ومن مكان الى آخر ، دون أن يكون هدفه الوصول الى الانتهاء من سنة دراسية معينة ، أو مرحلة محددة .

ومن هنا فالمرحلة التعليمية الثالثة ليست الا امتدادا للمرحلة الثانية ، لكنها تتميز عنها ، بارتفاع سن طلبتها ، ومكانة الشيوخ الذين يتولون التدريس فيها .

والمرحلة التعليمية الثالثة يمكن أن تتميز أيضا بأنها استكمالية اذ أنها فترة يحاول فيها المتعلم أن يستكمل دراساته التي قد يعتقد أنه لم يستكملها من قبل كما أنها عملية تجديد مستمرة لمعلومات المتعلم ، ولذلك فهي لا تتميز بسن محددة ، أو حتى بمكان معين .

وأكبر سمتين من سمات هذه المرحلة تتمثلان في التعليم المدرسي والرحلة .

فالمدرسة وخاصة في الأندلس ، لم تكن تضم بين مدرسيها الا كبار علماء العصر ، أما الطلبة فانهم كانوا يسعون اليها ، عندما يرغبون في تحصيل درجة عالية من العلوم ، بدليل أن الشيخ ابن الفخار ، حين انتهى من تدريسه لتلميذه منصور الزواوي ، كتب له بالاجازة والاذن له في التحليق بموضع قعوده من المدرسة بعده (١) .

أما الرحلة ، فلقد كانت أبرز مساعي الطلاب المتقدمين للحصول على أقصى ما يمكن تحصيله من العلوم ، التي كانت تدرس في مساجد ومدارس البلاد المشرقية •

وهناك أماكن أخرى كثيرة ، ساهمت في تطور الحركة التعليمية في الأندلس ، وأثرت فيها تأثيرا كبيرا ومنها :

المجالس العلمية ، سواء التي كان يعقدها الأمراء منذ بدايات الأسرة الأموية ، حتى سقوط غرناطة ، أو التي كان يعقدها كبار العلماء والشخصيات الأندلسية ، هذا ولقد تناولت تلك المجالس بالدراسة ، في الفصل الخاص بالدولة والتعليم (أنظر الفصل الأول) •

أما المكتبات فلقد انتشرت انتشارا واسعا في أسبانيا الإسلامية فظهرت مكتبات القصور الخلافية ، وكانت أعظمها مكتبة الحكم الثاني ، ثم مكتبات أمراء الموحدين • ومن ناحية أخرى ، اهتم كبار الناس وعامتهم بالحصول على الكتب ، وإقامة مكتباتهم الخاصة ، ونتيجة لذلك حدثت حركة إغارة للمكتبات نشطة جدا ، وتم تبادل الكتب بين المعلمين والطلاب بصورة واسعة ، وأجد أنه ليس من الضروري تناول هذا الموضوع بالدراسة حيث سبقني الى هذا المجال ثلاثة من الأساتذة ، قاموا بدراسته دراسة مستوعبة (٢) •

وثمة أماكن أخرى ساهمت بصورة فعالة في النشاطات التعليمية ، وفي اللقاء بين المعلمين والطلبة ، مثل حيوانيت الوراقين ، أماكن تجليد الكتب ، كما أن مصانع الكاغد التي نشأت بشاطبة ، والتي لم يكن لها نظير في معمور الأرض ، والتي عمت المشارق والمغرب على

(2) Ribera, J. : *Bibliofilos y Bibliotecas en Espana Musulmana* (Disertaciones y Opúsculos) 181—228.

Gozalbez, Busto : *El libro y las Bibliotecas en E. M.*

الحجى : الكتب والمكتبات في الأندلس : مجلة كلية الدراسات

الإسلامية بغداد ، العدد الرابع (١٣٩٢ — ١٩٧٢) •

• سطح المعمورة ، كما يقول الادريسي (٣) •

وهناك جانب مهم جدا ، كان يجب تناوله في هذه الدراسة ، ولكنني فضلت ارجاءه الى دراسة مستقلة ، ألا وهو الصناعات التعليمية ، أقصد بذلك صناعة الألواح والأقلام وأدوات الحبر والمحابر وغير ذلك ، وقد حفلت كتب الأدب بالاشارات الأدبية الى الأدوات المكتبية ، وخاصة القلم والمحبرة •

كما أن التجارة قد لعبت دورا رئيسيا ، في هذا المجال ، فكثير ممن تنقلوا بين المدن الأندلسية ، وبين الأقطار الاسلامية ، كانوا ممن يعملون في التجارة وحملوا معهم بالاضافة الى تجارتهم علوم بلادهم ، وكتبها الى البلاد التي قصدوها •

وسأكتفي هنا بدراسة المدارس في الأندلس والرحلات ، وما يتبع ذلك من الحصول على الاجازة •

نظام المدرسة في الاسلام

يذهب بعض الباحثين الى أن كلمة مدرسة انما هي في الأصل كلمة عبرية دخلت الى اللغة العربية قبل الاسلام (٤) ، وبعضهم يرى أنها من الألفاظ المولدة المشتقة عند العرب (٥) ، وهي مكان خصص للتعليم ، ويكاد يجمع كافة المؤرخين على أن المدارس في بداية أمرها قد بنيت لكي تتولى العناية بالدراسات التشريعية (٦) ، وخاصة المذاهب السنية (٧) ومنها ما تخصص في تدريس مذهب واحد أو كان يجمع في مبناه بين المذاهب السنية الأربعة (٨) .

والمدرسة مبنى يتفاوت من ناحية الحجم ، حيث هناك المدارس الصغيرة التي لا تتجاوز كونها منزلا صغيرا يخصصه صاحبه لهذا الغرض ويقوم مدرس بالتدريس فيه ، ويعرف هذا النوع من المدارس عادة بالمدارس الأهلية ، ومن أولى هذه المدارس ، المدرسة المنسوبة الى أبي حاتم بن حيان البستي (٩) ، المتوفى ٣٥٤هـ - ١٠٦١م ، حيث قال عنه ياقوت الحموي : وقد كان أبو حاتم سبل كتبه وأوقفها

(٤) منصور فهمي : قاعات البحث ، ص ١٠٧ (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ج ١ ، عام ١٩٣٥) .
محمد غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٦٣ .

(٥) حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٠ .
(6) Makdese; G. : Madrasa and University in the Middle ages.

Makdese; : The Scholastic method in Medieval Education.

Makdese; G. : Muslim Institutions of Learning in Eleventh century, p. 10—12.

(٧) شلبي : تاريخ التربية ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٨) ناجي معروف : نشأة المدارس المستقلة في الاسلام ،

ص ١٠ - ١٧ .

(٩) ياقوت : معجم البلدان - ج ١ ، ص ٤١٨ (وبست من أعمال

كابل بأفغانستان) .

وجمعها في دار رسمها • وقال الحافظ أبو عبد الله الحاكم « أبو حاتم ابن حيان داره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه ، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقه ولها جرايات يستنفقونها داره ، ومنها خزانة كتبه في يدي صبي ، سلمها اليه ، لبيذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة من غير أن يخرجها عنها (١٠) • كما أن أبا بكر محمد بن الحسن بن قورك ، المتوفى ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ، أقام له أهل نيسابور مدرسة ودارا (١١) •

أو أن تكون مبنى كبيرا يضم علاوة على الايوان الرئيسي ، مسجدا ، ومسكن للطلبة والمدرسين ، وقد تقوم الدولة بانشائها •

ويجمع كافة المؤرخين على أن أول احتضان للدولة لنظام المدارس في الاسلام قد تم على يد نظام الملك ، المتوفى ٤٨٦ هـ — ١٠٩٣ م ، الذي كان وزيرا للألب أرسلان في بغداد ، يقول الدكتور طلس : ويعتبر عمل نظام الملك هذا أول عمل رسمي قامت به الدولة الاسلامية لتنظيم الدراسة وترتيبها بتهيئة الأسباب ، وايجاد المواد الضرورية (١٢) •

ولقد كان لمجهودات نظام الملك أثر كبير ، حتى أن كثيرا من

(١٠) ياقوت : معجم البلدان — ج ١ ، ص ٤١٨ •

ناجي معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ •

محمد طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٢ •

(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان — ج ٣ ، ص ٤٠٢ •

الكتبي : الوافي بالوفيات — ج ٢ ، ص ٣٤٤ •

معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ •

غنية : تاريخ الجامعات ، ص ٧١ •

(١٢) طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٦ •

Dodge; Bayard : Muslim Education in Medieval Times

p. 20.

Tritton; A. S. : Muslim Education in the Middle Ages;

p. 103.

المؤرخين قد زعموا أنه أول من أنشأ المدارس في الاسلام^(١٣) ، وقام
غيرهم بالرد عليهم وتبيان الحقيقة القائلة بوجود المدارس قبل نظام
الملك بأكثر من قرن من الزمان^(١٤) .

ولكن أهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد
من الازدهار للمدرسة ، اذ أصبح السلطان ، ورجال الطبقة العالية
مولعين بتأسيس المدارس كما أن تكوين المدرسة ، كما أنشأها نظام
الملك وما جعله بها من أقسام داخلية للطلاب ، أصبح فيما بعد نموذجا
يحتذى في سائر المدارس التي أنشئت في الأزمان التالية^(١٥) .

ولا شك أن مولد المدارس في الاسلام كان في مدينة نيسابور
وذلك في القرن الرابع الهجري ، وأنها أول من عرف المدرسة بمبناها
ووضعها الاصطلاحي المعترف به ، كمعهد متخصص للدرس والتعليم .
ويعلل ذلك بأن مدينة نيسابور كانت مركزا من مراكز أهل السنة
والشافعية منهم بوجه خاص ، وظهر من بينهم طائفة كبيرة من كبار
أصحاب الحديث كالبيهقي ، المتوفى ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م ، والحاكم
النيسابوري ، ولذلك لابد من القول بأن حركة بناء المدارس قد نشأت
في كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم^(١٦) .

ويعتقد أن أول مدرسة ببغداد هي المدرسة الحنفية التي أنشأها
أبو سعيد وفتحها للتدريس في عام ٤٥٩ — ١٠٦٧ م^(١٧) ، وان كانت

(١٣) السيوطي : حسن المحاضرة — ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los musulmanes
Espanoles; p. 17.

أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢١ .
(١٤) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
Tritton, A. S. : Op Cit., pp. 98—129.
Makdese; G. : Muslim Institutions of learning, p. 10.

محمد غنيمية : تاريخ الجامعات ، ص ٧٦ .
(١٥) نفس المصدر ، ص ٧٦ .
(١٦) اليطفتي ، أبو طاهر : المدارس في الاسلام ، ص ٢٠ ، ٢١ .
حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٢ .
(١٧) نفس المصدر ، ص ٢٢ .

النظامية هي أول مدرسة شرع فيها ، وقد بدأ بناؤها في بغداد سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥ (١٨) ، وفتحت أبوابها للتدريس في عام ٤٥٩ هـ — ١٠٦٧ م ، ولقد أحصى مدارس بغداد وواسط الأستاذ ناجي معروف (١٩) .

ويرى الأستاذ غنيمه ، أن أول المدارس في البلاد المصرية قد ظهرت خلال الدولة الفاطمية حيث أنشئت مدرستان أولاهما مدرسة الوزير رضوان التي أقامها سنة ٥٣٢ هـ — ١١٣٧ م ، والثانية للوزير ابن السلار التي أنشأها قبل عام ٥٤٤ هـ — ١١٥٠ (٢٠) . وبناء على دراسته فإن هذه المدرسة هي التي قام بالتدريس بها أبو الطاهر السلفي . وقد لعبت هذه المدرسة دورا مهما في حركة التعليم بالأندلس ، حيث قصدها عدد كبير من طلبة الأندلس ، وعاشوا فيها مددا متفاوتة ، ولقد ذكر مدرس المدرسة في معجمه أسماء كثيرة من طلبة الأندلس وتم استخراج أسماء هؤلاء من المعجم ونشر ذلك ضمن كتاب نشر بعنوان : أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي (٢١) .

ومن ناحية أخرى يؤكد السيوطي ، نقلا عن ابن خلكان ، المتوفى ٦٨١ هـ — ١٢٨٢ م ، أنه لما ملك صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، وأنه أول من قام بإنشاء عدد كبير من المدارس ، انتشرت واستمرت بعده على عهد دولتي الأيوبيين والمماليك (٢٢) .

-
- (١٨) غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٧٩ .
 حسنى عبد الوهاب : بيوت الله ، ص ٥ .
 (١٩) معروف : المدارس المستقلة ، ص ٢٠ — ٢٤ .
 معروف : مدارس واسط ، مطبعة الارشاد ، ١٩٦٦ .
 معروف : المدارس الشرايية ، مطبعة الارشاد ، ١٩٦٥ .
 (٢٠) غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٨٣ .
 عطية على : التعليم في مصر في العصر الفاطمي الاول ، ص ١٦٧ .
 (٢١) قام باعدادها وتحقيقها الدكتور احسان عباس — بيروت — ١٩٦٢ .
 (٢٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ص ٢٥٦ — ٢٧٣ .
 غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ .

وانتشرت المدارس في بلاد الشام ابتداء بما قام به الملك
السلجوقي العادل نور الدين محمود الى مدارس الأيوبيين والمماليك^(٢٣) .

وفي بلاد الحجاز أيضا ، وبالذات في مكة ، انتشرت المدارس ،
وخاصة بجوار الحرم المكي^(٢٤) .

كما انتشرت المدارس أيضا في شمال أفريقيا ، وتضاربت الآراء
حول بداية انتشار هذه المدارس في هذه المنطقة ، فبينما يرى الأستاذ
غنيمة أنه يرجع الفضل في انتشارها في هذه المناطق الى الدولتين
الحفصية في تونس والمرينية في المغرب الأقصى ، نافيا بشدة ما قاله
ابن أبي زرع من قيام يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ،
المتوفى سنة ٥٩٥ هـ — ١١٩٨ م ، بانشاء المدارس في بلاد أفريقية
والغرب والأندلس^(٢٥) يرى الأستاذ عبد الهادي التازي أنه بعد
ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظامية عرفت مدينة فاس مدارس
احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدرس من سائر أطراف
البلاد ، وحدد وجود مدرسة للمرابطين سنة ٤٦٢ هـ — ١٠٩٦ م ، بناها
يوسف بن تاشفين بعد دخوله المدينة في حوالى التاريخ المذكور ،
وأن طلاب هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتى
قتلوا جميعا ، ولذا سميت بمدرسة الصابرين ، وأن أطلال هذه المدرسة
ما زالت ماثلة الى الآن . كما يتحدث أيضا عن وجود مدارس على عهد
الموحدين^(٢٦) ، ويؤيده في هذه الفكرة الأستاذ المنونى في كتابه عن
العلوم والفنون على عهد الموحدين^(٢٧) .

(٢٣) النعمي : المدارس في تاريخ المدارس .

غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٩٩ — ١٠٧ .

(٢٤) معروف : مدارس مكة — مطبعة الارشاد ، بغداد — ١٩٦٦ .

(٢٥) غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ .

(٢٦) عبد الهادي التازي : مسجد القرويين ، ج ٢ ، ص ١٢١ —

١٢٣ .

(٢٧) محمد المنونى : العلوم والآداب ، ص ٢٠ — ٢٢ (نسخة

الرباط الصورة — ١٩٧٧) .

المدرسة في الأندلس :

تعد دراسة المدرسة في الأندلس من أصعب الأمور وأغمضها حيث تباينت حولها آراء المؤرخين بصورة شديدة ، ويساعد على هذا الغموض قلة البيانات وسكوت المراجع ولنستعرض قليلا من هذه الآراء :

يرى الأستاذ غنيمة في تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، أن الأندلس لم يتح لها أن تستفيد من هذا النوع من التعليم الا متأخرا جدا ، وكانت أول مدرسة بها في غرناطة سنة ٧٥٠ هـ — ١٣٤٩ م ، أنشئت في زمن يوسف الأول تقليدا للمدارس المغربية ، ويضيف بعد ذلك قائلا : كان التعليم بالأندلس طيلة حياة الاسلام بها مسجديا ، وفي حالات قليلة كان العلماء يقومون بالتدريس في منازلهم (٢٨) .

أما خوليان ريبيرا فيذهب الى أن تأسيس المدارس في أسبانيا الاسلامية قد أتى من ناحية الشمال أى بتأثير من أوروبا ومن أسبانيا المسيحية واضعا نظريته في الكلمات الآتية :

في أسبانيا الاسلامية ، تجلت واحدة من الظواهر العكسية التي يقدمها التاريخ أحيانا ، وذلك أن تأسيس مدرسة حكومية وعلى نفقة الدولة لم يكن تأثيرا شرقيا مباشرا ، وانما على العكس من ذلك جاء التأثير من الجانب الأوروبي ، بل هو أكثر غرابة حتى الآن فان ذلك يرجع الى أمير مسيحي ، وهو الفونسو العاشر الذي أسس في مرسية أول مدرسة اسلامية ، ذلك الشاب المحب لكافة العلوم مهما كان مصدرها . لقد سلم لأجد العلماء المسلمين ، الذي كان في الحقيقة عالما ضليعا ومبرزا في معارفه ، نعم ، لقد كان هذا العالم متعمقا في كافة العلوم ، ولا يقصد بذلك العلوم العربية فحسب ، وانما تلك التي يطلق عليها اسم العلوم القديمة ، الهندسة ، الطب ، الموسيقى ، المنطق ، وباقي غروع الفلسفة . بل ان ما هو أكثر غرابة في هذا

العالم الكبير أنه كان أستاذا قادرا على تعليم طلبة أرض شبه الجزيرة ، على اختلاف أديانهم بلغتهم أى بلغة كل مجموعة منهم ، لقد أعجب الأمير بالعالم ، وأنشأ له مدرسة ، حيث قام الرقوطة بتقديم علومه ، الى المسلمين واليهود والنصارى • لقد كان ألفونسو العاشر يعامله معاملة ممتازة ، ويفيض عليه بكرم وسماحة ، على أمل أنه باغراقه بالعطايا والهدايا يمكن له تحت ضغوط الكرم والأريحية أن يجعله يعتنق المسيحية في يوم من الأيام •

ووصلت الأخبار مدينة غرناطة : هناك ملك مسيحي أقام مدرسة لعالم مسلم لكي يتولى فيها تعليم أبناء الديانات الثلاثة ، وهنا تحرك سلطان غرناطة ، ودعاه لكي ينتقل الى مدينته ، وبعد الحاح شديد لم يجد العالم المسلم بدا من مغادرة مرسية ، وترك خدمة الملك النصراني ، وانتقل الى غرناطة (٢٩) •

ويقول الدكتور الطوخى ، ولم تعرف غرناطة نظام المدارس الذى كان معروفا في المشرق الاسلامى في أول الأمر ، ومن المعروف أن أول مدرسة بمعناها التقليدية أنشئت بالأندلس على عهد أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ — ١٣٥٤ م) ، في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وهى المدرسة النصرانية (٣٠) •

أما غارثيا غوميث فانه حين يتحدث عن يوسف الأول ، يقول : افتتح المدرسة بغرناطة ، مقلدا المدارس الشهيرة على الشاطيء الآخر من مضيق جبل طارق ، ومغايرا للتقاليد الأندلسية في مجال التعليم (٣١) • ولقد اعتمد كل من قال بهذا الرأي على عبارة لابن سعيد أوردها المقرئ يقول فيها :

(29) Ribera, J. La enseñanza entre los Musulmanes Españoles, pp. 18, 19.

(٣٠) أحمد الطوخى : الحياة الثقافية في غرناطة (رسالة دكتوراه) ،

ص ٣٠٢ •

(31) Garcia Gomez, El : Cinco Poemas Musulmanes; p. 190.

« وليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ،
بل يقرءون جميع العلوم في المساجد ، بأجرة » (٣٢) .

ومن ناحية أخرى ، هناك بعض المؤرخين الذين لا يتسرب اليهم
الشك في قيام المدارس في الأندلس — يقول الأستاذ اليطفتى : « وأما
نهضة المدارس بأسبانيا العربية فلا يتسرب الشك إليها » (٣٣) .

أما الأستاذ الحسينى عبد العزيز فيقول : « أولى حكام بنى أمية
في الأندلس العلم أكبر رعايتهم ، وجعلوا من قرطبة حاضرة دولة
عريقة تجذب الطلبة من كل فج ، فمدارسها ومعاهدها مصدر اشعاع
فكرى ، وقد كانت قرطبة تضم ثمانين مدرسة عامة ، وسبعة عشر
معهدا عدا أشياء أخرى » (٣٤) .

أما الدكتور حسن محمود فيشير الى أن كل مدينة بالأندلس
كانت تحتوى على مدرسة (٣٥) .

وينضم الى هذه المجموعة أرنست كونل ، فى كتابه عن الفن
الاسلامى قائلا : وكما أدخل صلاح الدين نظام المدرسية فى مصر
أدخله الموحد يعقوب المنصور فى أسبانيا والمغرب (١١٨٤ — ١١٩٩) ،
مع فارق بلا شك هو أن الأمر هنا يتعلق بالمعهد كمعهد ، لا تحدد
أقطار معمارية معينة . والواقع أن هذا النموذج الجديد من الأبنية
العربية الدينية ، قد بقى عديم الأهمية من حيث تطور الهندسة
المعمارية ، فى الغرب الاسلامى (٣٦) .

(٣٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los Musulmanes
Espanoles, p. 11.

(٣٣) اليطفتى : المدارس فى الاسلام ، ص ٢٢ .
(٣٤) الحسينى : الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية ، ص ١٤١ .
(٣٥) محمود (حسن) : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٢ .
(٣٦) كونل : الفن الاسلامى ، ترجمة أحمد موسى ، ص ١٢٩ .
Kuhnel; Ernest : Maurische Kunst; p. 129 (T.A.)

وأختم هذه المجموعة من الآراء بما يورده الأستاذ المنونى عن قيام الموحدين ببناء كثير من المدارس في شمال أفريقية والأندلس (٣٧) •

ويزيد الأمر صعوبة أن المستشرق الهولندى دوزى ، يرى أن كلمة « مدرسة » في أسبانيا الاسلامية لم تكن تعنى مكانا تعليميا ، وانما تعنى مكتبة (٣٨) •

ان تحقيق دراسة منطقية علمية في وسط هذا التيار ، ليس بالأمر الهين أو البسيط ، والسؤال الذى يفرض نفسه منذ البداية هو : لماذا لم تظهر المدرسة في الأندلس الا في نهاية الدولة الاسلامية على أرضها ، حسب ما يقول الفريق الأول ؟ واذا كانت قد ظهرت ، على ما يقول الفريق الثانى ، فأين هى الوثائق الكافية للدلالة عليها ؟

ولم أستطع ، رغم كثرة محاولاتي ، الوصول الى رأى نهائى أتمكن به من تأييد احدى الفكرتين تأييدا تاما أو رفضها رفضا نهائيا ، لأنه كيف يمكن أن تظهر المدارس في الشرق في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ولا تظهر في أسبانيا قبل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ونحن نعرف أن الأندلسيين كانوا مولعين بتقليد المشاركة ، وعلى علم تام بكل ما يجرى في بلادهم ؟

قد يقول قائل بأن المدارس قد ظهرت في مناطق مليئة بالصراع العقائدى وأن المدارس قد بناها أهل السنة في تلك البلاد الشرقية ، وذلك لكى يتغلبوا على الشيعة مثلما حدث في العراق وفي مصر بينما في أسبانيا الاسلامية لم تكن هناك حاجة الى مثل هذه المؤسسة ، وأن الأندلس نتيجة لوحدة المذهب فيها ولتمسكها بالسنة لم تشأ أن تدخل تقليدا لم يكن موجودا في العصور الاسلامية الأولى •

(٣٧) المنونى : العلوم والفنون والآداب ، ص ١٥ ، ١٦ ،

ص ٢٠ ، ٢١ •

(38) Dozy : Suppliment aux Dictionarres Arabes, I (Madrassa)

لكن الرد على ذلك ، أن المدارس وإن بدأت مدفوعة بهذا الغرض إلا أن بناءها استمر بعد ذلك وانتشر في مناطق ليست مهددة بالشيعية مثلما حدث في مصر على عهد المماليك ، وفي شمال أفريقيا التي كانت تدين بالمذهب المالكي ، مثلها مثل أسبانيا ، وقد دخلتها المدارس في القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) ، على ما يؤكد الدكتور عبد الهادى التازى (٣٩) ، وانتشرت بكل تأكيد منذ بداية القرن السابع الهجرى (الثالث الميلادى) • وعلاوة على ذلك ، فإن بناء المدارس قد أصبح عملا فخريا للذكرى مثله تماما مثل بناء القصور والمستشفيات •

وأما إذا قلنا بوجود بعض المدارس وتساءلنا عما يؤكدتها فقد يقول قائل ، انه ربما وجدت هذه المدارس ثم اندثرت ، واختفت باختفائها الوثائق الدالة عليها •

لكن الأمر ليس كذلك لأنه إذا ما اندثر البناء أو اختفى بسهولة فمن الصعب جدا أن تختفى بياناته التي يمكن أن توجد ضمن تراجم المعلمين الذين تولوا التدريس فيها أو ضمن أعمال من تولوا القيام بها أو انشاءها ، على ما هو الحال في المدارس الشرقية أو مدارس الأندلس في القرن الثامن •

إن البيانات التي استخرجتها من دراستى للمراجع التاريخية ، تجعلنى أميل الى القول بوجود بعض المدارس فى الأندلس اعتبارا من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، دون أن أصلا الى حد التأكيد المطلق لهذه القضية وسأطرح هذه البيانات ، تاركا للمستقبل أو للصدفة تأييد هذه المسألة تأييدا نهائيا أو رفضها رفضا باتا — معتمدا فى ذلك على عدد من الملاحظات ، التي وردت فى المراجع :

(أ) الملاحظة الأولى أوردتها ابن فرحون المتوفى ٧٩٩ هـ —
١٣٩٧ م ، عند حديثه عن أبي على الصدفى المتوفى ٥١٤ هـ — ١١٢٠ م ،
يقول فيها : ثم عاد الى الأندلس واستقر بمدرسة مرسية ، ورحل
إليه الناس (٤٠) . ولقد رجع الصدفى الى الأندلس فى عام ٤٩٠ هـ —
١٠٩٦ م (٤١) .

وعلى الرغم من أن ابن فرحون موضع ثقة المؤرخين ، إلا أنه
هو المصدر الوحيد الذى أشار الى هذه المدرسة ، والفرق الزمنى
بينه وبين الصدفى كبير جدا .

(ب) الملاحظة الثانية ، أوردتها ابن أبى زرع المتوفى ٧٤١ هـ —
١٣٤٠ م ، عند حديثه عن السلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
ابن على ، الذى تولى الحكم فى ١٩ ربيع الآخر عام ٥٨٠ هـ ، ٢٠ يولية
١١٨٤ م ، وتوفى فى ٢٢ ربيع الأول عام ٥٩٥ هـ / ٢٢ يناير ١١٩٩ م ،
حيث يقول عنه :

انه « حصن البلاد ، وضبط الثغور ، وبنى المساجد والمدارس
فى بلاد أفريقية والمغرب والأندلس ، وبنى المرستان للمرضى
والمجانين ، وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة ، على قدر مراتبهم
وطبقاتهم » (٤٢) .

(ج) أما الملاحظة الثالثة ، فلقد جاءت ضمن القصائد الشعرية
التي قيلت فى رثاء مدينة بلنسية ، ومحاولة حث الحفصيين على انتقادها
من أيدي الأراغونيين الذين استولوا عليها فى عام ٩٣٦ هـ — ١٢٣٨ م ،
غفى قصيدة ابن الأبار التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
أن الطريق الى منجاتها درسا

(٤٠) ابن فرحون : الديباج ، ص ٣٣١ .

(٤١) المقرئ : ازهار الرياض — ج ٣ ، ص ١٥٢ .

Makdese; G. : The Madrasa in Spain, p. 154.

(٤٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٢١٧ .

يقول :

يا للمساجد عادت للعدا بيعا
وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها الى استرجاع فائتها
مدارسا للمثاني أصبحت درسا (٤٣)

ويقول شاعر آخر لم يسمه المقرئ ، في رثاء بلنسية :

بأبى مدارس كالطلول دوارس
نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها
فيخاله الرائي اليه مساءها (٤٤)

ولعل هذه البيانات تكتسب أهمية ما ، اذا ما علمنا أن المؤرخين الأسبان ، يجمعون على وجود مدارس مسيحية في مدينة بلنسية بعد أيام من سقوط المدينة على يد خايمي الأول في عام ٦٣٦ هـ — ١٢٣٨ م ، وأنه في عام ١٢٤٠ م (٣٦٨ هـ) ، كانت هذه المدارس مؤكدة ، بل أن بعضهم وصل الى القول بوجود مدرسة مسيحية في مدينة بلنسية الاسلامية (٤٥) .

(٤٣) المقرئ : نفح الطيب — ج ٦ ، ص ١٩٩ .
عبد المنعم خفاجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ٣٨٨ .
الأوسى : الأدب الأندلسي في العصر الموحدى ، ص ١٣٤ .
De Schach; : Poesea y Arte dee los Arabes en Espana
y Sicilia; -162—163.

(٤٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٢٤ .
حكمت الأوسى : الأدب الأندلسي ، ص ١٣٨ .
(٤٥) أنظر الدراسة القيمة عن مدارس بلنسية على عهد خايمي الأول
التي أعدها :

Gallego Salvadores : Las Escuelas de Valencia en los
dias de Jaime el Conquistador.

Gallego «Perspectivas Pedagógicas» XXXXVII—
XXXXVIII, pp. 117—132.

ومما يجعلنى أميل أكثر الى هذا الرأى أن هذه الملاحظات لا تقل شأنًا عما يقدمه المؤرخون على أنه مدارس مؤكدة مثل مدرسة مرسية أو مالقة أو غرناطة التى سنتناولها فيما بعد .

أما من ناحية ما يمكن أن يشبه المدارس الخاصة فاننى توقفت أمام ملاحظتين ، الأولى منهما أن فرج بن غزلون العسال اليحصبي الطليطلى ، الذى توفى فى عام ٤٤٨ هـ - ١٠٥٦ م ، قد حبس داره على طلبة السنة (٤٦) ، مما يدفع الى التساؤل : لماذا طلبة السنة ؟ ومن هم ؟ وأين هم ؟ والثانية أن الفقيه أحمد بن جعفر الخزرجى ، أبو العباس السبتي ، كان يقيم فى فندق ، ويعلم الحساب والنحو ، ويأخذ الأجرة على ذلك ، ويقال أنه بات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالذاكرة ، وجاء الحرس لمنعهم (٤٧) .

المدارس المؤكدة

١ - مدرسة مرسية :

وهى مدرسة أقامها الأمير المسيحى ، ألفونسو العاشر ، حينما دخل مرسية ووجد بها العالم محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، ويحكى ابن الخطيب قصة هذا العالم ومدرسته على النحو التالى :

محمد بن أحمد الرقوطى المرسى (٤٨) : كان حجة فى المعرفة القديمة ، المنطق ، والهندسة والعدد والموسيقا والطب ، فيلسوفا ، وطبييا ماهرا - آية الله فى المعرفة بالألسن ، يقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التى يرغبون فى تعلمها ، شديد البأس ، مترفعا ، متعاطما .

(٤٦) إرسال : الحلال السندسية - ج ٢ ، ص ٢١ .

(٤٧) المقرئ : نفح الطيب - ج ١٠ ، ص ١٣٥ .

(٤٨) نسبة الى رقوطة ، وهى بلدة صغيرة فى شرق الاندلس ، تقع على مقربة من شمال غربى مرسية ، على الضفة الغربية لنهر شقورة .

(م ٢٥ - تاريخ التعليم)

عرف طاغية الروم حقه ، لما تغلب على مرسية (٤٩) ، فبنى له مدرسة يقرى فيها المسلمين ، والنصارى ، واليهود ، ولم يزل معظما عنده . ومما يحكى من ملحه معه ، أنه قال له يوما وقد أدنى منزلته ، وأشاد بفضله : لو تنصرت وحصلت الكمال ، كان عندى لك كذا ، وكنت كذا ، فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده ، قال لأصحابه : أنا الآن أعبد واحدا ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما أراد منى .

وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر (السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ — ٧٠١ هـ (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) ، واستقدمه ، وتعلم له (٥٠) . هذا ولقد نقل المقرئ نفس الترجمة تقريبا (٥١) .

٢ — مدرسة مالقة :

لا شك أن مالقة كانت مركزا فكريا ، غاية في الأهمية ، على مدار تاريخها الاسلامى ، وكان مسجدها الجامع من أكثر مساجد المملكة النصرية شهرة ، حيث درس فيه كبار علماء هذه المملكة .

ويشير كل من المؤرخين الأسبانيين سيمونت وجين روبلس الى وجود « مدرسة عظمى » أو جامعة مالقة ، وأنها كانت مقامة فى صحن البرتقال بالمسجد الجامع بالمدينة ، ويصران على أن الفقيه محمد بن

(٤٩) تم احتلال مرسية فى ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م .

(٥٠) ابن الخطيب : الاطلة ٢ ج ٣ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana ; pp. 109 — 110.

Martínez Ripoll ; Aportaciones a la vida cultural de Murcia en el S. XIII, pp. 36 , 37.

(٥١) المقرئ : فتح الطيب ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ .

محمد بن يوسف الطنجالي (٥٢) ، المتوفى في عام ٧٣٣ هـ — ١٣٣٢ م ،
قد قام بالتدريس بها وأنها كانت مستقلة تماما عن المسجد الجامع
بمالقة (٥٣) .

وأقيمت في مالقة أيضا مدرسة أخرى قبل قيام المدرسة النصيرية
في غرناطة أنشأها الصوفي محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم
الأنصاري أبو عبد الله الساحلي الذي عاش بين عامي ٦٧٨ — ٧٥٤ هـ /
٢٧٩ — ١٣٥٣ م (٥٤) — بناها من مال أعطاه إياه بعض الأغنياء ، من
وزراء الدول بالمغرب ، وأقامها في الجانب الغربي من المسجد الأعظم ،
وأوقف عليها الرباع ، وابتنى غيرها من المساجد ، ويبدو أن صاحب
هذه المدرسة ووالده الشيخ الصوفي أبو عبد الله الساحلي (٥٥) ،
المتوفى ٧٣٥ هـ — ١٣٣٤ م ، كانا على صلة طيبة بابن الخطيب حيث
كان يندبهما في بعض المهمات السياسية الى المغرب .

وحيثما توفي الوالد ، حاول ابنه أن يواصل مكانته ، وأن يترقى
في مدارج الصوفية مثله ، ولكنه حصل جأها عريضا ، ومالا كثيرا ،
جعله ينحرف عن ما يجب أن يتحلى به ، ولعل ذلك مما سبب تساؤلات
كثيرة عن مصدر هذه الأموال ، وأثار غضب أتباعه ، فاضطره ذلك
الى الرحيل الى المشرق ، ثم عاد الى الأندلس ، مليح الشبهة ، بادي
الوقار ، نبيه الرتبة فتولى الخطابة الى حين وفاته (٥٦) .

وترى الدكتورة ماريا خيسوس روبيرا في هذه المدرسة ، المكان

(٥٢) ابن القاضي : درة الخجال — ج ١ ، ص ٢١٠ (الترجمة ٥٤٩)
(53) Guillen Robles : *Historia de Malaga Muslmana*; p. 316,

(٥٤) أشارت الى هذه المدرسة الدكتورة ماريا خيسوس روبيرا ،
اعتمادا على بعض أشعار لابن الجيب يهنيء فيها أبا عبد الله الساحلي
لأنه أول مدرسة في الأندلس : انظر :

Rubiera Mo. J. : *Datos sobre una madrasa en Malaga
anterior de Granada.*

(٥٥) انظر ترجمة الوالد في الاطاحة — ج ٣ ، ص ٢٢٩ — ٢٤١ .

(٥٦) ابن الخطيب : الاطاحة — ج ٣ ، ص ١٩١ — ١٩٣ .

الذى مارس فيه الأساتذة التعليم لأول مرة بعيدا عن المسجد في الأندلس ، وأنها لم يكن لها الصفة الرسمية التى كانت لمدرسة غرناطة أو لمدارس الشرق الاسلامى ، وتعتقد أنها كانت ذات صبغة صوفية بحتة مما قد يفسر لنا الاختفاء الغامض لكل ما يشير الى هذه المدرسة ، حيث اختفت تماما واختفى كل ما قد يشير اليها بعد ذلك (٥٧) .

٣ — بدايات المدارس في غرناطة :

شهدت غرناطة أول محاولة لاقامة مدرسة ، حينما خصص السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، سلطان غرناطة من سنة ٦٧١ الى ٧٠١ هـ (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) منزلا للفقيه محمد ابن أحمد الرقوطى بعد أن أحضره من مرسية ، لى يتولى فيه تعليم الطلبة العلوم الطبية والفلسفية وغيرها ، بل انه كان — أكثر من ذلك — يقوم باختبار من يرد على غرناطة ، للتعرف على مستواه ، ومكانته . يقول ابن الخطيب عن ذلك الرجل :

« وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر ، واستقدمه وتلمذ له ، وأسكنه فى أعـدل البقع . من حضرته ، وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطب والتعاليم وغيرها ، اذ كان لا يجازى فى ذلك ، وكان قوى العارضة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابى حضرته ، ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم لتمكنه ودالته (٥٨) . »

ويرى خوليان ريبيرا ، أنه بوفاة الأستاذ الرقوطى ، أغلقت بذلك أبواب أول محاولة لتدخل الدولة فى نظام التعليم فى الأندلس (٥٩) .

(57) Rubiera, Mo. Jesus : Datos sobre una madras en Malaga anterior a la de Granada, p. 226.

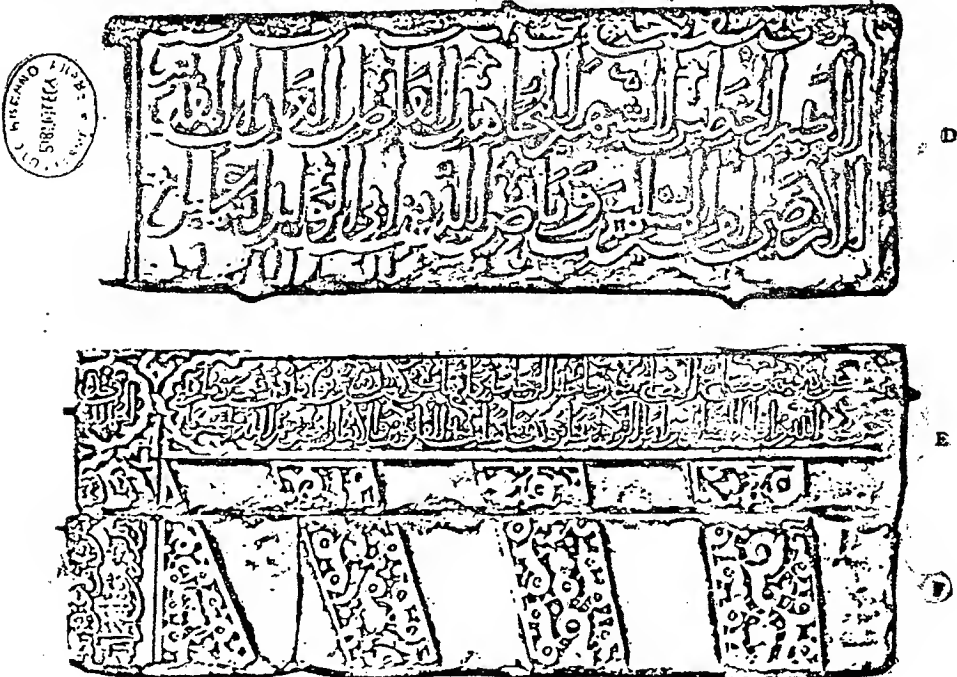
(٥٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٦٨ .

(59) Ribera; J. : Ho. de la ensenaaza entre los Espanoles Musulmanes, p. 20.

مرسوم بالمدرسة النصرية بفرنطة على ما نقله ليفي
بروفينسال ، والقطعة الموجودة في متحف الآثار بفرنطة

أمر بنا هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونورا وأدامها في علوم الدين على الأيام أمير
المسلمين أظله الله بعونه (١) العليّ الشهير الكرم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد
أبو الحجاج يوسف ابن العليّ الكرم الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدس
الأرضي أمير المسلمين وناصر الدين أبي الوليد إسماعيل بن قرج بن نصر كافي الله في الإسلام
صنائه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية ونمّ ذلك في شهر محرّم عام خمسين وسبعائة

A' ordonné la construction de cette demeure (consacrée) à la science — qu'Allah en fasse
un établissement de droiture et de lumière et qu'Il la fasse durer au long des jours pour les
sciences de la religion! — l'émir des Musulmans — qu'Allah le protège par son aide! (١) —
l'élevé, le célèbre, le noble, le fortuné, le pur, le haut, le héros, le sultan assisté par Dieu, ABU
'L-HAGGĀG YUSUF, fils de l'élevé, du noble, du grand, du considérable, du célèbre, du guerrier
pour la foi, de l'excellent, du juste, du sanctifié, du très agréé, l'émir des Musulmans et le
défenseur de la religion, ABU 'L-WALID ISMĀ'IL IBN FARĀG B. NAṢR. Qu'Allah récompense pour
l'Islam ses actions vertueuses et accepte favorablement ses hauts faits de guerre sainte! Et cela
fut terminé dans le mois de muḥarram de l'an 750 (22 mars—20 avril 1349).



N° 172. Grenade (750 H). Fragments épigraphiques de la Medersa. Détail.

ولنتحدث الآن عن أشهر المدارس التي ظهرت في غرناطة :

(١) المدرسة النصرية :

أشهر المراكز التعليمية في الأندلس ، بعد مسجد قرطبة ، بنيت على عهد السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ = ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) ، يناء على مبادرة من الحاجب رضوان النصرى . ولقد جازت هذه المدرسة شهرة واسعة حتى أجمع كافة المؤرخين تقريبا على اعتبارها أولى المدارس في الأندلس ، كما أنها هي المدرسة الوحيدة التي وصلت بعض أجزائها الى أيامنا هذه .

وليسوف أعتمد على ترجمة ابن الخطيب التي أوردها لمعاصره وصديقه الحاجب رضوان ، مؤسس هذه المدرسة ، لأن فيها ما قد يسمح لنا بايضاح بعض النقاط ، ونص الترجمة كالآتي :

رضوان النصرى الحاجب المعظم

حسنة الدولة النصرية ، وفخر موالينا :

.. رومى الأصل ، أخبرنى أنه من أهل القلصادة ، وأن انتسابه يتجاذبه القشتالية من طرف العمومة ، والبرجلونية من طرف الخؤولة ، وكلاهما نبيه فى قومه . وأن أباه ألجأه الخوف بدم ارتكبه فى محلة أصالته من داخل قشتالة الى السكتى بحيث ذكر ، ووقع عليه سباء فى سن الطفولية ، واستقر بسببه بالدار السلطانية ، ومحض اجراز رقة ، السلطان دايل قومه ، أبو الوليد المار ذكره ، فاختص به ، ولازمه قبل تصير الملك اليه ، مؤثرا له معتبلا بمخائل فضله وتمائل استقامته ، ثم صير الملك اليه فتدرج فى معارج حظوته ، واختص بتربية ولده ، وركن الى فضل أمانته ، وظلله فى قرب الجوار بنفسه ، واستجلى الأمور المشككة بصدقه ، وجعل الجوائز السنية لعظماء دولته على يده ، وكان يوجب حقه ، ويعرف فضله ، الى أن هلك ، فتعلق يكف ولده ، وحفظ شمله ، ودبر ملكه ، فكان آخره للخف ، وستر

للحرم ، وشجى للعبد وعدة في الشدة ، وزينا في الرخاء ، رحمة
الله عليه •

كان هذا الرجل مليح الشية والهيئة ، معتدل القند والسحنة ،
مرهب البدن ، مقبل الصورة ، حسن الخلق ، واسع الصدر ، أصيل
الرأى ، رصين العقل كثير التجمال ، عظيم الصبر ، قليل الخوف
في الملمات ، ثابت القدم في الأزمات ، ميمون البقية ، عزيز النفس ،
عالي الهمة ، بادي الحشمة ، آية في العفة ، مثلاً في النزاهة ، ملتزماً
للسنة ، دعويّاً على الجماعة ، جليس القبلة ، شديد الإدراك من السكون ،
ثاقب الذهن مع اظهار الغفلة ، مليح الدعابة مع الوقار والسيكينة
مستظهِراً لعيون التاريخ ، ذاكرة للكثير من الفقه والتحديث ، كثير
الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد ، عارفاً للسياسة ، مكرماً
للعلماء ، مدركاً للهوادة ، قليل التصنع ، نافرماً من أهل البدع ، متساوياً
الظاهر والباطن ، مقتصداً في المطعم والملبس •

اتفق على أنه لم يعاقر مسكراً قط ، ولا زل بهناة ، ولا لطخ
بريية ، ولا وسم بخلة تقدح في منصب ، ولا باشر عقاباً جاز ،
ولا أظهر شفاء من غائط ، ولا اكتسب من غير التجر والفلاحة مالا •

أحدث المدرسة بغرناطة ، ولم تكن بها بعد ، وسبب اليها الفوائد ،
ووقف عليها الرباع المغلة ، وانفرد بمنقبها ، فجاءت نسيجة وجدها
بهجة وصدرها وظرفا وفخامة ، وجلب الماء الكثير اليها من النهر ،
فأبد سقيه عليها ، وأدار السور الأعظم على الريض الكبير المنسوب
للبيازين ، فانتظم منه النجد والغور ، في زمان قريب ، وشارفت التمام
الى هذا العهد ، وبنى من الأبراج المنبئة في مثالم الثغور وروابي
مطالعها المنذرة ، ما ينيف على أربعين برجاً ، فهي مائلة كالنجوم ما بين
البحر الشرقي من ثغر بيرة الى الأحواز الغربية ، وأجرى الماء ببر
مورور ، مهتدياً الى ما خفي على من تقدمه وأفذاذ أمثال هذه الأ
يشق بعباده •

غزا في السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة ، وهي ما هي من الشهرة ، وكرم البقعة ، فأخذ بمخنتها ، وشد حصارها وعلق الصريح عنها ، فتملكها عنوة وعمرها بالحماة ورتبها بالمرابطة ، فكان الفتح فيها عظيما ، وفي أوائل شهر المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عدو المشرق ، وطوى المراحل مجتازا على بلاد قشتالة ، لورقة ومرسية ، وأمن فيها ، ونازل حصن المدور ، وهو حصن أمن غائلة العدو (مكتنف بالبلاد ، مد بالبسينى موضوع على طية التجارة ، وناشبه القتال ، فاستولى عنوة) ، عليه منتصف المحرم من العام المذكور ، وآب مملوء الحقائق سبيا وغنما .

وغزواته كثيرة ، كمظاهرة الأمير الشهير أبى مالك على منازل جبل الفتح ، وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر وأوثر عنه من المنقبة ، الدالة على صحة اليقين ، وصدق الجهاد ، إذ أصابه سهم في ذراعه وهو يصلى ، فلم يشغله عن صلاته ، ولا حمله توقع الاغارة على ابطال عمله .

لما استوثق أمر الأمير المخصوص بتربيته ، محمد ، ابن أمير المسلمين أبى الوليد نصر ، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ، ووقع بينه وبين المترجم عهد على الوفاء والمناصحة ، ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة وبعثه ليلا الى مرسى المنكب ، واعتقله في المطبق من قضبتها ، بغيا عليه ، وارتكب فيه أشنوعة أساءت به العامة ، وأنذرت باختلال الحال ، ثم أجازته البحر ، فاستقر بتلمسان ، ولم يلبث أن قتل المذكور ، وبادر سلطانه الموتور بفرقة عن سدته ، فاستدعاه فلحق محله من هضبة الملك متمليا ما شاء من عز وعناية ، فصرفت اليه اليد ، ونيطت به الأمور ، وأسلم اليه الملك ، وأطلقت يده في المال ، والأحوال الى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، والثالث الأمر ، من سلطانه التكر عليه ، فعاجله الحمام فخلصه الله منه ،

وولى أخوه أبو الحجاج من بعده ، فوقع الاجماع على اختياره للوزارة
أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، فرضى الكل به ، وفرحت
العامة والخاصة للخطبة ، لارتفاع المنافسات بمكانه ، ورضى الأضداد
بتوسطه ، وطابت النفوس بالأمن من غائلته ، فتولى الوزارة وسحب
أذيال الملك ، وانفرد بالأمر واجتد في تنفيذ الأحكام ، وتقدم الولاة ،
وجواب المخاطبات ، وقواد الجيوش الى ليلة الأحد الثانى والعشرين
من رجب عام أربعين وسبعمائة ، فنكبه الأمير المذكور ، نكبة ثقيلة
البرك ، هائلة الفجأة من غير زلة ماثورة ، ولا سقطة معروفة ،
الا ما لا يعدم بأبواب الملوك من شرور المناقشات ، ودبيب السعايات
الكاذبة ، وقبض عليه بين يدى محراب الجامع من الحمراء اثر صلاة
المغرب ، وقد شهر الرجال سيوفهم فوقه يحفون به ، ويقودونه
الى بعض دور الحمراء ، وكبس ثقات السلطان منزله ، فاستوعبوا
ما اشتمل عليه من نعمة ، وضم الى المستخلص عقاره ، وسوغ الخبر
عظيم غلاته ، ثم نقل بعد أيام الى قصبة المرية محمولا على الظهر ،
فشد بها اعتقاله ورتب الحرس عليه الى أوائل شهر ربيع الثانى
من عام أحد وأربعين وسبعمائة ، فبدأ للسلطان فى أمره ، واضطر الى
اعادته ، ووجد فقد نصحه ، وأشفق لما عدم من أمانته ، والانتفاع
برأيه ، وعرض عليه بما لنوم الكف والاقصار عن ضره ، فغفا عنه ،
وأعاده الى محله من الكرامة ، وصرف عليه من ماله ، وعرض الوزارة
فأبأها ، واختار جرد العافية ، وأنس لذة التخلّى ، فقدم لذلك من سد
الثغور ، فكان له اللفظ ، ولهذا الرجل المعنى ، فلم يزل مفزعا للرأى ،
مجلى فى العظة على الولاية ، كثير الآمل والغاشى الى أن توفى السلطان
المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فشعب
الناس ، وحفظ البلوى ، وأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد
أبى عبد الله ، وقام خير قيام بأمره ، وجرى على معهود استبرائه ،
وقد تحكمت التجربة ، وعلت السن ، وزادت أنة الخشية وقربت
من لقاء الله الشقة ، فلا تسأل عما حط من خل ، وأفاض من عدل ،
وبذل من مداراة ، وحاول عقد السلم ، وسد أمور الجند على القل ،

ودامت حاله متصلة على ما ذكر ، وسنه تتوسط عشر التسعين الى أن
لحق بربه ، وقد علم الله أني لم يجهلني على تقرير سيرته ،
والاشادة بمنقبته داعية ، وإنما هو قول بالحق ، وتسليم لحجة
الفضل ، وعدل في الوصف ، والله عز وجل يقول : « وإذا
قلتم فاعبدوا » .

في ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين
وسيعمائة طرقت منزله بعد فراغه من احياء ثلث الليل ، متبدل اللبسة ،
خالص الطوية ، مقتضيا للأمن مستشعرا للعافية ، قائما على المسلمين
بالكل ، حاملا للعظيمة ، وقد يادره الغادرون بسيلطانه ، فكسروا
غلقه بعد طول معالجة ، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده ، وذهبوا
الى الدايل برأسه ، وفجعوا الاسلام ، بالسائس الخصيب المتقاضى ،
راكب متن الصبر ومطوق طوق النزاهة والعفاف ، وآخر رجال الكمال
والسمير ، الضافي على الأندلس ، ولوئثم من الغد بين رأسه وجسده ،
ودفن بازاء لحود مواليه من السيكة ظهرا ، ولم يشهد جنازته
الا القليل من الناس ، وتترك بعد بقبيره (٦) .

ودراسة هذه الترجمة تطرح أمامنا سؤالا هاما حول الوقت الذي
بدأ فيه الحاجب رضوان بناء هذه المدرسة والمدة التي استغرقها
التنفيذ . يرى المستشرق الأسباني لويس ثيكو دى لوثينا أن العمل
قد انتهى في عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م حيث تشير الي ذلك اللوحة
التذكارية التي كانت منصوبة على واجهة المدرسة ، والباقية حتى اليوم
في متحف الآثار بغرناطة . كان العمل قد بدأ منذ مدة طويلة -
ترجع الى عشر سنوات على الأقل ، حيث أننا نعرف أن يوسف الأول
قام بعزل الحاجب رضوان وسجنه في ٢٣ يناير ١٣٤٠ م ، وأن هذا
لم يعد الى سلطته الا في ١٩ أكتوبر ١٣٤٩ م ، وحيث أن المدرسة

كانت بدايتها على يد الحاجب رضوان ، فمن الضروري أن يكون ذلك
للعمل قد بدأ قبل الثالث والعشرين من يناير عام ١٣٤٠ (١١) •

وليس من السهل مجاراة الباحث الأسباني في هذا الرأي ، وخاصة
إذا كان الأمر يتعلق بمؤسسة ليست من الضخامة بحيث تستغرق كل
هذه المدة الزمنية ، علاوة على أن الكتب التاريخية لم تشر الى ذلك
أية اشارة ، يستدل منها على بدء البناء في المدرسة قبل ذلك بعشر
سنوات وخاصة أن النظامية في بغداد لم يستغرق بناؤها أكثر من
عامين فقط •

ان التعبير الذي استخدمه ابن الخطيب للدلالة على ذلك ليس
واضحا جدا ، فالكلمة « أحدث المدرسة » لا تعنى بالضرورة « بنى
المدرسة » بقدر ما تعنى « أوجد المدرسة » ، خاصة اذا كان ابن الخطيب
قد استعمل الفعل « بنى » عند حديثه عن مدرسة مالقة ، ومن
المحتمل أن المبنى كان قائما ، وأن الحاجب رضوان قد قام بتخصيصه
لهذا الغرض مدخلا عليه التعديلات اللازمة من زخرفة أو غير ذلك ،
وبالتالى فالأمر لا يحتاج الى وقت طويل ، ويكون ذلك قد تم خلال
عامي ٧٤٨ و ٧٤٩ هـ ، حيث كان الحاجب في تلك الفترة يتمتع بسلطة
حقيقية ، فنراه قائدا لجيوش غرناطة ، في حملتها ضد حصن قنيط (١٢) •

أما الاحتمال الثانى ، فهو حيث أن كلمة « أحدث » لا تستبعد
قيامه بالبناء ، فاننى أميل الى اعتبار عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م ، العام
الذى بدأ فيه الحاجب مشروع المدرسة ، وبالتالي من المعقول أن
يستمر البناء فيها عاما أو عامين •

أما تاريخ الانتهاء من بناء المدرسة فهو أيضا مثير للتساؤل ،

(61) Seco de lucena : El Hayib Ridwan y Granada;
p. 295 — al Andalus XXI (1956) 285—296.

(٦٢) شبانة : يوسف الاول « الرسالة الثانية » ، ص ٢٢٧ .
Seco de Lucena : Op. Cit., p. 293.

على الرغم من اللوحة التذكارية التي تحدد افتتاح المدرسة في عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م^(٦٣) ، وهنا سببان لمثل هذا الشك : السبب الأول أن أبا الحسن بن الجياب ، المتوفى في شوال من عام ٧٤٩ هـ / يناير ١٣٤٩ م ، قد كتب الأبيات التالية ، التي يؤكد المقرئ ، أنها كتبت على باب المدرسة العلمية بغرناطة :

يا طالب العلم هذا بابه فتحا
فادخل تشاهد سناء لاح شمس ضحى
واشكر مجيرك من حل ومرتحل
اذ قرب الله من مرمك ما نزحا
وشرفت حضرة الاسلام مدرسة
بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا
أعمال يوسف مولانا ونيته
قد طرزت صحفا ميزانها رجحا^(٦٤)

لم تظهر هذه الأبيات ضمن ما نقله الموريسكى الونسو ديل كاستيليو ، مما يسبب مشكلة التناقض مع قول المقرئ ، بأنها كانت على باب المدرسة وعدم ظهورها ضمن ما نقله هذا الموريسكى - والاشكال الثانى يتجلى فى قول المقرئ بأنها كانت على باب المدرسة العلمية ، فهل يعنى ذلك وجود مدرستين ؟ ان ذلك قد يحل مشكلة التناقض المشار اليه ، لكن نص مرسوم افتتاح المدرسة القائل : « أمر بناء هذه الدار للعلم » ، يمكن أن يفسر قول المقرئ بأنها على باب المدرسة العلمية دون أن يعنى ذلك وجود أخرى ، وتبقى المشكلة معلقة ، بالضبط كما شرحها البروفيسور كابانيلاس .

(63) Levi Provencal : Inscripciones Arabes de Granada pp. 158 , 159.

(٦٤) المقرئ : نفح الطيب - ج ٧ ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
Rubiera ; Mo. Jesus : Ibn al Yayyab y su época (Tesis Doctoral inédita; Madrid 1972).

والسبب الثانى هو ما جاء فى ترجمة محمد بن محمد بن محارب الصريحى المتوفى فى عام ٥٧٥٠ هـ — ١٣٤٩ م ، من أنه دخل غرناطة مرات ، متعلما وحاجا ودعى للاقراء بمدرستها النصرية عام ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطانى ، واعتذر بما قبل فيه عذره (٦٥) .

ونستنتج من هاتين الملاحظتين ، أن المدرسة كانت قد تمت تماما خلال عام ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م ، وان كان افتتاحها الرسمى قد تأجل حتى الشهر الأول من عام ٧٥٠ هـ (٢٢ مارس — ٢٠ أبريل ١٣٤٩ م) .

أوقف الحاجب رضوان على المدرسة الرباع المغلة ، وسبب لها الفوائد ، وجلب اليها الماء من النهر ، حتى جاءت نسيجة وحدها ، بهجة وصدرا وظرفا وفخامة .

ويبدو أن أوقاف المدرسة كانت كثيرة حتى أن الأمر قد استدعى أن يعين لها مسئول مخصوص هو محمد بن قاسم بن أحمد بن ابراهيم الأنصارى (توفى بعد عام ٧٧٠ هـ) ، الذى يقول عنه ابن الخطيب :

وهو الآن مستوطنا حضرة غرناطة ، وتاليا للأعشار القرآنية بين يدي السلطان ، أعزه الله ، مرفع الجانب ، معزز الجراية بولايته أحباس المدرسة (٦٦) .

ولابد من الإشارة أيضا الى وجود بعض الفنادق المجاورة للمدرسة والتي كانت محبسة على بعض مساجد غرناطة ، مما يعطى الاحتمال فى استعمالها لصالح المدرسة لمبيت الطلبة والغرباء (٦٧) .

(٦٥) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٢٤٩ .

(٦٦) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ١٩٦ — ١٩٩ .

(67) Seco de Lucena : Notas de Arqueologia de Granada

(Cuadernos dr Alhambra No. 6 MCMLXX.

Vellanueva; C. : Habices de las Mezquitas la ciudad de

Granada y sus Alquerias, pp. 27 , 28.

ولقد زخرت المدرسة بالأبيات الشعرية والآيات القرآنية ،
فحملت على بابها كثيرا من الأبيات الشعرية ، فعلاوة على أبيات
ابن الجيـاب الأربعة التي يؤكد المقرئ أنها كتبت على باب المدرسة ،
نقل الينا الموريسكى « ألونسو دي كاستيو » ، المترجم الرسمى لبلاط
الملك الأسباني فيليب الثانى (٦٨) ، ثلاثة أبيات من الشعر وجدت على
الباب الرئيسى للمدرسة ، وهى :

انظر الى روض عجيب المنظر
قد راق حسنا لامعا فى الحجر
وتأمل الباب النسيج صناعته
تبدى الجلال بوضعه المتخير
وادخل عليه للصلاة مبادرا
لتفوزا انعاما بيوم العشر (٦٩)

أما فى الرواق الداخلى فقد وجد نفس الرجل الأبيات التسعة
التالية :

ألا هكذا تبنى المدارس للعلم
وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم
ويقصد وجه الله بالعمل الرضا
وتجنى ثمار العز من شجر العزم
تفاخر منى حضرة الملك كلما
تقدم خصم فى الفخار الى خصم
فأجدى اذا ضن الغمام من الحيا
وأهتدى اذا جن الظلام من النجم

(٦٨) انظر :

Cabanelas; D. : Inscripción Poética de la Antigua Ma-
drasa granadina, pp. 14, 15.

(٦٩) نفس المتر ، ص ١٢٨ .

فيا ظاعنا للعلم يَطلب رحلة
كفيت اعتراض اليد أو لجج اليم
بيابى حط الرجل لا تنو وجهة
فقد فزت في حال الاقامة بالغنم
فكم من شهاب في سمائي ثاقب
ومن هالة دارت على قمرةم
يفيضون من نور مبين الى هدى
ومن حكمة تجلو القلوب الى حكم
جزئ الله عنى يوسف خير ما جزى
ملوك بنى نصر عن الدين والعلم (٧٠)

هذا ولقد حاول المستشرق الأسباني داريو كابا نيلاس ،
التعرف على مؤلف هذه الأبيات الاثنى عشر ، لكنه لم يصل الى
نتيجة مخددة (٧١) ، ولم أستطع أنا أيضا التعرف على شخصية مؤلف
الأبيات الثلاثة الأولى ، التى أوردها ألونسو دل كاستيو ، فى حين يؤكد
المقرئ أن الأبيات التسعة الأخرى ، هى لابن الخطيب ، وأنها كتبت على
المدرسة النصرية بغرناطة (٧٢) .

وليس لدينا بيانات كافية ، تساعد على رسم صورة لما كانت عليه
المدرسة ، ولكن يمكن أن نتخيل البناء من واقع الحال ، ومما تقدمه لنا
مدارس شمال أفريقيا ، بأنه كان محتويا على بهو واسع تحيط به
رواقات جانبية تستخدم للتدريس ، وأنه يحتوى على طابق علوى

(٧٠) المقرئ : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ١٨٦ .

ازهار الرياض — ج ١ ، ص ٢٧٢ .

P. Cabanelas, D. : Inscripción Poética, p. 20.

(٧١) Cabanelas, D. : Inscripción Poética de la antigua
Madrása, pp. 23, 24.

(٧٢) المقرئ : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ١٨٦ .

ازهار الرياض — ج ١ ، ص ٢٧٢ .

يستخدم لمبيت الطلبة الغرباء الواردين الى المدرسة • وعلاوة على ذلك، وفي نهاية الفناء الكبير ألحق بالمدرسة مصلى صغير لأقامة الصلاة ، وهذا الجزء من المدرسة هو الذى تبقى على صورته الأصلية حتى يومنا (٧٣) • وتؤكد الوثائق وجود مساكن للطلبة الى جوار المدرسة (٧٤) •

وعلاوة على ذلك ، ألحق بالمدرسة مكتبة خاصة بها ، وتعهده سلاطين غرناطة هذه المكتبة بامدادها بالكتب — ومن الكتب التى وقفت على هذه المدرسة فى فترات لاحقة ، كتاب الاحاطة لابن الخطيب ، حيث أمر سلطان غرناطة بوقفه على المدرسة فى عام ٨٢٩ هـ ، ولقد كتب صيغة هذا الوقف الفقيه الغرناطى الكبير ابن عاصم (٧٥) ، وهناك كتب أخرى تم وقفها على المدرسة مثل كتاب « الاشارات والتنبهات » وكتاب « ابن معط » (٧٦) •

ولقد قام بالتدريس فى المدرسة مجموعة من كبار الأساتذة مثل قاسم بن لب ، حامل لواء التحصيل ، ومحمد بن على الخولانى أستاذ الجماعة وشيخ النحاة فى عصره ، ويحيى بن أحمد بن هذيل ، آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس ... الخ •

ويلاحظ أن مدرسة غرناطة تختلف عن بعض المدارس الشرقية من حيث عدد المدرسين الذين يعملون بها فى وقت واحد فبينما نجد أن النظامية يتولى التدريس فيها مدرس واحد هو الشيخ الشيرازى ، نرى أن مدرسة غرناطة مختلفة أيضا ، ففي الوقت الذى كان التجيبى (توفى ٧٥٣ هـ — ١٣٥٢ م) يدرس العلوم العقلية ، كان الخولانى

(٧٣) عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال ، ص ١٧٢ •

(٧٤) ميناويوفا : أحباس المساجد بمدينة غرناطة ، ص ٢٧ •

(٧٥) ابن الخطيب : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ٣٠٨ — ٣١١ •

المقرى : أزهار الرياض — ج ١ ، ص ٥٥ •

(٧٦) الطوخى : الحياة الثقافية فى غرناطة ، ص ٣٠٢ •

(رسالة دكتوراه لم تطبع بعد) •

- (توفي ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣ م) يدرس النحو والآداب ، والسيارى
• (٧٥٣ هـ - ١٣٥٢ م) يدرس الفقه • والحقيقة أن مدرسة غرناطة
قد ضمت بين جذرائها كبار الشيوخ على عهدا ، ولم يكن من
السهل القيام بالتدريس فيها فهي أنوه مواضع التدريس بالحضرة
كما يقول ابن الخطيب فالسلطان شخصا يتدخل فى ذلك ، ولا بد
من توصية أحد كبار العلماء مثلما حدث مع منصور الزواوى الذى
أوصى به شيخ النحاة الخولانى (٧٧) ، وأقدم فيما يلى ترجمة لبعض
أساتذة المدرسة ، الذين أمكننى التأكد من قيامهم بالتدريس فيها :

ابراهيم بن على بن محمد الربيعى التونى

(توفى فى عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ - ١٤٧٠ م)

ذكره جورج مقدسى من بين مدرسى المدرسة النصرية ، ضمن
مقاله عن المدرسة فى أسبانيا •

ويقول عنه السخاوى انه من تلاميذ القاضى عبد القادر المالكى ،
درس الفقه وأصوله ، وأذن له فى تدريسهما (٧٨) •

ابراهيم بن محمد بن فتوح العقيلى الأندلسى

توفى : ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م

هناك اختلاف كبير فى تاريخ وفاته حيث ورد فى نيل الابتهاج وفى
الضوء اللامع أنه عام ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م ، وفى درة الحجال ، أنه
عام ٨٦٩ هـ - ١٤٦٤ م •

(٧٧) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ٣٢٨ •

(78) Makdese, George : The Madrasa in Spain, Some
Remarks, p. 154.

Revue de L'Occident Musulman et de la Mediterranée
Numeros 15—16 2o. Semestre 1973.

(م ٢٦ — تاريخ التعليم)

ويقال عنه ، انه كان مفتى غرناطة المالكي ، وكان اقراؤه بالمدرسة ،
وهو أنه مواضع التدريس بغرناطة (٧٩) •

أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري

توفي : ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م

يقول عنه الدكتور شبانة ، انه من أشهر أساتذة المدرسة (٨٠) ، ثم
يعود ليؤكد من جديد ، أنه أوقف جزءا من حياته على خدمة مدرسة غرناطة ،
حيث درس لتلاميذها (٨١) ، وفي موضع ثالث يقول : أنه قضى شطرا
هاما من حياته بمدرسة غرناطة (٨٢) ، لكن لم يتبين لي من أى مصدر
آخر أن ابن خاتمة عمل بالمدرسة ، وانما عمل كثيرا في مسجد المرية •

وأورد ابن الخطيب ترجمة طويلة جدا من ٢٠ صفحة كاملة ،
عن صديقه ابن خاتمة ، لم يشر فيها الى أنه عمل بالمدرسة ، وانما
أشار الى أن مجيئه الى غرناطة ، كان لمجرد الزيارة في بعض
الأيام (٨٣) • كما أن ابن الأحمر لم يشر الى ذلك اطلاقا (٨٤) •

وفي درة الحجال لم يشر اطلاقا الا أنه عمل بمدرسة غرناطة (٨٥) •

هذا ولقد كتبت السيدة سوليداد خيلبرت ، مقدمة قيمة لتحقيقها
لديوان ابن خاتمة ، أشارت فيها الى كافة المصادر التي تناولت حياة هذا
العلم اللمرى : تاريخ ميلاده ، وفاته ، أعماله الأدبية ، علاقته بابن

(٧٩) ابن القاضى : درة الحجال ، ص ١٠٥ •

السخاوى : الضوء اللامع — ج ١ ، ص ٣٠ •

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٥٤ •

(٨٠) كمال شبانة : يوسف الأول ، ص ٩٩ •

(٨١) شبانة : نفس المصدر ، ص ١٥٧ •

(٨٢) أنظر تعليقه على ترجمة المؤلف ضمن كتاب « أوصاف الناس »

لابن الخطيب ، ص ٦٩ •

(٨٣) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٢٣٩ — ٢٥٩ •

(٨٤) ابن الأحمر : نثر الجمان ، ص ١٧٥ •

(٨٥) ابن القاضى : درة الحجال — ج ١ ، ص ٤٠ •

الخطيب ، ترجمة لنصوص الرسائل المتبادلة بينهما ، ولم تشر في أي موضع من دراستها الى أنه قد عمل مدرسا بالمدرسة الغرناطية ، وأن أهم ما قبله من مناصب هو الاقراء بجامعة المرية ، وأنه ربما قد شغل منصب كاتب لفترة قصيرة جدا (٨٦) .

الفقيه أبو محمد بن عبد الله بن أبي القاسم بن جزي
من أهل غرناطة

توفي : ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م

أديب ، حافظ ، قام على فن العربية ، مشارك في فنون لسانية شواه ، طرف في الادراك وهو اليوم بمدرسة الحضرة ، يعرب فيغرب ، يباهي به على المشرق والمغرب (٨٧) .

فرج بن قاسم بن لب الثعلبي
من أهل غرناطة

توفي : ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م

حامل لواء التحصيل ، عليه مدار الشورى ، واليه مرجع الفتوى ببلدة لغزارة حفظه ، وقيامه على الفقه ، واضطلاع بالمسائل ، الى المعرفة بالعربية واللغة ، والمران في التوفيق ، والقيام على القراءات ، والتبريز في التفسير ، والمشاركة في الأصول والفرائض والأدب ، جيد الحفظ ، قعد ببلده للتدريس على وقور المسجد ، ثم استقل بعد ، وولى الخطابة بالمسجد الأعظم ، وأقرأ بالمدرسة النصرية في ٧٥٤ هـ .

(86) Gibert, Soledad : El Diwan de Ibn Jatima de Almeria el prologo (Barcelona 1975) .

(٨٧) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٩٦ .

ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٣٩٢ .

١٣٥٣ م ، معظما عند الخاصة والعامه (٨٨) •

محمد بن ابراهيم بن محمد السيارى
ويعرف بالبيانى
يكنى ابا عبد الله
من اهل غرناطة
توفى : ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

أقرأ الفقه ودرسه عمره ، وانتصب للفتيا ، وتكلم للجمهور ،
وكان مرجعا فى المشكلات ، ومستشارا فى الأحكام ، يقوم على الفقه
أحسن قيام ، عاكفا على تدريسه مكبا على تبينه ، سهل الألفاظ ، حسن
التعليم ، يشارك فى العربية والفرائض والأصول •

قرأ على الأستاذ الكبير أبى جعفر بن الزبير ، وعلى الخطيب
المحدث أبى عبد الله بن رشيد ، وأخذ عن أبى الوليد الحضرمى •
وتوفى ، رحمه الله ، مدرسا بالمدرسة النصرية ، وخطيبا بمسجد
المنصورة (٨٩) •

-
- (٨٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ •
أوصاف الناس فى التواريخ والصلوات ، ص ٣٢ •
التبكتى : نيل الابتهاج ، ص ٢١٩ •
ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ١٣٩ •
السيوطى : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ •
ابن الأحرار : نثر الجمان ، ص ١٨٦ — ١٩٦ •
ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ، ص ١٩٠ •
ابن القاضى : درة الحجال ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ •
المقرئ : النفج ، ج ٨ ، ص ٢٦ •
شبانة : يوسف الأول ، ص ١٦٤ •
(٨٩) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ •
ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ •
التبكتى : نيل الابتهاج ، ص ٢١٩ •

أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل البسطي

أشار لويس سيكو دي لوثينا في مقالة له عن شهادة طبية في صالح أحد أطباء غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر بأن هذا الرجل كان مدرسا بالمدرسة الغرناطية قائلا بالحرف ما يلي :

« الفقيه المشهور ، المدرس بالمدرسة الغرناطية » ، لكن المقرئ يشير الى الرجل بلقب « المدرس » فقط دون تحديد ما اذا كان مدرسا بالنصرية أو المسجد الجامع . لكن اذا كان ذلك حقيقة وأن البسطي كان مدرسا بالمدرسة النصرية فهو ، اذن ، آخر مدرسي هذه المدرسة قبل وقوعها في أيدي الملكين الكاثوليكين لأن هذا الرجل كان شاعرا البلاط المفضل ، لدى أبي عبد الله ، آخر ملوك غرناطة (٩٠) .

محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر

ابن مرزوق

من أهل تلمسان

توفي : ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م

قدم الأندلس ، موفدا من أبي الحسن المريني ، واجتذبه سلطانها رحمه الله ، وبقي في غرناطة ، قلده السلطان الخطبة في مسجده عام ٧٥٣ هـ — ١٣٥٢ م ، وأقعده للاقراء بالمدرسة في حضرته ، ثم انصرف بعد ذلك من الأندلس في أواخر عام ٧٥٤ هـ — ١٣٥٣ م (٩١) .

(٩٠) المقرئ : أزهار الرياض ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

Seco de Lucena : El titulo profesional de un médico del S. XV, p 25.

(٩١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

التنكي : نيل الابتهاج ، ص ٢٦٨ .

المقرئ : النسخ ، ج ٧ ، ص ٣٢٧ وما بعدها .

ابن قنفذ : شرف الطالب في أسامي المطالب ، ص ٨٦ .

محمد بن علي بن أحمد الخولاني

توفي : ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م

كان أستاذ الجماعة ، عاكفا على العلم ، ملازما للتدريس ،
امام الأئمة غير مدافع ، مبرزاً ، امام أعلام البصريين من النحاة ، منتشر
الذكر ، بعيد الصيت ، عظيم الشهرة ، مستبحر اللفظ ، يتفجر بالعربية
تفجر البحر ، لا يشكل عليه منها شكل ، ولا يعوزه توجيه ، جدد
بالأندلس ما كان قد درس من لسان العرب ، من لدن وفاة أبي علي
الشلوبين (٦٤٥ هـ — ١٢٤٧ م) ، وكانت له مشاركة في غير صناعة
العربية من قراءات وفقه ، وعروض ، وتفسير ، وتقدم خطيباً بالمسجد
الأعظم ، وقعد للتدريس بالمدرسة النصرية ، وقل في الأندلس من
لم يأخذ عنه من الطلبة ، وخرج ودرب وأجاز ، لا يأخذ على ذلك أجراً ،
وخصوصاً فيما دون البداية ، الا الجراية المعروفة (٩٢) .

محمد بن محمد بن محارب الصريحي

المتوفى : ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م

كان اماماً في الفرائض والحساب ، قائماً على العربية ، مشاركاً
في الفقه والأصول وكثير من العلوم العقلية ، قعد بمالقة للأقراء .

دخل غرناطة مرات متعلماً وطالب حج ، ودعى للأقراء بمدرستها
البنصرية عام ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطاني ، واعتذر
بما قبل فيه عذره .

توفي في مالقة في ربيع الآخر من عام ٧٥٠ / ١٣٤٩ م ، بعد
أن تصدق بمال كثير ، وعهد ببيع مجيد لطلبة العلم وحبس عليهم

(٩٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ٧ ، ص ٢٧٥ — ٢٨٠ (الخامس ص ٣٨٣)

طبعة احسان عباس) .

البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

كتبه (٩٣) .

منصور بن علي بن عبد الله الزواوي

له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية ، وتطير
في الأصول والمنطق والكلام ، ودعوى في الحساب والهندسة والآلات .

قدم الأندلس في عام ٥٧٥٣ / ١٣٥٢ م ، فلقى رحبا ، وعرف
قدومه ، فتقدم مقرئا بالمدرسة تحت جراية نبهة وحلق للناس متكلما
على الفروع الفقهية والتفسير ، وأخرج من الأندلس في عام
٥٧٦٥ / ١٣٦٣ م (٩٤) .

يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي

توفي : ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس ، وخاتمة العلماء بها
من طب وهندسة وهيئة وحساب وأصول وأدب ، الى امتاع المحاضرة
وحسن المجالسة وعموم الفائدة .

خدم أخيرا باب السلطان بصناعة الطب ، وقعد بالمدرسة
بغرناطة يقرئ الأصول والفرائض والطب (٩٥) .

(٩٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٢٤٩ .

(٩٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٩٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ .

(ب) مدارس غرناطية أخرى غير النصرية :

يقدم لنا ابن الخطيب في كتابه الاحاطة ملاحظة هامة ، وذلك عند حديثه عن ما أنجزه سلطانه محمد الخامس « الغنى بالله » ، وذلك بعد عودته من المنفى في المغرب ، في عام ٧٦٣هـ / ١٣٦١م ، مفادها أن السلطان قد أعطاه تصريحاً ببناء مدرسة وزاوية وتربية فيقول :

... الى موافقته اياي ، وتسويغه ما اخترعته باذنه ، وأجريته بطيب نفسه من اتخاذ المدرسة والزاوية وتعيين التربية ، مغيرا في ذلك كله على مقاصد الملوك (٩٦) .

وفي نص آخر ورد بالاحاطة أيضا ، نرى ابن الخطيب ، بعد محنته ، ينوى أن يغير من أسلوب حياته ، وأن يبتعد عن السياسة ، وأن يعكف على حياة أخرى فيقول : ثم صرفت الفكر الى بناء الزاوية والمدرسة والتربية ، بكر الحسنات بهذه العظة (٩٧) .

ولكن : هل وصل الأمر بابن الخطيب الى تحقيق أحد المشروعين ؟ اننى أعتقد أن هذه المشروعات لم تخرج الى حيز التنفيذ ، حيث لم يشر الى ذلك أى كتاب تاريخى أو معمارى عن غرناطة ، هذا ولقد قام الدكتور مختار العبادى بدراسة عصر محمد الغنى بالله ، وتردد اسم المدرسة اليوسفية في بحثه ثلاث مرات ولم يشر الى أية مدرسة أخرى تم انشاؤها على عهد هذا السلطان (٩٨) ، كما أن الدكتور أحمد الطوخى قد قدم رسالة دكتوراة عن الحياة الثقافية في غرناطة ولم يشر اطلاقا الى أية مدرسة أخرى (٩٩) غير المذكورة ،

(٩٦) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٩٧) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(98) Al Abbadi, M., El Reino de Granada, pp. 170, 171

Y 203.

(٩٩) الطوخى : الحياة الثقافية بمملكة غرناطة (رسالة دكتوراه بجامعة الاسكندرية) .

وكذلك كتاب المستشرق الأسباني سيكو دى لوثينا « غرناطة في القرن ١٥ » (١٠٠) ، لم يقدم لنا أية معلومات في هذا المجال ، مما يؤكد أن هذه المدارس لم تصل الى حيز التنفيذ .

كما وجدت في أسبانيا بعد انتهاء حروب الاسترداد ، بعض المدارس الخاصة بالمورييسكيين والمدجنين ، وهناك وثائق مؤكدة عن وجود هذه المدارس في سرقسطة وغرناطة ولكن لن نتناولها هنا بالدراسة ، وسنقدم فقط الوثيقة الدالة على وجود مدرسة سرقسطة وبقائها حتى سقوط غرناطة تقريبا .

الرحلات

الرحلة سمة من أهم سمات التعليم الاسلامى في العصور الوسطى ، وتتلخص في قيام الطلاب بالانتقال من مكان الى آخر بحثا عن مزيد من العلوم ، وعن أفضل المعلمين ، المنتشرين في كافة بلاد العالم الاسلامى .

وتعتبر الرحلة من أعلى مراحل التعليم ، كما أنها لعبت دورا هاما جدا في توحيد ثقافة العالم الاسلامى وتنشيطها ، حتى وصل بعض المؤرخين الى وسم هذا التعليم بالحركة ، يقول الدكتور ميكى دى ابالثا « الحركة هي أهم مميزات التعليم الاسلامى ، ويتجلى هذا في الرحلات ، من أجل اقتناء العلم » (١٠١) .

ولقد كان الحج ، وهو فرض دينى أساسى ، عاملا أساسيا في تشجيع الرحلات من كافة أنحاء العالم الاسلامى في اتجاه مكة والحجاز ، ومساعدة على الاجتماع واللقاء بين المسلمين من كافة أنحاء المعمورة .

(100) Seco de Lucena. L. : La Granada Nazari del Siglo XV.
(١٠١) ابالثا : التعليم العالى في القرون الوسطى الاسلامية ومقارنته بالتعليم الحاضر — محاضرة القيت في ملتقى الامام الموزرى بتونس .

ولكن لم يقتصر الأمر فقط على الرغبة في الوفاء بالواجبات الدينية ، اذ أنه في مرحلة لاحقة ، أصبحت الرحلة بغرض العلم ، هدفا في حد ذاتها • ويرى الدكتور محمود على مكي ، أن الحماس للحصول على علوم جديدة كان واحدا من أهم دوافع التأثير في القيام بهذه الرحلات ، حقيقة كان هناك رجالة يهدفون الى أداء الفرض الديني — كما بينا — أو الحصول على منافع مادية — كما سنبين — لكن الاهتمام الأكبر لهؤلاء كان بغرض هضم التعليم المشرقي (١٠٢) •

وهناك نوعان من الرحلات : رحلات الأساتذة ورحلات الطلاب ، وتختلف دوافع النوع الأول عن الثاني ، فالأساتذة يرحلون من مكان الى مكان طلبا للشهرة أو الجاه ، أو فرارا من الاضطهاد ، أو بحثا عن مكان أكثر ملائمة لأفكارهم وآرائهم ، وهذه الرحلات قد أخذت أكثر من اتجاه ففي بداية الأمر كان انتقال المعلمين يتم من وسط العالم الاسلامي الى أطرافه ، وفي مرحلة لاحقة حين نهضت هذه الأمصار وظهر بها كثير من العلماء أصبحت اتجاهات الرحلات متعددة فمن الأطراف الشمالية الى الوسط والى الجنوب ومن الجنوب الى الوسط والى الشمال ، ومن الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق وبالعكس •

أما رحلات الدارسين فهي أيضا ارتبطت بحركة رحلات المعلمين وتأثرت بها ، لأن العامل الأساسي المحرك لها كان في شهرة معلم أو شهرة مدينة ما •

أما بالنسبة لطلاب الأندلس ، فإن ظروف الأندلس الجغرافية قد حكمت اتجاهها نحو المشرق ، مروراً بالشمال الأفريقي وتونس ومصر وبلاد الشام ثم الاتجاه الى العراق وبلاد الحجاز ، أو ركوب البحر الى مصر ومنها الى بلاد الشام ، عبر سيناء ، أو الى بلاد الحجاز

عبر البحر الأحمر دون أن يعنى ذلك اقتصار هذه الرحلات على هذه الأماكن وإنما تجاوزتها الى المناطق الشرقية من العالم الاسلامى •

وتنقسم الرحلات الى قسمين رئيسين : الرحلات الداخلية ، والرحلات الخارجية ، والداخلية منها تنقسم فى نفسها ، الى رحلات داخل الاقليم ذاته ، أو داخل المصر بأكمله ، والرحلات الخارجية أيضا تتنوع ، فهناك الرحلة الى بلد معين أو الى بلاد كثيرة ، وهناك الرحلة الى أقطار قريبة أو الى أقطار بعيدة جدا •

والرحلات الداخلية تتم فى داخل الاقليم الواحد ، أو المصر الواحد ، وفى هذه الحالة يكون الاتجاه دائما من موطن الطالب الى المدن الرئيسية ، وخاصة عاصمة الاقليم ، التى كانت تتمتع دائما بكبار المعلمين ، كما تتيسر فيها أحوال المعيشة ، ولقد وجدت فى الأندلس عواصم أقاليم ذات شهرة عظيمة جدا مثل أشبيلية ، طليطلة ، سرقسطة ، مرسية ، غرناطة ، جيان ، بطليوس ، بلنسية •

ومن عاصمة اقليم الى عاصمة اقليم آخر ، ومن هذه العواصم كلها التى حاضرة المصر ، وفى الأندلس ، كانت قرطبة على عهد الخلافة ، محط الرحال ومطمح كافة الطلبة الأندلسيين • أما فى عصر ملوك الطوائف ، فإن كل عاصمة من عواصم الملوك تمتعت بمميزات لم تنعم بها غيرها حسب قدرة كل ملك ، على أن يجذب لعاصمته من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء ، فقد احتلت أشبيلية مكان الصدارة على عهد الموحدين ، ثم غرناطة على عهد أسرة بنى نصر •

أما الرحلات الخارجية فكانت تتجه دائما الى عواصم الأمصار الاسلامية المشهورة مثل القيروان فى تونس والاسكندرية والقاهرة بمصر ، وبغداد والكوفة والبصرة بالعراق ، ومكة والمدينة بالحجاز ، ولقد اتجه الأندلسيون دائما الى هذه المدن للتعلم على أساتذتها ولجلب الكتب منها •

ولكن في فترة لاحقة ، حينما أصبحت قرطبة في مستوى يضاهي المدن الشرقية ، فاننا نجد أن من الأندلسيين من يكتفى بما يتعلمه في هذه المدينة — مثلا : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى ، وهو من أكبر علماء الأندلس خلال القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، لم يخرج من الأندلس ، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ، ومن الغرباء القادمين إليها (١٠٣) •

ولقد تحولت قرطبة الى مركز جذب ، حيث جاءها الطلاب والدارسون من كافة أنحاء العالم الاسلامى ، فيقال عن عبد الرحمن ابن محمد بن وليد الأموى : أن سكتناه بقرب دور بنى هاشم ، ويصلى بمسجد الصينى (١٠٤) ، مما يدل على اتجاه بعض الرحلات من أقصى الشرق الاسلامى الى الأندلس •

وتتميز الرحلات سواء الداخلية أو الخارجية بطول المدة وكثرة الشيوخ ، الذين يمكن مقابلتهم خلالها ، فنجد أن :

ابراهيم بن هرون بن خلف ، المتوفى ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ، قد أقام بقرطبة في طلب العلم أربعين سنة (١٠٥) •

وبقى بن مخلد ، لقي وسمع من مائتين وأربعة وثمانين رجلا ، وابن وضاح من مائة وخمسة وسبعين ، وابن غطين من أكثر من مائتين ، أما ابن حبيب فقد جال في الأرض ، وقطع طولها والعرض ، وجال في أكنافها ، وانتهى الى أطرافها (١٠٦) •

ولقد كانت الرحلات الداخلية ، تتم عادة ، قبل الرحلات الخارجية حيث يقوم الطالب بالدراسة على أهل بلده ، وينتقل منها الى المدن

(١٠٣) الحميدى : الجذوة ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ •

(١٠٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٣٨ •

(١٠٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس — ج ١ •

(١٠٦) المقرئ : النقع ، ج ٢ ، ص ٢١٥ •

القريية أو الى عواصم الاقليم ثم الى الحاضرة ، وبعد ذلك يسعى الى السفر للبلاد البعيدة •

ولقد تكفلت الأوقاف ، وأعمال الخير في كافة البلاد الاسلامية باعانة الطلاب ورعايتهم ، وتمكينهم من التحصيل الدراسي ، وفي الأندلس ، كانت أوقاف المساجد كثيرة جدا ، ومما لا شك فيه أن جزءا منها كان يوجه لخدمة الغرباء الذين هم في غالبيتهم من الدارسين •

ولم يكن الطالب يرحل الى مدينة ما بغرض التعلم على معلم واحد فقط فيها ، مهما علت شهرته ، ولكنه كان يسعى لانتهاز هذه الفرصة ، للسماع من أكبر عدد ممكن من الشيوخ في هذه المدينة ، كما أن الطلبة من كافة المدن قد تسعى الى مدينة ما بسبب وجود معلم ما بها •

وفي رسالتي للدكتوراه قمت بتحليل كتابين هما المعجم لابن الأبار ، حيث استخرجت طلببة كل مدينة ممن رحلوا الى مدينة مرسية للتعلم على الشيخ أبي على الصدفى وكتاب فهرسة ابن خير حيث استخرجت الأساتذة الذين رحل اليهم ابن خير في مدنهم لتلقى العلم عنهم •

وقد قصدت من تحليل الكتابين ، أن أبين حركة الطالب ، أو الطلاب الى أستاذ معين في مدينة ما ، أو الى أكثر من أستاذ في أكثر من مدينة ، ولقد رأيت حذف هذين الملحقين حتى لا أزيد صفحات الكتاب — ويمكن للمتخصصين العودة الى المصدرين — أو رؤية أصل الرسالة •

الاجازات العلمية :

عند انتهاء الطالب من دراسة كتاب ما مع أستاذ معين ، فان الأستاذ كان يقوم بمنحه اجازة ، تشهد للطالب فعلا بدراسة الكتاب •

والاجازة نوعان ، شفوية وتحريرية ، والأولى أقدم عهدا من الثانية ، وأول من منحها هو أبو هريرة الى بشير بن مهتك ، حيث قال : كتبت عن أبي هريرة كتابا ، فلما أردت أن أفارقه قلت : يا أبا هريرة ، انى كتبت عنك كتابا ، فأرويه عنك ، قال : نعم اروه عنى (١٠٧) •

أما الاجازة التحريرية ، ففيها قد يبين الشيخ بالتحديد ما يجيزه للطالب أو أن يجيزه باطلاق ، وهنا قد يحدد الأستاذ تاريخ مولده ومكانه وأسماء شيوخه ، وما يجب أن يروى عنه بصفة عامة •

وهناك أيضا اجازات سماع جماعية ، تعطى لمجموعة من الدارسين عند سماعهم كتابا معينا • ويقول الدكتور صلاح المنجد عن هذا النوع من الاجازات « بأنه فى الحقيقة ، صورة من الصور التى عرفها العلماء القدامى عن الشهادات العلمية التى تمنح اليوم ، والفرق بين السماعات والشهادات أن الأولى شهادات فردية تثبت عند سماع كتاب واحد وأن الثانية تمنح لمجموعة من الدارسين » (١٠٨) •

والاجازة فى أصلها ضمان بعلم الطالب ، وقدرته على نقل هذا العلم ، ولقد بدأت مع علم الحديث ، وهو العلم الذى تشدد فيه المسلمون كثيرا بسبب ما ناله من تحريف ودس وتزيف ، ولذلك وضعت له من القواعد الشديدة أكثر من غيره من العلوم للتأكد من صحة الحديث ، ومن هنا كانت الاجازة للدلالة على صحة نقل الناقل من المنقول عنه ، ثم انتقلت بعد ذلك الى باقى العلوم الأخرى •

(١٠٧) عبد الله فياض : الاجازات العلمية عند المسلمين ، ص ٢١ •

(١٠٨) المنجد : اجازات السماع ، المخطوطات ، ص ٢٣٢ •

ولقد وافق مالك بن أنس على منح هذه الاجازات ، دون أن يتركها للهوى ، أو غيره من الميول الشخصية ، وانما انطلاقا من اعتبارات محددة ، أهمها :

- ١ — أن يكون المدرس صحيح العقيدة ، بين العلم .
- ٢ — أن تكون النسخة المقرؤة قد روجعت بدقة شديدة على نسخة الأستاذ حتى تصبح صورة منها .
- ٣ — أن يكون الطالب عاكفا على طلب العلم (١٠٩) .

ولكن مع تطور الأيام فقدت الاجازة هذا المضمون الهام ، أقصد بذلك كونها ضامنا لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه ، وأصبحت مجرد شهادة باللقاء أو السماع ، دون أن تعنى اطلاقا مدى تعمق حامل الشهادة أو معرفته ، بما حدد له في الشهادة ، حتى لقد ظهرت بعض الاجازات العامة ، التي تبيح « لمن أحب الرواية عني من جميع المسلمين من أهل السنة ، ممن هو موجود في هذه السنة » (١١٠) ، فان محمد بن عبد الرحمن ، المعروف بابن الوزان ، صاحب الصلاة بجامع قرطبة ، قد سأله أحد أصحابه : أن يجيز له جميع ما يحمله بأي وجه حمل ذلك ، وما ألفه أو وضعه أو أجاب فيه في القديم والحديث ، ولجميع أصحابه أهل المجلس وغيرهم من طلاب العلم ، ولكل من أحب أن يحمل عنه من المسلمين ممن ضمه واياهم حياة في ذلك العلم ، فتبسم الشيخ واستغرب هذا السؤال ، ثم قال له منشرح الصدر ، طلق الوجه ، ظاهر التبسم ، نعم ، أنا قد أجزت لك ذلك كله ، ولجميع من سألت ، ممن أحب الحمل عني من جميع المسلمين حيث كانوا (١١١) .

(109) Ribera, J. : Ho. de la ensenanza..... p. 89.

(١١٠) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٦ .

ابن خير : الفهرسة ، ص ٤٥٥ .

(١١١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ولقد أصبحت الاجازة شيئا شرفيا ، فالوالد يسعى لى يحصل لأبنائه على إجازات من كبار الشيوخ الذين يلتقى بهم في بلاده أو في خلال أسفاره ، كما سنتبين من المخطوط المنشور كملحق لهذا الفصل ، والسلطان لا يمانع في الحصول على الاجازة من كبار العلماء ، مثلما حدث مع سلطان مصر ، المظفر غازى ، الذى أرسل له ابن عربى المرسى اجازته (١١٢) .

وهى أيضا وسيلة للمهاداة والتقدير ، والاعتراف بعلم الآخرين ، ومن هنا منح كثير من العلماء والفقهاء اجازاتهم لزملائهم وأقرانهم من كبار العلماء والفقهاء فنجد مثلا أن ابن الخطيب حينما يلتقى بابن صفوان يطلب منه اجازته ، فكتبها له . ونجد نص الاجازة في الاحاطة (١١٣) .

ويكتب ابن الأحرر الى الفقيه أبى القاسم عبد الله بن يوسف يسأله الاجازة فيمنحه اياها (١١٤) .

كذلك طلبت الاجازة بالمراسلة من كبار العلماء حيث يقوم راغبو الحصول على الاجازة بالكتابة اليهم ، يسألونهم منحهم اياها . يقول ابن الفرضى عند حديثه عن يوسف بن يحيى يوسف الأزردى : المتوفى ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م ، بأن أحد أصحابه قد رآه ، وقد جاءته كتب كثيرة نحو المائة كتاب من جماعة من أهل مصر بعضهم يسأله الاجازة ، وبعضهم يسأله في كتاب الرجوع اليهم (١١٥) .

وأكثر الأمور غرابة في مجال الاجازة هو أن يقوم بعض الفقهاء أو العلماء ، أثناء قيامهم بالرحلة بالحصول على اجازات لأصدقائهم

(١١٢) ابن عربى : اجازة ابن عربى للملك المظفر غازى ، الأندلس ، العدد ٢٠ (١٩٥٥) ، ص ١٠٧ — ١٢٨ .

(١١٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(١١٤) ابن الأحرر : مستودع العلامة ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١١٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ومعارفهم وعائلاتهم من الأساتذة المشرقيين ، هذا وتحتوى مكتبة الأوسكوريال على أغرب نموذج فى هذا المجال ، ففى المخطوطة رقم ١٩١٩ مكرر ، حزمة أوراق تحتوى على اجازات أساتذة من المشرق ، لمجموعة من الطلبة والفقهاء الأندلسيين والمغاربة ، والجزء الأول منها قام بكتابته محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن ادريس بن رشيد الفهرى فى ١٤ رجب عام ٦٨٤ هـ / أكتوبر ١٢٨٥ م ، بفسطاط مصر ، ويتضمن الاجازة لحوالى مائة طالب وفقية علاوة على عائلة كاتب الاجازات ، وأولهم أبو عبد الله بن المهيمن ، وآخرهم رحمة ، أخت ابن رشيد .

ويتجلى من قراءة المخطوط أن طالب الاجازة كان ينتقل من مكان الى مكان لى يحصل على اجازات المعلمين ، فنراه فى ١٤ رجب فى فسطاط القاهرة ، وفى ١٦ رجب بالقاهرة المعزية ، ولكن بعد شهر تقريبا يحصل على الاجازات ، من مشايخ القندس ، وذلك فى ٢٥ شعبان من نفس العام .

ويتضمن الجزء الثانى من المخطوط أسماء بعض الطلبة المشرقيين ، والثالث أحضره الشيخ أبو عبد الله بن رشيد ، وهو يتناول طلبة من الأندلس وشمال أفريقيا .

وفى المخطوط يحدد بعض العلماء تاريخ ومكان ميلادهم والعلوم التى يجيزونها ، وبعضهم يحدد الاسم الأول والآخر من أسماء القائمة التى يجيزها .

وتتجلى فى المخطوط أيضا أسماء بعض السيدات العالمات اللاتى يمنحن اجازتهن لنفس المجموعة .

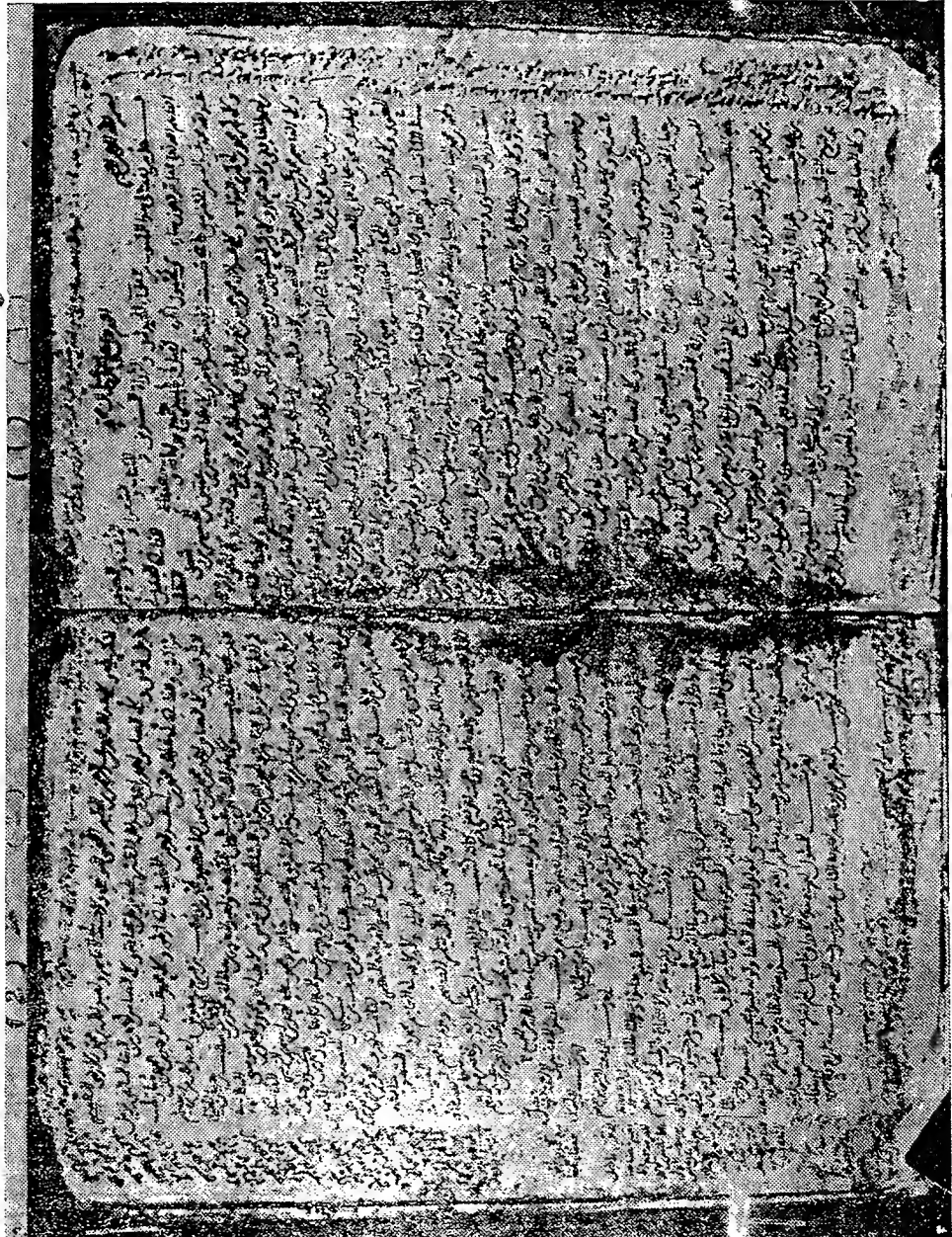
وكافة الاجازات تم الحصول عليها على مدار عام ٦٨٤ و ٦٨٥ هـ /

١٢٨٥ و ١٢٨٦ م .

غلاف مخطوطة الأوسكوريال رقم ١٩١٩ مكرر



الصفحة الأولى من المخطوطة



ومن الأسماء البارزة التى يحتوئها هذا المخطوط نجد
ابن عبد الملك صاحب كتاب الذيل والتكملة ، وأبا حيان الأندلسى ،
وغيرهما •

وللمخطوط أهمية كبرى حيث يمكنه تقديم المساعدة للدارسين
فى تقصى مسار بعض العلماء الأندلسيين والمغاربة الى المشرق أو نوع
دراساتهم ، وسأكتفى هنا بنشر صورة زنكوغرافية للصفحة الأولى •
آمل العوده ان شاء الله الى تحقيقه ودراسته ونشره ان أمكن
ذلك (١١٦) •

(١١٦) قمت بنشر قراءة للمخطوط ضمن نص رسالتى الأصلية سواء
باللغتين العربية أو الأسبانية وقد رايت أن احذفه هنا خوفا من ائثار
الكتاب أكثر مما يجب • ويمكن للمتخصصين رؤيته فى نص الرسالة الودعة
بالمعهد المصرى بمديرية المعهد الأسباني ومكتبة جامعة غرناطة ومديرية
ومكتبة كلية التربية بالقاهرة •

المخطوط رقم ١٩١٩ مكرر : حزمة الأوراق والوثائق رقم ٢٦
بمكتبة الأوسكوريال

اجازات بعض المدرسين المشرقيين لمجموعة من طلبة المغرب
والأندلس ويحدد النص أسماءهم ، وفي بعض الحالات تاريخ ومكان
الميلاد وذلك بالنسبة للمدرسين مانحى الاجازات ، مبينا مكان منح
الاجازة وتاريخ توقيعهما . وتقع كافة الاجازات فى عامى ٦٨٤ هـ
و ٦٨٥ هـ / ٨١ — ١٢٨٢ م .

ويبدو المخطوط كاملا ، نسخة اصلية

يتكون من ٩ ورقات

تم تجليده فى عام ١٨٨٧ م

هذا ولقد حمل هذا المخطوط فى بادىء الأمر رقم ١٨٧٧ ،
ولكن كتب عليه بالأسبانية فى صفحة مستقلة ، أن الرقم ١٨٧٧ ، مما
لا يتفق مع واقع المخطوط ، اذ أن رقمه الصحيح هو ١٩١٩ مكرر (١١٧) .

الباب الثالث التعليم الخاص

مقدمة :

يقصد بالتعليم الخاص ، ذلك النوع من التعليم الذى يتلقاه أبناء الأمراء والخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء ، وبصفة عامة قيام الآباء باستئجار المعلمين لى يتولوا تعليم أبنائهم . ويقصد بالتعليم الخاص أيضا ذلك النوع من التعليم الذى ليس تعليمًا عامًا مما يقدم لأبناء الشعب ، وإن كان لا يختلف عنه كثيرا من ناحية المحتوى ، ولكن قد يتميز فى بعض جوانبه مثل سن البداية ، أو مكان تلقى العلم ، أو فى بعض مناحى المنهج بغرض الاعداد لمستقبل معين ، ولقد احتفظت لنا كتب التراجم الأندلسية بمجموعة وافية من أسماء الرجال الذين سعوا الى تأديب أولاد حكام الأندلس وكبار رجالهم . وعرف هؤلاء المعلمون فى أغلب الأحيان باسم المؤدبين ، وإن كان ذلك لا يعنى بالضرورة قصور هذا اللقب عليهم ، لأننا نجد أن اللقب « مؤدب » انما ينسحب أيضا على كثير من المعلمين العاديين ، بل ان اللقبين « مؤدب » و « معلم » ، قد تبادلا المواضع فى بعض الأحيان .

وكلمة الأدب قد تكون خلقا أو رواية والقائم بها يسمى المؤدب ، والعلم هو أصل كل خير ، ويرى الجاحظ انما اشتق اسم المعلم من العلم ، واسم المؤدب من الأدب ، وأن العلم هو الأصل والأدب هو الفرع (١) .

ولقد اعتاد الباحثون اطلاق لقب المؤدب على من يتولى تعليم النخوص ، واسم المعلم على من يقوم بالتعليم فى الكتاب بصفة عامة . لكن دراسة كتب التراجم الأندلسية توحى بأن كلمة مؤدب فى الأندلس قد اتسعت لتشمل أناسا من غير الذين تولوا التدريس للخاصة ، بل أنها وصلت الى حد اطلاقها على معلم كتاب ، فقيل عن أحمد

(١) النجار ، ابراهيم : الفكر التربوى عند العرب ، ص ١٢٧ .

ابن شاب ابن عيسى المتوفى ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، من أهل قرطبة ، « كان مؤدب كتاب » (٢) .

محمد بن أحمد الشذوني المتوفى ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م المؤدب ، سكن قرطبة وكان معتنيا بالعلم (٣) .

عبد الله بن نصر الصوفي المتوفى ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م كان مؤدبا في مسجد أبي علاقة (٤) .

عيسى بن سعيد بن سعدان الكلبى المتوفى ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م من أهل قرطبة قرأ القرآن بمصر ، وانصرف الى الأندلس ، فلزم التأديب ، وكان يقرأ عليه القرآن (٥) .

محمد بن خليفة بن عبد الجبار المتوفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م ، المؤدب من أهل قرطبة ، رحل الى مكة ثم انصرف الى الأندلس فلزم التأديب (٦) .

محمد بن أحمد بن محمد بن طالب بن أيمن بن مدرك المتوفى ٣٩٢ هـ / ٩٧٢ م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا خيرا ، وكان مؤدبا سمع منه الناس كثيرا (٧) .

محمد بن عبد الله بن محمد البهراني المتوفى ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، وكان معلم هجاء (٨) .

(٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٣) ابن الفرضى : نفس المصدر — ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٤) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(٥) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٦) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

الضبي : البغية ، ص ٤١ — ٤٢ .

(٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

عبد العزيز بن مهلب بن معلا ، المؤدب ، من أهل قرطبة (٩) .

ومن ناحية أخرى فأننا نجد أن كلمة « معلم » قد شاعت كثيرا في الألقاب الأندلسية ، وأنها انسحبت على كثير من طبقات المعلمين حتى أننا نجدها تطلق أحيانا على مؤدبي الأمراء . يقول ابن الخطيب عند حديثه عن الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل ابن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، والذي حكم من ٧٦٠ الى ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ الى ١٣٦٠ م ، انه :

« استدعى له ولأخيه ، المعلم الذي كان السبب في افاتة ارماتهما ، واعدام حياتهما ، الشيخ السفلة ، محمد البطروجي البائس » (١٠) .
ويقول ابن حيان ، ان الأمير الحكم قد عهد بعقد استثمار الفقيه أحمد بن يوسف « معلم الأمير أبي الوليد هشام » (١١) .

(٩) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(١٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(١١) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ،

الفصل السابع

مظاهر الاهتمام بتعليم الخاصة

أولى الأندلسيون تربية أولادهم عناية كبيرة ، وإذا كان ذلك الاهتمام قد تجلّى لدى كافة الأندلسيين (١) ، فمن الأولى أن يكون لخاصتهم والأهل الوجاهة منهم قصب السبق في هذا المجال ، كما أن كتب التراجم والتاريخ الأندلسيين قد اهتموا بتسجيل تراجم المعلمين والمؤدبين ، ولذلك فاننا نملك بين أيدينا سلسلة من أخبار هؤلاء تمتد تقريبا من بداية الدولة الأموية في الأندلس حتى سقوط الدولة النصرية في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م .

ومن دراسة هذه التراجم يمكن استخلاص الحقائق التالية :

٦ **أولا : اهتمام خاصة الأندلس بتعليم أبنائهم :**
وقد تجلّى هذا الاهتمام في عدة مظاهر ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

(١) اختيار المؤدب علميا وخلقيا :

فقد حرص الآباء على أن يكون مؤدبو أولادهم من أعلى الرجال درجة في العلم ، ومن المشهود لهم بذلك ، فمؤدب الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢م) ، سوار بن طارق ، قد لقي الأصمعي ونظرائه (٢) ، وجودي بن عثمان النحوي العبسي (توفي ١٩٨هـ / ٨١٣م) ، لقي الكسائي ، والفراء ، وأبا جعفر الروائي وغيرهم ، وهو أول من أدخل الأندلس كتاب الكسائي ، وله تأليف في النحو يدعى منبّه الحجاره (٣) .

(١) انظر عبارة المقرئ الواردة في النسخ ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) المقرئ : النسخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٨ (الترجمة رقم ٦) .

أرسلان : الحلال السندسية - ج ٢ ، ص ٣٣ .

وأبو محمد عبد الله بن بكر الكلاعي ، كان مؤدبا بالنحو ، عالما
باللسان مبرزاً في الشعر ، أديباً بليغاً ، أدب أولاد الأمير عبد الرحمن
ابن الحكم (٤) .

ومحمد بن أرقم السبائي ، من أهل قرطبة ، كان ممن يبصر العربية
والحساب ويتفنن فيه ، أدب القاسم وأصبغ وعثمان ، أولاد الأمير
محمد بن عبد الرحمن (٥) .

وأيوب بن منصور بن عبد الملك الأنصاري ، من أهل قرطبة ،
كان عالماً بالاعراب ، موصوفاً بالعدالة أدب بعض أولاد الخلافة ،
قال لي سليمان بن أيوب : كان الأمير عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ /
٨٨٨ — ٩١٢ م) ، « يسميه بالفقيه » (٦) .

أما قاسم بن أصبغ (متوفى ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) ، فقد « انصرف الى
قرطبة بعلم كثير ، وسكن قرطبة ، فكان له بها قدر عظيم ، وسمع
منه الناصر لدين الله أمير المؤمنين قبل ولايته ، وولى عهده
الحكم » (٧) .

ومحمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي (المتوفى ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) ،
« كان الغالب عليه العربية ، وكان فقيهاً اماماً موثقاً ، أخذ كتاب سيبويه
رواية عن ابن النحاس ، وكان جيد النظر ، دقيق الاستنباط حاذقاً
بالقياس ، نظر الناس عنده في الاعراب ، وأدب أولاد الملوك ،
واستأدبه أمير المؤمنين الناصر لابنه المعيرة » (٨) .

-
- (٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨٤ .
ابن سعيد : المغرب في طلي المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .
(٥) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٩٢ .
(٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٨٧ .
(٧) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .
اليحصبي : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .
حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين العرب ، ص ٣١ .
(٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٦٩ .
السيوطي : بغية الوعاة ، ص ١١٣ .

محمد بن اسماعيل النحوي المعروف بالحكيم القرطبي (المتوفى ٥٣١ هـ / ٩٤٢ م) ، كان الغاية في علم العربية والحساب والمنطق ، دقيق النظر ، لطيف الاستخراج ولم يكن أحد من أهل زمانه يتقدمه في علمه ونظره ، وقال ابن الفرضي : كان عالما بالنحو والحساب دقيق النظر ، مثيرا للمعاني ، مولدا للأبحاث (٩) .

حسين بن وليد بن نصر (توفي ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م) ، من أهل قرطبة ، كان نحويا عالما بالعربية ، متقدما فيها ، أخذ بقرطبة عن ابن القوطية وغيره ، ثم رحل الى المشرق ، ثم انصرف الى الأندلس فاستأدبه المنصور لبنية ، وقربه من صحبتة ، وكان شاعرا كثير المدح ، له حظ من علم الكلام ، الى أدبه (١٠) .

عبد الله بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن (٥٤٨ — ٦١٢ هـ / ١١٥٣ — ١٢١٥ هـ) ، كان فقيها جليلا متفنا في العلوم ، وللملك الموحيين به اعتناء عظيم (١١) .

عبد الله بن محمد الشراط (توفي بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م) ، من أهل مالقة ، يقوم على الأدب ، والعربية ، وله تقدم في الحساب ، والبرهان على مسائله (١٢) .

ولقد حرص الآباء على أن يتحلى معلموا أولادهم بطبقة عالية من التدين والأخلاق القويمية ، لأن ذلك كان يترتب عليه نتائج سيئة في مستقبل هؤلاء الأبناء ، سواء العملية أو الخلقية ، ومن هنا يمكن لنا أن نتبين لماذا تقرر كتب التراجم دائما بين العلم والأخلاق عند حديثها عن هؤلاء المؤدبين — فjabر بن غيث (المتوفى ٢٩٩ هـ — ٩١١ م) ،

(٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ص ٢٢ .

(١٠) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(١١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(١٢) ابن الطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

مؤدب ولد الوزير هاشم بن عبد العزيز كان مشهورا بالفضل متدينا (١٣) • وأيوب بن منصور كان موصوفا بالعدالة (١٤) • وعثمان ابن نصر بن عبد الله (٣٢٥ هـ — ٩٣٦ م) كان ذا سمت وعدالة (١٥) • أما عن محمد بن أحمد بن أبي العافية الايادى (٤٨٣ هـ — ١٠٩٠ م) فلقد كان رجلا فاضلا من أهل العلم والصلاح (١٦) •

وكما قلت فان أهمية حرص الآباء على اختيار مؤدبى أولادهم ممن يتمتعون بالعلم العالى وبالأخلاق الحميدة تكمن فى أن هؤلاء يتركون تأثيرا قويا على طلبتهم سواء من النواحي الخلقية أو العلمية ، فالمؤدب هنا ليس مسئولا عن تلقين الأولاد علمه ، أو تحفيظهم الأدب أو الشعر ، أو تعليمهم قواعد اللغة وغريبها فحسب ، لكنه قبل ذلك وبعده مثال يتطلع اليه الأولاد فى تصرفاتهم ، ونموذج يحتذى فى كلماته وألفاظه ، فمحمد بن هشام المروانى حينما دخل على الخليفة الباصر ليذاكره استحسنه ، وأمره بالتزام بنيه ليؤدبهم بحسن أدبه ، فيتخلقوا بخلقه (١٧) •

أما أبو مروان بن حبيب السلمى (المتوفى ٢٣٨ هـ — ٨٥٢ م) فقد كتب الى معلم ولده رسالة يقول فيها : «بسم الله ، أما بعد ، فلتكن أول ما تؤدب نفسك ، فان عيني متعلقة بك وأعينهم متعلقة بك ، فالحسن عندهم ما استحسنته ، والقبیح عندهم ما استقبحته ، وعلمهم كتاب الله ولا تكرهم عليه فيملوه ، ولا تخرجهم من فن الى فن حتى يحكموه ، فان ازدحام العلوم مقللة للفهوم وعلمهم من الشعر أعفه ومن الحديث أشرفه ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يضع الدواء

(١٣) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٠٢ •

(١٤) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٧ •

(١٥) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٠٥ •

(١٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم

الأول ، ص ٥٨٦ •

(١٧) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ •

الا في موضع الداء ، وهمدهم دونى يزدادوا بذلك صلاحا ،
والسلام » (١٨) .

ولقد ترك بعض المؤدبين تأثيرا سيئا على طلبتهم ، قد يصل
بهم الى التمرد على الآباء ، ويتسبب في مأساة عائلية ، مثلما حدث مع
معلم الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان
غرناطة الذى حكم من ٧٦٠ / ٧٦١ هـ — ١٣٥٩ / ١٣٦٠ م (١٩) .

ومن قبل ذلك هناك حادث مشابه قد وقع في أسرة بنى عباد
حكام أشبيلية (٢٠) .

ولهذا ما أن يكتشف الآباء ثغرة في أخلاق معلمى أولادهم حتى
يعملوا على تلافيها ، ومنعهم من الدراسة عليهم ، ويحكى أن أبا بكر
محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي المتوفى ٥٦٧ هـ —
١١٨٠ م ، كان يخضر مجلس عبد المؤمن بن على ، الخليفة الموحدى ،
مع مجموعة من العلماء ، ويبدى ما عنده من المعارف ، معظما موقرا ،
الى أن أنشد يوما في المجلس أبياتا ثلاثة قالها تغزلا في شاب من
أهل أغمات ، فكان ذلك سببا لأن هجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور
في مجلسه بل وصرف بنييه عن القراءة عليه (٢١) .

(١٨) المغراوى ، أحمد بن أبى جمعة : جامع جوامع الاختصار
والتيبان ، ص ٣٩ .

اعراب ، سعيد : دور المغاربة في تربية الطفل ، ص ٣٨ .

وهذه النصيحة أوردها الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين »
ج ٢ ، ص ٥٣ ، من كلام عقبة بن نافع بن أبى سفيان لمؤدب ولده .
(أنظر التربية الاسلامية للدكتور الأهوانى ، ص ٢٠١ ، والفكر التربوى
عند العرب ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ . وكذلك اقتبسها الفزالى ضمن حديثه
عن آداب الصبيان (الفزالى : الادب في الدين ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨) .

(١٩) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢٠) ابن بسام : الذخيرة ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ ، طبعة بيروت .

(٢١) السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

المنونى : العلوم والآداب على عهد الموحدين ، ص ٤٠ .

(م ٢٨ — تاريخ التعليم)

(ب) الاهتمام براحة المعلمين واکرامهم :

ينقل الدكتور أحمد فؤاد الأهواني عن الجاحظ قوله : ان المعلمين على ضربين : رجال ارتفعوا عن تعليم العامة الى أولاد الخاصة ، ورجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة (٣٣) . وفي الأندلس حظى هؤلاء المعلمون وبالذات من وصل منهم الى تعليم أولاد الخلفاء بمكانة اجتماعية عالية جدا ، يقول ابن الخطيب عن محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله الخولاني ، من أهل غرناطة ، المولود عام ٧١٨ هـ — ١٣١٨ م ، بعد أن ذكر علومه وفضائله وكتبه ومشيخته : انه ترقى الى هذا العهد بأشارتي الى التي لا فوقها من تعليم ولد السلطان ، والرياسة القرآنية بباب الامارة ، والامامة بالمسجد الجامع من القلعة (٣٣) .

ويقول ابن وضاح ، انه لما قدم الشمر بن نجد الى الأندلس في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن (حكم من ١٧٢ الى ١٨٠ هـ — ٧٨٨ — ٧٩٦ م) ضمه الى تأديب ولده ، وأنزله بالدار المعروفة بشبلار بدار ابن الشمر (٣٤) .

حسين بن وليد بن نصر ، المعروف بابن العريف (توفي ٣٩٠ هـ — ٩٩٩ م) ، كان قويا عالما بالعربية ، متقدما فيها نشأ بقرطبة ، ورحل الى المشرق ثم انصرف الى الأندلس ، فاستأدبه المنصور لبنينه وقربه من صحبتته (٣٥) .

أما الحكم المستنصر فلقد ضرب في الاهتمام بمعلمي ابنه بباع عريض ، فكان قيام أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (توفي

(٢٢) الأهواني : التربية الاسلامية ، ص ٢٠٢ ، وانظر أيضا تاريخ الفكر التربوي عند العرب ، ص ١٠٧ .
(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٢٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .
(٢٥) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٤ .

٣٧٩ — ٩٨٩ م) بتعليم الأمير هشام الثانى سببا فى أن ينال أبو بكر هذا دنيا عريضة ، فقد تولى قضاء أشبيلية وخطبة الشرطة ، وحصل له نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زمنا طويلا (٢٦) .

سعيد بن الناكورى المتوفى ٣٩٢ هـ — ١٠٠١ م ، كان من أهل المعرفة والفهم استأدبه المنصور بن أبى عامر لولده ، وولاه الصلاة والخطبة بجامع الزاهرة (٢٧) .

وعبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن الأنصارى (٥٤٨ — ٦١٢ هـ / ١١٥٣ — ١٢١٥ م) ، كان للملك الموحدين به اعتناء عظيم ، وقد كان أستاذ الناصر وأخوته ، وكان له عند المنصور والدهم بذلك أكرم أثره (٢٨) .

عبد المولى بن أحمد بن محمد الأصبحى (توفى ٦٧٥ هـ — ١٢٧٦) ، كان فقيها فاضلا اماما فى النحو حتى كان يسمى «سيوييه» زمانه . وكان معلما لادريس الحيوصى ، فلما ضار الملك اليه استوزره ، وكان يتبرك برأيه ، ولا يكاد يفعل أمرا دونه (٢٩) .

(ج) الاحتفال ببدايات جلوس ابنائهم الى العلم ومتابعة تعليمهم :

يحكى المستعرب الأسباني خوسيه أنطونيو كوندى ، عند حديثه عن عثمان وابان ، ابنى الأمير عبد الرحمن الحكم ، أنهما كانا يتميزان بالأدب والفصاحة ، علاوة على ذكائهما الطبيعى ، لأن الأمير قد عهد بتربيتهما الى والى « سيدوفيا » ، محمد بن سعيد الغمرى ، الذى اجتهد فى تعليمهما وأنهما استفادا كثيرا من المناقشات التى كانا

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧ ، ٨ .
() ترجمات الزبيدى كثيرة جدا فى كافة كتب التراجم والأدب الاندلسية وسبق الإشارة الى بعضها) .

(٢٧) المراكشى : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

يحضرانها مع رجال العلم آنذاك ، وأن الأمير في كثير من الأحيان ،
كان يسعد بالاستماع إليهما ، واختيار انتاجهما الأدبي (٣٠) .

لكن المثل الأكبر في هذا المجال نجده عند الحكم المستنصر بالله ،
وربما كان السبب في ذلك يرجع الى شدة الشغف الذي كان يكنه الخليفة
لابنه ، باعتباره ابنه الوحيد وولي عهده ، وأنه قد رزقه على كبر .
ولقد احتفظ لنا ابن حيان بوصف تفصيلي لاهتمام الحكم بالاحتفال
بقيام معلم ما ببدء الدراسة مع الأمير هشام فيقول عند الحديث
عن عام ٣٦١ هـ — ٩٧١ م :

« وفي عشي يوم الأحد ، أول أيامه (أول أيام شهر رمضان) ،
أوصل الخليفة الى نفسه الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف الملقب
بالقسطلي (٣١) ، فأمره بالتأهب لتعليم ولده الأمير أبي الوليد هشام ،
وأحسن وصاته به ، ورسم له في تعليمه وتدريبه رسوما أقاده عليها
ولم يعد عنها ، نفع الله الولد بها ، وكان قد أمر بتطرية الدار
المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وتنجيدها ، واقامة كل ما يحتاج
الى اقامته ، واعداده بها ، وفي الطريق اليها ، وفتح باب غربى
في فصل الفتيان بها ، يقرب عليه الخروج منها الى هذه الدار ،
فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور في المجلس الشرقي منها ، بأيمن
طائر ، ففضى ذلك كله ، وأحكم شأنه ، فكان جلوس الأمير أبي الوليد
مع معلمه في المجلس المذكور من الدار المحدودة يوم الخميس لخمس
خلون من شهر رمضان ، واستخف الخليفة الحكم السرور بما هياه
الله من ذلك ، الى أن برز الى هذا المجلس نهاره هذا لتقع عينه

(٣٠) كوندى : خوسيه انطونيو : تاريخ الحكم العربى في اسبانيا ،

ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٣١) أبو القاسم أحمد بن محمد بن يوسف المعافرى (٣١٠ —
٣٦٧ / ٩٢٢ — ٩٧٧) ، رحل الى المشرق سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م ،
وعاد ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، واستأدبه المستنصر ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، وولى
احكام الشرطة (المقتبس — طبعة الحجى ، ص ٧٦) .

على ابنه ، وشاهد صبره على الثقاف الذى لزمه ، فغاين من ركانة مجلسه واطلاقة وجهه ، واقباله على معلمه وسكون جأشه ما قرت به عينه ، وتجددت معه مسرته ، فبادر باخراج مال واسع الى صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بعينه ، ليفرقه على الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل ، شكرا لله تعالى على جليل منته عليه فى قررة عينه وسلالة مجده ، وعهد بعقد استثمار الفقيه أحمد بن يوسف معلم الأمير أبى الوليد هشام ، باجراء الرزق عليه : الرواتب والحملان والعلوفة ، وعهد باقامة علوفة للأمير أبى الوليد ، محدودة العدد ، موصوفة الأطعمة ، تقدم اليه والى من معه من صبيان ، كل يوم بموضع حضاره ذلك ، وأمر بتقديم ذكاء ، الوصيف الكبير الخصى ، ناظرا للأمير أبى الوليد ، قيوما على جميع صبيان متكفلا لشأنه » (٣٢) .

وفى موضع آخر تحت عنوان « ذكر ادناء الزبيدى النحوى » (٣٣) ، يواصل ابن حيان قائلا :

« وفى يوم الأحد ، للنصف الثانى من ذى القعدة منها (يشير الى سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م) نفذ العهد الى محمد بن حسن الزبيدى ثم الأشبيلي النحوى بالتزام مدينة الزهراء لجالسة الأمير أبى الوليد هشام بن أمير المؤمنين ، ومفاتحته النظر فى العربية ، وقد اعتمدت لتزوله منها الدار التى كان يسكنها صاحب الشرطة أحمد بن سعيد الجعفرى فى حياة والده ، وأجريت الأرزاق الواسعة عليه ، واستقبل فى هذا اليوم بصلة سنية ، وخلعة فاخرة ، جزاء على الذى تولاه من اختصاره لكتاب العين للخليل بن أحمد ، واقامته على الترتيب

(٣٢) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق الحجى ، ص ٧٦ ، ٧٧ .
Garcia Gomez : Anales Palatinos del Califa de Cordoba
AL-Hakam II, Por Isa ibn Ahmad Al-Razi, pp.

98, 100.

(٣٣) سبقت الإشارة اليه ، وترجمته مذكورة فى كافة كتب التراجم والادب الأندلسى .

والتصنيف ، اللذين حددهما له أمير المؤمنين فيه ، فارتضى عمله فيه عند تصفحه له ، وأجزل صلته ، وأدنى مكانه وأوصله إلى نفسه يومه هذا ، ففاوضه في عمله الذي برع فيه ، واستشار له من غوامض فنونه ، وناظره بين يديه يومئذ الوزير الكاتب الأديب جعفر بن عثمان في غرائب من فنه في النحو واللغة والشعر ، فقتاريا في الشأو وتسابقا في ميدان الإصابة ، فسر بها قيوم المعرفة وانتظم اتصال الزبيدي يومئذ بالخليفة الحكم ، وابنه الأمير هشام ، ونال حظوة » (٣٤) .

وفي موضع آخر ، وتحت عنوان « ذكر أسماع الأمير أبي الوليد العلم والحديث » يحدثنا ابن حيان قائلا :

« وفي يوم السبت لليلتين خلتا من شعبان منها (يقصد بذلك سنة ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م) أمر الخليفة الحكم في الارسال في طلب الشيخ الفقيه الراوية يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي (٣٥) ، أرفع مسندى الحديث وقتته ذلك بقرطبة . ، لاجلاسـه عند الأمير أبي الوليد هشام ولده المرشح لولاية عهده ، ومشاهدته اياه للسمع منه والأخذ عنه لسمو درجته في العلم ، واعتلاء منزلته في الرواية اذ روايته عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس رضى الله عنه ، فكان المرسل فيه من قبل الخليفة المستنصر بالله ، مؤدب الأمير أبي الوليد أحمد ابن يوسف المعروف بالقسطلى ، فأسرغ الاستجابة وأقبل الى القصر ، مع ابن يوسف ، وتوصل الى الأمير أبي الوليد بمكان قعوده للحضار في الدار المعروفة بدار الأولاد ، وكان بين يديه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، فأعلم الفقيه يحيى عن أمير المؤمنين ، بحسن رأيه فيه ووقوع اختياره عليه لاسماع أعز الناس عليه ،

(٣٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

Sanchez Albornoz : Ho. de la Espana Musulmana 1.423.

(٣٥) يحيى بن عبد الله : توفي ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، انظر ترجمته

عند ابن الفرضي ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

مجتهدا في افادته واعلاء درجته ، فشكر الشيخ وأثنى وأقعد ، فقراً
أحمد بن يوسف ، مؤدب الأمير مبتدئاً بالجزء الأول من موطأ مالك
ابن أنس في كتاب الفقيه يحيى بن عبد الله ، وهو كتاب الصلاة منه
رواية يحيى بن يحيى ، وضبط الأمير أبو الوليد كتابه سامعاً فيه ،
ومقابلاً بكتابه الذي لا يتضع عنه ، كتاب لجده الخليفة الناصر لدين
الله ، قرأه — رضى الله عنه — على عبيد الله بن يحيى بن يحيى
في زمانه ورواه عنه عن أبيه عن مالك بن أنس ، وقرأه بعده ابنه
الخليفة المستنصر بالله ، أيام طلبه على أحمد بن مطرف المعروف
بابن المشاط ، حمله عن عبيد الله بن يحيى عن يحيى عن مالك ،
فلما تم مجلس السماع وحن انقلاب الشيخ يحيى بن عبد الله ،
نفذ عهد الخليفة بأن يكون ركوبه ونزوله في الفصيل ، بفصيل المسجد ،
تشریفاً وترغيفاً عنه فجري أمره على ذلك مدة اختلافه ، وعادوا الحضور
يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان ، فأسمع الأمير على رسمه
بمشاهدة الوزير الكاتب جعفر بن عثمان أثير الخليفة والده ، ونفذ
العهد بأن يكون اختلاف الشيخ الفقيه الى الأمير أبي الوليد يومين
في الأسبوع ، يوم السبت والخميس على الاطراي الى أن يكمل
اسماعه الموطأ وجميع ما رواه من الدواوين عن عم أبيه أبي مروان
عبيد الله بن يحيى وغيره من الشيوخ الذين لقبهم وأخذ عنهم ، ان أنساً
الله مدته ، فجري الأمر على ذلك ، وأحرز الأمير به الفضيلة « (٣٦) » .

وأبو بكر بن العربي (٤٦٨ — ٥٤٣ هـ / ١٠٧٦ — ١١٤٨ م)
يقول : « كنت يوماً مع بعض المعلمين فجلس إلينا أبي رحمة الله عليه ،
يطالع ما انتهى اليه علمي ، في لحظة سرقها من زمانه ، مع عظم
اشتغاله » (٣٧) .

(٣٦) ابن حبان : المتبس : تحقيق الحجى ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .
Garcia Gomez : Anales Palatinos de Califa de Cordoba
Al - Hakam, II, pp. 256—258.

(٣٧) ابن العربي : قانون التأويل — وانظر أيضاً : الفكر التربوى
عند العرب ، ص ٢١٩ .

(د) المساهمة في وضع المنهج التعليمي لأبنائهم :

هذا ولقد سبق أن أشرت الى وصية عبد الملك بن حبيب ، لمعلم ولده^(٣٨) ، كما أن الحكم المستنصر ، أحسن وصاة معلم ولده ، ورسم له في تعليمه وتدريبه رسوما أفاده عليها ولم يعد عنها^(٣٩) . والأمير عبد المؤمن بن علي الموحدي الذي حكم من ٥٤٢ هـ الى ٥٥٨ هـ هجرية / ١١٣٠ - ١١٦٣ م وقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو و « كتاب أعز ما يطلب » وغير ذلك من تواليف المهدي^(٤٠) . أما ابن الخطيب فإنه لم ينس في رسالته في السياسة أن يركز على ما يجب نحو الأبناء فيقول :

« وأما الولد : فأحسن آدابهم ، واجعل الخير دأبهم ، وخفف عليهم من اشفاقك وحنانك ، وأكثر من غلظة جنانك ، واكتم عنهم ميلك ، وأفض عليهم وجودك ونيلك ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك ، وأثبهم على حسن الجواب ، وسبق اليهم خوف الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم الصبر على الضرائر والمهلة عند استخفاف الجرائر وخذ لهم بحسن السرائر ، وحبب اليهم مراس الأمور الصعبة المراس ، وحسن الاصطناع والاغتراس ، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم ، والسياسات والحلوم ، والمقام المعلوم ، وكره اليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ، وأحذر الكذب على مقولهم ، ورشحهم أن أنست منهم رشدا أو هديا ، وأرضعهم من المؤازرة والمشاورة ثديا ، لتمرنهم على الاعتياد ، وتحملهم على الازدياد ، ورضهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهي دأؤهم ، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ،

(٣٨) ارجع الى تلك الوصية ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ من الكتاب ، والتعليق عليها في الاشارة رقم (١٨) بهامش ص ٤٣٣ .
(٣٩) ابن حيان : المقتبس - تحقيق الحجى ، ص ٧٦ ، وترجمة غارثيا غومث بعنوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba Al-Hakam II.
par Isa ibn Abmad.

(٤٠) مجهول : الحل الموسية ، ص ١٥٠ .

وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت ، واقدعها اذا هجمت ، قبل أن يظهر
تضعيفها ، ويقوى ضعيفها فاذا أعجزتك في صغرهم الحيل ، عظم الميل •

أن الغصون اذا قومتها اعتدلت
ولن تلين اذا قومتها الخشب

واذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، فلا توطنهم
في مكانك ، جهد امكانك ، وفرقهم في بلدانك تفريق عيدانك ،
واستعملهم في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فان
حضرتك تشغلهم بالتحاسد والتبارى والتفاسد ، وانظر اليهم بأعين
الثقات ، فان عين الثقة تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقة » (٤١) •

ثانيا : أماكن التعليم الخاصة :

كان تعليم الخاصة يتم في أكثر من مكان حسب المكانة الاجتماعية
والسن والجنس •

(أ) بالنسبة للمكانة الاجتماعية ، فانه اذا ما كان الطفل
من أبناء الخلافة فان المعلم كان يذهب اليه في منزله ، وكان على
ال خليفة أو الأمير أن يعد لمؤدب ولده مكانا مناسباً يتولى فيه تعليمه ،
ونستدل على ذلك من الملاحظات التالية :

أبو عبد الله عثمان بن المثنى القيسي (توفي ٢٧٣ هـ — ٨٨٦ م)
قد زاره بعض اخوانه في مكتبة قصر الخلافة وهو يعلم ولدا للأمير
محمد ، جميل الصورة ، فقال له : « كيف حالك مع هذا الرثأ ؟ » (٤٢) •

أما بالنسبة لعبد الرحمن الناصر فلقـد وضع له جده الأمير
عبد الله أشهر المعلمين ، وعنى عناية تامة بتربيته ، منذ فطامه الذي

(٤١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ •

(٤٢) ابن سعيد : المغرب في حطى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ١١٣ •

وإلى تلك الميتة الشنيعة لو والده الأمير محمد (٤٣) .

عبد الله بن سليمان بن المنذر المكفوف من أهل قرطبة
(٣٢٥ هـ — ٩٣٦ م) أستاذ به الناصر عبد الرحمن بن محمد لولده ،
وقيل اختلف إلى أولاد الناصر ، وعلم داخل القصر (٤٤) .

ويحكى ابن عذارى ، عن جعفر بن عثمان ، الوزير المشهور ،
أنه قد كتب في محنته الأخيرة إلى محمد بن أبى عامر المنصور يعرض
نفسه عليه لتأديب ابنه عبد الله وعبد الملك فقال ابن أبى عامر :

« أراذ أن يستجهلنى ، ويسقطنى عند الناس ، وقد عهدونى
ببابه مؤملا ، ثم يرونه اليوم بدهلزى معلما » (٤٥) .

أبو محمد عبد الله بن يحيى الحضرمى ، المعروف بابن عبدون
(القرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى) ، « كان الرئيس
أبو الحجاج يوسف بن سعد هو الذى نقله من شاطبة إلى بلنسية ،
واستأدبه لبنه لما كان عليه من التصاون والعدالة ، وأباح له الاقراء ،
فكان يعلمهم العربية بالقصر ، فاذا انفصل عنهم ، علم الناس أيضا
بمسجد رحبة القاضي (٤٦) من بلنسية إلى أن توفى (٤٧) .

أما الحكم المستنصر ، فقد « أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك
بقصر الزهراء » ، وتنجيدها ، واقامة كل ما يحتاج إلى اقامته واعداده

(43) Conde J. A. : Ho. de la dominacion árabe, I, 365,366.

(٤٤) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٤٣٦ .

(٤٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٤٠٠ .

Sanchez Albornoz : Ho. de Espana Musulmana I.

454 , 455. ¶

(٤٦) عبارة عن مكان متسع للاجتماعات الشعبية ، وكان خارج
بلنسية ، أنظر تفصيلات ذلك فى كتاب « الحياة العلمية فى بلنسية »
لعجيل حسن ، ص ٧٥ .

(٤٧) ابن الأبار : المقتضب من تحفة القادم ، ص ٦٩ .

بها ، وفي الطريق اليها ، وفتح باب غربى فصيل الفتيان بها ليقترب
عليه الخروج منها الى هذه الدار — يقصد بذلك انصراف المعلم —
فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور فى المجلس الشرقى منها » (٤٨) •

أما الشيخ يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثى ،
فقد توصل الى الأمير أبى الوليد بمكان قعوده للحضار فى الدار المعروفة
بدار الأولاد (٤٩) •

يقول أبو بكر بن أبى ليلى ، وكان كاتب أبى على الصدفى
(٥١٤ هـ — ١١٢٠ م) أنه كان يوما عند الصدفى اذ جاءه وزير
ابن تاشفين (يقصد وزير الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذى
كان وليا على مرسية من قبل أخيه على بن يوسف تاشفين ، الأمير
المرابطى الذى حكم من ٥٠٠ الى ٥٣٧ هـ الموافق ١١٠٧ — ١١٤٣ م) ،
فقال : « ان الأمين يريد أن يسمع عليك الحديث ، يعرض له بالمشى
اليه ، فقال : لهذا جلست ، فكرر ذلك عليه ، فأجاب بمثلة ، ثم رغب
اليه ، بعد أن تكون له منه دولة فى منزله ، فأسعه على أن يصل اليه
بعد الفراغ من اسماع أصحابه ، والقيام من مجلسه » (٥٠) •

وبالإضافة الى ذلك ، فان بعض أبناء الأمراء والخلفاء كانوا
يخرجون الى حلقات المعلمين الكبار ، حيث نرى ابنى الأمير عبد الرحمن
ابن معاوية ، ابان وعثمان ، يحضران المحاضرات مع رجال العلم فى ذلك
الوقت (٥١) • ولقد أمر الأمير أيضا بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر
سليمان المجلس العلمى للقاضى بالمسجد الجامع- (٥٢) •

(٤٨) ابن حيان : المقتبس (تحقيق الحجى) ، ص ٧٦
Garcia G. E., Anales Palatinos, p. 99.

(٤٩) ابن حيان : المقتبس (تحقيق الحجى) ، ص ٢١٦ .

(٥٠) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(51) Conde J. A. Ho. de la dominacion arabes, I. 269.

(52) Op. Cit., I. 200.

قاسم بن أصبغ بن محمد (توفي ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م) رحل الى المشرق ، وانصرف الى الأندلس بعلم كثير ، وكتب كثيرة ، « وسمع منه كثيرامن هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد - رضى الله عنه - قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولى عهده الحكم واخوته » (٥٣) .

كما أن المستنصر - فى حياة والده - قد سمع من سعيد بن جابر ابن موسى الكلاعى المتوفى (٣٢٥ هـ - ٨٣٩ م) (٥٤) .

وتردد أبو على الصدقى فى الذهاب الى بيت الأمير ، يعنى أنه رأى أن من الممكن ذهاب الأمير اليه .

(ب) أما اذا كان من أبناء رجال الدولة فانهم يتشابهون تقريبا ، من ناحية المكان ، مع أبناء الخلفاء والأمراء ، أى أن المؤدب يذهب اليهم فى منازلهم ، ولكن نلاحظ من خلال دراسة التراجم التى بين أيدينا كثرة ترددهم على المعلمين فى مجالسهم بالمساجد أو بالمنازل ، فالنسبة لاحضار المعلمين الى المنزل فان أول خبر لدينا فى تاريخ الأندلس ، هو قيام هاشم بن عبد العزيز (وزير الأمير محمد الذى حكم من سنة ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) باحضار جابر بن غيث ، المتوفى ٢٩٩ هـ (٩١١ م) الى قرطبة ، لكى يقوم بتأديب ولده (٥٥) .

أما زيد بن ربيع بن سليمان الحجرى ، فلقد كان أديبا جامعا ، حسن الضبط للغة والعناية بها ، واستأدبه الوزير أبو عثمان عبد الله بن محمد بن أبى عبيدة ، لولده جهور بن عبيد الله (٥٦) .

(٥٣) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٣١ .

(٥٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٥٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، طبعة

مدريد ، ص ٩٠ .

السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٥٦) ابن حبان : الاقتبس (تحقيق انطونيا) ، ص ٤٨ .

أما الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير المتوكل على الله ، أمير بطليموس في عهد الطوائف (٤٦١ — ٤٨٧ هـ / ١٠٦٩ — ١٠٩٤ م) ، فإنه يحكى أنه كان يوما جالسا بين يدي مؤدبه الشيخ أبي الوليد بن ضابط النحوى المالقى (٥٧) .

ويتم احضار معلمى أبناء الخاصة الى منازلهم ، خاصة في الفترة الأولى من حياتهم ، ولكن عندما يتقدمون في السن ، فإنه من الممكن أن يحضر اليهم المعلم في المنزل ، أو قد يذهب الطلبة الى معلمهم في مساجدهم أو منازلهم أو أماكن تعليمهم ، كما أشرت في السطور الماضية الى المؤدبين الذين قاموا بتعليم أولاد كبار رجال الدولة في الأندلس ، ويؤكد ذلك لنا مقالة تركها لنا أبو بكر بن العربى ، حيث يؤكد أنه (عند ريعان النشأة رتب لى أبى — رحمه الله — حتى حفظت القرآن في العام التاسع ، ثم قرن بى ثلاثة من المعلمين يتعاقبون على من صلاة الصبح الى صلاة العصر ثم ينصرفون عنى ، وآخذ في الراحة الى صبح اليوم الثانى فلا تتركنى نفسى فارغا من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بغرارة الشباب) (٥٨) .

أما ذهاب هؤلاء الأولاد الى مجالس المعلمين فتؤكدده كثير من البيانات والملاحظات الدالة على ذلك ، أشير هنا الى بعضها فقط :

محمد بن خطاب أبو عبد الله النحوى الأزدي (عاش في القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى) كان من الأدباء المشهورين ، والنحاة المذكورين ، وكان يختلف اليه في علم العربية أولاد الأكابر وذوى الجلالة . وله مع ذلك شعر ماثور (٥٩) .

(٥٧) المراكشى : المنجيب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .
(٥٨) ابن العربى : العواصم من القواصم ، ص ١١ ، وانظر النص في كتاب الفكر التريبى عند العرب ، ص ٥١ — ٥٣ ، نقلا عن قانون التأويل .

(٥٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٥٠ .
الضبى : بغية الملتبس ، ص ٦٤ .

على بن جابر بن على بن يحيى اللخمي الأشبيلي (توفي ٦٤٦ هـ —
١٢٤٨ م) ، يكنى أبا الحسن الدباج . عكف على اقراء القرآن ،
وتدريس العربية والأدب ، نحوا من خمسين سنة ، لم يتعرض لسواه
ولا عرج على غيره

وكانت لأبى الحسن الدباج — رحمه الله — أثناء اقراءه نواذر ،
فقد كان يقرأ عنده صبي من أعيان الجند ، كانت
له شارة وقحة ، فصاح ذات يوم يا أستاذ ... كما أنه
كان يلزم مجلسه بعض الطلبة والأعيان (٦٠) .

أما ابن حيان ، مؤرخ الأندلس الكبير ، وابن وزير المنصور
ابن أبى عامر ، فلقد درس وحده كتاب الفصوص على يد مؤلفه
العالم اللغوى الشهير صاعد البغدادى ، على الرغم من أن مؤلف
الكتاب قد أسمعه للناس فى حلقات عامة — يقول ابن الفرضى
عن ذلك :

وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبى عامر ، كتابا سماه
الفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار .. وأمره (أى المنصور)
بأن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة فى عقب سنة ٣٨٥ هـ
(أوائل ٩٩٦ م) ، واحتشد له جماعة من أهل الأدب ووجوه الناس
أمة ، قال ابن حيان : وقرأته عليه منفردا فى داره سنة ٣٩٩ هـ
(١٠٠٨ — ١٠٠٩ م) (٦١) .

أما بالنسبة للبنات من أبناء الخلفاء أو من أبناء الخاصة ، فإن
تعليمهن كان يتم فى المنازل ، ويتولى تعليمهن سيدات من أهل البلاط
أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح أو التقوى ، وفى بعض الحالات
يقوم الآباء بذلك ، فالخليفة المنصور (الذى حكم سنة ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ /

(٦٠) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الأول ، ص ١٩٩ (التعليق).

(٦١) ابن حيان : القتبس (تحقيق مكى) ، ص ٢٠ ، المقدمة .

ابن بشكوال : الصلة (الترجمة رقم ٥٤٠) — ج ١ ، ص ٢٣٦ .

١١٨٤-١١٩٩م) ، حينما استمع الى على بن محمد بن يوسف بن عبد الله ،
الفهرى وهو يقرأ بمقبرة على جارى عادته ، أخذ بقلبه طيب نعمته ،
فقربه واستخلصه ، وأمره بتعليم أولاده ، وقراءة حزب من التراويح
فى رمضان ، ثم خبر أحواله ، وعرف صونه وعفافه ، فأمره بتعليم
بناته ، فاستعفاه من ذلك معذرا ، بأنه لا يدرك بعض التفرقة بين
الألوان ، فأحظاه ذلك عنده ، لما تحقق من صدق نصحه ، وألزمه
تعليمهن ، وكان سبب اثرائه وسعة حاله (٦٢) .

أما أم الحسن بنت القاضي أبى جعفر الطنجالى من أهل لوشة ،
فلقد كانت نبيلة حسنة ، تجيد قراءة القرآن وتشارك فى فنون الطلب
من مبادئ غربية واقراء ، ووسائل الطلب ، وتنظيم أبيات من الشعر .

نشأت فى حجر أبيها ، لا يدخر عنها تدريجا ولا سهما ، حتى
نهض ادراكها ، وظهر فى المعرفة حراكها ، ودرسها الطب ، ففهمت
أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه (٦٣) .

تعليم الوصفاء :

وهناك بعض الطوائف الخاصة قد جرى تعليمها ، اما فى القصور
أو فى أماكن اقامتهم ، ومن هؤلاء وصفاء القصور حيث تخصص
فى تعليمهم أحمد بن مضا بن عبد الجبار بن مضا ، القرطبى ، وتقول
ترجمته : كان أديبا متفنا فى علوم اللسان العربى ، أدب طويلا
للخاصة والعامة ، ثم قصر على تأديب الوصفاء بالقصر (٦٤) .

تعليم الرهائن :

أما الرهائن ، فلقد كانوا دائما من أبناء حكام الأقاليم وكبار
العائلات التى يخشى تمردا على السلطة المركزية ، فلقد كان يتم

(٦٢) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ،
ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٦٣) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(٦٤) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الاول ، ص ٥٤٣ .

تعليمهم في دار اقامتهم . هذا ولقد حفظت لنا كتب التاريخ الأندلسي القديمة نصا فريدا في هذا المجال ، يشار اليه أيضا ضمن الحديث عن تدخل الدولة في شئون التعليم بالأندلس ، والنص يتحدث عن أن القاضي أمية بن عيسى بن شهيد وزير الخليفة عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ — ٨٥٧ م) ، « حضر يوما بدار الرهائن الجاورة لباب القنطرة بقرابة ، ورهائن بنى قيس وغيرهم من أبناء الثوار ينشدون شعر عنتره أمام مؤدب ، فقال لبعض الأعوان : على بالمؤدب ، فلما وصل الى القصر ووافاه المؤدب قال له : لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك أدبا موجعا ، تعتمد الى شياطين أبناء شياطين قد شجى بهم الخلفاء فترويههم شعر عنتره والشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ! بكف عن هذا ، ولا تروهم الا خمريات الحسن ابن هانئ ، وشبهها من الأهزال ، ومثل شعر عمر بن أبى ربيعة وجميل ، وغيرهما من أمثالهم » (٦٥) .

وعلاوة على ذلك ، فان بعض الخلفاء قد جعل لمؤدب ولده مسكنا خاصا فلقد أمر الخليفة الحكم المستنصر فى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م بأن يلزم محمد بن حسن الزبيدى ، مدينة الزهراء لمجالسة الأمير أبى الوليد هشام ، ابن أمير المؤمنين ، ومفاتحته فى العربية ، وقد اعتمدت لنزوله منها ، الدار التى كان يسكنها صاحب الشرطة ، أحمد ابن سعيد الجعفرى فى حياة والده ، وأجريت عليه الأرزاق الواسعة (٦٦) .

أما الأمير هشام بن عبد الرحمن فلقد أنزل مؤدب ولده فى الدار المعروفة بشلار بدار ابن الشمر (٦٧) .

(٦٥) أخذت هذا النص بالذات من :

ابن السماك : الزهرات المنثورة ، ص ١٠ ، ما زال تحت الطبع ، تحقيق الدكتور محمود مكى ، بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمريد ، العدد العشرون ، ولقد ورد النص مع اختلافات بسيطة فى أكثر من كتاب (انظر تفصيلات ذلك فى الفصل الخاص بتدخل الدولة فى التعليم فى الأندلس ، ص ١٩٦ ، ١٩٧) .

(٦٦) ابن حيان : المقتبس ، طبعة الحجى ، ص ١٣٤ .

(٦٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

شلار : ربح من أرباض قرطبة الشرقية ، النفح ، ج ٢ ،

ثالثا : المنهج التعليمي لتلك الفئة :

سبق لى أن أشرت فى بداية هذا الفصل الى أن المنهج التعليمي لأبناء الخاصة ، لا يختلف كثيرا عن المنهج التعليمي العام فى الأندلس ، وإن تباين عنه فى بعض الجزئيات ، النابعة من طبيعة الطبقة الاجتماعية ، أو الاعداد لمستقبل معين ، أو غير ذلك من الأمور . ولذلك فلن أسهب فى ذلك المكان كثيرا عن البرنامج التعليمي ، لأننى تناولته فى مكانه المناسب من الرسالة وسأكتفى بالإشارة الى بعض النصوص التاريخية التى أشارت الى نواحى محددة من تعليم الأمراء وأبناء كبار رجال الدولة فى الأندلس .

والمستعرب الأسباني خوسيه أنطونيو كوندى ، يصف لنا ما كان يتلقاه ابن الرحمن بن محمد من تعليم فيقول :

ووضع له أشهر المؤدبين ، الذين علموه أحسن تعليم ، فحينما بدأ مرحلة الطفولة علموه قراءة القرآن ، وحفظه بكل طرائقه ، وفى الثانية عشرة ، تعلم الحديث والسنة وأيام العرب والنحو والشعر ، والأمثال العربية ، وحياة الأمراء ، وكذلك علوم الادارة والحكم ، وعلوم انسانية أخرى .

وبعد ذلك تدرب على الفروسية ، والتحكّم برشاقة وأناقة فى حركات حصانه ، والتصويب بالسهام وقذف الرماح ، واستعمال كافة الأسلحة ، والدراية بالخيال العسكرية ، ولقد تدرب على هذا كله وعمره احدى عشرة سنة ، عندما كان يلعب مع أقران صباه (٦٨) .

وثمة برنامج آخر ، أعده الأمير الموحدى عيد المؤمن بن على ، ننقله فيما يلى :

ووقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو « وكتاب أعز ما يطلب »

وغير ذلك من تواليف المهدي ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر ، فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة ، من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده ، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ، ويوما بالرمي بالقوس ، ويوما بالعموم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة ، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع . ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة ، فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بالعطاء ، وتارة بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده ، وخيلهم وعدتهم كذلك .

ولما كمل له هذا المراد فيهم ، عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة ، وقال : العلماء أولى منكم ، فسلموا لهم^(٦٩) .

أما النص الذي يوضح لنا محتوى التعليم الذي كان يتلقاه أبناء الأندلس عامة ، وأبناء الخاصة منهم ، خاصة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فلقد قصه علينا العالم الأندلسي الكبير أبو بكر بن العربي ، المتوفى ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م ، قائلا :

كان من حسن قضاء الله تعالى ، أنى عندما كنت في عنفوان الشباب وريان الحداثة وعند زيعان النشأة ، رتب لى أبى رحمه الله حتى حذقت القرآن في العام التاسع ، ثم قرن بى ثلاثة من المعلمين أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التى جمعها الله فيه ، ونبه الصادق صلى الله عليه عليها في قوله : « أنزل القرآن على سبعة أحرف في تفصيل فيها » ، والثاني لعلم العربية ، والثالث للتدريب في الحساب ، فلم يأت على ابتداء الأشد في العام السادس عشر من العدد ، الا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحو من عشرة ، بما يتبعها من اضغام واظهار وقصر ومد وتخفيف وشد وتحريك وتسكين وحذف وتنميم وترقيق وتفخيم ، وقد جمعت من العربية فنونا ،

وتصرفت فيها تمرينا : منها كتاب الواضح (٧٤) و « الجملة » (٧١) ، وكتاب النحاس (٧٢) و « الأصول » لابن السراج (٧٣) ، وسمعت كتاب الثمالي (٧٤) وكتاب الصناعة الأصلية الذي أنجاه الخليل (٧٥) الى سيوييه (٧٦) ثم تولى سيوييه نظمه وترتيبه ، وقرأت من الأشعار جملة منها « السنة » (٧٧) ، وشعر الطائي (٧٨) والجعفي (٧٩) ويسيرا من أشعار العرب والمحدثين ، وقرأت في اللغة كتاب ثعلب (٨٠) واصلاح المنطق (٨١) والأمل (٨٢) ، وغيرها ، وسمعت جملة من الحديث على المشيخة ، وقرأت من علم الحساب : المعاملات والجبر والفرائض عملا . ثم كتاب أوقليدس وما يليه الى الشكل القطاع (٨٣) ، وعدلت بالازياج الثلاثة ونظرت في الاسطرلاب في سقط النقطة ونحوه ، يتعاقب على هؤلاء المعلمون من صلاة الصبح الى صلاة العصر ، ثم ينصرفون غنى ، وأخذ في الراحة الى صبح اليوم الثاني . فلا تتركني نفسي فارغا من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بغرارة الشباب (٨٤) .

- (٧٠) لأبي بكر محمد بن الحسن الاندلسي (توفي ٣٧٩هـ / ٩٨٩م) .
- (٧١) لعبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (المتوفى ٣٣٧هـ / ٩٤٨م) .
- (٧٢) لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس ، توفي ٣٣٨هـ / ٩٤٩م .
- (٧٣) محمد بن السري بن سهل ، توفي ٣١٦هـ / ٩٢٨م .
- (٧٤) أبو العباس المبرد ، صاحب كتاب الكامل ، توفي ٢٨٥هـ / ٨٩٨م .
- (٧٥) الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٠ هـ / ٧١٩ - ٧٨٧ م) .
- (٧٦) سيوييه (١٤٨ - ١٨٠ هـ / ٧٦٧ - ٧٩٧ م) .
- (٧٧) وهي اشعار امرئ القيس ، والنايفه وعلقمة وعنترة وزهير وطرفة ، وكلهم من شعراء العرب البارزين .
- (٧٨) أبو تمام الطائي (١٩٠ - ٢٣١ هـ / ٨٠٧ - ٨٤٥ م) .
- (٧٩) المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م) .
- (٨٠) ثعلب ، من رواد مدرسة الكوفة في اللغة ، توفي ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م .

- (٨١) لابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤ هـ / ٨٠٣ - ٨٥٨ م) .
- (٨٢) لأبي علي القالي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠٠ - ٩٦٦ م) .
- (٨٣) الشكل القطاع : قطعة من دائرة ، رأسها أما على مركزها ، وأما على محيطها ، انظر مفتاح العلوم للخوارزمي .
- (٨٤) ابن العربي : العاضم من القواصم ، ص ١١ .
- المقري : نفح الطيب - ج ٢ ، ص ٢٥٠ ، والفكر التربوي عند العرب ، ص ٥٢ - ٥٣ .

ولقد احتفظت لنا كتب التاريخ بما يمكن أن يلقي ضوءاً من
من الداخل على الرغبة المعتملة داخل نفوس الحكام في اعداد بعض
أبنائهم اعدادا خاصا يتناسب ومسئولية الحكم ، حتى أصبح من أهم
الأهداف الرئيسية التي تلقن لهؤلاء الأولاد كيفية ادارة شئون الحكم ،
وجاءنا هذا النص ضمن أول مذكرات شخصية ، سجلها تاريخ الأدب
الأندلسي ، وهي التي كتبها الأمير عبد الله سيف الدولة بن بلكين من
باديس ، أمير غرناطة على عهد الطوائف والذي حكم من ٤٦٦ إلى
٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٩٠ م ، يقول النص : وقد كنا - معشر أصلنا
بيت المملكة - نرى أن أكثر ما نتأدب به أعمال السياسة في طلب
الرياسة ، والسعي لها بكل الوجوه واحضار الأذهان ، ما لو أن المفرط
في بعض ذلك منا يكون أفقه الناس في سائرها من العلوم ، لكان
عندنا ناقصا ، لا يصلح لهذا الشأن ، حتى وقع التنافس عليه .

وقتلناها نحن علما لرياضة أنفسنا لها ، وما أجزأنا عليه آباؤنا ،
وبصرونا فيه من أولى شأننا .

وتلك صناعة وجب تعلمها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي
منها معاش الناس ، ولا بد لهم من اتقانها . ولعمري ان الوالي أكثر
علما وأحسن عقلا : فان جميع عقول الناس تعرض لديه واليه تهدي
الأخبار ، ويتخاضع الناس ، وعنده يقبح الطلب ، وترفع الحاجات
وتقع العنايةات ، فيرى ويسمع كل يوم جديدا لم يره أمس . . .

ويواصل الأمير عبد الله قائلا :

ولما كان المظفر جدي - رضى الله عنه - قد أوتي من
الدهاء والتميز لأحوال الزمان ما لاخفاء به ، وأنه من أكد ما يجب
النظر فيه ترشيح أحد بنيهِ للولاية بعده ، وأن ذلك لا يتم الا بتمرينه ،
واعماله في جميع خدمته ، كي يتدرب ، ولا يخفى عليه أمر من أمور
الدولة ما يحتاج اليه فيه نفسه ، كنت ممن وفقه الله لجره والانصياع
لهوصته - فأمر باخراجه من المكتب الى التصرف بين يديه ، وقال لي

— نضر الله وجهه — معك من الكتاب وتلاوة القرآن ما يكفيك ! وهذا أولى ما تتعلم ، فعليك باحضار ذهنك لجميع ما يكون منى وما ينقضى فى دولتى أيام هذه الفتن ، فان الزمان أشر والأيام أقصر من أن تدرك ، تعلم كل شىء يعنى به الملوك الأبنائهم •

فامتثلت حده ، وأخذت نفسى أولا بالتواضع له ، واختصار كل شىء يقغ منه فى نفسه أنى أشره به الى تعجيل الولاية أو الخرض على الرياسة ، بل كنت أتأبى له عن ذلك ، ولا أحكم بين اثنين الا عن مشورته ومشاركة أهل السن والعمل من وزرائه ، وأنزل نفسى لهم بمنزلة الابن ، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعا أرتضونى به للخلافة من بعده • واتفق فى ذلك رأيهم مع رأى الجد ، رحمه الله •

ولم يكن من نهار الا وأستفيد فيه فائدة من تجربة وحنكة (٨٥) •

وقبل ذلك نجد اشارة الى نفس المعنى ضمن قصة طويلة قد وقعت بين الأمير عبد الرحمن بن محمد وجده الأمير عبد الله أوردها لنا ابن حيان ، نستخلص منها أن الأمير قد تفرس فى حفيده عبد الرحمن النجابة فخرجه بأدبه ، وأجهد فى تعليمه (٨٦) •

دور النساء :

يندو أن النساء قد لعبن دورا هاما فى تربية الأمراء والخاصة فى الأندلس ، وخاصة فى المراحل الأولى من حياة هؤلاء ، ومن الطبيعى أن تتولى النساء ذلك بحكم قيامهن بالأعمال المنزلية الخاصة بالحضانة والرعاية لأطفال الخلفاء وكبار رجال الدولة ، ولذا كانت النساء اللاتى كن يعشن فى هذه الأماكن ممن يتمتعن بالسمة الطيبة والأخلاق الحميدة ، والعلم والثقافة الواسعين ، ولست أجيد داعيا لأن أذكر هنا كثيرا من أسماء النسوة ، اللاتى كان يعج بهن بلاط الخلفاء والأمراء، ومكانتهن

(٨٥) عبد الله (الأمير) : مذكرات ، ص ١١ — ١٣ .

(٨٦) ابن حيان : المقتبس (تحقيق انطونيا) ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

من الناحية العلمية فلقد خصص المقرئ فصلا كاملا للحديث عن نساء الأندلس (٨٧) . ويمكن لمن يرغب في المزيد ، الرجوع اليه — وانما أشير فقط كمثال على ثقافة تلك النسوة ، الى ما يقال عن «لبنى» ، كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، حيث وصفها الصفدي بأنها كانت نحوية ، كاتبة ، شاعرة ، بصيرة بالحساب والعروض ، حاذقة ، توفيت سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . وفي موضع آخر قيل : انها كانت تكتب الخط الجيد ، نحوية شاعرة ، عروضية ، بصيرة بالحساب ، مشاركة في العلم ، لم يكن في قصرهم أنيل منها ، خطاطة خطاطة جدا (٨٨) .

وأكثر التصوص دلالة على قيام النساء بمهمة تعليم أبناء الخاصة خلال مراحل عمرهم الأولى قد قصه علينا ابن حزم القرطبي حيث يقول :

ولقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ، ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأنني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وأنا في حشد الشباب وحين تنقلب وجهي ، وهن علمنني القرآن وروينتنى كثيرا من الأشعار ودربنتنى في الخط (٨٩) .

وننقل هنا ثقافة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الموحدى كدليل آخر على التعليم الذي يتلقاه أبناء الخلفاء والأمراء

(٨٧) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٨٨) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ص ٣٨٣ .

(٨٩) ابن حزم : طوق الحمامة (تحقيق برشيرا) ، ص ١٢٦ .

والترجمة الفرنسية ، ص ١٢٧ .

Asin P. : Ibn Hazm de Cordoba, I. 39.

Gomez Nogales : Teoria u clasificacion de las ciencias segun Ibn Hazm, p. 66.

أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٣١ .

غارثيا غومث : Garcia Gomez, E. : El Collar de La paloma.

فى ذلك الحين — يقول عبد الواحد المراكشى ، انه كان : حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام ، صرّفت عنايته الى ذلك أيام كونه بأشبيلية واليا عليها فى حياة أبيه ، ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه •

أخبرنى من لقيته من ولده ، كأبى زكريا ، وأبى عبد الله ، وأبى ابراهيم اسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكية ، بعيد المهمة ، سخيا جوادا ، استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال ، هذا مع ايثار للعلم شديد ، وتعطش اليه مفرط صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين — الشك منى ، اما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى ، حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن ، هذا مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساع فى حفظ اللغة ، وتبحر فى علم النحو حسبما تقدم ، ثم طمح به شرف نفسه ، وعلو همته الى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيرا من أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروفة بالملكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى (٩٠) •

كان لتعليم الأمراء ، بعض الجوانب المؤثرة اما على حياة المعلمين أنفسهم أو على طلبتهم ، ولا شك أن القيام بمهمة مؤدب لأولاد الخلفاء كان يحمل المؤدب الى مكانة اجتماعية عالية جدا ، حتى لقد قيل ان الحاجب جعفر بن عثمان ، أشهر الوزراء على عهد هشام الثاني ، قبل أن يقتله المتصور بن أبي عامر ، وصل الى ما وصل اليه ، لأن والده كان معلم الخليفة الحكم في صباه (٩١) .
والوزير عيسى بن سعيد من أكثر وزراء الدولة الغامرية شهرة وجاها ، وقد نال ذلك لأن والده كان معلما (٩٢) . لكنها من جانب آخر قد تكون سببا في خلق بعض المشاكل للمعلمين مما جعل بعضهم يتفادى القيام بهذه المهمة ، فقد رفض محمد بن هشام المرواني صاحب كتاب « أخبار الشعراء » أن يقوم بتأديب أولاد عبد الرحمن الناصر قائلا :
« أن الفتيان لا يتعلمون الا بسدة الضبط والقيد والأعلاظ ، وأنا أكره أن أعامل بذلك أولاد الخليفة فيكرهوني ، وقد يحقد على بعضهم ذلك الى أن يقدر على النفع والضرر (٩٣) » .

وبعض الأساتذة كان يرفض ذلك اعترازا بنفسه ، ويعلمه ، فيقال أن داود بن يزيد الغرناطي انتقل الى باغة من أجل أن السلطان دعاه لاقراء بنيه ، فقال : والله لا أهنت العلم ، ولا مشيت به الى الديار (٩٤) .

وهناك أيضا بعض الجوانب التربوية الهامة التي روعيت في تربية الأمراء ، وخاصة أولئك الذين كانوا يتلقون تربيتهم في منازلهم ، وأقصد بذلك محاولة اقامة اتصال بينهم وبين الأطفال الذين هم في سنهم

(٩١) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .
(٩٢) ابن حيان : المتين (تحقيق عبد الله جمال الدين) ، ص ٣١ .

(٩٣) المقرئ : النفع ، ج ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٩٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .
بعض الجوانب الأخرى :

من أبناء الأمراء أو البلاط حتى لا ينمو لديهم شعور العزلة ، فنجد أن عبد الرحمن الناصر كان يتلقى تعليمه مع أقرانه ، وأن الحكم المستنصر ، قد جعل بعض الصبيان مع ابنه هشام ، في موضع حضاره (٩٥) — هذا في الوقت الذي يشكو فيه ابن حزم من تأثير عزلته وحيدا بين النساء — يصف ذلك المستعرب الأسباني الكبير آسين بلاثيوس ، قائلا :

ان هذه التربية الأولية المنعزلة ، وذلك الانغلاق ، قد أثرا دون شك في تكوينه الخلقى وفي مزاجه النفسى (٩٦) .

انه لم يكن يقتصر في تأديب الأمير على مؤدب واحد ، وانما من المحتمل أن يكون له أكثر من مؤدب ، فنجد أن الحكم بن هشام قد وضع له من المعلمين : سوار بن عبد الرحمن (٩٧) وكيبة بن ربيعة (٩٨) . علاوة على أن الثمر بن نمير حينما وصل الى الأندلس على عهد الأمير هشام ضمه الى تأديب ولده (٩٩) .

أما الأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد استأدب لأولاده كلا من عبد الملك بن أيمن بن فرحون (١٠٠) ، وأبى بكر محمد عبد الله بن بكر الكلاعى (١٠١) وعثمان بن المثنى (١٠٢) ، وعبد الله بن سليمان المنذر (١٠٣) . والحكم المستنصر بالله قد وضع لابنه أكثر من معلم ، كما سبق أن بينا خلال صفحات هذا البحث .

(٩٥) ابن حيان : المقتبس (تحقيق الحجبى) ، ص ٧٧ .
Garcia Gomez, Anales Palatinos p. 100.

(٩٦) Asin Palacios : Ibn Hazm de Cordoba, I. 38.

(٩٧) المقرئ : النفح ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .
(٩٨) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٦٥ .
(٩٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .
(١٠٠) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ١٥ .

(١٠١) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٩٤ .
(١٠٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .
(١٠٣) ابن الفرضى : نفس المصدر — ج ١ ، ص ٣٠٢ .
(١٠٤) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٤٣٦ .

ومن جانب آخر ، فانه من الممكن أن يختار الخليفة معلما لكل واحد من أبنائه ، أو معلما واحدا ، لأكثر من واحد من أبنائه .

فبالنسبة للحالة الأولى ، نجد أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، يختار الفقيه محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي ليكون مؤدبا لابنه المغيرة (١٠٤) .

الفصل الثامن

اهتمام الخاصة بالتعليم

أشارت بعض كتب تاريخ التربية التي تناولت تاريخ التربية الإسلامية الى أن أهل الأندلس لم يقدموا كثيرا للعلماء أو لطلبة العلم ، وأن مسجد قرطبة ، على عظمته ، وكثرة ما قيل فيه ، لا نجد بين أيدينا ، ما يفيد ما أوقف على هذا المسجد من أموال ومن أوقاف : فيقول الأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمه في كتابه « تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى » : ويبدو أن حياة الطلاب بالأندلس كانت أشق من غيرها في بلاد الإسلام الأخرى ، وبينما كانت رواتب الطلاب بالشرق منتظمة ثابتة ، ظلت حياة الطالب الأندلسي قائمة على الكسب الشخصي أو الصدقات ، التي يجود بها أهل الخير ، « وقليل هم في تلك الديار » .

ولعل فيما نقلناه من قول بقى بن مخلد ، تصويرا واضحا لبعض الطلاب الأندلسيين ومعيشتهم .

وعلى كثرة ما قيل في وصف الجامع الأعظم بقرطبة فاننا لا نجد فيما كتب ذكرنا لأى نوع من الرواتب للأساتذة أو الطلاب ، وسبب ذلك ، هو تأخر الحركة المدرسية بالأندلس ، وغلبة الحرص والبخل على أهلها . وربما كان لاختلاطهم بالعناصر الأوروبية ، أثر في تخلفهم بأخلاق بعيدة عن الكرم العربى والشرقى الذى تميزت به بلاد المشرق فاذا رأوا شخصا قادرا على الخدمة سبوه وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، وهذا أمر محمود ، ولكنه دليل على مبلغ حرصهم على المال ، بالنسبة للمشاركة (١) .

(١) محمد غنيمه : تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ، ص ٢٦٨ .

وتلك فكرة طيبة ، ولكن من شأنها أن تجعل التعليم مقصورا على القادرين فقط ، أرسطراطيا لا يقدر عليه الا أهل الثراء ، وهذا ما يدفعنا الى القول بأن التعليم عند أهل المشرق كان أكثر ديموقراطية وأرحب مجالا من التعليم الأندلسي وأكثر رعاية للمذاهب والكفايات الانسانية التي قد يقضى عليها العجز ويقتلها الفقر .

والحقيقة ، أن الغالبية العظمى ممن أرخوا للتعليم أو للتربية في الاسلام ، هم من الباحثين المشاركة ، أى أن معظمهم من بلاد المشرق الاسلامي ، ولذلك لم يتح لأى منهم التعمق الكافي في المراجع الأندلسية خاصة ، مما جعل الأندلس في كثير من المؤلفات ، لا تحظى الا بأقل القليل من الدراسة والبحث .

ان هذه هي أول مرة يحظى فيها تاريخ التعليم في الأندلس بدراسة جامعية متخصصة ، تسعى لالقاء الضوء على جوانبه المتعددة . ولقد أتيخ لكاتب هذه الدراسة أن يعيش من حياته ستة أعوام كاملة على الأرض الأسبانية — أى على نفس المسرح الجغرافي الذي جرى عليه هذا التاريخ الأندلسي ، كما أنه قد أتيخ له أن يطلع على أكبر قدر ممكن من المراجع والمصادر التي تتناول كافة مظاهر الحياة في الغرب الاسلامي عامة والأندلس بصفة خاصة ، ويمكن لى أنؤكد بأن الحقيقة التي لا خفاء فيها ، أن أهل الأندلس قد قدموا للعلم وللعلماء وللطلبة كل الوسائل التي ساعدتهم على أن يرتفعوا بالأندلس في مجال العلم والتعليم ، الى أعلى درجة ممكنة ، مما جعل من الأندلس عامة ، وعواصمها الكبرى خاصة مشعلا للثقافة ، ومركزا للتعليم خلال العصور الوسطى .

لقد حاولت في بداية الرسالة أن أبين اهتمام حكام الأندلس بالعملية التعليمية ، واقتصرت على تناول مجهودات الأمراء والخلفاء والملوك والسلاطين فقط ، وهنا سأتناول في ايجاز دور بعض الخاصة في الاهتمام بالعلم والتعليم ، والانفاق على الطلبة والعلماء ومراكز

التعليم في الأندلس ، حيث قاموا برعاية الفقراء ، وتسهيل سبل العلم لهم ، ومساعدتهم ماديا حتى وصلوا الى درجة من العلم ، لا بأس بها ، وهناك من حبس داره على الطلبة ، ومن حبس كتبه عليهم — والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فلنستعرض بعضا منها :

تتحدث كتب التراجم عن « أبي عبد الله محمد بن سليمان ابن الخياط المرعيني الأعمى القرطبي (المتوفى ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م) (٢) أن أباه كان يبيع الحنطة بقرطبة ، ونشأ هذا الأعمى نشأة أعانتته على أن بلغ غاية من العلم الحديث والعلم القديم .

وكان بنو ذكوان (٣) ، هم الذين كفوه مؤونة الدهر ، وفرغوه للاشتغال بالعلم ، وكان الغالب عليه المنطق (٤) .

أما فرج بن أبي الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم اليجصبي ، من أهل طليطلة (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) ، فقد غات أهل زمانه في العلم والعقل والفضل ، وحبس داره على طلبة أهل السنة (٥) .

وأبو العباس أحمد بن رشيق (المتوفى بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، الذي تولى جزيرة ميورقة « فكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل والسياسة ، ويشغل بالفقه والحديث ، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم ، ويصلح الأمور جهده » (٦) .

(٢) الحميدى ، ص ٥٣ ، والضبي ، ص ٧٧ ، يفكر ان علم الوفاة في حدود ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وينص ابن حبان على أن وفاته ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، انظر المتن ، ص ٨٨ ، والمغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٣) انظر عن بني ذكوان بن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٤) المصادر المذكورة في الملاحظة رقم (٢) .

(٥) ابن بشيवाल : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٦) الضبي : بقية المتيسر ، ص ١٧٨ — الحجي : التاريخ

الأندلسي ، ص ٢٦٠ .

سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف (المتوفى ٦٨٠ هـ / ١٢٧١ م) ،
كان والى ميورقة في عام ٦٢١ هـ / ١٢٣٣ م ، انتابه أهل العلم
وطلبته من بلاد الأندلس وبر العدو ، فكان يحسن اليهم ويستجلب
ودهم ، ويجيد القيام بهم ما أقاموا لديه ، ويحسن صرف من أحب
الانصراف منهم (٧) .

محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليعصبى
(المتوفى ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) كان قاضيا ، وكان محبا لأهل العلم ،
مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ، ليحبب اليهم العلم
والتمسك به ، ما رأينا بعده في هذا مثله (٨) .

سعدون بن مسعود المرادى (المتوفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) ،
كان متقدما في علم العربية والأدب ، حسن المشاركة في الفقه كثير
البر بطلبة العلم ، واسع الصدر لهم ، حسن الخلق (٩) .

أبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج بن اسحق التجيبى
المغامى : كان اماما في القراءات ، ومن أهل الصلاح ، توفى في أشبيلية
في منتصف ذي القعدة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ، وحبس كتبه على
طلبة العلم الذين بالعدو (١٠) .

محمد بن محمد بن محارب الصريحى ، توفى بمالقة في أوائل
عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م ، بعد أن تصدق بمال كثير ، وعهد بريع مجيد
طلبة العلم ، وحبس عليهم كتبه (١١) .

-
- (٧) المراكشى : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٣١ .
(٨) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
ابن عياض : التعريف بالقاضى عياض ، ص ٥ .
(٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٢٢ .
(١٠) أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٢٤ .
(١١) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

ويقول ابن الفرضي عن قاسم بن سعدان بن عبد الوارث ،
(المتوفى ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م) أنه : لم يزل في نسخ ومقابلة الى أن
مات ، ولم يحدث وحبس كتبه ، فكانت موقوفة عند محمد بن محمد
ابن أبي الدليم ، وكثير من سماعنا عليه منها (٢١) .

وعلاوة على ذلك ، فهناك في التاريخ الأندلسي ، ما هو أكثر دلالة
من ذلك كله — هناك الفقهاء المعلمون الذين كانوا يقومون بالطعام
طلبتهم ، ومشاركتهم في الطعام ، واعداد مكان الدراسة بما يحقق
الراحة الكاملة لهؤلاء الطلبة ، ولنضرب مثلين على ذلك فقط ، بينينان
اهتمام الفقهاء بطلبتهم اهتماما كبيرا ، واعطاءهم اياهم عناية خاصة .
يحكي لنا ابن الأبار ، في ترجمته للنعمان بن المنذر ، ما يلي :

أنه من أهل قرطبة ، صاحب أبا عبد الله محمد بن عمر بن لبابة ،
وحكى عنه — قال ابن حيان : قرأت بخط عبده بن عبد الله الشاعر قال :
حدثني أبي عن النعمان بن المنذر ، عن الفقيه محمد بن عمر بن لبابة
قال : كنت يوما عند أبي وهب عبد الأعلى في حبابة بقرب مشبرة
قريش ، وكان يعتمرها بيده في نفر من الطلبة نسمع عليه ، اذ حضر
غداؤه فيقدمه إلينا نأكل معه ، اذ استأذن عليه هاشم بن عبد العزيز
صاحب الأمير محمد ووزيره الأثير فأذن له على تكسره ، ودخل ونحن
نأكل خبزا قدمه الشيخ آدمه من بقل الجنان ، فجعل يداعب الشيخ
بنصاعة طرفه ، ولا ينطلق الشيخ معه ، ثم قال له : أبا وهب
أما تدعوني الى طعامك ؟ تخاف أن نلتهمه ! فقال له : أنه ليس من
الاطعمة التي توافقك ، فقال : بلى ، وان لم يكن فإننا نتبرك بما نصيب
منه ، ومد هاشم يده الى لقمة من الخبز يغمسها في البقل ، وجعل
يلوكها ولا يستسيغها ، فلما فرغنا سأل الشيخ عن مسألة فقه جاء لها ،
فأفتاه الشيخ بما عنده ، فأظهر هاشم سروره بجوابه وقام لينصرف ،

فتحركت لأقوم معه ، فضرب الشيخ على يدي ، وأجلسني حتى خرج هاشم ، فلما مضى قال لي : ما أردت بهذا ، قلت : أردت إكرامه في مجلسك . فقال لي : بئس ما صنعت يا هذا ان كنت تطلب العلم لله تعالى ، فأعزه يعزك الله تعالى . وان كنت تطلبه للدنيا فخذ عنا ، وكن خادما لهؤلاء متصرفا بين أيديهم ، فهو أنفق لك عندهم ، وأؤكد لك عند خالقك ، فأدخلني شديدا ، وحافظت على وصيته (١٣) .

وأكثر الأمثلة دلالة على عناية الأستاذ بطلبته ما يصل إلينا ، عن أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري ، من أنه كان فقيها ، متقنيا ، كريم النفس ، أخذ عن جماعة من علماء بلده ، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة مع أبيه .

حدث عبد الله بن سعيد بن أبي عون قال : كنت آتي إليه من قلعة رباح وغيرى من المشرق ، وكنا نيفا على أربعين تليذا ، فكنا ندخل في داره في شهر « نونير » و « دجنير » و « وينير » في مجلس قد فرش ببسط من الصوف مبطنات ، والحيطان بالليود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفي وسطه كانون في طول قامة الإنسان ، مملوءا فحما يأخذ بدفئه كل من في المجلس ، فاذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا ، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد فنأكل من تلك الثرائد حتى نشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لونا جديدا ونحن قد روينا من ذلك الطعام . فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح الى ذلك الطعام الثلاثة أشهر ، فكان ذلك كرما وفخرا لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة الى تلك المكرمة (١٤) .

وأحمد بن محمد بن عبد العزيز التجيبى المتوفى ٥٦٢٩هـ / ١٢٣١م

(١٣) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٢ . و ص ٧٥١ ، طبعة عزت العطار .

(١٤) ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤١ .

كان منزله « مألوفاً لطلبة العلم ، يأوون اليه ويحتكمون فيه احتكامهم في أماكنهم » (١٥) .

وأحمد بن أبي عبد الله محمد ، المعروف بابن العشاب ، المتوفى ٥٦٣٧ / ١٢٣٩م ، « كان كثير الكتب في كل فن من العلوم على تفاريقها سمحاً لطلبة العلم بها ، وربما وهب منها للمتمسه الأصل النفس الذي يعز وجوده ، ويعظم جدواه ، وترتفع قيمته احتساباً به وحشاً على التعلم » (١٦) .

ولقد كان للأندلسيين احساس بقيمة العلم بمعناه الواسع ، فقد حرصوا على التعلم ، وساعدوا الغير على ذلك ، وقد ضرب لنا داود بن عيسى بن حبوبة الكلاعي ، من أهل قرطبة ، مثلاً رائعاً على التعاون من أجل مساعدة الآخرين على التعلم ، حتى ولو فاقوه في مجال العلم ، فيقال انه « رحل الى المشرق ، فاجتمع مع بقى بن مخذ ، وكان بقى لا مال له ، وكان داود واسع المال ، فسأله بقى أن يتيح له من ماله ما يشتري به الكتب ، ويجمع الدواوين ويكون سماعهما واحداً ، وقال له : أرجو أن ينفعك الله بذلك ، فأجابه داود الى ذلك ، فكان سبب اكثار بقى من الرواية والجمع ، ولما انصرف الى الأندلس ، كتب بقى الكتب لنفسه » (١٧) .

أما بالنسبة للمرتبات الثابتة المخصصة للأساتذة وللطلبة ، فقد تناولت هذا تفصيلاً ، في الفصل الخاص بالأجور ، ولكن يجب التأكيد هنا بأن مسألة الأجور في العالم الاسلامى في عصوره الوسطى قد أخذت أكثر من شكل واحد وفي الأندلس أيضاً وجدت الأجور ، ودفعت لمستحقيها بأكثر من طريقة ، أما عينا أو نقداً ، ونضرب مثلاً على ذلك ، بأحمد بن خالد ، الذي نقله الخليفة عبد الرحمن الثالث

(١٥) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٤٦٥ .

(١٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٥١٢ .

(١٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ط القاهرة ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(م ٣٠ — تاريخ التعليم)

الى المدينة بقرطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع قربه ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والادام والناسخ (الدراهم والدنانير) ، وله ولثله في بيت المال حظ (١٨) .

ولعل في ذلك ما يبين وجود منازل موقوفة على المسجد تستعمل لاقامة الغرباء والفقهاء وطلبة العلم . فاذا أضفنا الى ذلك كله عناية أهل الأندلس بالغرباء ، وأن قسما كبيرا من الغرباء كان من الطلبة القادمين الى الأندلس للتحصيل والرواية لأمكن لنا أن نؤكد أن أهل الأندلس بكافة مستوياتهم ، شعبا وحكومة ، قد بذلوا الكثير في سبيل العلم والتعليم (١٩) ، وليس ذلك بغريب على شعب عرف قيمة العلم فنعى اليه ، وعرف قيمة العلماء فقدرهم تقديرا عظيما .

واختتم بشهادة أوردتها المقرئ في حق الأندلسيين قائلا :

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم ، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجتهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس ، لأن هذا عندهم في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ، ويحال عليه ، وينبه الى قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياع ، أو ما أشبه ذلك (٢٠) .

(١٨) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، طبعة دوزي ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، طبعة احسان عباس .

(١٩) انظر في عناية أهل الأندلس بالغرباء ، كتاب الضبي : بغية اللتمس ، ص ١٦٨ .

(٢٠) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

خاتمة

ان النظام التعليمى من أهم المعالم التى تميز حركة الشعوب على طريق تطورها وارتقائها ، كما أنه الأساس الذى تبنى عليه حضارات الأمم ، ومن هنا كانت أهمية دراسة الأندلس ، للتعرف على أسس وعمل هذه الفترة الزاهية من تاريخ الأندلس فى العصور الوسطى .

ولقد تبين من هذه الدراسة ، أن المسلمين فى الأندلس قد وجهوا اهتماما خاصا للتعليم ، ابتداء من السنين الباكسة فى حياة الطفل ، واستمرارا الى سن الكهولة بل والى الممات .

حاولت الأسرة الأندلسية تعليم طفلها باكرا ما أمكن ذلك ، وتميزوا فى هذه المرحلة عن باقى الأقاليم الإسلامية الأخرى ، حين لم يركزوا كل جهدهم ، على تعليم القرآن فحسب ، وانما خلطوا مع القرآن أشعار العرب ولغتهم ، مما جعل الأندلسيين يتمتعون بقدرة لسانية كبيرة ، ومستوى لغوى عال .

أما مدرسو المرحلة الأولى ، فقد تميزوا عن زملائهم فى باقى أنحاء العالم الإسلامى بارتفاع ثقافتهم ، على الأقل لم نجد فى مجالات الأدب الأندلسى ، ما يشير الى مثل ما كان يعانى به معلمو هذه المرحلة فى بلاد المشرق ، ولقد ساعد على ارتفاع مستواهم الثقافى أن المستوى العام للشعب الأندلسى كان طيبا ، أما المستوى الاقتصادى فكان أيضا لا بأس به مما دفع الناس الى الاقبال على تعليم أولادهم واجتهادهم فى الحصول لهم على معلم ، كما أن الدولة قامت من جانبها بتوفير التعليم المجانى لأبناء الفقراء ، مثلما قام به الحكم المستنصر من انشاء ٢٧ مكتبا فى قرطبة وحدها ، وأوقف حوانيت السراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين .

وقد مورس التعليم في المرحلة الأولى في المكاتب بصفة رئيسية ، واتخذت أماكنها بصفة عامة بجوار المساجد أو في منازل المعلمين ، أو في أماكن خاصة قام المعلم باستئجارها ، ولقد لعب المنزل في هذه المرحلة دورا رئيسيا ، حيث قام الآباء أو الأخوات أو الأقارب ، بتعليم أطفال الأسرة ، اما بصفة شخصية ، أو مباشرة تعليمهم على أيدي معلمين محل ثقتهم •

وكانت المرحلة الأولى من التعليم ، تبدأ في المكاتب •

وقد بدأت هذه المكاتب في الظهور في الأندلس ، في فترة مبكرة جدا ، أرجعتها الى السنوات العشر الأولى من الفتح ، ثم انتشرت بعد ذلك انتشارا كبيرا في مدن وقرى الأندلس ، وكانت هذه المكاتب تقبل الطفل في سن السادسة تقريبا ، ويستمر فيها مدة تتراوح بين ستة وسبعة أعوام ، يستكمل خلالها حفظ القرآن الكريم ، ويتعلم القراءة والكتابة •

وبعد أن يتمكن التلميذ من استيعاب دروس الأساتذة ، ويعرف جيدا القراءة والكتابة ، كان يترك المكتب ، ويبدأ في التردد على حلقات الشيوخ في المساجد بادئا بذلك المرحلة الثانية من حياته التعليمية •

وتتميز المرحلة التعليمية الثانية بعدم التقيد بوقت دراسي معين ، أو ببرنامج دراسي محدد ، حيث ارتبطت الدراسة دائما بوقت الأستاذ وظروفه فالأساتذة الذين تخصصوا في حياتهم للتعليم ، أعطوا دروسهم على فترتين خلال اليوم ، احدهما صباحية والثانية فيما بعد الظهر •

أما الأساتذة غير المتفرغين فنقد تنوعت ساعات دروسهم ، وان كانت عادة تكون في الصباح •

كما تنوع البرنامج التعليمي تنوعا واسعا ، متخذا أساسا ثابتا من العلوم الدينية واللسانية ، ثم منطلقا بعد ذلك لدراسة باقي فروع

العلوم الانسانية والتخصص فيها ، والمواد التي درست خلال هذه المرحلة يمكن اجمالها في المجموعات الثلاث التالية :

١ — العلوم الدينية ، وتتفرع هذه المجموعة لتشمل كل المواد المتصلة بدراسة القرآن الكريم والحديث النبوى •

٢ — العلوم اللسانية ، ويقصد بذلك كل المواد المتصلة باللغة وبالنحو وبالأدب والبيان •

٣ — العلوم العقلية ، وتشتمل بدورها على أربع مجموعات فرعية هى العلوم الطبية والعلوم البحتة والعلوم الفلسفية والعلوم الاجتماعية •

وقد برز الأندلسيون كثيرا في مجال العلوم الدينية ، وخاصة في مجالات دراسات المذهب المالكي ، حيث قصروا انتاجهم التشريعى والدينى على هذا الجانب ، وقاوموا بكل شدة المذاهب الدينية الأخرى ، دون أن يعنى ذلك عدم ظهورها المطلق على أرض الأندلس •

أما في مجال اللغة والأدب ، فان مستوى الأندلس قد ارتفع ليضاهى المدن المشرقية كالقاهرة وبغداد ، وتتمكن قرطبة من أن تتحول الى مركز من أهم المراكز الفكرية في العالم في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى •

وقد بدأت الدراسات العقلية متأخرة نسبيا في الأندلس ، ولكنها تطورت بسرعة كبيرة جدا • وفي القرن الرابع الهجرى ظهر عدد كبير من الأطباء والمهندسين والمعماريين والفلكيين ، ووصلت الى قمتها خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين •

ولقد تميزت الدراسات الفلسفية ، ضمن هذه المجموعة ، بتعرضها للاضطهاد والمطاردة ، ولعل ذلك كان عاملا مساعدا على تطورها سرىا ، وبين الخاصة ، حتى أن أكبر عدد من فلاسفة المسلمين

قد برز في الأندلس ، كما أن هذه المادة قد وجدت الحماية من الدولة في بعض الفترات مثلما حدث على عهد الموحدين وعلى عهد ثاني ملوك الدولة النصرية •

ويؤكد أبو حيان أثر الدين ، أن واحدا من أسباب هجرته الى المشرق أنه كان لدى السلطان عالم في الطبيعة والمنطق والفلسفة قال له يوما اننى أخشى الموت وأريد أن تجعل لى مجموعة من الطلبة أعلمهم هذه العلوم ينفعونك بها بعدى ، ووقع الاختيار على أبى حيان ، وهرب الى المشرق حتى لا يجبر على ذلك على الرغم مما جعل له من الجرايات والكسب والأرزاق (١) •

وكانت المساجد التى انتشرت فى كافة المدن والقرى الأندلسية هى المركز الرئيسى للتعليم فى هذه المرحلة ، ومن ثم فإن كل مسجد لم يكن الا مركزا تعليميا ، وهناك المساجد الجامعة التى ضمت بين جدرانها أكثر من حلقة تعليمية •

وتتميز هذه المرحلة أيضا بأنها ليست مرحلة متوسطة بين التعليم الأولى والتعليم النهائى ، وانما بأنها مرحلة متوسطة ونهائية فى ذات الوقت ، بمعنى أنها كانت تعد الطالب تماما للحياة العملية ، كما أنها كانت الأساس لمن يرغب فى التخصص والتعمق ، ولذلك فإن السن فيها أيضا كان غير محدد ، فما أن كان الطالب ينتهى من المكتب ، ويبدأ فى التردد على هذه الحلقات ، حتى يصل الى المستوى الذى يرغب فيه فى التوقف عن الدراسة • وأهم ما كان يميز الطالب ، طوال المدة التى كان يقضيها فيها ، هو ارتباطه بأستاذ معين ، حتى لقد عرف بعض الطلاب بأساتذتهم ، وتخصصوا فى موادهم •

وقد تمثلت طرق التعليم الرئيسية فى الاقراء والاسماع والاملاء ، حيث كان يجلس الأستاذ فى حلقة معينة ، اما بالمسجد أو بالمكان الذى

اتخذته لتدريسه ، ويقوم بالقراءة من كتاب ، أو أن يتولى طالب من الحاضرين القراءة ويستمتع اليه الآخرون ، بينما يقوم الأستاذ بمهمة التصحيح •

وقد سادت العلاقات الطيبة بين الأستاذ وطلبته ، فالأول مسئول عن تعليمهم وتقويمهم وبذل كل الجهد في صالحهم ، أما الثانى فمطالب بأن يعكف على الدراسة ، وأن يحترم أستاذه ، وأن يمضى على قواعد وعادات المجالس العلمية •

كان أستاذ هذه المرحلة ، أستاذا مثقفا ، واسع الاطلاع ، تتجلى فيه معرفته الجيدة بمادة تخصصه ، وعلمه بالمواد المتصلة بها ، ومن السمات البارزة في معلمى هذه المرحلة ، موسوعيتهم العلمية ، بمعنى أن الأستاذ كان يجيد أكثر من مادة ، وأكثر من علم ، وخاصة في مجالات العلوم العقلية فنجد أن كافة الأطباء تقريبا كانوا يعرفون علم الفلك والرياضيات والفلسفة ... الخ •

ومستوى المعلمين الاقتصادى والاجتماعى كان عاليا ، فقد شكلوا من الناحية الاجتماعية طبقة عرفت بطبقة الفقهاء ، احترمها الشعب لعلمها ودينها ، واحترمها الحكام لاحتجتهم الى تأييدهم ولعلمهم بمكانتهم لدى العامة •

أما من الناحية المالية ، فان المعلمين كانوا ينقسمون الى فئتين : فئة تتلقى أجرها من الدولة ومن بيت مال المسلمين ، وفئة أخرى وهى الغالبية تتلقى أجرها بناء على عقد مع ولى أمر التلميذ ، والفئة الثالثة تتقاضى أجرها من بعض الأعمال التى توكل اليها في المساجد ، مثل الامامة أو الصلاة ، أو الأذان أو الاقراء •

وتبين الدراسة أن دخل المعلمين كان مرتفعا حتى أن بعضهم كان يجنى من المهنة أكثر من ٤ آلاف درهم شهريا •

وعلاوة على ذلك ، وجد بعض المعلمين ممن قاموا بالتدريس مجاناً .
ولم يكن للمعلمين زى معين ، ففى شرق الأندلس ، لم يلبسوا
العمامة التى كانت شائعة فى غرب الأندلس عامة ، كما اهتم هؤلاء
بملابسهم ومظهرهم اهتماما كبيرا وخاصة فى أوقات التدريس .

أما المرحلة التعليمية الثالثة ، فهى مرحلة تكميلية وتخصصية ،
ولذلك فليس لها سن للبداية أو للنهاية ، فهى مرحلة استكمال
للمعلومات وتجديد لها ، وهى تستمر مدى الحياة .

وقد وجدت هذه المرحلة التعليمية فى أماكن كثيرة : فى المساجد
الجامعة وفى المدارس ، وفى المكتبات ، وفى مجالس الأمراء والخاصة ،
وفى حوانيت الوراقة ... الخ .

ولكن أهم سمتين تميزت بهما هذه المرحلة ، هما المدرسة
والرحلة .

فالمدرسة هى مكان خصص للتعليم ، أشرفت عليه الدولة ، وساهم
فيها الأمراء والأغنياء بحيث أمكنها أن تقدم للطالب بالإضافة الى
الناحية العلمية ، أماكن للإقامة وضمانا بالتغذية .

وظهور المدارس فى الأندلس يشوبه الغموض الكثير ، والبيانات
الموجودة لا تكفى تماما لاثبات ظهورها ، لكن على الرغم من ذلك
أمكن الإشارة الى امكانية ظهور المدارس فى الأندلس فى القرن
الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كما أنها أصبحت مؤكدة
الظهور ، على عهد الموحدين .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، ظهرت مدرسة أخرى فى مرسية ،
وبعدها مدرسة صوفية فى مالقة ، ثم مدرسة غرناطة فى القرن
الرابع عشر ، ومن المحتمل أن مدينة غرناطة قد شهدت أكثر من
مدرسة فى ذات الوقت .

أما المرحلة الأخيرة فهي قمة الحياة التعليمية ، وفيها يرحل الطالب من بلده الى أقرب مدينة أو الى عاصمة الاقليم ثم الى عاصمة مصر ، بالإضافة الى الرحلة التي كانت تتجه الى خارج مصر . وقد أولع الأندلسيون كثيرا بالرحلات وظهرت أسماء الكثيرين منهم في مجالس التعليم في القاهرة وبغداد ومكة والمدينة وغيرها من المدن الإسلامية الكبرى ، وأصبحت الرحلة شيئا أساسيا في التكوين الثقافي للأندلسيين ، وأعطوها عناية كبرى ، ومن ناحية أخرى حينما نما المستوى الثقافي للأندلس ، فأننا نجد أن كثيرا من الأندلسيين كانوا يصلون الى مكانة علمية ، دون القيام بالرحلة الى المشرق .

ولقد خدمت الرحلات في الاطلاع على تطور الحركة العلمية في المشرق وفي نقل الكتب والأعمال العلمية من هناك الى الأندلس .

وفي نهاية هذه المراحل الدراسية ، كان لابد من منح شهادة أو اجازة للدارس تبين أو تشهد بقيامه بدراسة كتاب معين أو سماعه من أستاذ ما .

وانتشرت الاجازات بنوعيتها الشفوى والتحريري ، وتطورت كثيرا في مضمونها ، فظهرت الاجازة الفردية ، واجازات السماع ، والاجازات العامة .

ذلك هو النظام العام للتعليم الذي اتبع في الأندلس ، وضمن هذا الاطار كانت هناك بعض شرائح المجتمع ، التي تميزت ببعض الخصوصيات — ومن هذه الشرائح أبناء الخلفاء والأمراء والوزراء والخاصة عموما . وتميزت هذه الشريحة في تعليمها بايكال الطفل الى مؤدب من مستوى ثقافي عال يتولى تعليمه .

والبرنامج الدراسي لهذه الشريحة الاجتماعية لم يختلف كثيرا في تفاصيله عن البرنامج العام ، فهو يتناول أيضا في الأساس العلوم

الدينية واللغوية ، ثم يمضى متطورا مع ميول الطفل وامكانياته في دراسة علوم أخرى . ولكنه اختلف مع هذا البرنامج العام ، تبعاً للمستقبل الذى ترغب العائلة فى اعداد ابنها له وخاصة بالنسبة لأبناء الخلفاء .

أما الشريحة الثانية ، فهي الخاصة بتعليم النساء ، حيث لم تؤكد المصادر بصورة واضحة ذهاب البنت الى المكتب ، ومن المؤكد عدم تردها على حلقات الدرس ، ولكن ذلك لا يعنى عدم تعليم الفتيات ، فلقد تولى الآباء هذه المهمة ، كما أوكل تعليمهن الى معلمين موثوق بهم .

ولم تكن الدولة بمعزل عن هذه الحركة التعليمية ، وانما شاركت فيها وتدخلت فى توجيهها بأكثر من أسلوب .

ففى مجال الحياة التشريعية قصرت الدولة الأمور على المذهب المالكي مما صبغ الحياة التعليمية كلها بهذا المذهب ، كما أن الدولة قامت بدفع مرتبات للفقهاء فى حالات كثيرة وخاصة على عهد الرابطين والموحدين وبنى نصر — كما اهتمت الدولة ببناء أماكن تعليمية ، فشيّدت المساجد ، أكثر المراكز التعليمية فى الاسلام عموماً ، والمكاتب — وبعد ذلك المدارس .

وقد لعبت المجالس العلمية التى كان يعقدها الأمراء والخلفاء والملوك ، دورا هاما جدا فى تطوير الحركة التعليمية ، وفى الارتفاع بالمستوى العلمى لفقهاء الأندلس وفى اثارة الحماسة بين الأدباء والشعراء وغيرهم .

وبعد القيام بهذه الدراسة ، تفتحت أمامى أبواب كثيرة تجبى معالجتها وطرحت كثير من الأسئلة التى تحتاج الى دراسات منفصلة متخصصة — منها :

١ — للتأثير الذي تركه نظام التعليم الأندلسى على الجاليات اليهودية والمستعربين المسيحيين ♦

٢ — دور قواعد اللغة العربية فى إعادة بناء قواعد اللغة العبرية وفى قواعد اللغة القشتالية ♦

٣ — تأثير المؤسسات التعليمية الأندلسية على نظام الجامعات فى أسبانيا المسيحية ، والصلة بينهما ♦

٤ — الصناعات التعليمية الخاصة بالورق والقلم والدواة والحبر وكذلك المكتبات ، وإعارة الكتب ، والنواحى الأدبية المتعلقة بهذه المجالات ♦

ولكننى رأيت أن أقصر بحثى على هذا العرض ، فأتى بذلك الباب أمام كثير من الدراسات التى يمكن لها أن تستكمل هذا المجال ♦

بعض ملاحق الرسالة

الملحق رقم (١) :

آراء ابن سخنون في أجره معلمى الكتاب

قال محمد : « لا بأس أن يستأجر الرجل المعلم ، على أن يعلم أولاده القرآن بأجرة معلومة ، الى أجل معلوم أو كل شهر ، كذلك نصف القرآن أو ربعه ، أو ما سمي منه » (١) •
كما أنه قال :

« ولا بأس بالرجل أن يستأجر الرجل ، أن يعلم ولده الخط والهجاء » (٢) •

الملحق رقم (٢) :

راى القاسبى في أجر معلمى الكتاب

« اعلم أن أئمة المسلمين في صدر هذه الأمة ، ما منهم الا من قد نظر في جميع أمور المسلمين بما يصلحهم في الخاصة والعامة ، فلم يبلغنا أن أحدا منهم أقام معلمين يعلمون للناس أولادهم من صغرهم في الكتاتيب ، ويجعلون لهم على ذلك نصيبا من مال الله جل وعز ، كما قد صنعوا لمن كلفوه القيام للمسلمين ، في النظر بينهم في أحكامهم ، والأذان لصلاتهم في مساجدهم ، مع سائر ما جعلوه حفظا لأموال المسلمين ، وحيطه عليهم ، وما يمكن أن يكونوا أغفلوا شأن معلم الصبيان ، ولكنهم — والله أعلم — رأوا أنه شيء مما يختص أمره كل انسان في نفسه ، اذ كان ما يعلمه المرء لولده ، فهو من صلاح نفسه المختص به ، فأبقوه عملا من عمل الآباء ، الذى يكون لا ينبغي أن يحمله عنهم غيرهم اذا كانوا منطيقيه •

وكما ترك أئمة المسلمين النظر في هذا الأمر ، وكان مما لا بد منه للمسلمين أن يفعلوه في أولادهم ، ولا تطيب أنفسهم الا على ذلك ،

(١) ابن سخنون : آداب المعلمين (طبعة العروس المطوى) ص ١٣٠ •

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣١ •

واتخذوا لأولادهم معلما يختص بهم ، ويداومهم ، ويرعاهم حسب ما يرعى المعلم صبيانه ، وبعد أن يمكن أن يوجد من الناس من يتطوع للمسلمين فيعلمهم أولادهم ويحبس نفسه عليهم ، ويترك التماس معاشه ، وتصرفه في مكاسبه وفي سائر حاجياته ، صلح للمسلمين أن يستأجروا من يكفيهم تعليم أولادهم ، ويلازمهم لهم ، ويكتفى بذلك عن تشاغله بغيره ، ويكون هذا المعلم قد جمل عن آباء الصبيان مؤونة تأديبهم ، ويصبرهم استقامة أحوالهم ، وما ينمى لهم في الخير أفهامهم ، ويبعد عن الشر مآلهم ، وهذه عناية لا يكتر المتطوعون بها ، ولو انتظر من يتطوع بمعالجة تعليم الصبيان القرآن ، لضاع كثير من الصبيان ، ولما تعلم القرآن كثير من الناس ، فتكون هي الضرورة القائدة الى السقوط في فقد القرآن من الصدور ، والداعية التي تثبت أطفال المسلمين على الجهالة ، فلا وجه لتضييق ما لم يأت فيه ضيق ، ولأثبت فيه عن الرسول عليه السلام ما يدل على التنزيه عنه •

ولقد ذكر الحارث بن مسكين ، أخبرنا ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : كل من أدركت من أهل العلم لا يرى بأجر المعلمين — معلمى الكتاب — بأسا ، ولابن وهب أيضا في موطئه عن عبد الجبار ابن عمر قال : كل من سألت بالمدينة لا يرى لتعليم المتعلمين بالأجر بأسا • وللحارث عن ابن وهب قال : وسئل مالك عن الرجل يجعل للرجل عشرين دينارا ، ويعلم ابنه الكتاب ، والقرآن حتى يحذقه ، فقال : لا بأس بذلك ، وإن لم يضرب أجلا ، ثم قال : والقرآن أحق ما يعلم ، أو قال علم • وقال وهب في موطئه : سمعت مالكا يقول : لا بأس بأخذ الأجرة على تعليم القرآن والكتاب • قال : فقلت لمالك : أفرأيت إذا شرط مع ما له من الأجر في ذلك ، مسمى كل فطر أو أضحى؟ قال : لا بأس بذلك • قال ، قال أبو الحسن : وقد مرت بى حكاية تذكر عن وهب أنه قال : كنت جالسا عند مالك فأقبل اليه معلم كتاب فقال له يا أبا عبد الله ، انى رجل مؤدب صبيان ، وانه بلغنى شيء ،

كذلك قال مالك وغيره (*) قال محمد بن أحمد ، وإن لم يعرف قدر فكرهت أن أشارك ، وقد امتنع الناس على وليسوا يعطوننى ، كما كانوا يعطون ، وقد اضطررت بعيالى ، وليس لى حيلة الا التعليم . فقال له مالك : اذهب وشارك ، فانصرف الرجل ، فقال له بعض جلسائه : يا أبا عبد الله ، تأمره أن يشترط على التعليم ؟ فقال لهم مالك : نعم فمن يمحس لنا صبياننا ؟ ومن يؤدبهم لنا ؟ لولا المعلمون ، أى شىء كنا نكون نحن ؟ « (١) » .

الملحق رقم (٣) :

وثيقة استئجار معلم القرآن (٢)

استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان ، المعلم ، ليعلم ابنه فلانا أو ابنته فلانة أو بنيه فلانا وفلانا وفلانا القرآن نظرا أو ظاهرا ، والكتب والخط والهجا ، عاما أوله شهر كذا من سنة كذا ، بكذا وكذا دينار صفة كذا ، يؤدى اليه كل شهر ما ينوبه منها ، وكذلك كذا وكذا ، ويدفع اليه فى كل شهر فى أوله ، من دقيق القمح الطيب الريون الجيد الطهر ربعين أو ثلاثة بوزن كذا ومن الزيت نصف ربع

(١) القابسى : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، ص ٢٩٤ —

(٢) نقل هذا الملحق ، من الوثائق المجموعة لأبى محمد بن الوليد البنى ، الذى نقلها عن كتاب الوثائق والسجلات ، لأبى عبد الله محمد ابن أحمد بن عبيد الله بن سيد الأمل ، المعروف بابن العطار (نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) .

وتوجد مخطوطة ابن العطار بمكتبة القرويين بتونس ، ويعمل على تحقيقها حاليا الدكتور بدرو شالميتا بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة بمدريد ، كما أن مخطوطة البنى موجودة بمدرسة الدراسات العربية بمدريد ، ونشر النص العربى الدكتور خوليان ريبيرا ، فى كتابه عن تاريخ التعليم بين الاسبان المسلمين .

عن زيت الماء الطيب الأخضر بكيل كذا • ويشرع المعلم في التعليم المذكور وعليه الاجتهاد ، ثم يكمل الوثيقة (*) • فان اشترطت عليه في الأعياد شيئا ، ذكرت ذلك وقلت ويدفع اليه في عيد الفطر كذا وفي عيد الأضحى كذا ويعطيه عند حذقه الصبي فلان القرآن كله كذا شهد (*) •

ويعقد في ذلك أيضا ، على ما عقده موسى بن أحمد في تعليم القرآن كله : استأجر فلان بن فلان ، فلانا المؤدب ، بكذا وكذا ويتنارا من صفة كذا قبضها فلان المعلم ليعلم ابن فلان هذا المسمى كذا جميع القرآن وقد عرف فلان هذا المستأجر هذا الصبي ووقف على مقدار نباهته شهد وله في الأجرة لأمر معلوم (*) • استأجر فلان بن فلان بن فلان بن فلان بكذا وكذا دينارا دراهم قبضها منه ، ليعلم له ابنه فلانا سنة أولها شهر كذا من سنة كذا ، القرآن شهد (*) • فان استأجره ليعلمه الكتب نحوت هذا النحو ولا تجوز الأجرة على تعلم الفقه والفرائض والنحو والشعر والعروض وكره بيع ذلك وروى ابن حبيب أنه جائز (*) وقال ابن حبيب في تعليم الشعر أيضا : انه جائز في أشعار العرب القديمة ، التي هي فيها مفاخرهم وذكر شعرهم والشعر ديوان العرب ما لم يعلمه ذكر الحسن والقبيح من الكلام ، اذ لايجوز تعلم ذلك (*) • وقال محمد بن عبد الله لابأس أن يشارط الرجل المعلم على تعليم ولده الشعر والنحو والرسائل وأيام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال ذوى المروات ، سميا في ذلك أجلا أو لم يسميا لذلك أجلا ، وهو مما ليس منتهى منه الى حد معروف ، فقال : هو عندنا بمنزلة ما أجاز مالك من الشرط ، على تعليم الخياطة والحبر ، وما أشبه ذلك من الصناعات فاذا بلغ من ذلك مبلغ أهل العلم من الناس وجب في ذلك حقه ولا بأس بأخذ الأجرة على تعليم المسلم الكتب والقرآن ولا بأس بالاستئجار في ذلك سنة وستين مشاهرة ولا بأس بتقديم الأجرة في ذلك للمؤدب ولا بأس بمشارطة المؤدب على تعليم القرآن كله أو تصقه أو ما ذكره نظرا وظاهرا ، سميا في ذلك أجلا أو لم يسميا ،

نبيل الصبى من بلادته (*) وقال محمد بن عبد الله انما يجوز توقيف الأجل مع شرط تعليم القرآن كله اذا كان التوقيف غير ضيق فان كان ضيقا ، يرى ويخشى أنه لا يبلغ ذلك فيه ، لم يجز لعاقبة الضرر والمخاطرة • وأما اذا وقتا وقتا يفرغ في مثله ما شرط على المؤدب ، فلا بأس بذلك ، فان تأخر عن الأجل أعطى مثله فيما علمه تلك السنة ، لا على حساب الأجرة الأولى • كذلك قال اصبح : ولا تحكم للمعلم بشىء فى الأعياد ، الا ان اشترط من ذلك شيئا معروفا فيكون له شرط • واختلف أهل العلم فى الحذقة فأبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم عن بعض أهل العلم ، لا يوجبها ، حتى يشترط ذلك ، وغيره يقول : يحملان على سنة أهل البلاد ويأخذها فيما قد عرف الحذقة فيه من أجزاء القرآن ، على قدر غناء والد الصبى وحاله ، ويقضى عليه بذلك للمعلم • وقيل : لا حذقة له الا فى القرآن كله ، فان اشترطها المعلم فلا بد من تسمية شىء معروف والا لا تجز ويجوز لوالد الصبى أن يشترط ألا حذقة عليه مع الأجرة • واذا مات الصبى ، انفسخت الاجارة فيما بقى والاجارة تنتقض بموت المستأجر ، ولا تنتقض بموت المستأجر له ، كالاستئجار لرعاية الغنم وشبه ذلك ، الا فى أربعة أشياء ، الظير والمعلم والرافض للدواب وفحل النزو ، فانها تنتقض بموت المستأجر والمستأجر له وذلك لاختلاف الرضاع من الصبيان المراضع ولاختلاف النبل والبلادة واختلاف صعوبة الدواب واذا غلب الامام أو المؤدب الى بعض حاجته أو الى باديته أيام الجمعة ونحوها ، فلا بأس بذلك فان طال مغيبه ، كان لأهل المسجد توقيف الامام عن ذلك والمعلم منعه منه ولا يحط من أجرته شىء • وكذلك ان مرض الأيام اليسيرة وان طال مرضه أو مغيبه انحط من أجرته ما تقع منها على أمد مغيبه أو مرضه وان غيب الصبى أبوه أو وليه وشغلاه فالمعلم يأخذ الأجرة تامة ، فان مرض الصبى مرضا طويلا ، انحط من الأجرة ، بقدر مرض الصبى انتهى (١) •

(١) نقل النص من كتاب « التعليم بين الأسبان المسلمين » : وروجه على مخطوطتى البونطى وابن العطار (انظر ابن العطار ، الورقة ١٥ و ١٦) •

الملحق رقم (٤) :

عقد اجارة مؤدب (١)

استأجر فلان فلانا المعلم ليعلم ابنه فلانا الخط والهجاء والقرآن ظاهرا أو نظرا عاما أوله كذا وكذا فقبضها فلان أو مقسطة على شهور العام وشرع المعلم فلان في تعليم فلان وعليه في ذلك بذل النصيحة والاجتهاد ، بعد أن وقف على مقدار نياحته ، ثم تكميل العقد • انتهى •

فقـه

ويجوز الاجارة على تعليم القرآن دون ضرب أجل ويجوز أكثر من سنة ، ويجوز على بعض أجزاء القرآن ، ولا يجوز ضرب أجل ، الا فيما يعرف أنه يفرغ فيه مما شرط ولا تجب الحذقة الا بشرط أو عرف جار على أجزاء معلومة • وقيل لا حذقة الا في جميع القرآن • وهى غير مقدرة وانما هى على قدر غناء والد الصبى وفقره ، فان شرطها المؤدب فلا بد من تقديرها والا لم تجز الاجارة وليس للأب اخراج ابنه اذا قرب من الحذقة فان أخرجه فان كان قد قرب منها جدا وجبت عليه الحذقة وان كان بخلاف ذلك فأدخله عند مؤدب آخر فلكل واحد منهما بقدر ما علم وتنفسخ الاجارة بموت الصبى وكذلك في الخير • وللمؤدب والامام أن يغيب في حوائجه وتفقد ضيعته ، الجمعة ونحوها ولا يحط لذلك من الأجر شيئا ، وكذلك ان مرض أياما يسيرة ، ويحط من الأجرة لمرض الصبى بقدره وقدر مالك الأجرة على تعليم الفقه والنحو والفرائض ، كان في ذلك صحيحا أو سقيما ، وكذلك عنده بيع كتبها وأجاز ابن حبيب تعليم الشعر اذا لم يكن فيه هجاء ولا ذكر الخمر ، وأيام العرب والرسائل وغير ذلك انتهى •

(١) أخذ هذا النص من كتاب أبى الحسن بن على بن يحيى ابن القاسم الجزيرى ، وهو المخطوط رقم ٢ ضمن مجموعة الدكتور «خيل» الورقة ٥٦ و .

كما نشر النص باللغة العربية ضمن كتاب المستشرق الأسباني «خوليان ريبيرا» ، (التعليم بين الأسبان المسلمين) ، ص ٩ من الملاحق .
(م ٣١ — تاريخ التعليم)

الملحق رقم (٥) :

وثيقة شركة معلمين

أشهد فلان بن • فلان وفلان بن فلان أنهما اشتركا في تعليم القرآن والكتب ، على أن يقعدا لذلك في مقعد واحد ولا يفترقان ، فما قسم الله عز وجل لهما في ذلك من رزق وساقه اليهما من فضل فهو بينهما بالسواء كما الكلفة عليهما فيما يتوليانه من التعليم سواء .
شهد . انتهى .

* * *

قال محمد بن عبد الله ويجوز للشريكين على التعليم أن يتراضيا على أن يجلس أحدهما على الصبيان شهرا ويجلس الآخر شهرا آخر اذا كانا انما تراضيا على ذلك بعد عقد الشركة وان كانا عقدا شركتهما على هذا ، فلا خير فيه . انتهى (١) .

ولا يشبهان الصانعين في مثل هذا ، الصانعان لا يجوز ذلك بينهما على حال من قبل . ان الصانعين اذا كان أحدهما شهرا والآخر شهرا ربما كسب أحدهما في شهر أكثر مما كسبه صاحبه وانما يعملان في كسب مستقل ، والمعلمان ليسا كذلك ، انما يجلسان على الصبيان ، خراجهم واحد في كل شهر ، قد عرفوا ذلك وعرفوا كم هو وما هو فانما يجلسان ليقاضى ما يعرفان بعد وهما بمنزلة الرجلين يكون لهما غنم متراضيان على أن يرعاها كل واحد منهما شهرا فلا بأس به . ذلك رواه ابن حبيب عن مطرف وابن الماجشون (٢) .

(١) نقل النص من كتاب « تاريخ التعليم بين الأسبان المسلمين للمستشرق الاسباني خوليان ريبيرا » ، وتمت مراجعته على المخطوطة بمدرسة الدراسات العربية بمدرسة ، وروجع النص على مخطوطة ابن العطار ، الورقتين ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) بالنسبة لمحمد بن عبد الله : انظر وثيقة استئجار مؤدب عربية للملحقة بالفصل الخاص بالمرحلة التعليمية الثانية .

الملحق رقم (٦) :

وثيقة استئجار مؤدب عربية

ماخوذة من كتاب « محمد بن عبد الله » (١)

استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان المؤدب ، لتعليم ابنه فلان سنة أولها شهر كذا من سنة كذا النحو ويملى عليه الرسائل ومخاطبات البلغاء وتوقيعات الأمراء ، ويرويه من الشعر الجاهلى والاسلامى الشعر الحسن ، السلم من وصف الخمر والنساء ، وقبيح الهجاء ، بكذا وكذا — دفع فلان شطر هذه العدة الى المؤدب فلان وقبضها منه وأبراه منها ، فاذا انقضت السنة المذكورة دفع فلان بن فلان الى فلان بن فلان باقى أجرته بلا كريب ولا مظل ان شاء الله . شهد عليهما بذلك من عرفهما وذلك فى تاريخ كذا . انتهى (٢) .

ملحق رقم (٧) :

كيف ينض على وثيقة كتاب فى المسجد

لصالح الطلبة والدارسين

وفى الكتاب نقول : كتاب الجامع الصحيح للبخارى أو مسلم ، أو موطأ الكذا أو الكذا لتعار لطلبة العلم للنسخ والمقابلة والدرس .

وفى المصحف مصحف جامع للقرآن ، صيفته كذا وخطه كذا بطليته وعلامته . وان كانت ربعة ذكرتها وكذلك تذكر فى ... الخ (١) .

(١) من المحتمل انه ابو عبد الله محمد بن احمد بن عبد الله الباجى (النصف الاول من القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى) ، صاحب كتاب (فى الوثائق) ، واحد رواة المدونة . راجع فهرسة ابن خير ، ص ٢٥٢ ، والجذوة للحميدى ، ص ١٢٠ ، والديباج المذهب لابن فرحون — ج ٢ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن العطار ، الوثائق والسجلات ، الورقة ١٦ ظ (مخطوطة القيروان) ونقله البنى ونشره فى كتابه ، ونشر النص نقلا عن البنى ، خوليان ربيرا فى كتابه عن التعليم بين المسلمين الاسبان .

(١) انظر كتاب الجزيرى ، الورقة ٦٧ ظهر ، النص العربى — نشر بكتاب تاريخ التعليم بين الاسبان المسلمين ، الملحق الاخير .

الملحق رقم (٨) :

وثيقة تبين وجود مدرسة بربرض المسلمين بسرقسطة حتى عام
٨٥١ هجرية / ١٤٤٧ ميلادية :

* * *

« كملت المسائل والحمد لله على ذلك » والصلاة التامة على
سيدنا ونبينا ومولانا محمد الكريم وكان الفراغ منها في مدرسة
بربرض المسلمين بمدينة سرقسطة في يوم الاثنين وفي العشر الأوائل
من ربيع الآخر ماضية ١٩ يوما من شهر يونية عام ٨٥١ ، على يدي
كاتبها العبد الفقير لربه ، الراجي عفوه وغفرانه ، التلميذ أبى عبدالله
محمد بن ابراهيم بن عبد الله شبطون الطيرولى ، غفر الله له
ولوآلديه ولجميع المسلمين • آمين يا رب العالمين •

لا رب غيره ولا معبود سواه

* أخذ النص من كتاب المستشرق الأسباني « خوليان ريبير :
التعليم بين المسلمين الأسبان » وروجع على النص المخطوط المحتفظ به في :
مدرسة الدراسات العربية بمديرية .

الملحق رقم (٩) :

رسالة من طالب الى أستاذه

رسالة من طالب الى أستاذه محررة في الجيـط — بالقرب من
سرقسطة ، والطالب هو محمد قلبارة من سرقسطة ، حررت في عام
٩٠٠ هجرية / ١٤٩٤ ميلادية •

الحمد لله وحده •• سيدى وسيدى وعزى واجلالى ومحسن
تعظيمى واشتياقى ، الذى محبته ممزوجة بلحمى ودمى وشوقة
روايته مغروسة فى قلبى وشراسيفى ، ذلكم السيد الفقيه المكرم ،
والأستاذ الماهر المعظم •• أبو عبد الله محمد الغازى أكرمه الله
وتولاه وجعل الجنة منزله فى أخراه ، برحمته وجوده ، انه منعم كريم ••
سلام كريم مقدس عميم يعتمد سيادتكم ورحمة الله وبركاته من معز
جرمتكم وموجب خدمتكم أصغر عبيدكم محمد القرشى المعروف
بقلبارة •••• أما بعد ، فقبضت كتابكم الأخير وفهمت متضمنه ، لكن
مقصود رسالتكم الكريمة التى هى الرغبة الأكيدة أن بعثت لكم شروحات
وثائق الجزيرى ، لكن رغبتكم الى معذورة ، لأننى لا أفعل عنكم شيئاً ،
ما أحتاج رغبة من جانبكم ، لأننى بالأمر منكم كنت ملتزم أن أفعله ،
فضلاً أن ترغبونى ، فوالله الذى لا اله الا هو ما كانت الشروحات عندى
منسوخة الا فى رقاع متفرقات ، وكانت فى بلدى تالك الرقاع ، وأكون
الآن ألوم نفسى ، لسفهى وغلظ طبعى بتركها فى الرقاع بغير نسخ •
وكيفما كان أنى أجتهد فى نسخها ، اذا جاء محمد بن يوسف ، أطلب منه
الشروح المذكورة ، لأنتسخ منها نسخة وأرسلها الى عليه مجدكم ان
شاء الله • وان كان معى أشغال أتركه لأجل خدمتكم •• أما من
شروحات الخطب فلم أقبضها بعد ، لكن كل يوم ، أرغب وأرسل رسالة
لقرطبى أن يبعثها الى ، وكما كان رجل من قلة عهد وأمان ما يفعل شيئاً
برسالاتى ، كان حلف بالله أنه اذا بلغ لتطيلة أنه يرسلها الى بلاشك ،
ومضى شهران ولم يرسلها •• أما من جواد فضلكم الى السؤال عن
حالتي وعن كيفية تعليمي فى مقصودي ، فأخبركم كيف أكون صحيحاً

في الحال ، والحمد لله وفرغت الآن من قراءة شرح أرجوزة ابن سينا ، وبدأت قراءة الكتاب الأول من القانون مستعينا بالله ، وكنت أجتهد وأتعب ليلا ونهارا لأنال مقصودي لأن الكتاب المذكور كان يتكلم في كليات الطب وكليات الطب كانت معرفة حد الطب والمزاج والأركان والطبائع ومعرفة الضروريات من المأكّل والشرب والنوم واليقظة والحركة والسكون ومعرفة المرض والعرض والسبب وغير ذلك من أشياء كثيرة لا تتحصى ، وكلّ ذلك كان من أدق هذا العلم ، لأنه كان يتكلم منطقيا وفلسفيا وكل ما كان كذلك لا ينال الا بجهد وتعب فكان واجبا على أن أتعب ليلا ونهارا لأنال مقصودي ، وأرغب الى الله أن يعينني على نيل مقصودي أو على ما يكون أعبد وأحمد .. أما قولكم ، ان وسع الزمان أن أجتهد في زيارتكم ، لأنكم مشتاقون لروايتي فاني والله أشد شوقا لروايتكم وخدمتكم فان وسع الله في الزمان أنا زائرکم ان شاء الله .. أرغبكم أن تبلغوا السلام عنى على الطاهرة الزكية حليلتكم وعلى أولادكم وعلى جميع تلاميذكم وسائر من تحوطه رعايتكم ، والسلام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته .

المقبل أيديكم وأرجلكم أصغر تلاميذكم محمد قلبارة من سرقسطة .

كتب يوم الاثنين الثاني عشر ليناير عام ٩٠٠ في بالجيت .

يدفع بيدي سيدي وسندي وعزى واجلالى ومحل تعظيمى واشتياقى الذى محنته ممزوجة بلحمى ودمى وشوقه روايته مغروسة في قلبي وشراسيفى ، نلکم الأستاذ المكرم والعالم المعظم ، ابو عبد الله محمد الفازى اكرمه الله .

مصادر الكتاب ومراجعته

(١) المخطوطات والرسائل غير المنشورة :

- اناراموس : برنامج التجيبي — رسالة دكتوراه — جامعة الأوتونوما بمدريد — ١٩٧٦ م .
- براوليو خوستيل : هداية الرجراجى — دكتوراه — جامعة مدريد المركزية — ١٩٧٤ م .
- البنطى (أبو محمد بن عبد الوليد ، المتوفى ٤٦٢ هـ) : الوثائق والمسائل المجموعة ، مخطوطة مدرسة الدراسات العربية بمدريد .
- الجزيرى (أبو الحسن على بن يحيى بن القاسم ، المتوفى ٥٨٥ هـ) : الوثائق — مخطوط مكتبة القرويين بتونس .
- الداوودى : الأموال — المخطوط رقم ١١٦٥ بالأوسكوريال — مدريد .
- عبد الله جمال الدين : نصوص المتن لابن حيان فى ذخيرة ابن بسام — دكتوراه — جامعة مدريد المركزية — ١٩٧٨ م .
- مجهول المؤلف : اجازات مشرقية لطلبة من المغرب والاندلس — المخطوط رقم ١٩١٩ مكرر — الأوسكوريال — مدريد .
- مجهول المؤلف : جغرافية الاندلس — المخطوطة رقم ٣٦ — المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد .
- مجهول المؤلف : من وصايا على بن أبى طالب — المخطوط رقم ١٨٧٤ الاسكوريال .
- محمد أحمد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية الاسلامية — ماجستير — الاسكندرية — ١٩٧٧ (وقد طبعت هذه الرسالة مؤخرا فى الاسكندرية) .
- محمد أحمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى ملكة غرناطة — دكتوراه — الاسكندرية — ١٩٧٩ م .
- محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الاندلس من الفتح حتى الخلافة — رسالة انهاء الليسانس — الأوتونوما بمدريد — ١٩٧٧ م .
- يوسف الحشاش : المجدون فى الاحاطة — دكتوراه — مدريد — ١٩٧٩ م .

(ب) المصادر :

- ابن الأبار (أبو عبد الله القضاعي البلسنى المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٤٩ م) :
— التكملة لكتاب الصلة — تحقيق كوديرا —
مريد — ١٨٨٦ م .
- المعجم فى اصحاب القاضى الامام أبى على
الصدقى — طبعة مريد — ١٨٨٥ م .
- المقتضب من كتاب تحفة القادم — اختيار
وتقييد ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البلفيقى —
تحقيق : ابراهيم الايبارى — القاهرة —
١٩٥٧ م .
- ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله المتوفى ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م) :
— الأئیس المطرب روض القرطاس — تحقيق : محمد
الهاشمى الفلالى — الرباط — ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .
- ابن الاثير (المتوفى ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : الكامل فى التاريخ ، القاهرة
١٣٠٣ هـ .
- ابن الأحمر (أبو الوليد اسماعيل ، المتوفى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) :
مستودع العلامة ومستبدع العلامة ، تحقيق محمد
التركى التونسى ، تطوان ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- نثر الخمان فى شعر من نظمى واياه الزمان —
تحقيق : محمد رضوان الداية ، ط ١ بيروت
١٩٧٦ / ١٣٩٦ .
- ابن يسام (أبو الحسين على المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) : الذخيرة فى
محاسن أهل الجزيرة — الأقسام المطبوعة
بالقاهرة ١٢٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .
- الذخيرة فى المحاسن الثمانية من الذخيرة ، تحقيق لطى
عبد البديع — القاهرة ١٩٧٥ .
- الذخيرة . تحقيق احسان عباس ، بيروت ،
٨ أجزاء .
- ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك المتوفى ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) : كتاب
الصلة — العددان الرابع والخامس من المكتبة
الاندلسية — القاهرة ١٩٦٩ .

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم المتوفى ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :
رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .
- ابن الجزار (أحمد بن ابراهيم ، المتوفى ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) :
سياسة الصبيان وتدريبهم ، تونس ١٩٦٨ م .
- ابن جلجل (سليمان بن حسان ، المتوفى ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م) : طبقات
الأطباء ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥م .
- ابن جماعة (يدر الدين بن أبي اسحاق ، المتوفى ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) :
تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم —
حيدر آباد — الدكن — ١٩٥٣ م .
- ابن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م) : الإصابة في تمييز
الصحابة ، ٤ أجزاء — القاهرة ١٩٣٩ —
١٩٤٥ م .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة —
تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة
١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .
- تهذيب التهذيب — مطبعة حيدر آباد —
الدكن — ١٣٢٩ هـ .
- ابن حزم (علي بن أحمد المتوفى ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) : احصاء العلوم —
نشر النص في بيروت ، واستخدم في هذه
الرسالة ما نشر بكتاب تاريخ الفكر التربوي عند
العرب — تونس ١٩٧٣ .
- نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، تحقيق
شوقي ضيف — مجلة كلية الآداب — جامعة
القاهرة ١٩٥١ (العدد ١٣) .
- طوق الحمامة ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ،
القاهرة ١٩٧٥ .
- جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٦٢ .
- الأخلاق والسير ، نشره وترجمه آسبين
بلاثيوس ، مدريد ١٩١٦ .
- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي ، المتوفى ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) :
صورة الأرض — بيروت ١٩٦٣ م .

- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف ، المتوفى ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م) :
اكتشاف السفر الخامس من المقتبس ، بقلم
محمد عبد الله عنان — مجلة المعهد المصري
للدراستات الاسلامية ، العدد ١٣ .
- المقتبس (السفر الثاني) ، تحقيق محمود على
مكى — بيروت ١٩٧٣ .
- المقتبس (الثالث) ، تحقيق ميلتشور انطونيا ،
باريس ١٩٣٧ .
- المقتبس (الخامس) ، تحقيق بدرو شالميتا
وآخرون — مدريد ١٩٧٨ .
- ابن حيان : المقتبس (السادس) ، تحقيق عبد الرحمن على
الحجى — بيروت ١٩٦٥ م .
- نصوص من كتاب المتين ، تحقيق عبد الله
جمال الدين — أنظر الرسائل غير المنشورة .
- ابن خاقان : الفتح (٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م) ، مطمح الأنفس .
- ابن الخطيب (أبو عبد الله السلماني ، المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) :
الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله
عنان — القاهرة ١٩٧٤ — ١٩٧٧ م .
- الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة ،
تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ .
- أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، تحقيق
محمد كمال شبانة ، المغرب ، دون تاريخ ،
المقدمة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- عمل من طب لمن حب ، نشر بشلمنقة باسبانيا
١٩٧٢ .
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، المتوفى
٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) : وفيات الأعيان ، تحقيق
محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ابن خلدون (عبد الرحمن ، المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) : المقدمة ،
تحقيق على عبد الواحد وافي — القاهرة ١٣٧٩ هـ /
١٩٦٠ م ، ٤ أجزاء .
- تاريخ ابن خلدون ، القاهرة ١٢٨٤ .

- ابن خير (أبو بكر محمد ، المتوفى ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) : فهرست ، تحقيق كوديرا ، سرقسطة ١٨٩٣م .
- ابن دراج (القسطلی ، المتوفى ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) : ديوان ، تحقيق محمود مكي ، دمشق ١٩٦١م .
- ابن الزبير (احمد بن ابراهيم ، المتوفى ٧٥٨هـ / ١٣٠٨م) : صلة الصلة ، تحقيق ليفى بروفينسال ، الجزائر ١٩٣٧ .
- ابن سحنون (محمد ، المتوفى ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) : آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسن ، عبد الوهاب ، تونس ١٣٤٨ ، وطبعة العروسي ، تونس ١٩٧٢م .
- ابن سعيد (علي ، المتوفى ٩٧٣هـ / ١٢٧٤م) : رايات المبرزين ، تحقيق نعمان القاضي ، القاهرة ١٩٧٣م .
- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٨م .
- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك ، المتوفى بعد عام ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) : المن بالامانة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤ .
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف ، المتوفى ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) : جامع بيان العلم وفضله ، القاهرة .
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ما زال ينشر بالمغرب اعتبارا من عام ١٩٦٧م .
- ابن عبد ربه (أبو عمر بن محمد الاندلسي ، المتوفى ٣٢٨هـ / ٩٣٩م) : العقد الفريد — تحقيق احمد أمين والزيني — القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
- ابن عبدون : رسالة في الحسبة ، تحقيق ليفى بروفينسال — نشر بالمجلة لاسيوية عام ١٩٣٤ .
- ابن عذاري : (أبو عبد الله المراكشي ، المتوفى ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) : البيان المغرب — نشرت أجزاء منه متفرقة واستعملت كلها .
- ابن العربي (أبو بكر ، المتوفى ٤٥٣هـ / ١١٤٨م) : احكام القرآن ، ٤ أجزاء — القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

— العاصم من القواصم ، تحقيق محب الخطيب —
القاهرة ١٣٧١ هـ .

— ابن عربى (محيى الدين المرسى ، المتوفى ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) :
الفتوحات المكية — القاهرة ١٣١٠ هـ .

— اجازة ابن عربى للملك المظفر غازى ، تحقيق
عبد الرحمن بدوى ، الأندلس ، العدد ٢٠
(١٩٥٥) الصفحات ١٠٧ — ١٢٨ .

— ابن عياض (محمد ، المتوفى ٥٧٥ هـ / ١٩٧٩ م) : التعريف بالقاضى
عياض ، تحقيق محمد بن شريفة ، المغرب ، دون
تاريخ .

— ابن غالب (محمد بن أيوب) : قطعة من كتاب فرحة الأنفس ، نشر لطفى
عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية —
القاهرة ١٩٥٦ .

— ابن فرحون (ابراهيم بن على ، المتوفى ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) :
الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ،
تحقيق عباس بن عبد السلام ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٣٥١ ، والطبعة الحديثة بالقاهرة أيضا .

— ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد ، المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) :
تاريخ علماء الأندلس — طبعة مجرى ١٨٩٠ ،
وطبعة القاهرة ، العدد الثانى من المكتبة الأندلسية
١٩٦٦ .

— ابن القاضى (أحمد بن محمد ، المتوفى ١٠٢٥ هـ / ١٦١٣ م) :
درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ، تحقيق
علوش ، المغرب ١٩٣٤ .

— ابن القطان (حسن بن على بن محمد ، المتوفى ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) :
نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكي ، تطوان

— ابن قنفذ (أحمد ، المتوفى ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) : شرف الطالب
فى أسنى المطالب ، تحقيق محمد حجي ، نشر
ضمن كتاب « ألف سنة من الوفيات » الرباط
١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

- ابن القوطية (محمد ، المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) : تاريخ عبد الرحمن
الناصر وافتتاح الأندلس ، تحقيق : عبد الله انيس
الطباع ، بيروت ١٩٥٨ — وتحقيق لافوينت
دى الكنترا ، مجريط ١٨٦٨ م .
- ابن الكردبوس (٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م) : تاريخ الأندلس ووصفه
لابن الشباط ، تحقيق مختار العبادى ، مدريد
١٩٦١ م .
- ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد ، المتوفى ٣٧٥ هـ / ٨٨٨ م) : سنن
ابن ماجة ، القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .
- ابن ماكولا (المتوفى ٤٧٥ هـ / ١٠٩٥ م) : الاكمال فى رفع الارتباب
عن المؤلف والمختلف من الأسماء والكتابة
والأنساب . ٧ أجزاء ، حيدر آباد ٦٢ — ١٩٦٥ .
- ابن مرزوق (التلمسانى ، المتوفى ٧٨٢ / ١٣٨٠) : أنظر ماريا خيسوس
فيغيرا ، (المراجع الأجنبية) .
- الأجرى (أبو بكر بن الحسين ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) : أخلاق العلماء —
القاهرة ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م .
- الأدريسى (الشريف ، المتوفى ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) : نزهة المشتاق —
ليدن ١٩٤٨ م .
- البغدادي (الخطيب ، المتوفى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) : الكفاية فى علم
الرواية ، المكتبة العلمية .
- البغدادي (اسماعيل) : هدية العارفين ، بيروت ١٩٥٥ م .
— ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون
اسطنبول ١٩٤٥ .
- البكرى (أبو عبيد الله ، المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) : جغرافية
الأندلس وأوروبا ، تحقيق عبد الرحمن الحجى —
الطبعة الأولى — بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م .
- البلوى (أبو الحجاج يوسف) : ألف باء ، جزعان — القاهرة
١٢٨٧ هـ .
- البيهقى (أبو بكر الصنهاجى ، المتوفى ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) : كتاب
أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق عبد الحميد
حاجيات ، الجزائر ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

- التنبكى (أحمد بابا ، المتوفى ١٠٣٦ هـ / ١٦٣٦ م) : نيل الانتهاج
بتطريز الديباج — طبع على هامش الديباج —
الطبعة الأولى — القاهرة ١٣٥١ هـ .
- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك ، المتوفى ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) : يتيمة
الدهر ، القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .
- حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) : كشف الظنون عن أسامي الكتب
والفنون — صورة بيروت عن طبعة لندن ١٨٥٨ م
- الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح ، المتوفى ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) :
جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، تحقيق محمد
ابن تاويت ، القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٣ م .
- الحميرى (ابن عبد المنعم ، المتوفى ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) : الروض
المعطار ، القاهرة ١٩٤٨ .
- الخشنى (محمد بن حارث ، المتوفى ٣٦١ هـ / ٩٧١ م) : قضاة قرطبة ،
طبعة خوليان ريبيرا بمدير وطبعة القاهرة
١٩٦٦ م .
- الخزرجى (صفى الدين أحمد بن عبد الله — القرن العاشر / السادس
عشر) : خلاصة تهذيب تهذيب الكمال في
أسماء الرجال ، تحقيق : محمد غانم غيث ،
القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- الخوارزمى (أبو عبد الله ، المتوفى ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م) : مفاتيح العلوم —
القاهرة ١٣٤٢ هـ .
- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد ، المتوفى ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) :
معرفة القراء الكبار على الطبقات والأصناف ،
تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٦٩ م .
- الرعيني (أبو الحسن على بن محمد ، المتوفى ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م) :
برنامج شيوخ الرعيني ، تحقيق إبراهيم شوبوح
دمشق ١٩٦٢ م .
- الزبيدى (أبو بكر محمد بن حسن ، المتوفى ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) : طبقات
النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم — القاهرة ١٩٥٤ م .

— كتاب الواضح ، تحقيق عبد الكريم خليفة —

عبان ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .

— الزرنوجي (برهان الاسلام ، المتوفى ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م) : تعليم

المتعلم طريق التعلم ، تحقيق عبد العزيز شاهين

صقر — القاهرة ١٩٣٧ م .

— الزمخشري : الفائق في غريب الحديث ، ٣ أجزاء — القاهرة

١٩٤٥ — ١٩٤٨ م

— السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، المتوفى ٩٠٢ هـ /

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ،

٥ أجزاء — لبنان ، منشورات دار مكتبة الحياة .

— السقطي : كتاب في آداب الحسبة ، تحقيق كولين وليفي

بروفينسال .

— السلفي (أبو الطاهر ، المتوفى ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) : اخبار وتراجم

أندلسية مستخرجة من معجم السفر — أعدها

وحققها الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ .

— السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ، المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :

الانتقان في علوم القرآن ، جزءان ، الطبعة

الثانية — القاهرة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م .

— حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ،

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — القاهرة

١٩٦٧ م .

— بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة

١٩٦٤ ، والطبعة القديمة بالقاهرة ١٣٦٢ هـ .

— الشفشاوي (محمد بن عسكر الحسني ، المتوفى ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م) :

دوحة الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ

القرن العاشر ، تحقيق محمد حجي ، الرباط

١٩٧٦ م .

— صاعد الطبقي (أبو القاسم أحمد بن عبد الرحمن ، المتوفى ٤٦٢ هـ /

١٠٦٩) : طبقات الأمم ، نشر محمود صبح ،

القاهرة .

- الضبى (أحمد بن عميرة ، المتوفى ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) : بغية
الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس — طبعة
مدريد ١٨٨٤ م .
- طاشكبرى (عصام الدين أحمد العريف ، المتوفى ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م) :
مفتاح السعادة ومصباح السيادة .
- عبد الله (الأمير ، آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة) : مذكرات الأمير
عبد الله ، تحقيق ليفى بروينسال — القاهرة
١٩٥٥ م .
- العذرى (أحمد بن أنس ، المتوفى ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ م) : نصوص عن
الأندلس ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى
مدريد ١٩٦٥ .
- العقبانى (محمد بن أحمد بن قاسم ، المتوفى ٨٧١ هـ / ١٤٩٧ م) :
تحفة الناظر وغنية الذاكر ، تحقيق على الشنونى
مجلة الدراسات الشرقية — العدد ١٩ (٦٥ —
١٩٦٦ م) .
- العلموى (عبد الباسط بن موسى ، المتوفى ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م) : المعيد
المعيد فى أدب المفيد والمستفيد ، تحقيق أحمد
عبيد ، ١٣٤٩ هـ .
- الغبرينى (أبو العباس ، المتوفى ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م) : عنوان الدراية
فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة بيجامة ،
تحقيق عادل نويهض ، الطبعة الأولى ، بيروت
١٩٦٩ .
- الفزالى (حجة الاسلام ، المتوفى ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) : أحياء علوم
الدين — القاهرة ١٩٣٣ م .
- أيها الولد ، تحقيق وترجمة أسطفان لاتور
بيروت ١٩٥١ م .
- الأدب فى الدين ، تحقيق محبى الدين صبرى ،
کردستان .
- الفسارابى (أبو نصر ، المتوفى ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) : احصاء العلوم ،
تحقيق انخيل غنصليس ، مجريط ١٩٥٣ .

- القابسي (على بن محمد بن خلف ، المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) :
الرسالة المفصلة في أحوال المعلمين والمتعلمين ،
تحقيق أحمد فؤاد الأهواني ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- القــــرآن : القرآن ، طبعة المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية — القاهرة ١٣٨٨ هـ .
- القفطي (جمال الدين ، المتوفى ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) : أخبار العلماء
بأخبار الحكماء — القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- الكتبي (٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) : الوافي بالوفيات — القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- مجهــــول : تاريخ عبد الرحمن الناصر ، تحقيق ليفي بروفينسال
واميليو غارثيا غوميث — مدريد ١٩٥٠ .
- مجهــــول : الحلل الموشية ، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر
زمامة ، الدار البيضاء ١٩٧٩ .
- مجهــــول : أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها ،
تحقيق لافوينت دي الكنترا — مدريد ١٩٦٧ .
- المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك ، المتوفى ٧٠٣ هـ /
١٣٠٣) : الذيل والتكملة (كافة الأجزاء المنشورة)
تحقيق احسان عباس ومحمد بن شريفة — بيروت
١٩٦٥ .
- المراكشي (عبد الواحد ، المتوفى ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) : المعجب في تلخيص
أخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ، الطبعة
السابعة ، ١٩٧٨ م .
- المغراوي (أحمد بن جمعة ، المتوفى ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) : جامع
جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين
وآباء الصبيان ، تحقيق : أحمد جلولى البدوي ،
ورابح بونار — الجزائر ١٩٧٥ .
- مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، المتوفى ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م) :
صحيح مسلم — القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
- المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد ، المتوفى ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) :
أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق :
مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، وشلبى
أعيد ، نشره في المغرب ، كما صدر الجزء
الرابع — الرباط — وزارة الأوقاف ١٩٧٨ م .
(م ٣٢ — تاريخ التعليم)

- نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب :
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ١٠
أجزاء — القاهرة ١٩٤٩ ، وتحقيق احسان
عباس — ٨ أجزاء — بيروت ، ١٩٧٥ .
- النباهى (أبو الحسن بن عبد الله كان حيا في ٧٩٣ / ١٣٩٠) :
تاريخ قضاة الأندلس — بيروت ، دون تاريخ .
- النعمى (عبد القادر محمد ، المتوفى ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) : الدارس في
تاريخ المدارس — دمشق ١٩٤٨ .
- الوثنرينى (احمد بن يحيى ، المتوفى ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م) : المعيار
المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقيا
والأندلس والمغرب — طبعة فاس الحجرية
١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م .
- ياقوت (أبو عبد الله الحموى ، المتوفى ٦٢٦ هـ / ١٢٢٦ م) : معجم
الأدباء ، تحقيق : فريد الرفاعى — القاهرة ١٩٣٧ م .
- معجم البلدان (٥ أجزاء) — بيروت ١٩٧٧ م .
- اليحصبى (القاضى عياض بن موسى ، المتوفى ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) :
الاماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع
تحقيق : السيد احمد صقر — القاهرة ١٣٨٩ /
١٩٧٠ .
- ترتيب المدارك ، ٥ أجزاء — نشر وزارة
الأوقاف بالمغرب ، الرباط ١٩٦٥ م .
- يحيى بن عمر (٢٨٩ هـ / ٩٠١ م) : احكام السوق ، تحقيق : محمود
على مكى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات
الاسلامية بهدريد عام ١٩٥٦ .

٣ — الدراسات والأبحاث الحديثة :

- ابائسا (ميكل) : التعليم العالى في القرون الوسطى الاسلامية
الاسلامية ومقارنته بالتعليم الحاضر ، ملتنى الامام
المازرى بتونس .
- ابراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس ، ج ١ — تونس
١٩٧٣ م .

- إبراهيم النجار : مختارات من الفكر التربوى ، تونس ١٩٧٣ م .
- أبو طاهر اليففى : المدارس فى الاسلام ، مجلة لسان الدين (السنة الثانية ، ج ٥ ، تطوان ، نوفمبر ١٩٤٧) .
- أحمد أمين : ضحى الاسلام — القاهرة ١٩٣٢ م .
- أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ط ٣ — القاهرة ، ١٩٦٦ م
- أحمد شوكت الشنبلى : حول علم النبات عند العرب — نشر ضمن أعمال الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب — سوريا ١٩٧٧ م .
- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر على عهد محمد على — القاهرة ١٩٣٨ م .
- أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الاسلام — القاهرة ١٩٥٥ م .
- أحمد مختار العبادى : الصقالبة فى اسبانيا — مدريد ١٩٥٣ م .
- أحمد هيكى : الأدب الأندلسى ، ط ٦ — القاهرة ١٩٦١ .
- أنور الجندى : الاسلام والثقافة العربية ، مجلة دعوة الحق (العدد ١٠٢٩) — الرباط .
- البيساوى (على بن محمد) : مختصر البيسوى ، تحقيق عبد القادر عطية ، ومحمد زرقعة — الرياض — دون تاريخ .
- جمال محرز : المكتبات وهواة الكتب فى اسبانيا الاسلامية ، (مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة — العدد الرابع ، ج ١ : ١٩٥٨) .
- جودت الركابى : فى الأدب الأندلسى ، ط ١ — القاهرة ١٩٧٥ م .
- جودة عبد الرحمن : وصية القاضى أبو الوليد السباجى . (مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمديرى ، العدد ٣ ، ١٩٥٥) .
- حسن حسنى عبد الوهاب : بيوت الله : مساجد ومعاهد (العدد ٧٥ من سلسلة كتاب الشعب ، القاهرة ١٩٦٠) .
- حسن عبد العال : التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى — القاهرة ١٩٧٨ م .
- حسن محمود : قيام دولة المرابطين — القاهرة ١٩٥٧ م .
- حسين أمين : المدرسة المستنصرية — بغداد ١٩٦٠ م .

- حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس —
مدريد ١٩٦٧ م .
- رواية جديدة عن فتح الأندلس — مجلة المعهد
المصري بمدريد — العدد ١٨ — سنة ١٩٧٤ —
١٩٧٥ م .
- شيوخ العصر في الأندلس — المكتبة الثقافية —
العدد ١٤٦ (١٩٦٥) .
- فجر الأندلس — القاهرة ١٩٥٩ م .
- وصف جديد لقرطبة — المجلة المشار إليها ،
العدد ١٣ (٦٥ — ١٩٦٦ م) .
- حكمت الأوسى : الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة ،
ط ٢ — بغداد سنة ١٩٧٤ م .
- فصول في الأدب الأندلسي ، ط ٢ — بغداد
١٩٧٤ م .
- خطاب عطية : التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول —
القاهرة ، ١٩٤٧ م .
- زيفير (هوتكة) : شمس العرب تسطع على أسبانيا — ترجمه عن
الألمانية : فاروق بيضون وكمال دسوقي —
بيروت ١٩٦٤ م .
- سعد غراب : المذهب المالكي عنصر ائتلاف في المغرب الاسلامي ،
(فصل من كراسة الدراسات الاجتماعية بتونس ،
العدد الرابع) .
- سعيد أعراب : دور المغاربة في تربية الطفل (مجلة دعوة الحق ،
العدد الخامس ، السنة العشرون ، مايو ١٩٧٩ م) .
- السلاوي : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر
الناصري — المغرب ١٩٥٤ .
- سليم طه : التعريب وكبار المعربين في الاسلام ، (مجلة
سوبر — ج ١ و ج ٢ — المجلد ٣٢ — ١٩٧٦) .
- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية — بيروت
١٩٦٩ م .

- مساجد ومعاهد (العددان ٧٥ و ٧٨ من دائرة
معارف الشعب — القاهرة ١٩٥٨) .
- قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية ، جزءان —
بيروت ١٩٧١ م .
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس — بيروت
١٩٦٣ .
- العمارة الدينية بالأندلس (كتاب الشعب رقم
(٢) — القاهرة ١٩٥٩) .
- شكيب أرسلان : الحلل الهندسية في الأخبار الأندلسية — القاهرة
١٩٣٦ م .
- صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه — دمشق ١٩٥٩ م .
- صلاح خالص : أشبيلية في القرن الخامس الهجري — بيروت
١٩٦٥ م .
- صلاح الدين المنجد : اجازات السماع في المخطوطات (مجلة معهد
العربية — القاهرة — ج ١ ١٩٥٥) .
- الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ،
ط ٢ — القاهرة ١٩٧٧ م .
- عبد الله على علام : الدولة الموحدية بالمغرب على عهد عبد المؤمن
ابن علي — القاهرة ١٩٧١ م .
- عبد الله فياض : الاجازات العلمية عند المسلمين — بغداد ١٩٦٧ م .
- عبد الحليم محمود : المسجد وأثره في المجتمع الاسلامي — القاهرة
١٩٧٦ م .
- عبدالحميد العبادي : المجلد في تاريخ الأندلس — القاهرة ١٩٥٨ م .
- عبدالرازق الضفار : الامام الأوزاعي : منهجه كما يبدو في فقهه —
بغداد ١٩٧٦ م .
- عبد الرحمن آل الشيخ : فتح المجيد وشرح كتاب التوحيد — الرياض .
- عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسي — بيروت ١٩٧٦ م .
- الكتب والمكتبات في الأندلس (مجلة كلية
الدراسات الاسلامية ببغداد ، ١٩٧٢ م) .

- عبدالرحمن الفاسى : منتخبات من نواذر المخطوطات بالخزانة الملكية
بالرباط — الرباط ١٩٧٨ م .
- عبد الشافى غنيم : الحضارة العربية (مجموعة محاضرات ، كلية
التربية — جامعة عين شمس ١٩٧٠ م .
- تاريخ المغرب والاندلس (مجموعة محاضرات
كلية التربية — عين شمس ١٩٧٠ م .
- عبد العزيز الاهوانى : صلة الصلة لابن الزبير ، والتكملة لابن
عبد الملك (مجلة المعهد المصرى بمديرد ، العدد
٣ ، ١٩٥٥ م) .
- عبد العزيز بن رشيد : نظام الحسبة فى الاسلام — الرياض
١٣٩٣ هـ .
- عبد الفنى عبود : فى التربية الاسلامية ، ط ١ — القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- عبدالهادى التازى : جامع القرويين ، ط ١ — بيروت ١٩٧٤ م .
- على راضى : الاندلس والناصر — الجزائر ١٩٦٧ م .
- عليش (أبو عبد الله محمد بن حمد) : فتح العلى مالك فى الفتوى
على مذهب مالك ، ط ٢ — القاهرة ، ١٩٣٧ م .
- عمار الطالبى : آراء أبى بكر من العربى الكلامية — الجزائر —
دون تاريخ ، المقدمة ١٩٧٤ م .
- غونثاليث (انخيل) : تاريخ الفكر الاندلسى — ترجمة حسين مؤنس —
القاهرة ١٩٥٥ م .
- فارمر (هنرى جورج) : تاريخ الموسيقى العربية — ترجمة حسين
نصار — القاهرة ، دون تاريخ .
- فتحية حسن نسليمان : المذهب التربوى عند الغزالى — القاهرة
١٩٦٤ م .
- كريم عجيل حسن : الحياة العلمية فى بلنسية الاسلامية — بغداد
١٩٧٦ م .
- كونل (أرنست) : الفن الاسلامى — ترجمة احمد موسى — القاهرة
١٩٦٩ م .
- ماجد فخرى : ابن رشد فيلسوف قرطبة — بيروت ١٩٦٠ م .

- محمد ابن عبود : التاريخ السياسى والاجتماعى لاثبيلية على عهد
بنى عبياد (رسالة دكتوراه بلندن ، عرض مجلة
العلم ١٩٧٨/١١/٣) :
- محمد أحمد أبوزهرة : المذاهب الاسلامية (سلسلة الالف كتاب ١٧٧ ،
القاهرة) .
- ابن حزم : حياته وعصره ، ط ٣ — القاهرة
١٩٥٤ م .
- محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ط ١ — بيروت
١٩٥٧ م .
- محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا ، ط ٢ —
القاهرة ١٩٦١ م .
- الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية —
المعهد المصرى بمديرى ، ١٩٧٦ م .
- دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول —
القسم الثانى ، ط ٣ — القاهرة ١٩٦٠ م .
- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرباطى ،
ط ١ — القاهرة ١٩٦٠ م .
- عصر المرباطين والموحدين ، القسم الثانى —
القاهرة ١٩٦٤ م .
- محمد عبد الرحيم غنيمية : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى —
تطوان ١٩٥٣ م .
- محمد عبد العزيز الحسينى : الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية ،
بيروت ١٩٧٣ م .
- محمد عبد اللطيف مطلب : تاريخ علوم الطبيعة — بغداد ١٩٧٨ م .
- محمد عبد المنعم خفاجة : قصة الأدب فى الأندلس — بيروت
١٩٦٢ م .
- محمد غلاب : المعرفة عند العرب — القاهرة ١٩٦٦ م .
- الفلسفة الاسلامية فى المغرب — القاهرة
١٩٤٨ م .
- محمد فوزى العنتيل : التربية عند العرب (المكتبة الثقافية رقم ١٥٧ ،
القاهرة ١٩٦٦ م) .

- محمد كمال شبانة : يوسف الأول سلطان غرناطة — القاهرة ١٩٦٩ م .
- محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب —
القاهرة ١٩٢٧ م .
- محمد المنتصر الريسونى : الادب النسوى في الأندلس (مجلة دعوة
الحق — الرباط — ديسمبر ١٩٦٥) .
- محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين —
تطوان ، ١٩٥٠ م .
- محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة في رأى ابن رشد وفلاسفة
العصور الوسطى ، ط ٢ — القاهرة ١٩٦٨ م .
- محمود على مكى : مقدمة لكتاب أحكام السوق (مجلة المعهد المصرى
بمدير — العدد ٤ ، ١٩٥٦ م) .
- التشيع في الأندلس (نفس المجلة ، العدد ٢ ،
١٩٥٤ م) .
- منصور قهنى : قاعات البحث (مجلة مجمع اللغة بالقاهرة ، ج ١ ،
١٩٣٥) .
- مؤتمرات : الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب —
سوريا ١٩٧٧ م .
- ناجى معروف : نشأة المدارس المستقلة في الاسلام — بغداد
١٩٦٦ م .
- مدارس مكة — بغداد ١٩٦٦ م .
- مدارس واسط — بغداد ١٩٦٦ م .
- المدارس الشرايية بمكة — بغداد ، دون
تاريخ .
- نعمة عبد الرحيم العزاوى : أبو بكر الزبيدى الأندلسى —
الأردن ، ١٩٦٢ م .
- هانز (رودلف سنجر) : قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب
الصلة لابن بشكوال (مجلة المعهد المصرى بمدير ،
العدد ١٥ ، ١٩٧٠) .
- يوسف أشباح : تاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين —
ترجمة محمد عبد الله عنان — القاهرة ١٩٥١ م .

AL-ABBADI, Mujtar

El Reino de Granada en la época de Muhammed V. Madrid, 1973.

AGUADO BLEYE, Pedro

Manual de Historia de Espana, Tomo I. Madrid, 1947.

ALGAZEL

Oh Hijo ! (Traducción de Esteban Lator). Beirut, 1951.

ALONSO ALONSO, Manuel

Teología de Averroes. Estudio y documentos. Instituto de Miguel Asín. Madrid-Granada, 1974.

ALTAMIRA, R.

Historia de Espana y la civilización española. Tercera Edición. Barcelona, 1913.

ANTUNA, M.

La corte literaria de al-Hakam al-Mustansir. Rev. de los padres Agustinos, 1929.

ASIN PALACIOS, Miguel

Abenhazm de Córdoba y su historia crítica de las ideas religiosas. Madrid, 1927-1932. 5 volúmenes.

Los caracteres y la conducta (Tratados de moral práctica por Ibn Hazam de Córdoba). Madrid, 1916.

Un compendio musulmán de Pedagogía. Zaragoza, 1924.

Aben Masarra y su escuela : origen de la filosofía Hispano-musulmana (Discurso leído en el acto de su recepción por D. Miguel Asín Palacios). Madrid, 1914.

Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm. Al-Andalus Vol. II. 1934. pp. 1-57.

BALLESTEROS Y BERETTA, Antonio

Síntesis de la Historia de España. Novena edición. Madrid-Barcelona, 1957.

BAUER, Ignacio

La enseñanza hispano-musulmana medieval (Conferencia). Santander, 1934.

BROCKELMANN, Carl

Geschichte de Arabischen litteratur. Leiden, 1949.

BURCKHARDT, Titus

La civilización hispano-árabe. Alianza Editorial. Madrid, 1977.

CABANELAS, Darío

Las inscripciones de la Alhambra segun el morisco Alonso del Castillo. Miscelânea de estudios árabes y hebraicos. Vol. XXV (1970). Fasc. I

CANARD, M.

Falaqa (Sur la vie scolaire a Byzance dans l'Islam). Rev. Arabica, 1954.

CARO BAROJA, Julio

Los moriscos del Reino de Granada. Madrid, 1957.

CODERA, Francisco

Decadencia y desaparición de los Almorâvides en Espana. Zaragoza, 1899.

CONDE, José Antonio

Historia de la dominación de los árabes en Espana. 3 tomos. Madrid, 1820. Otra edición en 1 tomo, 1874.

CRUZ HERNANDEZ, Miguel

La filosofía hispano-musulmana. Madrid, 1957.

CHALMETA GENDRON, Pedro

Una historia discontinua e intemporal. Hispania, Tomo XXXIII (1973), pp. 23 - 75.

Historiografia medieval hispano-árabe. Al-Andalus XXXVII (1972), pp. 353 - 404.

Treinta anos de nuestra historia hispana del Muqtabas de Ibn Hayyan. Hispania, XXXV (1975), pp. 665 - 676.

El Senor del Zoco. 2 volúmenes. Madrid, 1974.

Kitab.fi Adab al-Hisba de Al-Saḡati. Al-Andalus XXXII (1967). XXXIII (1968).

CHERIF CHERGUI, A.

La Ideología islâmica (Dimensião psicoeducativa). Instituto Hispano-Arabe de Cultura. Madrid, 1977.

DESSUS LANARE

Description de la grande Mosqués de Cordoba.

DODGE, Bayard

Muslim education in Medieval times. Washinton, 1960.

DOZY, R.

Historia de los Musulmans de Espania (Traducción y prologo de Magdalena Fuente). Barcelona, 1954. 2 Tomos. Supplément aux dictionnaires arabes. 2 Tomos. Paris, 1927.

EISSA, M.

Historia de la ensenanza en al-Andalus desde la conquista hasta el Califato (Una Tesina inédita presentada en la Autônoma de Madrid, 1977).

ENAN, M. Abdulla

Toponimia arábigo-espanola. Instituto Egipcio. Madrid, 1975.

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM

Encyclopaedia of Islam. 4 Tomos. Leiden, 1913-1938.

EPALZA, Mikel de

La ensenanza superior en la edad media musulmana (una Ponencia en árabe en Túnez).

FARMER, Henery George

History of the music arabe (T. árabe). London, 1973.

GALINO, María Angeles

Histaria de ñe la educaciôn. Edad Antigua y Medieval. Madrid 1973.

GALLEGO BURIN, Antonio

Los moriscos del Reino de Granada según el Zeinado de Guadix. Granada, 1968.

GALLEGO SALVADORES, Jordân

Las escuelas de Valencia en los días de Jaime el Conquistador. Rev. Perspectivas Pedagógicas, XXXVII - XXXVIII (1976), 117 - 132.

GAMAL AL-DIN, Abdallah

La obra histórica de Ibn Hayyan conservada en la DAJIRA de Ibn Bassam (Tesis presentada en la Complutense de Madrid, 1978). 2 volúmenes.

GARANGER, Ernesto

Nueva geografía Universal. Madrid, 1928.

GARCIA GOMEZ, Emilio

Anales platinos de Al-Hakam II. Madrid, 1967.

Cinco poetas musulmanes. Madrid, 1944.

Notas sobre la topografía de Córdoba en los «Anales de al-Hakam II por Isâ Razi. Al-Andalus, V, XXX, 1965 319-379.

Unas ordenanzas del zoco del s. IX. Al-Andalus XXII (1957), pp. 253-316.

Poesía árabe-andaluza (Breve síntesis histórica) Madrid, 1952.

A propósito de Ibn Hayyan. Al-Andalus, Vol. XI (1946), pp. 395-425.

GASPAR REMIRO, Mariano

Historia de Murcia musulmana. Zaragoza, 1905.

GAYANGOS, Pascual de

The history of the Mohammedan dynasties in Spain. London, -840.

GIBERT FENECH, Soledad

El Diwan de Ibn Jatima de Almería. Barcelona, 1975.

GOMEZ NOGALES, Salvador

La filosofía musulmana española. Madrid, 1970.
Teoría y clasificación de las ciencias según Ibn Hazm.
Córdoba, 1973. (Separata de las Actas de I Congreso de
Estudios Arabes en Córdoba).

GONZALES PALENCIA, Angel

Historia de la literatura árabe-española (Traducción
árabe). El Cairo, 1955.

GONZALEZ PRATS, Antonio

Alturas en las ciencias médicas en el Reino de al-Andalus.
Discurso que para su acto de recepción leyó ante la Real
Academia de Medicina y Cirugía de Barcelona. Barcelo-
na, 1906.

GOZALBES BUSTO, Guillermo

Los libros y las bibliotecas en la España musulmana. Cua-
dernos de la Biblioteca Española de Tetuán, no. 5. Junio,
1972.

La Enseñanza en la España musulmana. Cuadernos de la
Biblioteca Española de Tetuán, no. II. Junio, 1975.

GRIMBERG, Carl

La Edad Media : El choque de dos mundos Oriente y Occi-
dente. Primera edición. Barcelona, 1973.

GUILLEN ROBLES, F.

Málaga musulmana : sucesos, antigüedades, ciencias y let-
ras malagueñas durante la Edad Media. Málaga 1957.

HAGERTY, Miguel José

Al-Mu tamid. Poesía. Barcelona, 1979.

HEERS, Jacques

Historia de la Edad Media (Traducción española). Barce-
lona, 1976.

HUICI MIRANDA, A.

Las grandes batallas de la Reconquista. Madrid, 1956.
Historia política del imperio Almohade. Tetuán, 1956. 2
tomos.

IBN ABDUN

Sevilla musulmane au début du XII- siècle (Trad. Lévi provençal). Paris, 1947.

IBN HAZM

Los caracteres y la conducta (Tratado de moral práctica por Miguel Asín). Madrid, 1916.

Épître morale (Introduction et texte établi, Traduit, annoté avec lexique et index par Nada Tomiche). Beyrouth, 1961.

Le Collier du pigeon (Texte arabe y traducción francesa por Leon Bercher), 383-456. 993-1046. Alger, 1949.

IBN JALDUN

Introducción a la historia universal : Al-Muqaddimah (Estudio preliminar, revisión y apéndices de Elías Trabulse). México, 1977.

IBN AL-JATIB

Amal man Tabb liman Habb (Traducción de Vázquez, Ma J.). Salamanca, 1972.

IBN JATIMA de Almería

El Diwan. Poesía arábigo-andaluza del s. XIV. Colección y traducción de Soledad Gibert Fenech. Barcelona, 1975.

IBN MARZUQ

El Musnad : hechos memorables de Abu l-Hasan, sultán de los Benimerines. Estudio, traducción, anotación e índices por Ma Jesús Viguera. Madrid, 1977.

AL-IDRISI

«Description de la grande mosquée de Cordoue» par Alfred Dessus Lamare. Alger, 1949.

JAEN MORENTE, Antonio

Historia de Córdoba. 5a edición. Córdoba, 1976.

JUSTEL CALABOZO, Braulio

La Wasiyya (Testamento espiritual) de Mahoma a Ali (ms. ár., esc. 1874). La Ciudad de Dios. Vol. CXCII, no. I. Real Monasterio de El Escorial, 1979.

La Real Biblioteca de El Escorial y sus manuscritos árabes.
(Sinopsis histórico-descriptiva). Madrid, 1978.

La Hidaya de Rayrayi. Edición crítica, traducción y estudio. Tesis defendida en Madrid de 1974 y en vías de publicación.

KUEHNEL, Ernest

Die Islamische Kunstgeschichte (traducción árabe del Dr. Ahmed Moussa). El Cairo, 1961.

LADERA QUESADA, Miguel Angel

Granada : historia de un país islámico 1232-1571. Madrid, 1919.

LAFUENTE ALCANTARA, Miguel

Ajbar Maymu a (Crónica anónima del s. XI. Traducida). Colección de obras arábigas de historia y geografía. Tomo I. Madrid, 1867.

Historia de Granada. Granada, 1843.

LEVI DELLA VIDA, G.

El Regno di Granata. Nel 1465-66. Nei ricordi di un viaggiatore egiziano. Al-Andalus. Vol. I. Fasc. 2. 1933 pp. 307.

LEVI-PROVENCAL

Séville musulmane au début du XX^e siècle. Paris, 1947.

Espana musulmana. Tomo 4 y 5 de la Colección Historia de Espana de Menéndez Pidal. Traducción de Gorkia Gómez. 3a edición. Madrid, 1973.

Una crónica anónima de Abed al-Rahman III al-Nasir. Madrid-Granada, 1950.

Inscriptions arabes d'Espagne. Paris, 1931.

LOPEZ ORTIZ, J.

La recepción de la escuela Malaki en Espana. Madrid, 1931.

MAKDISI, G.

Muslim institutions of learning in eleventh-century. Bulletin of School of African and Oriental Studies. No XXIV, 1961. pp. 1-56. Madrasa, p. 10.

The scholastic method in the medieval education : an inquiry into its origins in law and theology. *Speculum : a journal of medieval studies*. Vol. XLIX. October, 1974. pp. 640-660.

Madrasa and university in the Middle Ages. *Studia Islamica*, XXXII, 1976. pp. 255-264.

The Madrasa in Spain, Same remarks (R. de L'Occident Musulman, et de la Méditerranée. No. 15-16 2 semestre 1973.

AL-MAKKARI

Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne publiés par Dozy, Dugat et Wright. 2 tomos. Amsterdam, 1967.

MAKKY, Mahmud

Egipto y los orígenes de la historiografía árabe española. *Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos en Madrid*. Vol. V. pp. 157-248.

Ensayo sobre las aportaciones orientales en la España musulmana y su influencia en la formación de la cultura hispano-árabe. Instituto de Estudios Islámicos de Madrid.

MIELI, Aldo

Panorama general de la historia de la ciencia. 1. Volúmenes Traducción española. Madrid, 1946.

MILLAS, VALLICROSA, José Ma

Estudios sobre la historia de la ciencia española. Barcelona, 1949.

Estudio sobre Azarquiel. Madrid, 1943-50.

MINGOTE Y TARAZONA, Policarpo

Elementos de historia de España. León, 1881.

MITRE, Ebbilio

La España medieval : sociedades, estados, culturas. Madrid, 1979.

MONES, Husin

Clasificación de las ciencias según Ibn Hazm. Revista Instituto Egipcio de Estudios Islámicos. Vol. XIII (1965-1966). pp. 7-17.

OCANA, M.

al-Hakam al-Mustansir bi-l-allah. El segundo califado de Córdoba. Córdoba, 1976.

PELLAT, Ch.

Ibn Hazm : bibliographe et apologiste de l'Espagne musulmane. L'I-Andalus, Vol. XIX. 1954. pp. 53-103 .

PERES, Henri

La poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle. Paris, 1953.

Muntajabat min Muqaddimat Ibn Jaldun.

PONS BOIGUES, Francisco

Ensayo biobibliográfico sobre los historiadores y geógrafos árabe-españoles. Madrid, 1898.

PRIETO VIVES, Antonio

Formación del Reino de Granada. Madrid, 1920.

RAMOS CALVO, Ana María

El Barnamay de Abi-l-Qasim al-Tuyibi. Universidad Autónoma de Madrid, 1967.

REPOLLES AGUILLAR, José

Historia de España. 2 tomos. Madrid, 1973.

RIBERA Y TARRAGO, Julián

Historia de los jueces de Córdoba por Aljoxani. Madrid, 1914.

Historia de la conquista de España de Aben Alcotia, el cordobés. Texto árabe 1878. Madrid, 1926.

Bibliófilos y bibliotecas en la España musulmana. Disertaciones y opúsculos. pp. 181-228. Madrid, 1928.

La enseñanza entre los musulmanes españoles. (Discurso Universidad de Zaragoza, 1893-1894).

(م ٢٢ — تاريخ التعليم)

La música de las cantigas : estudio sobre su origen y naturaleza. Madrid, 1932.

RIU, Manuel

Lecciones de Historia medieval. 4a edición. Barcelona, 1975.

RUBIERA MATA, Ma Jesús

Ibn al-Yayyab y su época. (Tesis doctoral inédita). Madrid, 1972.

SALCINES LOPEZ, M.

La Mezquita : catedral de Córdoba. Córdoba, 1976.

SANCHEZ ALBORNOZ, Claudio

La España musulmana según los autores islamitas y cristianos medievales. 4a edición. 2 tomos. Madrid, 1974.

Ben Ammar de Sevilla. Madrid, 1972.

El Islam de España y el Occidente. Madrid, 1974.

Nuevas páginas sobre el pasado de España. Barcelona, 1979.

SANCHEZ PEREZ, José Augusto

La ciencia árabe en la Edad Media. Madrid, 1945.

SANTAMARIA, A.

Historia universal de España.

SAQATI

Un manuel hispanique de Hisba I. Texto arabe, introduction, notes linguistiques y glossaire par Colina y Lévi-Provençal. París, 1931.

SARTON, George

Introduction to the history of science. 5 volúmenes. London, 1927-1948.

SCHACK, de

Poesía y arte de los árabes en España y Sicilia. 3a edición. Traducción española de Juan Valera. Sevilla 1881.

SECO DE LUCENA, Luis

La Granada nazarí del s. XV. Granada, 1977.

El Hayib Ridwan, la Madraza de Granada y las murallas del Albayzin. Al-Andalus. Vol. XXI. 1956. pp. 285-296.

El título profesional de un médico del s. XV. Miscelánea de Estudios Arabes y Hebraicos. Granada, 1954.

Notas de la Arquiologia de Granada (Cuadernos de Alhambra No 6 MCMLXX).

SIMONET

Descripción del Reino de Granada bajo los nazaritas. Madrid, 1860.

SOLDEVILA, F.

Historia de Espana. Barcelona, 1959.

SOPENA

Geografía de Espana. 2 volúmenes. Barcelona, 1974.

SUAREZ FERNANDEZ, Luis

Manual de Historia Universal. Vol. III. Edad Media. Madrid, 1972.

Historia de Espana. Edad Media. Madrid, 1970.

SOUFI, Khalid

Los Banu Yahwar en Córdoba 1031-1070 de J.C. y 422-562 H. Real Academia de Córdoba, 1968.

TERES, Elías

Ensenanzas de Ibn Hazm en la «Yadwad al-Muqtabis». Al-Andalus, XXIX (1964).

Linages árabes en al-Andalus. Al-Andalus XXIII. Fasc. I. 1958.

TERRON ALBARRAN, Manuel

El solar de los Aftasíes. Aportación temática al estudio del Reino moro de Badajoz. siglo XI. Badajoz, 1971.

TORRES BALBAS, Leopoldo

Ciudades hispano-musulmanas. 2 tomos. Ministerio de Asuntos Exteriores (I.H.A.C.). Madrid.

La mezquita de Córdoba y las ruinas de Maḍinat al-Zahra.
No 13 de los monumentos de Espana. Madrid, 1960.

Bab al sadda y las zudas de Espana. Al-Andallus, XVII
1952. 165-175.

al Madina al Zahira : la ciudad de Almanzor. Al-Andalus,
XXI, 1956. p. 254.

TRITTON, A.

Muslim education in the Middle Ages. London, 1957. p.
102.

TURK, Afif

El Reino de Zaragoza en el s. XI de J.C. (V. de H.). Madrid,
1978.

TURKI, Abdelmagid

Polémiques entre Ibn Hazm et Bagi sur les principes de la
loi musulmane (Essai sur le littéralisme zahirite et la fina-
lité malikite). Alger, 1975.

URVOY, Dominique

Le monde des ulemas andalous du V/XI au VII/XIII e s.
Géneve, 1978.

VERNET GINES, Juan

Historia de la ciencia espanola. Instituto de Espana. Câ-
tedra Alfonso X el Sabio. Madrid, 1975.

Los musulmanes espanoles. Barcelona, 1961.

El Coran Traducciôn, introducciôn y notas. 3a ediciôn.
1973. Barcelona.

La cultura hispano-ârabe en Oriente y Occidente. Barce-
lona, 1978.

VIGUËRA, Ma Jesús

El Musnad : hechos memorables de Abu l-Hasan, sultân de
los Benimerines. Madrid, 1977.

VILA VALENTI, Juan

La Península Ibérica (Traducción castellana). Barcelona, 1968.

VILLANUEVA, Carmen

Habices de las mezquitas de la ciudad de Granada y sus alquerías. Madrid, 1961.

Casas, mezquitas y tiendas de los habices de las iglesias de Granada. Madrid, 1966.

Râbitas granadinas. Miscélanea de Estudios ârabes y hebraicos. 1954. pp. 79-86.

محتويات الكتاب

رقم الصفحة	الموضوع
٥	تقديم ، للدكتور عبد الفنى عبود
٤٥	الاهداء
٤٧	ملاحظة توضيحية
٤٩	المقدمة
٥٩	تمهيد : المسرح الجغرافى
٦٣	الباب الأول : الدولة والتعليم فى الأندلس
٦٥	الفصل الأول : منذ الفتح الى نهاية الدولة الأموية
٦٥	(أ) مقدمة
٧١	(ب) التعليم فى عصر الولاة
٧٦	(ج) عصر الامارة
٨١	انتشار المذهب المالكى
١٠٧	(د) عصر الخلافة
١٤٣	(هـ) الدولة العامرية
١٥٣	قرطبة الخلافة
١٦٨	الفصل الثانى : منذ سقوط الدولة الأموية الى سقوط غرناطة
١٦٨	(أ) عصر الطوائف
١٧٢	(ب) المرابطون والموحدون
١٨٠	(ج) الدولة النصرية
١٨٧	الفصل الثالث : بعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم فى الأندلس
١٩٥	أولا - التدخل فى المنهج التعليمى
١٩٩	ثانيا - التدخل فى شئون المعلمين
٢٠٤	ثالثا - الاشراف على أماكن التعليم وعلى انتظامه
٢٠٦	رابعا - استقبال المعلمين المشرقيين فى الأندلس
٢٠٧	خامسا - بناء الأماكن التعليمية
٢٠٩	الباب الثانى : المراحل التعليمية فى الأندلس
٢١١	مقدمة
٢١٣	المراحل التعليمية حسب المنهج التعليمى
٢١٤	المراحل التعليمية حسب مكان الدراسة

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الرابع : المرحلة التعليمية الاولى	
المكان	٢١٥
دور المنزل	٢١٥
المكتب	٢١٧
المكتب في الاندلس	٢١٨
أماكن وجود المكتب	٢٢٠
سن الذهاب الى المكتب	٢٢٤
المنهج التعليمي في المرحلة الاولى	٢٢٨
طريقة ابي بكر بن العربي في التربية	٢٣٨
طريقة التعليم في المكتب	٢٤١
بعض النواحي التربوية في المرحلة الاولى	٢٤٦
المعلمون	٢٤٩
اجرة التعليم	٢٥٦
تعليم البنات في المكتب	٢٦١
الفصل الخامس : المرحلة التعليمية الثانية	
اماكن التعليم في هذه المرحلة	٢٦٣
(أ) المنزل	٢٦٣
(ب) المسجد	٢٦٦
المنهج الدراسي	٢٨٠
١ - العلوم الدينية	٢٨١
علم التفسير	٢٨٤
علم القراءات القرآنية	٢٨٥
الفقه	٢٩٤
علم الحديث	٣٠٠
علم الكلام	٣٠٥
٢ - العلوم اللسانية :	٣٠٩
اللفظة	٣١٠
النحو	٣١٣
علم البيان	٣١٨
الادب	٣١٩
٣ - العلوم العقلية	٣٢٥
(أ) المجموعة الطبية	٣٢٧
١ - علم الطب والصيدلة	٣٢٧

رقم الصفحة	الموضوع
٣٣١	٢ — علم النباتات
٣٣٢	(ب) العلوم البحتة
٣٣٦	(ج) العلوم الفلسفية
٣٣٧	(د) العلوم الاجتماعية
٣٤٧	طرق التعليم في المرحلة الثانية
٣٤٧	١ — الاقراء
٣٤٨	٢ — الاملاء
٣٤٩	٣ — المناظرة والحوار
٣٥٢	أوقات التعليم
٣٥٤	حلقات التعليم
٣٥٩	المعلمون في المرحلة الثانية
٣٦١	أجر المعلمين في المرحلة الثانية
٣٦٤	ملابس المعلمين
٣٦٥	الصلة بين المعلم والطالب
٣٦٨	تعليم النساء في المرحلة الثانية
٣٧٠	الفصل السادس : المرحلة التعليمية الثالثة
٣٧٣	نظام المدرسة في الاسلام
٣٧٨	المدرسة في الاندلس
٣٨٥	المدارس المؤكدة
٣٨٥	١ — مدرسة مرسية
٣٨٦	٢ — مدرسة مالقة
٣٨٨	٣ — بدايات المدارس في غرناطة
٣٨٩	(١) المدرسة النصرية
٣٨٩	مؤسس المدرسة النصرية
٤٠٠	بعض أساتذة المدرسة النصرية
٤٠٨	(ب) مدارس غرناطية أخرى غير النصرية
٤٠٩	الرحلات
٤١٤	الاجازات العلمية
٤٢٣	الباب الثالث : التعليم الخاص
٤٢٥	مقدمة
٤٢٩	الفصل السابع : مظاهر الاهتمام بتعليم الخاصة
٤٢٩	أولا : اهتمام خاصة الاندلس بتعليم أبنائهم

الموضوع	رقم الصفحة
(أ) اختيار المؤدب علميا وخلقيا	٤٢٩
(ب) الاهتمام براحة المعلمين واکرامهم	٤٣٤
(ج) الاحتفال ببدايات جلوس ابنائهم الى العلم ، ومتابعة تعليمهم	٤٣٥
(د) المساهمة في وضع المنهج التعليمي لابنائهم	٤٤٠
ثانيا : أماكن تعليم الخاصة	٤٤١
تعليم الوصفاء	٤٤٧
تعليم الرهائن	٤٤٧
ثالثا : المنهج التعليمي لتلك الفئة	٤٤٩
دور النساء	٤٥٣
بعض الجوانب الأخرى	٤٥٦
الفصل الثامن : اهتمام الخاصة بالتعليم	٤٥٩
خاتمة	٤٦٧
بعض ملاحق الرسالة	٤٧٦
١ — آراء ابن سحنون في أجرة معلمى الكتاب	٤٧٦
٢ — رأى القابسى في أجر معلمى الكتاب	٤٧٦
٣ — عقد أجارة معلم	٤٧٨
٤ — عقد أجارة مؤدب	٤٨١
٥ — وثيقة شركة معلمين	٤٨٢
٦ — وثيقة استئجار مؤدب عربية	٤٨٣
٧ — كيف ينص على وقفية كتاب في المسجد لصالح الطلبة والدارسين	٤٨٣
٨ — رسالة من طالب الى استاذہ	٤٨٤
مصادر الكتاب ومراجعہ	٤٨٧
المخطوطات والرسائل غير المنشورة	٤٨٧
المصادر الأصلية	٤٨٨
الدراسات والأبحاث الحديثة	٤٩٨
المراجع غير العربية	٥٠٥

سلسلة (مكتبة التربية الاسلامية)

تصدرها : دار الفكر العربى
ويقدم لها : دكتور عبد الفنى عبود

صدر منها :

- ١ — التربية الاسلامية ، فى القرن الرابع الهجرى — تأليف الدكتور
حسن عبد العال — ١٩٧٨ .
- ٢ — فلسفة التربية الاسلامية ، فى القرآن الكريم — تأليف الدكتور
على خليل — ١٩٨٠ .
- ٣ — نظام التربية الاسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر — تأليف
على سالم النباهين .
- ٤ — تاريخ التعليم فى الاندلس — تأليف الدكتور محمد عبد الحميد عيسى .

الكتاب التالى من السلسلة

- فلسفة التربية الاسلامية ، فى الحديث الشريف — تأليف عبد الجواد
السيد بكر .

صفحة

٤٢٩

٤٣٤

٤٣٥

٤٤٠

٤٤١

٤٤٧

٤٤٧

٤٤٩

٤٥٣

٤٥٦

٤٥٩

٤٦٧

٤٧٦

٤٧٦

٤٧٨

٤٨١

٤٨٢

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

٤٨١

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٢ / ٢٥٦١

طبعة الاستقلال الكبرى
٨ شارع نجيب الريحاني - القاهرة
تليفون: ٧٤٤٠٧٦ - ٧٤١٦٩٨